

محاضرات
حول مقتضيات الشهادة بأنه

الإمام محمد رسول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

ألقاها العلامة الإمام الشيخ
عبد الله سراج الدين الحسيني

جمعها وقدمها
ولده الدكتور المهندس الشيخ
محمد محيي الدين سراج الدين
رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

اعتنى بها
خادم العلم الشريف
د. بكرى السَّمان

أيها القارئ الكريم

هَبْ ثواب قراءتك سورة الفاتحة

إلى مولانا العلامة الإمام

الشيخ عبد الله سراج الدين الحسيني

وإلى ولده الدكتور المهندس الشيخ

محمد محيي الدين سراج الدين

رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

وجزاك الله خيراً

الموقع الرسمي والوحيد للشيخ الإمام

www.srajaldeen.com

حيث يمكنك تحميل جميع الكتب

من قسم مؤلفات الإمام – المؤلفات المكتوبة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علّمتنا إنك أنت العليم الحكيم، أما بعد:

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري قال بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

[بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان]^١.

هاتان الشهادتان شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم هما أصل أصول الإيمان، وعنهما تتفرع جميع شعب الإيمان.

فما معنى: (لا إله إلا الله)، وماذا يتوجب على الشاهد بها؟

وما الدليل على أنه (لا إله إلا الله)؟

أما معنى (لا إله إلا الله) فهو: لا معبود حقاً يُعبد بحق إلا الله وحده لا شريك له، فهو الإله أي: المعبود حقاً، فهو حقاً إله، وحقاً يُعبد.

فلمّ وجب على عباده أن يعبدوه جل وعلا؟

ولمّ كانت العبادة حقاً له سبحانه على عباده؟

نعم لأنه سبحانه هو الإله الربّ الخالق الرازق، وجميع الناس عباد له،

خلّقهم هو سبحانه، وحقُّ على المخلوق أن يعبد خالقه، ولا يجوز لمخلوق أن يعبد غير الذي خلقه.

^١ صحيح البخاري كتاب الإيمان

وفي هذا يقول سبحانه: (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم) أي: وخلق الذين من قبلكم، فأنتم مخلوقون، إذ مرّ عليكم دهر طويل لم يكن لكم وجود، وكذلك آبؤكم وأجدادكم ومن قبلكم، إذ فاعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم (لعلكم تتقون).

وبعد أن ذكر سبحانه السُّكَّانَ ذَكَرَ المكان، وذَكَرَ رزقه للسكان فقال تعالى: (الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون).

فهو سبحانه خالقكم وهو رازقكم فاعبدوه، ولا مِثْلَ لكم عليه جل وعلا بل أنتم تقومون بواجبكم.

وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم أن الإنسان إذا عَبَدَ الله تعالى فقد قام بالواجب عليه فقال صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه -وكان خلفه على الدابة:-

[يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ قَالَ: قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، فَقَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوهُ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ^١.

وفي رواية: [أن يغفر لهم]^٢، وفي رواية: [أن يدخلهم الجنة]^٣.

وكلّ هذه المعاني متلازمة.

^١ صحيح البخاري كتاب اللباس

^٢ مسند الإمام أحمد ٢١٠٣٠

^٣ المعجم الكبير للطبراني واللفظ له والمسند ٢١٠٥٨

يعني أن الله حقاً ذاتياً على عباده أن يعبدوه جل وعلا ، وهو سبحانه تفضل عليهم وأوجب على نفسه فضلاً وكرماً منه سبحانه أن يدخلهم الجنة إن هم عبدوه ولم يشركوا به شيئاً.

ومن هذا يفهم الإنسان أن الله سبحانه ما خلق الجن والإنس وكلفهم بالشريعة إلا ليكرمهم بعبادته ليستعدوا ويتأهلوا للحلول بجواره جل وعلا في الجنة في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

وليست أوامر الشريعة لإحراج العباد والتضييق عليهم، فإن هذا يدل على قصور فهم ونقص عقل من يظنه، إذ لا غاية لله تعالى عند عباده أن يشدد عليهم، وهو جل وعلا ما خلقهم ليعذبهم، قال جل وعز: (ما جعل عليكم في الدين من حرج) .

وقال جلّ وعلا: (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً).

وقال تعالى: (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج).

أي: ما يريد الله فيما شرعه لكم أن يخرجكم ويشق عليكم (ولكن يريد ليظهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون).

ومن تمام النعمة عليكم أن يدخلكم الجنة، ولا بدّ لدخول الجنة من تهَيُّؤ واستعداد وذلك بعبادة الله سبحانه.

وقد بيّن سبحانه وتعالى أن العبادات هي انصبغات نورانية إلهية ينصبغ بها العابد وتُكَيِّفه بكيفية ترقّ وعلو.

قال تعالى: (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون).

أي: إن أعبد العابدين من الأمم هم أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وأعبدُ خلق الله على الإطلاق هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وقوله تعالى: (صبغة الله) أي: اذكروا والزموا صبغة الله وهي العبادة بأنواعها القلبية والعملية والقولية والخُلُقِيّة.

وإن لكل نوع من أنواع العبادات لوناً من الأنوار ينصبغ به العابد،
ومن شأن الصَّبَاغ أن يزيل الشَّين والقبح من المصبوغ، ويُظهر اللون
الحسن الجميل، وهذا معنى وسرّ التكليف الشرعية أنها تخلية وتحلية،
فكل عبادة تزيل عن الإنسان عيوباً ونقائص ورذائل، وتحلّيه بمكارم
وفضائل ومحاسن.

وأهم العبادات التي تقرب إلى الله تعالى الصلاة، وإذا عرف المصلّي أسرار
الصلاة وآثارها فيه وجد لها حلاوة في أدائها، وخشع فيها واطمأن إليها.
ولقد ذكر سبحانه الصلاة في القرآن الكريم أكثر من مئة مرة، ما بين أمرٍ
بها وثناءٍ على فاعلها، وإخبار عن أجر المصلّين.
أما مقدمة الصلاة فهي الوضوء، وهو عبادة مقدمة بين يدي الصلاة.
وقد أمر سبحانه بالوضوء بقوله جل وعلا:

(يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى
المرفق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين).

وإن الوضوء من جملة العبادات التي أمر الله بها، وكل عبادة تنطوي على
تخلية عن النقائص والرذائل، وتحلية بالفضائل، فالوضوء يطهر
المتوضئ من الدّنس حتى يصير وضئاً أي نظيفاً، ويطهر صاحبه من
الذنوب، ففي الحديث: [إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ فَتَمَضَّمْضَ خَرَجَتْ
الْخَطَايَا مِنْ فِيهِ، وَإِذَا اسْتَنْثَرُ خَرَجَتْ الْخَطَايَا مِنْ أَنْفِهِ، فَإِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ
خَرَجَتْ الْخَطَايَا مِنْ وَجْهِهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَشْفَارِ عَيْنَيْهِ، فَإِذَا غَسَلَ
يَدَيْهِ خَرَجَتْ الْخَطَايَا مِنْ يَدَيْهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِ يَدَيْهِ، فَإِذَا
مَسَحَ بِرَأْسِهِ خَرَجَتْ الْخَطَايَا مِنْ رَأْسِهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ أُذُنَيْهِ، فَإِذَا غَسَلَ
رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ الْخَطَايَا مِنْ رِجْلَيْهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِ رِجْلَيْهِ، قَالَ:
ثُمَّ كَانَ مَشْيُهُ إِلَى الْمَسْجِدِ وَصَلَاتُهُ نَافِلَةً لَهُ]¹.

¹ موطأ الإمام مالك كتاب الطهارة ومسنَد الإمام أحمد ١٨٢٨٥

ومعنى : [فَإِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَتْ الْخَطَايَا مِنْ وَجْهِهِ]: أي: ذنوب البصر والسمع واللسان والشم، فإذا توضأ المؤمن فقد تخلّى عن الذنوب الصغائر، أما الكبائر فلا بد لها من توبة خاصة ، وكذلك حقوق العباد .

ولما محيت الذنوب لم يبق بين المتوضئ والجنة مانع، ففي الحديث: [مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ قَالَ: "أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ" فُتِّحَتْ لَهُ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ]¹.

وإذا كانت ذنوب العبد كثيرة لم يطهر منها بوضوئه جاءت صلاته لتكفر عنه وتطهره أيضاً.

وإن أنوار الوضوء يراها أهل القلوب البصيرة، وفي عالم البرزخ تظهر على الكل، وأما في عالم الحشر عند الورود على حوض رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن علامة المحمدي المتوضئ نور في وجهه وعلى أطرافه كما قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه الكرام رضي الله عنهم : [لَكُمْ سِيَمًا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ غَيْرِكُمْ، تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ]².

وقوله صلى الله عليه وسلم : [غُرًّا]: جمع أَغْرَ وهو الأبيض المنير الوجه، والتحجيل أنوار على الأيدي والأرجل التي أصابها ماء الوضوء في الدنيا. وروى النسائي قوله صلى الله عليه وسلم : [تَبْلُغُ حِلْيَةُ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ]³.

أي: يمتد النور إذا زاد المتوضئ الغسل ما فوق الكعبين وما فوق المرفقين وهكذا ..

وأما الصلاة ففيها تخلية وتحلية، فهي تخلّي المصلي عن العيوب والذنوب بمقدار خشوعه وحضوره، وتفترج عنه الكروب .

¹ سنن الترمذي كتاب الطهارة

² طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الطهارة

³ سنن النسائي كتاب الطهارة

أما أنها تطهر المصلي من العيوب أي الأخلاق الذميمة، فقد قال تعالى:
(إن الإنسان خلق هلوياً * إذا مسّه الشرّ جزوعاً * وإذا مسّه الخير منوعاً *
إلا المصلّين *الذين هم على صلاتهم دائمون).

لذلك فإن المصلي الذي يخشع في صلاته مقيماً لها كما أمره الله تعالى
يبقى واسع الصدر سخي النفس حسن الأخلاق، لأن الصلاة تُجمل وتكمل
صاحبها.

وكذلك الصلاة تخلي صاحبها من الذنوب كما قال تعالى:

(إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)وهذه تخلية (ولذكر الله أكبر)
وهذه تحلية، فيذكر المصلي ربه، والله يذكره ، وإن ذكر الله تعالى عبده
أكبر من ذكر العبد له .

وإذا رأيت مصلياً تصدر منه بعض الذنوب والمخالفات فلا ينافي هذا قوله
تعالى : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) إذ إن صلاته نهته - على
الأقل - عن الفحشاء والمنكر حين أداها وقام بها .

وكما حضر الإنسان في صلاته وخشع فيها لله تعالى أعطته وقاية من
الوقوع في الفحشاء والمنكر، وهكذا تعطيه كل صلاة مكتوبة مناعة
ووقاية من الفحشاء والمنكر حتى يحين وقت الصلاة المكتوبة الأخرى
وهكذا..

ومن زعم أن صلاة من يقع في الذنوب لا تنفعه فلم يصلي؟

فيقال في الجواب: روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :
[جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن فلاناً يصلي بالليل فإذا
أصبح سرق، فقال صلى الله عليه وسلم: إنه سيئها ما يقول]^١.

أي: لا بد له يوماً أن يتوب من السرقة، ولم يأمره صلى الله عليه وسلم
بترك الصلاة ، ولم يقل له: "إنها ليست مقبولة".

وإن الصلاة تنفع المصلي وتكفر عنه ذنوبه الصغائر ففي الحديث قال صلى الله عليه وسلم:

[أَتَذُرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا]

وهذه ذنوب كبيرة ، فلم يقل النبي صلى الله عليه وسلم: " إن صلاته لم تنفعه " ، بل بيّن أنها من جملة الحسنات التي يجري التقاضي فيها فقال صلى الله عليه وسلم : [فَيُعْطَى هَذَا] وهو من أصحاب الحقوق عليه

[مِنْ حَسَنَاتِهِ] أي: من حسنات صلاته وصيامه وزكاته وحجّه وهكذا [وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ]^١.

وأما أن الصلاة تفرّج الكرب ففي الحديث يقول حُذِيفَةُ رضي الله عنه : [كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ] أي: أَهَمَّهُ [صَلَّى]^٢. وفي الصلاة تحلية المصلي بذكر الله تعالى، والله تعالى يذكره كما قال تعالى: (فاذكروني أذكركم).

وإن ذكر الله تعالى عبده هو أعظم وأكبر ثواباً وفضلاً من ذكر العبد ربّه وفي هذا يقول سبحانه:(وأقم الصلاة لذكركي) أي : من أجل أن تذكرني وأذكرك، فالمصلي يناجي ربه، وهو سبحانه يناجيه.

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم قال: يقول الله عز وجل : [قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ]-وفي رواية: [شطرين]- [فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اقْرَءُوا، يَقُولُ الْعَبْدُ: { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: حَمِدَنِي عَبْدِي.

^١ صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب

^٢ المسند ٢٢٢١٠

يَقُولُ الْعَبْدُ: { الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ }

يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَتَى عَلَيَّ عَبْدِي.

يَقُولُ الْعَبْدُ: { مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ }

يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَجَّدَنِي عَبْدِي.

يَقُولُ الْعَبْدُ: { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }

فَهَذِهِ الْآيَةُ بَيِّنِي وَبَيِّنْ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ.

يَقُولُ الْعَبْدُ: { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } فَهَؤُلَاءِ لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ.^١

أي: سألني الهداية فأنا أهديه، والهداية تقبل الزيادة كما قال تعالى :
(ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) .

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: [يا عبادي كلكم ضالٌّ إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم]^٢ أي : هدى فوق هدى، وفي هذا تثبيت للهداية الحاصلة وزيادة في الهدى.

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم قال:
[إن أحدكم إذا قام يصلي إنما يقوم يناجي ربه ، فلينظر كيف يناجيه]^٣
أي : ليلاحظ وقوفه بين يدي ربه تعالى بقلب حاضر.

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم قال: [إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ وَأَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ] وذكر صلى الله عليه وسلم منهن: [وَأَمُرْكُمْ بِالصَّلَاةِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لَوَجْهِ عَبْدِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا]^٤.. الحديث أي : فإذا أعرض أعرض الله عنه .

^١ سنن النسائي كتاب الافتتاح والرواية له وصحيح مسلم كتاب الصلاة

^٢ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب

^٣ صحيح ابن خزيمة كتاب الصلاة

^٤ المسند ١٦٥٤٢

والصلاة تعدّ وتؤهل المصلي أن يرى ربّه عياناً يوم القيامة، لأنه كان في الدنيا يبذل جهده في مشاهدة ربه بقلبه في صلاته وعباداته.

جاء في الحديث عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

[كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَنَظَرُ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةً يَعْنِي الْبَدْرَ فَقَالَ: إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ] أي: من حيث الظهور، وإلا فإنه سبحانه منزّه عن الجهة والصورة والكيفية والهيئة.

[فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلِ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا، ثُمَّ قَرَأْ: { وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلِ الْغُرُوبِ }]¹.

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم:

[والصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء]².

¹ انظر صحيح البخاري كتاب مواقيت الصلاة

² طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الطهارة

الصلاة تكفر الذنوب

الصلاة تكفر الصغائر على قدر خشوع المصلي لربه جل وعلا وحضور قلبه، وإذا صلى المصلي صلاة الأوابين الخاشعين ، وضمن صلاته توبة إلى الله تعالى من الكبائر غفر الله له وتاب عليه بسببها ، أما حقوق العباد فلا بُدَّ من أدائها أو سماحهم وعفوهم .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:
[أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟] - وفي رواية : [ما تقول ذلك يبغي من درنه؟] -^١
[قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا]^٢.

تنبيه : لقد تردّد على ألسنة الناس حديث :

[من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلا بُعداً]^٣.

فيقال : إن هناك خلافاً بين المحدثين هل هذا الحديث مرفوع أو موقوف؟

ثم على فرض ثبوت هذا الحديث فإنه يُحمل على الذين يصلّون نفاقاً أو رياءً لأنهم في حال صلاتهم لم ينتهوا عن الفحشاء والمنكر، فذلك المنافق قام يصلي ليحسبه المؤمنون منهم مع أنه كافر بفرضية الصلاة أصلاً، وكذلك المرأي قام للصلاة حتى يري الناس أنه مصلٍّ ، وربما صلى بلا وضوء ، والله أعلم بصلاته ، فمثل هذا حتى في صلاته هو منافق أو مُراء فلم يزد من الله إلا بُعداً ولم تنفعه صلاته.

^١ صحيح البخاري كتاب مواقيت الصلاة

^٢ صحيح مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة

^٣ كما في المعجم الكبير للطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً، وهو في شعب البيهقي موقوف على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : [من لم تأمره صلاته بالمعروف ولم تنهه عن المنكر لم يزد من الله إلا بُعداً].

وأما من يرتكب المعاصي ويقوم إلى الصلاة فإن صلاته تنفعه كما تقدّم في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

[جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن فلانا يصلي بالليل فإذا أصبح سرق، فقال صلى الله عليه وسلم: [إنه سينهاه ما يقول]^١.

وجاء في حديث الشفاعة لأهل الكبائر الذين لم تنلهم الشفاعة لكثرة ذنوبهم فدخلوا جهنم: [وحرّم الله على النار أن تأكل أثر السجود]^٢.

مما يدلّ على أن صلاة هؤلاء الفسقة قد نفعتهم، وخففت عنهم العذاب ثم خرجوا بشفاعة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن تنتهي مدة عذابهم.

وإن من ذكره الله تعالى في الملاء الأعلى والملائكة المقربين ففي ذكره سبحانه إعلان وإعلام أن هذا العبد مؤمن وخاتمته الإيمان، ويحشر في أهل الإيمان، ويدخل الجنة بالإيمان .

ومن أسرار الصلاة أن الله تعالى شرع نوافل ومنها السنن القبلية والبعدية، ومن آثار السنن القبلية أنها تهيب المصلي للدخول في الفرض وهو حاضر القلب خالي الذهن ممّا سوى الله تعالى ، وجاءت السنن البعدية تكمل ما حصل في صلاة الفرض من نقص في خشوعها وآدابها .

وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال:

[إذا قام الرجل في صلاته أقبل الله عليه بوجهه، فإذا التفت قال: "يا ابن آدم إلى من تلتفت؟ إلى من هو خير لك مني؟ أقبل إليّ"، فإذا التفت الثانية قال مثل ذلك، فإذا التفت الثالثة صرف الله وجهه عنه]^٣.

فلاحظ أيها المصلي وقوفك بين يدي الله تعالى وأشهد قلبك ما يقول لسانك من تكبير وحمد وتلاوة قرآن كريم كي يحضر قلبك وتشاهد أنوار الله تعالى .

١ المسند ٢٠٩٤

٢ صحيح البخاري كتاب الأذان وصحيح مسلم كتاب الإيمان

٣ عزاه في كنز العمال إلى البزار

من أسرار التكبير في الصلاة

إن دخول العبد في الصلاة لا يكون إلا بقوله: (الله أكبر) وتسمى هذه التكبيرة تكبيرة الإحرام .

وقول العبد : (الله أكبر) أي : بالأكبرية المطلقة كما قال تعالى : (وكبره تكبيراً) .

أي : تكبيراً مطلقاً عن القيد، إذ له سبحانه الأكبرية المطلقة المنفرد بها سبحانه ، فليست أكبرية من حيث الجسم ولا من حيث الروح ولا من حيث الحجم، تعالى الله عن جميع ذلك جلّ وعلا .

إذاً لما يقول العبد : (الله أكبر) يلاحظ أن الله أكبر من جميع ما يتصور أي : أجلّ وأعظم من جميع ما يتصوره الإنسان، وإذا اعترف الإنسان بذلك فقال : (الله أكبر) يلاحظ أنه قد اضمحلّ في أكبريّته ، إذ إن كل ما دون الله متلاشٍ في كبرياء الله وعظمة الله جل وعلا .

ولهذا قالوا: من لاحظ سرّ قول (الله أكبر) في الصلاة أذهب الله عنه كبر النفس .

ثم يثني العبد على ربه سبحانه وتعالى ويحمده ويتوجّه بقلبه إليه جل وعلا كما توجّه بوجهه إلى الكعبة المشرفة، ثم يقرأ سورة الفاتحة لأنها أعظم سورة^١ وأجمع سورة لمعاني القرآن الكريم فقد أجملت فيها معاني القرآن وطويت كما أجملت الشجرة الكبيرة بغصونها وفروعها وأوراقها وأزهارها أجملت في النّواة وجُعِلت تحت التراب، ثم أظهرها الله تعالى وفصلها فصارت شجرة كبيرة، فهناك إجمال وتفصيل، فافهم .

^١ روى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال: [كنت أصلي فدعاني النبي صلى الله عليه وسلم فلم أجبه، قلت: يا رسول الله إني كنت أصلي، قال: ألم يقل الله (استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم)؟ ثم قال: ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد؟ فأخذ بيدي فلما أردنا أن نخرج قلت: يا رسول الله إنك قلت: لأعلمنك أعظم سورة من القرآن، قال: (الحمد لله رب العالمين) هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته].

فاتحة الفاتحة

افتتح الله تعالى سورة الفاتحة بقوله جل وعلا: (الحمد لله رب العالمين). وعند تلاوة العبد هذه الآية يجب عليه أن يلاحظ أنه يقرأ كلام الله تعالى فلما يقول: (الحمد لله) يعني أنه سبحانه يحمد نفسه، وإنَّ حمده سبحانه نفسه هو الحمد اللائق به جلّ وعلا، لأنَّ حمد المخلوق محدود على نسبة ما أعطاه الله تعالى إياه، ولا يمكن لأحد أن يحصي حمداً لله تعالى إلا هو جلّ وعلا، فحمده سبحانه نفسه هو الحمد اللائق به جل وعزّ.

فالعبد يتقرب بحمده إليه تعالى ويتقرب إليه بكلامه جلّ وعلا .

فلما يقول : (الحمد لله) أي: الحمد لله الذي ارتضاه هو جل وعلا لنفسه، يتقرب به العبد إليه سبحانه ويحمده به .

أما معنى (الحمد) فهو الثناء على الكمالات المتصف بها المحمود ، وتسمى هذه الكمالات المحامد، لأنها محاسن وصفات كمال يُحمد عليها جلّ وعلا .

والحمد يكون على قدر محامده جلّ وعلا، ومحامده وكمالاته سبحانه وتعالى لا نهاية لها فيعني ذلك أن حمده تبارك وتعالى لا نهاية له أيضاً. قوله تعالى: (الحمد لله رب العالمين)

تدل هذه الآية على أنه سبحانه يُحمد لكماله ويُحمد لنواله وعطائه .

فقوله تعالى: (الحمد لله) أي: وهو الله الذي له الأسماء الحسنى التي لا تُعدُّ ولا تُحصى، وهي أسماء صفاته وكمالاته التي لا تتناهى .

وهناك تسعة وتسعون اسماً لها خصوصية أن من أحصاها دخل الجنة كما بيّن^١ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم.

^١ جاء في الحديث الذي رواه الشيخان في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة].

إذاً: الحمد لله على قدر صفاته وأسمائه وكمالاته جل وعلا، وإن أسماءه سبحانه لا نهاية لها ، فلا نهاية لحمده تعالى إذاً ..

وهو جلّ وعلا يُحمد لنواله وعطائه، وهذا معنى قوله تعالى: (رب العالمين) أي : خالقهم ورازقهم وممدّهم بما فيه صلاح وجودهم وبقائهم، وإن تربيته سبحانه لهم قائمة على أساس رحمانيته بهم .
ولذلك قال تعالى: (رب العالمين * الرحمن الرحيم).

وقوله تعالى: (رب العالمين) فيه مظهر لعظمة الله وقدرته فهو رب العالمين ، والعالمون جمع عالم^١ ، ويشمل كل ما نراه بأعيننا أو نعلمه بعلمنا مما لم نَرَهُ ، كما جاءنا عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم معلّم الناس الخير ، قال تعالى في حقه صلى الله عليه وسلم :
(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)^٢.

^١ انظر تفسير الإمام الثعالبي ١ / ١٦٤

^٢ وانظر البحث في ذلك في كتابي : (حول تفسير سورة الفاتحة) و (هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان) لمولانا الشيخ الإمام رضي الله عنه .

معنى الإسلام

لقد اشترى الله تعالى من عباده أنفسهم وأموالهم، وأعلن لهم أن الثمن غالٍ عظيم هو جواره جلّ وعلا في الجنة، فتقدّم العقلاء وباعوا أنفسهم وأموالهم لله تعالى فوجب عليهم أن يسلموا المبيع وذلك بالاستسلام لأمر الله تعالى لهم.

وليس للبائع حق في أن يتصرف في المبيع بعد بيعه وعقده مع المشتري بل الحق في ذلك للمشتري، فأمرهم سبحانه أن يُصَلُّوا فَصَلُّوا، وأمرهم سبحانه أن يَزَكُّوا ففعلوا، وهكذا استسلموا لأمر الله تعالى ووضعا أنفسهم وأموالهم تحت أمره جلّ وعلا، وهذا معنى قوله تعالى في حق سيدنا إبراهيم عليه السلام: (إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلَمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لربِّ الْعَالَمِينَ) إِذَا أَمَرَهُمْ سَبَّحَانَهُ أَنْ يَعْبُدُوهُ ، وبين لهم شروط عقد البيع قال تعالى: (إِنْ اللَّهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ).

وشروط البيع بيّنها سبحانه بقوله: (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) .

ولم يشرع سبحانه لعباده أن يعبدوه لحاجته إلى عبادتهم، فهو جلّ وعلا غني عنهم قبل أن يخلقهم، وهو غني عنهم بعد ما خلقهم، ولكنه شرع لهم عبادته ليشرفهم ويقربهم ويكرمهم بالحلول في جواره جلّ وعلا في الجنة.

ولذلك فإن للعبادات آثاراً في العابد وانصبغات نورانية تظهر عليه، كما قال تعالى: (صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً).

قوله سبحانه في سورة الفاتحة: (اهدنا الصراط المستقيم* صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالّين)

فيه طلب للهداية والتوفيق لها بالمشي على الصراط المستقيم مع الذين أنعم الله عليهم وهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأنبياء الله الكرام عليهم السلام ومن اتبع النبي لأن من مشى مع الجماعة والتحق بركبهم صار على ثقة ويقين من أنه على الصراط المستقيم، وهذه المعية تمنح صاحبها الأمان فلا يقربه عدو ولا شيطان.

قوله تعالى: (غير المغضوب عليهم ولا الضالين)

فيه دخول العبد مقام التعوّد بالله تعالى من أن يُفَقَّن أو يَضِلَّ، أو أن يسلك طريق المغضوب عليهم أو الضالّين .

من معاني الصلاة وأسرارها

الركوع هو انحناء الظهر كله، مع ملاحظة الركاع أنه يركع لله تعالى عابداً له معظماً له جلّ وعلا ، وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم :

[أَلَا وَإِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا، فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظُمُوا فِيهِ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَمَّا السُّجُودُ فَاَجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ فَقَمِينٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ]¹.

لأن في السجود تقرباً من حضرة الرب جل جلاله، قال تعالى :
(واسجد واقترب) .

وكان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه :

[اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، أَنْتَ رَبِّي، خَشَعَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَدَمِي وَلَحْمِي وَعَظْمِي وَعَصَبِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ]².

ثم يرفع الركاع رأسه قائماً ويقول : "سمع الله لمن حمده" أي : يسمع سبحانه سماع قبول لمن حمده ، فيقول المصلي : "اللهم ربنا لك الحمد"³.

ثم يختر المصلي ساجداً لله وهو محض العبودية لله تعالى إذ يضع فيه الساجد أشرف أعضائه - وهو جبهته- على الأرض عبادة وانكساراً لله تعالى .

¹ صحيح مسلم كتاب الصلاة، ومعنى (فَقَمِينٌ) : أي : جدير

² سنن النسائي كتاب التطبيق

³ روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده فقولوا: اللهم ربنا لك الحمد، فإنه من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه].

وكان صلى الله عليه وسلم^١ يقول في سجوده :

[اَللّٰهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ، وَلَكَ اَسْلَمْتُ، وَبِكَ اَمَنْتُ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ
وَصَوَّرَهُ فَاَحْسَنَ صُوْرَتَهُ وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، تَبَارَكَ اللهُ اَحْسَنُ
الْخَالِقِيْنَ]^٢.

وتفكر أيها العاقل في كلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي
آتاه الله جوامع الكلم، وفيه بيان عظمة الله وقدرته جل وعلا.

فإذا نهض العبد المصلي من سجوده جلس للتشهد- وهو دخول في
حضره إلهية خاصة-، وكأنه قيل للمصلي : ادخل إلى حضرة رب العالمين
بعد ما طرقت الباب ، وتقربت بالسجود، وفي حضرة رب العالمين يجد
سيّد أهل الحضرة وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ويجد جميع
عباد الله الصالحين فيبدأ دخوله بتحية رب الحضرة جلّ وعلا ، فيقول :
[التحيات لله والصلوات والطيبات]^٣ ثم يحيي إمام أهل الحضرة ، فيسلم
على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم على جميع أهل الحضرة
من عباد الله الصالحين رضي الله عنهم أجمعين .

وليلاحظ المصلي في قوله: [التحيات لله] : أي تحيات أعظم من حيّاك
يا ربّ العالمين ، وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ونحن من أمته
فنحييك بالتحيات التي حيّاك صلى الله عليه وسلم بها .

[والصلوات] : أي : صلوات المصلّين من أهل العرش والفرش ،
وأعظمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

^١ رواه الإمام النسائي

^٢ سنن النسائي كتاب التطبيق

^٣ جاء في صحيح البخاري كتاب الأذان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال :
[كنا إذا صلينا خلف النبي صلى الله عليه وسلم قلنا: السلام على جبريل وميكائيل،
السلام على فلان وفلان، فالتفت إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:
إن الله هو السلام فإذا صلى أحدكم فليقل: "التحيات لله والصلوات والطيبات،
السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين"
فإنكم إذا قلتموها أصابت كل عبد لله صالح في السماء والأرض "أشهد أن لا إله إلا
الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله"] .

[والطيبات] أي : القولية من تسبيح وتحميد وتهليل ، وأطيب من تطيب بالطيبات القولية سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم يسلم على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم سلاماً خاصاً به لأنه لولاه ما عرفنا الله جل وعلا ، ولولاه ما عرفنا عبادة الله تعالى ، ف جاء السلام عليه صلى الله عليه وسلم قياماً بالواجب وأداء الحق له صلى الله عليه وسلم ، وقد قال تعالى : (صلّوا عليه وسلّموا تسليماً) .

ثم هناك السلام على عباد الله تعالى الصالحين كلهم ، مع ملاحظة أولئك الذين أرادهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بسلامه لما قال :
[السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين]

وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم :

[فإنكم إذا قلتموها أصابت كل عبد لله صالح في السماء والأرض] .

ثم يأتي مقام الإشهاد ، فيعلن المصلي شهادته ويشهد عليها رب العالمين جلّ وعلا ، ويشهد عليها سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ، ويشهد عليها جميع عباد الله الصالحين ، فيشهد أنه لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويشهد الله سبحانه ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم وعباد الله الصالحين على ذلك حتى يشهدوا له يوم القيامة أنه من الشاهدين ، ثم قيل للمصلي وهو في حضرة الله تعالى :
" سل ربك واطلب منه " ، فيروح يدعو أولاً لمن هداه إلى الله تبارك وتعالى وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وذلك بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم ، ثم يدعو لنفسه بما ورد من أدعية نحو ما جاء في الآية :

(رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) وغيرها مما علّمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم^١ .

^١ قال البهوتي الحنبلي في شرح منتهى الإرادات ٢٠٣/١ : (وَإِنْ دَعَا) فِي تَشْهَدِهِ الْآخِرِ (بِمَا وَرَدَ فِي الْكِتَابِ) أَيِ : الْقُرْآنِ نَحْوَ (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) فَلَا بَأْسَ ، (أَوْ) دَعَا بِمَا وَرَدَ فِي (السُّنَّةِ) نَحْوَ : [اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا ، وَلَا يَغْفِرُ الذَّنْبَ إِلَّا أَنْتَ ، فَاعْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ ،

وهكذا يبدأ المصلي بالدعاء لمن هو أولى به من نفسه، وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال الله تعالى في حقه :
(النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم)

ويمثل المصلي أمر الله تعالى الذي جاء في قوله جل وعلا :
(صلّوا عليه وسلّموا تسليماً) .

وعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما سأله بعض الصحابة رضي الله عنهم عن كيفية الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم قال:

[قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ فِي الْعَالَمِينَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ]^١

وأولى ما يجب أن تكون هذه الصلاة في صلاة الإنسان لربه كما علّمنا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإن المؤمن مكلف أن يعظم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ويوقره ، ومن جملة ذلك أن يذكره بلفظ السيادة ، فليقل : "اللهم صلّ على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم" .

وإن صلاة المؤمنين على رسول الله صلى الله عليه وسلم هي قرينة لهم إلى الله تعالى، ويرجع خيرها إليهم، وليلاحظ المؤمن ذلك في صلاته على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وليلاحظ في قوله [اللهم صلّ على سيدنا محمد] أي : صلاة تليق بمقامه العظيم عندك، وهو أنه حبيب الله الأعظم .

وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ] مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ الصَّدِيقِ لَمَّا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ].
^١ سنن الترمذي كتاب الدعوات

[كما صلّيت على سيدنا إبراهيم] أي : صلاة لائقة به عليه الصلاة والسلام وبمقامه الكريم ، وهو أنه خليل الله تعالى ، وإن أكرم الأولين والآخرين على الله هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

العبادة تهییء العابد وتشرفه وتقربه من حضرة رب العالمین

إن الله تعالى خَلَقَ الخلق وشرع لهم أن يعبدوه كي يكرمهم ويشرفهم
ويقربهم ويحبهم، فإن أحبهم أحلهم في دار كرامته وفي جواره في مقعد
صدق عند ملك مقتدر .

وليس في العبادة إحراج وتضييق على الإنسان، قال تعالى :
(ما جعل عليكم في الدين من حرج) .

وهو سبحانه غني عن الخلق وعن عباداتهم ، فكما كان غنياً عنهم قبل أن
يخلقهم ، فهو جل وعلا غني عنهم بعدما خَلَقَهُمْ ، وهو كما هو جلّ وعلا.
وفي الحديث القدسي يبين ذلك سبحانه بقوله :

[يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً فلا
تظالموا] أي : لا يظلم أحدكم نفسه ولا غيره .

[يا عبادي كلّم ضالّ إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ،
يا عبادي كلّم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم] .

[يا عبادي كلّم عارٍ إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم]

أي : نزل الإنسان من بطن أمه عارياً فكساه الله بواسطة والديه ،
وفي ذلك كله يبيّن سبحانه لعباده أن يطلبوا حاجاتهم منه سبحانه ،
وأن يسألوه جميع رغباتهم .

[يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً ،
فاستغفروني أغفر لكم] أي: إنكم معرّضون للخطأ والذنب دائماً .

وليس لأحد أن يزعم أنه لا ذنب له ، فهو لا يزني ولا يسرق ولا يشرب الخمر وهكذا .

فيُقال له: إذا جلست وحدك ورحت تظن بفلان كذا وكذا من المساوئ فقد وقعت في كبير الذنوب، ولو جال فكرك في تدابير الله في خلقه واعترضت على قضاء الله في خلقه لوقعت في الكبائر، وكل ذلك ونحوه من الذنوب فاستغفر الله منها وتب إلى الله تعالى .

[يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضريّ] بفتح الضاد [فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً] .

وإن أتقى العالمين لرّب العالمين هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال : [أمّا والله إني لأتقاكم لله وأخشاكم له]^١ مما يدل على أن الله غنيّ عن عبادة الخلق كلهم .

[يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد] أي : على فجور إبليس اللعين [ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم قاموا في صعيد واحد فسألوني] أي: سألني كل واحد منهم حاجاته كلّها .

[فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط] أي: الإبرة [إذا أدخل البحر] وهذا من باب ضرب المثل ليقرب إلى العقل لأن نسبة المتناهي مهما كانت كبيرة فهي بالنسبة إلى ما لا يتناهي لا تعدل شيئاً أبداً .

[يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفّيكُم إيّاها] أي: جزاءها [فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومَنَّ إلا نفسه]^٢.

^١ صحيح مسلم كتاب الصيام

^٢ صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب

أي: فلا حجة ولا عذر لك عند الله طالما أنه سبحانه أعطاك عقلاً
واختياراً، وأنزل الكتب وأرسل الرسل ويّٰن للناس الخير من الشرّ ، والهدى
من الضلال وهكذا .

سرّ العبادة

العبادة صفة ملازمة للعبد لا تنفك عنه طالما أنه عبد لله تعالى،
خَلَقَهُ اللهُ سبحانه، وهو يمدّه ويرزقه ويربّيه ، ولا غنى للعبد عن ربه أبداً،
ومتى استغنى عن ربه فيمكنه ألاّ يعبدّه ! وأتّى له ذلك !

إذ كل عبد هو مخلوق محتاج إلى ربه في جميع حاجاته، فما على العبد إلا
أن يعترف لله بالربوبية والألوهية ويعبدّه ، وهذا مقتضى شهادته أن :
[لا إله إلا الله] .

فأول العبادة أن يعترف العبد لله جل جلاله بالربوبية المطلقة، ثم يخضع
له بالأمر والنهي لأنه سبحانه أعلم بمصلحة العباد ومنافعهم وسعادتهم .
ومتى صار العبد ربّ نفسه أمكّنه الاستغناء عن عبادة ربه، وأتّى له ذلك!!
فهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً .

واذا أصابه الضر لا يمكنه أن يدفعه عن نفسه، وإذا جاءه الموت أتّى
له أن يؤخّره عنه !

كل ذلك يحتمّ على العبد عبادة ربه جل وعلا، لأنه عبْدٌ، والله ربّه،
ولا يمكن للعبد أن يتجرّد عن عبوديته لله، ولا يمكنه أن يخرج من ظلّ
ربوبية الله عليه .

حتى إن أهل الجنة يعبدون الله وهم في الجنة لأنهم ما خرجوا عن كونهم
عباداً لله تعالى ، إلا أن عبادتهم في الجنة ليست على وجه التكليف
والمشقة ، بل هي على سبيل الوله والتلذذ والنّعيم .

وهذا ما دلّ عليه الحديث الذي رواه الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر]- وهم الذين يذكرون الله تعالى بنوع من أنواع الذكر من تسبيح أو تحميد أو تهليل أو قراءة قرآن أو صلاة على النبي صلى الله عليه وسلم أو حضور مجالس العلم وغير ذلك .

[فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تنادوا : هلموا إلى حاجتكم ، قال : فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال : فيسألهم ربهم- وهو أعلم منهم -: ما يقول عبادي ؟ قال : يقولون : يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك، قال : فيقول : هل رأوني ؟ قال : فيقولون : لا والله ما رأوك ، قال : فيقول : وكيف لو رأوني ؟ قال : يقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة ، وأشد لك تمجيداً وتحميداً، وأكثر لك تسبيحاً]¹.... الحديث

وإن أهل الجنة في الجنة يرون رب العزة جل وعلا فهم إذاً أكثر عبادة منهم في الدنيا وأشد تسبيحاً وتحميداً لله تعالى ، فافهم.

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم في صفة أهل الجنة :

[يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ والتَّحْمِيدَ كما تُلْهَمُونَ النَّفْسَ]².

ومن يتفكر في قوله تعالى : (الحمد لله رب العالمين) يَر أن الآية لم تأت هكذا : "الحمد لله رب المخلوقين" مع أن العوالم كلها مخلوقة أيضاً ، وذلك لأن في هذا حكماً وأسراراً كبيرة منها :

أن العالمين جمع : عالم ، والعالم يُعلمك بالشيء ويعرّفك به ³ .

¹ صحيح البخاري كتاب الدعوات

² صحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها

³ جاء في لسان العرب ١٢/٤١٦ : قال الرَّجَّاجُ: معنى (العالمين): كل ما خلق الله كما قال تعالى : (وهو ربُّ كل شيء) وهو جمع [عالم].

وفي اللغة يقال: علامات ومعالم الطريق، وهي إشارات تهدي السالك إلى مراده، فالعالم هو كل ما سوى الله من مخلوق سواء كان مغيباً أو مشهوداً ، وسمي بذلك لأنه علامة تدلك إلى رب العالمين وتعرفك به سبحانه، إذ لا يمكن للعبد في الدنيا أن يرى ويبصر بعينه ذات الله تعالى بسبب ضعف نشأته الدنيوية وبسبب حجاب نفسه وذنوبه، لكنه سبحانه أشهده في الدنيا الآيات والعلامات والمعالم الدالة عليه سبحانه، والتي تعرف الإنسان بربه وبقدرته وعظمته وعلمه وحكمته جلّ وعلا .

وفي هذا يقول سبحانه : (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق).

ويقول جلّ وعلا : (وفي الأرض آيات للموقنين* وفي أنفسكم أفلا تبصرون).

ويقول عز من قائل: (قل انظروا ماذا في السموات والأرض).

ومن حكمة وسرّ العبادات أنها تُعدّ العبد وتهيئه وتطوّره إلى حالة هو أهلٌ فيها أن يرى ربّ العالمين ، وهذا ما سيحصل في الجنة إذ سينشئهم الله تعالى نشأة أخرى تمكّنهم من رؤية الله تعالى لمّا يتجلّى عليهم .

ومن نظر في العالم عرف ربّ العالم لأن العالم علامة تدلّ على كمالات الله تعالى وآثار أسمائه جلّ وعلا ، ومن رأى آثار أسمائه جلّ وعلا في العوالم فكأنه رأى الله تعالى، وهذا هو الشهود القلبيّ لأنواره وأسراره جلّ وعلا .

والعوالم كثيرة كبيرة، منها ما يشهده الإنسان بعينه، ومنها ما أخبر عنه القرآن الكريم كالعرش وعالم الكرسي وعالم السدرة وعالم الملائكة وعالم الروح وغيرها .

ومن عجز الإنسان وضعفه أنه لا يرى روحه التي بها حياته وقوام بدنه ومداركه وحواسّه ، ولا يمكنه إنكارها ، إذ ما الذي فقده الميت من أعضائه حتى مات ؟!

ومن الناس من يموت بسكتة قلبية مع أنه لم ينقص منه ذرة من أعضاء جسمه فما الذي حصل له حتى مات !!؟

ولذلك شرع الله تعالى قراءة سورة الفاتحة في كل صلاة ، والتي فاتحتها :

(الحمد لله رب العالمين) وذلك حتى يستحضر الإنسان في نفسه عظمة الله تعالى وكبريائه ، ويلاحظ بقلبه أنه يقف بين يدي رب العالمين ، - والعوالم كثيرة لا يعلم عددها إلا الله سبحانه وتعالى - .

ويلاحظ العبد أنه العبد الذليل المنكسر لعظمة رب العالمين حتى يُفيض عليه سبحانه من البر والخير على قدر خشوعه وحضوره في صلاته^١ .

^١ وانظر تفاصيل البحث في العوالم في كتاب : (هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكير في الأكوان) لمولانا الشيخ الإمام رضي الله عنه .

الخشية من الله تعالى صفة العقلاء

قال سبحانه : (طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى)

أي: ما أنزلنا عليك القرآن لتجهد نفسك وتتعب وتحزن على هؤلاء الكفار المعرضين عن القرآن لَمَّا يسمعون منكَ ، فما عليك إلا إبلاغهم وإنذارهم .

(إلا تذكرة لمن يخشى) أي: إن ما تقرؤه هو تذكرة لأهل الخشية

وهم العقلاء ، وأما من لا خشية عنده فلا عقل عنده ، وإليك بيان ذلك :

لو أن إنساناً صادقاً عدلاً ثقة أخبرك أن في الطريق الفلاني حيوانات مفترسة ، ونصحك أن لا تسلكه ، فإن كنت صاحب عقل فإن عقلك يمنعك من سلوك هذا الطريق خشية وحذراً مما فيه ، ونظراً في عواقب الأمر الذي تريده ..

ومن لم يبالٍ ولم يتعقلٍ راح يسلك الطريق ليوافقه المخاطر ويوقع نفسه في المهالك .

فالذي يخشى العواقب إذا جاءه الإنذار ممّن هو صادق فصّدّقه فهو العاقل ، والذي أعرض ولم يتفكر فهو في نقص كبير في عقله وفكره .

ولقد نظر العقلاء في الكتاب الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمنوا بأنه كلام الله تعالى لأنه معجز للبشر عن الإتيان ولو بسورة مثله .

وقد اشتهر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في قومه وعُرف فيهم بالصدق والأمانة والنزاهة ، وجاءهم بهذا القرآن وأخبرهم عن عواقب الأمور ، وعن عذاب الله لمن عصاه ، فكان موقف العقلاء أن يعملوا بأمره ويجتنبوا نهيه ..

وأما من لم يبالٍ ولم يخش العواقب فليس بعاقل ، وهذا قوله تعالى :
(إلا تذكرة لمن يخشى) .

قوله تعالى : (تنزيلاً ممّن خلق الأرض والسّموات العلى * الرحمن على العرش استوى) : فلم يستوى سبحانه على العرش لحاجته للعرش إذ إنه تبارك وتعالى هو الذي خَلَقَ العرش فكيف يحتاج إليه ؟!!

لقد استوى على العرش لحكم عالية تدل عليها سياق الآيات .

قال تعالى : (ثم استوى على العرش يدبر الأمر) فالعرش موضع ظهور ملك الله ، ومظهر سلطان عزة الله تعالى ، ومصدر تدابير الله وأوامره في خلقه .

ومن جملة التدابير الإلهية ما جاء في قوله تعالى :

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ).

وروى الإمام مسلم عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال : [أخبرني رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من الأنصار أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم رُعي بنجم فاستنار، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماذا كنتم تقولون في الجاهلية إذا رُعي بمثل هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، كنا نقول : ولد الليلة رجل عظيم ومات رجل عظيم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فإنها لا يُرعى بها لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا تبارك وتعالى اسمه إذا قضى أمراً سبَّح حملة العرش ثم سبَّح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا ، ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش : ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ماذا قال ، قال صلى الله عليه وسلم : فيستخبر بعض أهل السماوات بعضاً حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا فتخطف الجن السَّمع فيقذفون إلى أوليائهم ويُرمون به، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يقرِّفون^١ فيه ويزيدون^٢].

١ أي: يخلطون فيه الكذب، انظر شرح النووي على مسلم ٣٩١/٧

٢ صحيح مسلم كتاب السلام

أي: لما يصدر الأمر عن رب العالمين تضيء أنوار لحملة العرش وتأخذهم الخشية من الله تعالى ويسبّحون الله تعالى، ثم يسأل ملائكة السموات السبع حملة العرش: ماذا قال ربكم؟

فيخبرونهم عن الأمر، وهكذا حتى يصل الأمر إلى السماء الدنيا، وإذا كان الأمر يتعلق بعالم الأرض فقد يتقرب جني من السماء الأولى ليسترق السمع مما تحدث به الملائكة من أمور غيبية ستقع في عالم الأرض فيخطف كلمة وترميه الملائكة بالشهب التي تأخذها من أقرب نجم إلى الجنّي.

كما أن الأوامر الإلهية التي فيها تسيير الشمس والقمر والكواكب تصدر بتوجّه إلى عالم العرش وعنه تصدر، كما في الحديث الذي رواه الإمام مسلم عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوماً: [أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: إن هذه تجرى حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي، ارجعي من حيث جئت]^١.

وهذا من أشرط الساعة الكبرى إذ تطلع الشمس من مغربها، وعندها يُغلق باب التوبة والإيمان كما دلّت عليه الآية:

(يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً).

ولا يلزم من سجود الشمس تحت العرش أن تقف عن سيرها وشروقها وغروبها عن عالم الأرض، فهي دوماً في سجود واستئذان، ويؤذن لها فتشرق على قوم وتغرب عن آخرين وهكذا، لأن سجودها لائق بها يناسب نشأتها، وهو سجود حقيقي لكنه ليس كسجود الإنسان إذ إن سجود كل مخلوق على حسب ما خلقه الله تعالى.

^١ صحيح مسلم كتاب الإيمان

عالم العرش هو موضع صدور إعلانات وبلاغات وبيانات رب العالمين

إن لله تعالى إعلانات وبلاغات ومناشير كما قال تعالى :

(هذا بلاغ للناس) وقال سبحانه : (إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين)

وروى الإمام أحمد في مسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

[إن العبد] أي: المؤمن .

[ليلتمس مرضاة الله] أي: بعبادته لله تعالى .

[ولا يزال كذلك، فيقول الله عز وجل لجبريل : إن فلاناً عبدي يلتمس أن يرضيني، ألا وإن رحمتي عليه] أي: رضائي ورحمتي في الدنيا والآخرة على فلان .

[فيقول جبريل : رحمة الله على فلان ، ويقولها حملة العرش ، ويقولها من حولهم حتى يقولها أهل السموات السبع ثم تهبط له إلى الأرض]^١.

وهكذا أخذ الإعلان حكمه، وانتشر بين أهل السماء والأرض .

وفي رواية للإمام مالك: [وإذا أبغض الله العبد ...].

قال مالك: لا أحسبه إلا أنه قال في البغض مثل ذلك^٢. اهـ

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض].

وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه، قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض^٣.

١ ٢١٣٦٧

٢ انظر الموطأ كتاب الجامع

٣ كتاب البر والصلة والآداب

عالم العرش هو موضع إشراق أنوار العبادات

إن للعبادات أنواراً تجتمع عند عالم العرش وتشفع لصاحبها عند الله تعالى، وتثني عليه خيراً عند رب العالمين جل جلاله ، ففي الحديث عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [إِنَّ مِمَّا تَذْكُرُونَ مِنْ جَلَالِ اللَّهِ التَّسْبِيحَ وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّحْمِيدَ يَنْعَظُونَ حَوْلَ الْعَرْشِ] أي: يجتمعون [لَهُنَّ دَوِيٌّ كَدَوِيٍّ النَّحْلُ تَذْكُرُ بِصَاحِبِهَا، أَمَا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَوْ لَا يَزَالَ لَهُ مَنْ يُذَكِّرُ بِهِ؟]^١.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [مَا قَالَ عَبْدٌ "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ" مُخْلِصًا إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ حَتَّى تُفْضِيَ إِلَى الْعَرْشِ] أي: تنتهي إلى العرش [مَا اجْتَنَبَ الْكِبَائِرَ]^٢.

^١ سنن ابن ماجه كتاب الأدب

^٢ سنن الترمذي كتاب الدعوات

عالم السدرة

عالم السدرة هو عالم كبير فوق السماء السابعة ودون عالم الكرسي ، وهو عالم على نمط الشجرة يحيط بالسماء السابعة من كل جهاتها ، وعند عالم السدرة تجلّى الله على رسوله صلى الله عليه وسلم بالرؤية.

كما قال تعالى : (إذ يغشى السدرة ما يغشى * ما زاغ البصر وما طغى) قال الحسن رضي الله عنه : [غشيها] - أي غطاها - [نور رب العالمين فاستنارت]^١.

وقد ثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك التجلّي الإلهي عليه بالنور فلم يملّ أو يكلّ بصره، ولم يجاوز المنظور إليه إلى غيره ، فإن الله تعالى أمده بالقوة الكبيرة فثبت أمام ذلك التجلّي، وهي خاصة به صلى الله عليه وسلم، إذ إنه صلى الله عليه وسلم رأى ربّه سبحانه في عالم الدنيا ، ولم يحصل ذلك لغيره من الأنبياء والرسل عليهم السلام .

ويقال عن السدرة : إنها سدرة المنتهى لأنها تنتهي إليها الأعمال الصالحة كما قال تعالى : (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) .

فُتحفظ الأعمال في عالم السدرة حتى إذا جاء يوم القيامة أخرجت من خزائنها، أما روح العمل ونوره فهي إلى عالم العرش.

قال تعالى : (كلا إن كتاب الأبرار لفي عليّين * وما أدراك ما عليّون * كتاب مرقوم * يشهده المقربون) .

فإن المقرّبين من الملائ الأعلى وأهل السموات والمقرّبين من المؤمنين الذين انتهت أرواحهم إلى تلك المواضع كل هؤلاء يشهدون أعمال الإنسان الصالحة ، ويثنون على صاحبها .

^١ انظر تفسير الألوسي والقرطبي والبغوي للآية الكريمة

وعند سدرۃ المنتهى مقام سيدنا جبريل عليه السلام ، وعندها جنة المأوى كما قال تعالى : (عند سدرۃ المنتهى * عندها جنة المأوى) .

مما يدلّ على أن الجنة موجودة مخلوقة ، وقد رآها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج ، ودخلها كما قال صلى الله عليه وسلم : [ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا فِيهَا جَنَابِدٌ ^١ اللَّوْلُؤُ ، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ] ... الحديث ^٢

ومن الحكم في قوله تعالى : (عند سدرۃ المنتهى * عندها جنة المأوى) بيان علو مكانة الجنة ورفعة شأنها وأنها عالية غالية ..

فانهض بهمتك أيها الإنسان إليها وشمرّ بساعدك للعمل إلى الفوز بها فقد قال صلى الله عليه وسلم :

[ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة] ^٣ .

فهي غالية حساً ومعنىً ومكانةً، وعالية مكاناً ورتبةً .

^١ أي : قِباب

^٢ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الصلاة وصحيح مسلم كتاب الإيمان

^٣ سنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع

حول بعض معاني كلمة : (لا إله إلا الله)

إن العلم بمعاني : (لا إله إلا الله) علم كبير لا يتناهى لأنه يتعلق بالله
وكمالاته جل وعلا ، وكمالاته وصفاته سبحانه لا نهاية لها .

وقد قال الله تعالى لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم :

(فاعلم أنه لا إله إلا الله) ، وقال جل وعلا : (وقل رب زدني علماً)
أي : زدني علماً بك وبكمالاتك يا رب حتى أتقرب إليك .

ولا يمكن لمخلوق أن يحيط علماً بمعاني (لا إله إلا الله) لكن لا بد
للمؤمن أن يفهم شيئاً من معانيها ، فمن ذلك معنى اسم : (الله)

فهو اسم الجلالة ، ويدلّ على ذات الله جلّ وعلا المتصف بجميع صفات
الكمال اللائقة به سبحانه على وجه لا يتناهى .

فاسم (الله) جل وعلا هو اسم يدل على الذات مع الصفات ولذلك فهو
اسم جامع لجميع الأسماء الإلهية ، فإذا قلت : (الله) فإنك تريد بذلك
ذات الله تعالى بأسمائه وكمالاته التي لا تتناهى .

وإن أسماء الله تعالى لا نهاية لها ، لأنها تابعة لكمالاته جل وعلا ،
وكمالاته جل جلاله لا تتناهى ، فأسماءه لا تتناهى ، فهي أسماء صفات .

ولا يمكن للمخلوق أن يقف على معرفة حقيقة الذات الإلهية لأن الله
تبارك وتعالى خالق غير مخلوق ، ولا يمكن لمخلوق أن يدرك كنه الخالق
جلّ وعلا ، ولكنه سبحانه لفتّ عباده إلى معرفة بعض أسمائه وصفاته
وكمالاته جلّ جلاله ، وفي هذا يقول عز من قائل : (الله لا إله إلا هو له
الأسماء الحسنى) وأسماء الله الحسنى أسماء كمالاته جل وعلا التي لا
تتناهى .

أما ما جاء في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم:

[إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة]^١
فلهذه الأسماء خصوصية وأفضلية أن من حفظها وتفهم معناها وأيقن بها
دخل الجنة، أما أسماؤه جل وعلا فلا نهاية لها.

وجاء في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم بيان أن لله سبحانه أسماء
ذكرها في كتبه، ومنها ما جاء على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم،
ومنها ما لم يظهر أثره في هذا العالم، وسيظهر أثره على مَدَّ العوالم ، ومنها
ما استأثر الله بعلمه ، قال صلى الله عليه وسلم :

[مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ فَقَالَ: "اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ
وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِي حُكْمِكَ، عَدْلٌ فِي قَضَاؤِكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ
اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي
كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي
وَنُورَ صَدْرِي وَجَلَاءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي " إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ،
وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا، قَالَ: فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا نَتَعَلَّمُهَا؟ فَقَالَ: بَلَى،
يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا]^٢.

وجاء في دعاء السيدة عائشة رضي الله عنها :

[اللهم إني أدعوك الله، وأدعوك الرحمن، وأدعوك البر الرحيم، وأدعوك
بأسمائك الحسنى كلها ما علمت منها وما لم أعلم أن تغفر لي وترحمني]^٣.
قوله تعالى : (له الأسماء الحسنى):

إن مما يجب على كل مؤمن أن يتفهم معنى كل آية جاء فيها توحيده
وتفريده جل وعلا بقوله جل وعز : (لا إله إلا هو) ، لأن كلاً منها يدلّ على
معنى ، ومن لم يؤمن بتلك المعاني لم يكمل له توحيده ، فما معنى
(الحسنی) ؟

^١ صحيح البخاري كتاب التوحيد وصحيح مسلم في كتاب الذكر والدعاء

^٢ مسند الإمام أحمد ٣٥٢٨

^٣ سنن ابن ماجه كتاب الدعاء

يُقال في اللغة : "هذه النبتة حسنة ، وتلك النبتة حسنى" أي: أحسن من الأولى، ويُقال : "هذا أمر حسن وذاك أحسن" وهذا على وزن : أفعل وفُعلَى ، وهما للتفضيل .

فقوله تعالى : (له الأسماء الحسنى) ولم يقل : الحسنة ، لأن كلمة (الحسنى) أبلغ في معنى الحسن ، يعني : أن أسماءه جل وعلا لا نهاية لها في الحسن، وكلما ازداد الإنسان علماً بأسماء الله ومعانيها زاد إيمانه بالله ، وزاد حبه لله جل وعلا لأن الحب يكون على حسب المعرفة بكمالات المحبوب .

ولكي يقرب إلى عقلك فهم ذلك نقول- والله المثل الأعلى - :
لو قيل لك : "يجب عليك أن تحب فلاناً" فإنك تقول : كيف أحبه ولا أعلم شيئاً عنه ؟!

أخبروني عنه حتى أعلم من صفاته وكمالاته فأحبه من أجلها .

فلما يقال لك : إنه عالم حكيم فطن ذكي صالح تقي ذو خُلق عظيم،
ينشأ في قلبك حبّ له بسبب محاسنه وكمالاته، وكلما ذكر لك عن كمالاته وخصاله أكثر زادت محبتك له .

فإذا كان هذا حب مخلوق لمخلوق آخر، فقل لمن يريد محبة الله تعالى والقرب منه :

تعرف إلى كمالاته ومحاسنه جل وعلا، وتفهم معاني أسمائه جل وعلا ..
وهذا ما ذكره سبحانه في القرآن الكريم، وجاء على لسان سيد الأنام صلى الله عليه وسلم الذي جاء يعرف الخلق بالله جلّ وعلا فقال صلى الله عليه وسلم : [والله إني لأعلمكم بالله عز وجل وأخشاكم له] ^١ أي : فعنه صلى الله عليه وسلم يؤخذ العلم بالله جل وعلا ، ومن بحره يغرف العارفون العلوم والمعارف الإلهية .

^١ مسند الإمام أحمد ٢٣٧٦٥

اسما الله تعالى : (الحي القيوم)

قال تعالى : (الله لا إله إلا هو الحي القيوم).

فعرّف سبحانه عباده أنه هو الحي القيوم وحده ، وهذا ما دلّت عليه الآية إذ جاء فيها معنى الحصر بقوله سبحانه (لا إله إلا هو الحي القيوم)
وأما غيرُ الله فحياته بخلق الله ، وقوامه بالله ، لا من ذاته ، فالله هو الحي بذاته من ذاته حياة أبدية لا أول لها ولا آخر ، أما المخلوق فهو حيّ بإحياء الله تعالى له ، والله تعالى أحياءه باسمه (المحيي) فصار حياً ، وإن لم يُحيه باسمه المحيي فهو ميت ، كما قال تعالى :

(كنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميّتكم ثم يحييكم).

وحياة المخلوق حياة مقيدة مخلوقة بنسبة معينة بحدّ معين بمقدار معيّن ، وأما حياة الله تعالى فهي حياة مطلقة لا أول لها ولا آخر ، ولا تتعلق بأسباب كحياة المخلوقات ، بل هو سبحانه حي بذاته من ذاته .
وأما معنى (القيوم) فهو الذي به قامت جميع العوالم والمخلوقات ، فلا وجود لها ولا قوام لها من ذاتها ، بل هي موجودة بإيجاد الله ، قائمة بقيومية الله لها ، وهو جل وعلا قيومها .

وفي هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : [اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيُّمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ] كما في رواية الإمام البخاري^١.

وفي رواية مسلم : [وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيَّامُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ]^٢.

وفي رواية : [ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن]^٣.

والمعنى واحد .

وإذا سلب سبحانه عن المخلوق قيوميته رجع إلى العدم ، وفي هذا يقول سبحانه : (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره).

^١ صحيح البخاري كتاب الجمعة

^٢ صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها

^٣ سنن الدارمي كتاب الصلاة

فلا وجود لشيء إلا بقيومية الله جل وعلا ، ولا تأثير لشيء من ذاته بل بقوة من الله جل وعلا، ولا قيام ولا قوام ولا كيان لشيء إلا بقيومية الله تعالى فهو الموجد وهو المُمِدّ سبحانه وتعالى، وإن الفعل في الأشياء والمؤثر في الأشياء هو الله تعالى الذي خلق جميع الأشياء والأسباب ، فلا نار تحرق من ذاتها ، ولا ماء يغرق من ذاته ، ولا صلابة للحديد والحجر من ذاته وهكذا ، فإذا شاء الله جل وعلا ألان الحديد كما أعطى ذلك لسيدنا داود عليه السلام، قال تعالى : (وألّنا له الحديد) فصار بين يدي سيدنا داود عليه السلام كالعجين يصنع منه ما يشاء .

ولما طغى الماء علا في الجبال وأغرق من على الأرض من قوم نوح عليه السلام لكنه لم يأت على سفينة سيدنا نوح عليه السلام ومن فيها مع أنها سفينة عادية متواضعة قال فيها سبحانه:(وحملناه على ذات ألواح ودسر)، ولكنها كما جاء في آية ثانية : (تجري بأعيننا) .

ولما ضرب سيدنا موسى عليه السلام البحر وانشق اثني عشر طريقاً وقف الماء كالجدران القائمة بين تلك الطرق حتى يرى بنو إسرائيل بعضهم بعضاً^١ .

وهو سبحانه حيّ قيّوم لا ينام ولا يموت ، ولا يصحّ في العقل ولا في الشرع أن ينام جل وعلا لأنه تبارك وتعالى يدبّر أمور العالمين ، وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم : [إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ^٢] أي : يخفض الخفض القسط ويرفع الرفع القسط، أي إنه جل وعلا يحكم بين خلقه بميزان العدل^٣ .

[يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ]
أي : فليحذر المؤمن وليخش الله سبحانه أن ترفع إليه أعماله وفيها الذنوب والقبائح ، وليبادر دوماً إلى التوبة.

^١ انظر تفسير ابن كثير لقوله تعالى : (فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَأَنْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ) .

^٢ صحيح مسلم كتاب الإيمان

^٣ انظر حاشية السندي على سنن ابن ماجه ١٨١/١

[حِجَابُهُ النُّورُ] أي : لكنه لا يحجب لأنه نور ، ولولا هذا الحجاب لهلك العالم .

[لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ]^١ .

ومعنى : [سُبُحَاتُ وَجْهِهِ] أي : أنواره جل وعلا المنزهة عن الشبيه والنظير ، وإنما جاء الحجاب النوراني ليعطي الخلائق على قدر ما يطيقون من العلم والمعرفة .

قوله تعالى : (الله لا إله إلا هو الحي القيوم)

إن اسم (الله) هو الاسم الجامع لجميع حضرات الأسماء الإلهية ، ويقال له : " اسم الجلالة " لأنه أجل من أن يحيط العبد بما اشتمل عليه من أسماء ، ولا يمكن لمخلوق أن يحيط بمعاني اسم : (الله) ، لكنه يلاحظ معاني بعض الأسماء الإلهية ، فالفقيه ينادي " يا الله " ، والمكروب ينادي " يا الله " ، والمضطرب ينادي " يا الله " ، والعاجز الضعيف ينادي " يا الله " ، وهكذا.. لكن الضعيف يلاحظ من قوله : (يا الله) معنى (يا قوي) ، والفقير يلاحظ معنى (يا غني) ، والمريض يلاحظ معنى (يا شافي) وهكذا يتعلق كل مخلوق باسم من أسماء الله جل وعلا ، وتبقى بقية الأسماء الإلهية في جلالتها .

واعلم أن الله تعالى ذكر في القرآن جُمَلًا من التهليل ، كل واحدة منها تدل على مرتبة في التوحيد ، فقوله سبحانه : (لا إله إلا هو الحي القيوم)

فيه توحيد بصفة الله الحي القيوم ، فهو الحي لا غيره ، وهو القيوم لا غيره ، وهو الذي خلق الموت والحياة في خلقه ، فهو سبحانه واحد في ذاته ، وواحد في صفاته جل وعلا .

^١ صحيح مسلم كتاب الإيمان

ومن خصائص هذين الاسمين : (الحي القيوم) أنهما الاسم الأعظم كما في الحديث عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ { وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ } وَفَاتِحَةِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ { أَلَمْ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ }]^١.
ومن دعا الله باسمه الأعظم أجابه الله وأعطاه .

ومن خصائص هذا الاسم تفريج الكرب ومغفرة الذنوب ، وما أخرج الإنسان إلى ذلك ، فقد ورد عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: [كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا كَرَبَهُ أَمُرُّ قَالَ: يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ]^٢.

وقال صلى الله عليه وسلم لابنته السيدة فاطمة عليها السلام ورضي الله عنها -وهي سيدة نساء العالمين- قال لها : [ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به أن تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت : يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث ، أصلح لي شأني كله ، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين]^٣.

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : [مَنْ قَالَ: " أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومَ وَآتُوبُ إِلَيْهِ " غُفِرَ لَهُ وَإِنْ كَانَ قَرَّرَ مِنَ الرَّحْفِ]^٤، وقد وَرَدَ هذا أيضاً عندما يأوي الإنسان الى فراشه^٥، فجاء مطلقاً ، وجاء عند النوم ليختم الإنسان صحيفه يومه بالاستغفار بصيغة فيها اسم (الحي القيوم) الذي إذا دعي الله به أجاب .

^١ سنن أبي داود كتاب الصلاة

^٢ سنن الترمذي كتاب الدعوات

^٣ مستدرک الحاكم كتاب المناسك والسنن الكبرى للنسائي كتاب عمل اليوم والليله
عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه

^٤ سنن الترمذي كتاب الدعوات

^٥ روى الإمام الترمذي في سننه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [مَنْ قَالَ حِينَ يَأْوِي إِلَى فِرَاشِهِ " أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومَ وَآتُوبُ إِلَيْهِ " ثَلَاثَ مَرَّاتٍ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ ذُنُوبَهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَيْدِ الْبَحْرِ، وَإِنْ كَانَتْ عَدَدَ وَرَقِ الشَّجَرِ، وَإِنْ كَانَتْ عَدَدَ رَمْلِ عَالِجٍ، وَإِنْ كَانَتْ عَدَدَ أَيَّامِ الدُّنْيَا] .

وإن قراءة آية الكرسي مطلوبة وراء كل صلاة^١ ، وعند النوم^٢ ،

فلا بد لقارئها أن يفهم شيئاً عن معانيها ولو إجمالاً.

فقوله تعالى : (لا تأخذه سنة ولا نوم)

يعني : أن حياة الإنسان حياة مقيدة محدودة فانية يتعرض فيها الإنسان للمرض والتلف ، وتأخذه السَّنة والنوم ، أي قد تأخذه الغفلة وهو جالس فيلتوي رأسه ، وربما غلبه النوم وتمدد بجسده وهكذا مهما كان الإنسان قوياً فإن النوم يغلبه، أمّا ربّ العالمين فهو حيّ قيّوم لا تأخذه سِنَّة ولا نوم ، فلا يغفل ولا ينام جلّ وعلا .

قوله تعالى : (له ما في السموات وما في الأرض)

أي : له ما في السموات وما في الأرض ملكاً ومُلْكاً ، فالسموات والأرض وما فيهما هي مملوكة لله تعالى وهو مالِكها وهو المَلِك فيها أي : المتصرف فيها بمقتضى علمه وحكمته جلّ وعلا .

ولا يشارك الله أحدٌ في ملكه ومُلْكه ، ولو أن أحداً مَلَك جزءاً من الأرض لَمَلَك سطحها وقشرتها فقط ، وليس له باطنها وتُخومها ، وملكه لها محدود مؤقت لأنه سيتركها ويرحل ، وليس له أن يصحبها معه ! .

ثم إنه لو ملكها فلا يستطيع أن يحفظها عليه ، فربما غصبها منه إنسان ، أو أخذت منه بالقوة وهكذا ، فما هو هذا المَلِك ؟ !

نعم إنه ملك نسبي ظاهري تترتب عليه أحكام واعتبارات ، أما الملك الحقيقي المطلق فهو لله وحده .

١ قال صلى الله عليه وسلم : [مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ دُبَّرَ كُلُّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ] قال الإمام السيوطي في اللآلئ: أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ حَبَانَ فِي صَحِيحِهِ، وَابْنُ السَّيْنِيِّ فِي عَمَلِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، وَصَحَّحَهُ أَيْضًا الضَّيَاءُ الْمَقْدِسِيُّ فِي الْمَخْتَارَةِ.

٢ فمن قرأها إذا أوى إلى فراشه لا يزال عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح كما في صحيح البخاري كتاب الوكالة

وهو سبحانه المَلِكُ فيها - من المُلْكِ بضم الميم - وهو التصرف في الخلائق والأكوان وتدير أمرهما فكل ذلك لله وحده .

قال سبحانه : (ولم يكن له شريك في المُلْكِ) أي : فلا شريك له يشاركه في تصرفه وتديره لأمر مملكته جلّ وعلا .

قوله تعالى : (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) بعد أن بيّن سبحانه أنه لا شركاء معه بيّن أنه لا شفعاء عنده إلا بإذنه ، وهم يشفعون عنده جلّ وعلا بعد أن يأذن لهم ، أي : لا أحد يُملي إرادته على الله تعالى ، ولكنه سبحانه إذا أراد أن يرحم عباده أذنَ للمقرّبين عنده من رسله وأنبيائه وملائكته وأوليائه فيشفعون عنده .

وأول من يُؤذن له بالشفاعة هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لأنه أحبّ خلق الله إلى الله وأقربهم إليه وأعظمهم وجاهة وجاهاً عند الله تعالى ، فيفتح باب الشفاعة ويأذن الله للشفعاء أن يشفعوا .

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: [أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ]^١ أي : أنا أول من يتقدم للشفاعة ، وأول من يشفعه الله تعالى أي : يقبل شفاعته ، والشفاعة على مراتب^٢ .

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي]^٣ .

أي : فمنهم من يشفع به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ويدخل الجنة بلا عذاب ولا عقاب، ومنهم من يدخل النار لكثرة ذنوبه الكبائر فيشفع به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يقضي المدة التي يستحقها في النار ويخرج من النار ويدخل الجنة، وهؤلاء على طبقات ومراتب .

^١ صحيح مسلم كتاب الفضائل

^٢ انظر تفاصيل ذلك في كتاب : [الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها] للشيخ الإمام رضي الله عنه

^٣ كما في المسند ١٢٧٤٥

ومما يدل على أن عصاة المؤمنين الذين ماتوا ولم يتوبوا قد يدخلون النار ما جاء في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم :

[يدخل من أهل هذه القبلة النار] وهم من المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم وباليوم الآخر وبالكعبة أنها قبلتهم .

[من لا يحصي عددهم إلا الله بما عصوا الله واجترأوا على معصيته وخالفوا طاعته، فيؤذن لي في الشفاعة فأثني على الله ساجداً كما أثني عليه قائماً، فيقال لي: ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تُشَفِّعْ].^١

وهذه الشفاعة على مراتب كما دلت عليه أحاديث غيرها ، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم :

[فَأَنْطَلِقُ فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذَنُ لِي ، فَأَقُومُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَأُحْمَدُهُ بِمَحَامِدِ لَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ الْآنَ ، يُلْهِمُنِيهِ اللَّهُ ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِداً فَيُقَالُ لِي : يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمِعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَهُ وَاشْفَعْ تُشَفِّعْ ، فَأَقُولُ : رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي ، فَيُقَالُ : انْطَلِقْ فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ بُرَّةٍ أَوْ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنْهَا ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ، ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَى رَبِّي فَأُحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِداً فَيُقَالُ لِي : يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمِعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَهُ وَاشْفَعْ تُشَفِّعْ ، فَأَقُولُ : يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي ، فَيُقَالُ : انْطَلِقْ فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنْهَا ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ، ثُمَّ أَعُودُ إِلَى رَبِّي فَأُحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِداً فَيُقَالُ لِي : يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمِعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَهُ وَاشْفَعْ تُشَفِّعْ ، فَأَقُولُ : يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي ، فَيُقَالُ لِي : انْطَلِقْ فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَذْنَى أَذْنَى مِنْ مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ]^٢ ، وحب الخردل هي أصغر الحبوب .

^١ قال الحافظ المنذري في الترغيب : رواه الطبراني في الكبير والصغير بإسناد حسن

^٢ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الإيمان

واعلم أن من المذنبين من يستتر من ذنوبه ، وإذا وقع فيها اعتراه الوجل
وندم وعزم على أن لا يعود ، فمثل هذا يغفر الله له يوم القيامة كما بين
ذلك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث النجوى فقال :

[يَدْنُو أَحَدُكُمْ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ عَلَيْهِ فَيَقُولُ: أَعَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا؟
فَيَقُولُ: نَعَمْ، وَيَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَرَّرُ ثُمَّ يَقُولُ:
إِنِّي سَتَرْتُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَعْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ]¹.

وأما المجاهر بذنوبه وفواحشه ولا يبالي بها فأمره خطير ، ففي الحديث :

[كُلُّ أُمَّتِي مُعَافٍ أَي: من العذاب

[إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهِرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا] أي:
يعمل المعصية بالخفاء [ثُمَّ يُصْبِحُ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَيَقُولُ: يَا فَلَانُ
عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ
عَنْهُ]².

وفي مثل هؤلاء يشفع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد لا
يدخلون النار وذلك بشفاعته صلى الله عليه وسلم ، وقد يدخلونها لمدة
ويخرجون بشفاعته صلى الله عليه وسلم قبل انتهاء مدة عذابهم .

وأما المذنب الذي يتعلق ذنبه بحقوق العباد من أكل مال وغش وكذب
وغيبة ونميمة وشهادة زور وضرب وهكذا فإن هذا لا بد له من التقاص
بين الظالم والمظلوم .

وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم :

[يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - أَوْ قَالَ: الْعِبَادُ - عُرَاءَ غُرْلًا بُهِمًا، قَالَ: قُلْنَا:
وَمَا بُهِمًا؟ قَالَ: لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعْدَ كَمَا
يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ: أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الدِّيَانُ] أي : المحاسب والمجازي ومالك
يوم الدين .

¹ صحيح البخاري كتاب التوحيد

² صحيح البخاري كتاب الأدب

[وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ] يعني : الكفار والعصاة [أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَقٌّ حَتَّى أَقْصَهُ مِنْهُ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ وَلِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عِنْدَهُ حَقٌّ حَتَّى أَقْصَهُ مِنْهُ حَتَّى اللَّظْمَةُ، قَالَ: قُلْنَا: كَيْفَ وَإِنَّا إِنَّمَا نَأْتِي اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عُرَاةً غُرْلًا بُهُمَا؟ قَالَ: بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ]^١.

أما من ظلم كافراً أو اعتدى عليه بأكل ماله وسبّه وشتمه أو وقع في عرضه ، فيأخذ الكافر من حسنات المسلم وتخفّف عنه شدة العذاب لا مدّته ، فافهم ذلك ، لأن شدة العذاب تختلف على أهل النار على حسب درجة كفرهم وضلالهم وفجورهم، فهم خالدون فيها أبداً من حيث المدة ، أما شدة العذاب فتختلف .

وفي الحديث الذي رواه الإمام مسلم : [لَتُؤَدَّنَ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ] أي : حتى إنه يُقاد [لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ^٢ مِنْ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ]^٣.

وفي مسند الإمام أحمد : [وَحَتَّى الذَّرَّةُ مِنَ الذَّرَّةِ]^٤ أي : النملة الصغيرة.

وروى الإمام البخاري في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [يَخْلَصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ] – وهو المؤمنون المصلّون المزكّون [فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ] – أي : بعد أن سلموا ونجوا من بقية القناطر كقنطرة الصلاة والزكاة وغيرها.

[فَيَقْصُ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضِ مَظَالِمِ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا]

ومن بين تلك المظالم عدم ردّ السلام على من سلّم عليك، أو ردّه بغلظة وجفاء وهكذا .

[حَتَّى إِذَا هَذَّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لِأَحَدِهِمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا]^٥.

١ المسند ١٥٤٦٤

٢ التي لا قرن لها

٣ كتاب البر والصلة والآداب

٤ ٨٤٠١

٥ كتاب الرقاق

ومعنى [أهدى] : أعلم ، أي : يعرف كل واحد منزله وداره في الجنة أشدّ
من معرفته لمنزله في الدنيا مصداقاً لقوله تعالى: (ويدخلهم الجنة
عرّفها لهم).

شفاعته صلى الله عليه وسلم بمن يصلي عليه ويزور قبره الشريف

روى البيهقي في الشعب عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : [أَكْثَرُوا عَلَيَّ الصَّلَاةَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ ، وَلَيْلَةِ الْجُمُعَةِ ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كُنْتُ لَهُ شَهِيدًا ، وَشَافِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
[من صلى عليّ عشراً صلى الله عليه مائة , ومن صلى عليّ مائة صلى الله عليه ألفاً , ومن زاد صباغة وشوقاً كنت له شافعياً وشهيداً يوم القيامة]^١ .
ومن ذلك أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم :

[مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ : " اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ التَّامَّةُ وَالصَّلَاةُ الْقَائِمَةُ آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتُهُ " حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ]^٢ .

وزاد البيهقي : [إنك لا تخلف الميعاد]^٣ .

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم^٤ : [من زارني كنت له شافعياً وشهيداً] وفي رواية الدارقطني والبخاري : [من زار قبري وجبت له شفاعتي]^٥

والروايات تفسر بعضها .

^١ قال الحافظ السخاوي: أخرجه أبو موسى المديني بسند قال الشيخ: لا بأس به

^٢ صحيح البخاري كتاب الأذان

^٣ في السنن الكبرى

^٤ كما في شعب الإيمان للبيهقي ومسنند الطيالسي

^٥ انظر سنن الدارقطني، وعزاه في مجمع الزوائد إلى البزار ، وقال الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة : حديث [من زار قبري وجبت له شفاعتي] أبو الشيخ وابن أبي الدنيا وغيرهما عن ابن عمر، وهو في صحيح ابن خزيمة وأشار إلى تضعيفه، وهو عند أبي الشيخ والطبراني وابن عدي والدارقطني والبيهقي ولفظهم: [كان كمن زارني في حياتي]، وللطيالسي عن عمر رضي الله عنه مرفوعاً: [من زار قبري كنت له شافعياً أو شهيداً]، وقد صنف السبكي رحمه الله كتاب "شفاء السقام في زيارة خير الأنام صلى الله عليه وسلم".

ومن أفضل ما يشدّ المؤمن رحله إليه هو شدّ الرّحال لزيارة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ففي الحديث الذي رواه الحاكم وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [ليهبطن عيسى ابن مريم] أي : في آخر الزمن [حكماً عدلاً، وإماماً مقسطاً، وليسلكن فجاً حاجاً أو معتمراً أو بنيتهما، وليأتين قبري حتى يسلم علي ولأردنّ عليه]¹.

وإن سيدنا عيسى عليه السلام لما ينزل إلى الأرض ينزل إماماً للمسلمين ومرشداً لهم وهادياً بهدي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وإرشاده كما قال صلى الله عليه وسلم : [لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا وَإِمَامًا عَدْلًا]² .. الحديث أي : إماماً عادلاً يجب أن تتبعوه ، ويحكم بشريعة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، فإذا كان إمامك الذي أمرك الله باتباعه إن أدركته ، سيزور قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسلم عليه بعد أن يحج ويعتمر فما بالك تزعم أنه لا دليل على شدّ الرحل لزيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟!

وإن من رحمة الله بهذه الأمة المحمدية أن جعل قبر رسولها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم معروفاً مشهوراً بالتواتر ، وذلك حتى يتوجه المؤمنون لزيارته وتسكن قلوب المشتاقين إليه صلى الله عليه وسلم .. وقد قال صلى الله عليه وسلم : [مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِي لِي حُبًّا نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَأَى بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ]³.

ولهذا ترى المشتاق المحبّ لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسكن شوقه بزيارة الحبيب صلى الله عليه وسلم ، وينشرح صدره وتطيب نفسه ، وهذا من حكمة الله وتكرمته لهذه الأمة أن حفظ قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجه القطع ، ومن أنكره فقد أنكر معلوماً من الدين بالضرورة.

¹ في المستدرک فی کتاب تواریخ المتقدمین من الأنبياء والمرسلین وانظر تاریخ دمشق لابن عساکر

² سنن ابن ماجه کتاب الفتن

³ صحيح مسلم کتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها

حول تفسير آية الكرسي

قوله تعالى : (الله لا إله إلا هو الحي القيوم)

تقدّم الكلام أن الأسماء الإلهية كلها داخلية في دائرة اسم الجلالة : (الله)

فهو الاسم الجامع لجميع الأسماء الإلهية الحسنى، يدلّ على ذلك أن جميع الأسماء الإلهية تأتي تابعة مضافة إليه كقوله تعالى :

(والله غفور رحيم) وقوله جل وعلا : (والله عليم حكيم) وغير ذلك من الآيات الكريمة .

ولا يصحّ في مجال الإيمان والدخول في الإسلام إلا أن يشهد الإنسان أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيأتي بالشهادة باسم (الله) وإلا لما صحّ إيمانه ، وأما في غير مجال الإيمان فلا مانع ، وذلك لأن اسم الله هو الاسم الجامع لجميع الأسماء الإلهية كما تقدم .

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه قال :
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ قَالَ: قُلْتُ:

{ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ } .

قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: وَاللَّهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ[^١].

وفي مسند أحمد بزيادة : [وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ لَهَا لِسَانًا وَشَفَتَيْنِ تُقَدِّسُ الْمَلِكُ عِنْدَ سَاقِ الْعَرْشِ]^٢.

يعني أن تلاوة آية الكرسي روحانية ونورانية تصعد إلى العرش وتقدس الرحمن جلّ وعلا ، ويكتبُ تقديسها في صحيفة قارئها .

^١ كتاب صلاة المسافرين وقصرها

^٢ ٢٠٣١٨

قوله سبحانه : (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) .

في هذه الآية الكريمة يذكر سبحانه وحدانيته في صفة العلم وأنه لا شريك له في العلم جلّ وعلا ، أي أن علمه سبحانه محيط بالإنسان من أزل الأزال إلى أبد الآباد التي سيصير إليها الإنسان والتي لا نهاية لها .

ولو أن إنساناً سلك طريقاً طويلاً وقطع منه مسافة مرّ فيها على جبال وأشجار ووديان لصار عنده شيء من العلم بما مرّ عليه لكنه يجهل ما في الطريق من أوله ويجهل ما بين يديه من الطريق أي : ما يستقبله لأنه لم يمرّ عليه بعد .

والإنسان قبل أن يظهره الله في عالم الدنيا كان قد مرّ على عوالم متعدّدة لا يذكر منها شيئاً إلا ما علّمه الله وذكره به ، وهناك عوالم سينتقل إليها ولا يعلم عنها شيئاً إلا ما علّمه الله في كتابه الكريم وجاء بيانه عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن زعم أنه يعلم شيئاً ممّا مرّ عليه أو ممّا سينتقل إليه فإن ذلك بتعليم الله تعالى الذي قال : (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) .

أي : ولا يحيطون إحاطة محدودة تناسب خلقهم (بشيء)

أي : قليل جداً لأن التنكير هنا للتقليل .

(من علمه) من هنا : للتبويض ، أي : ولا يحيطون بشيء قليل جداً من العلم إلا بما شاء الله لهم أن يعلمهم فعلموا ذلك الشيء على حسب ما علّمهم جلّ وعلا بنسبة مقيدة ، فهو سبحانه يُعلّم من شاء ما شاء ، وما نسبة علوم الخلائق كلها إلا شيئاً قليلاً جزئياً بالنسبة إلى علم الله تعالى كما قال تعالى : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) .

وهذا لما ضرب الخضر عليه السلام مثلاً لموسى عليه السلام كما جاء في الحديث :

[فَرَكَبَا السَّفِينَةَ، قَالَ: وَوَقَعَ عُصْفُورٌ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ فَغَمَسَ مِنْقَارُهُ فِي الْبَحْرِ فَقَالَ الْخَضِرُ لِمُوسَى: مَا عَلِمْتُكَ وَعِلْمِي وَعِلْمُ الْخَلَائِقِ فِي عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِقْدَارُ مَا غَمَسَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنْقَارَهُ]^١.

وهذا المثل لتقريب المعنى إلى الفهم إذ إن نسبة المتناهي - مهما عظمت - نسبتها إلى ما لا يتناهى لا تعدل شيئاً .

قوله تعالى : (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم)

فهو سبحانه يعلم علماً كلياً محيطاً بما يستقبل الإنسان من حوادث وعوالم ووقائع أبد الآبدين ، ويعلم ما مرّ عليه الإنسان فيما مضى .

قال تعالى : (هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنّة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) .

فهو سبحانه يعلم ما مرّ عليه الإنسان من عوالم قبل أن يظهر في عالم الدنيا ، فكان الإنسان في عالم الرّحم ، وكان قبلها في عالم الأصلاب إذ كان في صلب أبيه وكان أبوه في صلب جدّه ، وهكذا كانوا مجملين في أصلاب من قبلهم، وفي هذا يقول سبحانه مخاطباً أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: (إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية) .

أي : لما طغى الماء وجاوز الطوفان اليابسة كلها في زمن سيدنا نوح عليه السلام امتنّ الله تعالى على أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أنه حملهم في السفينة إذ كانوا في أصلاب من كان في السفينة من أولاد نوح عليه السلام.

وهذا قوله تعالى : (ذريّة من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً) .

^١ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن

وأما ما قبل عالم الأصلاب فينتهي أمرهم إلى آدم عليه السلام ، وقد خلق الله آدم عليه السلام من الأرض ففي الحديث :

[إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدَرِ الْأَرْضِ، جَعَلَ مِنْهُمْ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ وَالْأَسْوَدَ وَيَتَنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلَ وَالْحَرْنَ وَيَتَنَ ذَلِكَ، وَالْخَبِيثَ وَالطَّيِّبَ وَيَتَنَ ذَلِكَ]¹.

أي : فخلقوا على ألوان مختلفة وأخلاق وأمزجة مختلفة ، وليس للإنسان أن يزيي نفسه بالقول ويمدح نفسه ويثني على نفسه أنه تقي وأنه.. وأنه..، فإن كان تقياً فالله أعلم بتقواه وليجعل ذلك بينه وبين الله تعالى، وليسأل الله تعالى أن يستره ويجبره ويحسن العواقب والخواتيم .

وقبل أن يخلق الله تعالى آدم - وذريته في صلبه - من الأرض كان في عالم الماء كما قال تعالى : (أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي) وهو ماء الحياة الذي حوى العناصر التكوينية كلها وخلق الله منه كل شيء ، وليس للإنسان علم بذلك كله لولا أن الله تعالى علّمه ذلك ، وذكره في كتابه على لسان رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، فهو سبحانه عالم بالإنسان بالعلم الذي لا أول له .

واعلم أن العلم بالشيء سابق على وجود الشيء، وهذا أمر يثبته الإنسان ببدايته ، فلا يمكنه مثلاً أن يصنع شيئاً قبل أن يعلم ذلك الشيء ، وإذا علمت هذا فاعلم - والله المثل الأعلى - أن علم الله تعالى بالأشياء كلها سابق على خلقه لها ، ثم خَلَقَهَا سبحانه كما يعلم جلّ وعلا، وفي هذا يقول سبحانه : (ألا يعلم من خلق) .

أي : خالق الشيء هو أعلم به قبل أن يخلقه وبعد أن خلقه ، وهو أعلم بما فيه صلاحه وفساده لأنه هو خالقه ويعلم ما خلق فيه من طبائع وأمزجة وغرائز وشهوات ، وهكذا جاء شرعه جلّ وعلا للإنسان وفيه صلاحه وسعادته في الدنيا والآخرة .

¹ مسند الإمام أحمد ١٨٨١٣

وهو سبحانه كما قال جل وعلا : (والله بكل شيء عليم) فهو تبارك وتعالى يعلم ما كان ويعلم ما يكون ، ويعلم ما لا يكون كيف يكون لو كان . قال تعالى : (وكان الله بكل شيء عليماً) وفعل (كان) إذا دخل على فعل من أفعال الله تعالى يدل على القَدَم حيث لا زمان يدل عليه فهو مسلوب الزمان والحدوث ، والمعنى : كان سبحانه بالكينونة الأزلية الأبدية التي لا أوّل لها .

أما لما تقول : " كان فلان " فإنها تدل على زمن كان فيه كذا وكذا ..

فقوله تعالى : (وكان الله بكل شيء عليماً) أي : بالعلم القديم الذي لا أوّل له ولا آخر له ، فهو جل وعزّ عليمٌ بكل شيء أوجده ، ويعلم ما سيوجده ، ويعلم الشيء الذي لا يوجد كيف يكون لو أوجده ..

ومن هذا قوله تعالى مخبراً عن الكافرين المعرضين :

(ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولّوا وهم معرضون) .

فكان الكفار يسمعون القرآن من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذانهم حتى إذا باشر قلوبهم نفروا وأعرضوا مع أنهم يعلمون أنه الحق ، فأخبر سبحانه أنه لو علم فيهم خيراً لأسمع قلوبهم ، ويعلم جل وعلا أنه لو أسمع قلوبهم لجحدوا وأعرضوا .

وقال تعالى في الكفار لما يصيرون في الآخرة ويقفون على النار ويتمتّون الرجعة إلى الدنيا ليؤمنوا ويعملوا صالحاً قال فيهم تبارك وتعالى :

(ولو ترى إذ نُقِفُوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين * بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) .

ولا يعجب الإنسان من ذلك وهو أن الكفار لو ردّوا إلى الدنيا لعادوا إلى كفرهم وقد رأوا العذاب ورأوا جهنم وما فيها ، فإن الله تعالى ذكّر لنا ما وقع منهم في الدنيا حول ذلك ، وهو أنهم إذا ركبوا الفلك وعاهدوا الله إن هو أنجاهم ليؤمننّ ، قال سبحانه : (فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق) .. وهناك آيات كثيرة دلّت على هذا المعنى .

وقوله تعالى : (بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل) - أي : ظهر لهم من قضايا الإيمان الغيبية التي أخبرتهم الرسل عنها في حين أنهم كانوا في الدنيا يخفونها أي : عرفوها ولكنهم ستروها ولم يعترفوا بها بل جحدوا وأعرضوا ، وهذا معنى الكفر فهو الستر ، والكافر في الشرع هو الذي يستتر الحق ولا يعترف به بعد أن بان وظهر له .

ولما دخل أهل الجنة الجنة راحوا يحمدون الله جل جلاله على فضله عليهم فقالوا كما أخبر سبحانه عنهم : (الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض) أي : أرض الجنة (نتبوا من الجنة حيث نشاء)

فجاءهم جواب الحق جلّ وعلا : (فنعم أجر العاملين)

أي : أنكم يا أهل الجنة قد آمنتم وعملتكم ، وهذا أجركم ونعم هذا الأجر العظيم .

وقوله تعالى : (وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض)

إشارة إلى قوله تعالى : (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض) أي : أرض الجنة (يرثها عبادي الصالحون) .

واعلم أن جميع الأمور التي يفيضها الله تعالى ويخلقها هي معلومة عنده في الأزل بالعلم القديم الذي لا أول له ، وأما قوله تعالى : (كل يوم هو في شأن) أي : يظهر الأمور ويوجدتها كما علمها في الأزل ، فهي أمور يُبديها أي : يوجدتها ويظهرها ، ولا يبتديها لأنها ثابتة في علمه تعالى الذي لا أول له .

وقد حكى العلماء أن العلامة ابن الشجري رحمه الله تعالى كان يوماً يدرّس، فوقف رجل وقال له: ما معنى قوله تعالى: { كل يوم هو في شأن } فأطرق ابن الشجري ولم يحضره الجواب، ووعدته الجواب في الغد.

ثم ذهب مهتماً فبات تلك الليلة فرأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في النوم، فقال صلى الله عليه وسلم: [هذا الرجل الذي سألك هو الخضر، فإذا جاءك الغد فقل: الجواب: "هي شؤون يبدئها" -أي: يظهرها- "ولا يبتديها، يرفع قوماً ويضع آخرين"] .

فلما كان الغد , وجاء الخضر عليه السلام, أجابه ابن الشجري عن الآية كما علّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام.

فقال له الخضر عليه السلام: صل على من علّمك.^١ اهـ.

صلى الله عليه وآله وسلم أبداً أبداً أبداً.

ومعنى : "شؤون يبيديها " أي : يظهرها شيئاً فشيئاً ، " ولا يبتديها " لأنها ثابتة في علمه تعالى القديم الذي لا أول له .

وجاء في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم في بيان معنى قوله تعالى :
(كلّ يوم هو في شأن) أنه قال :

[مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبًا وَيُفْرِجَ كَرْبًا وَيَرْفَعَ قَوْمًا وَيَخْفِضَ آخَرِينَ]^٢.

وقال تعالى في بيان إحاطة علمه بكل شيء :

(واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه) أي : اعلّموا علماً قاطعاً جازماً يقينياً لا يقبل الشك والارتياب أن الله تعالى يعلم ما انطوت عليه نفس الإنسان، وما أضمره في نفسه، وما أخفاه في قلبه، بل هو سبحانه يعلم من الإنسان ما لا يعلمه الإنسان من نفسه، قال جل وعلا:
(وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السرّ وأخفى) .

يعني : إنه سبحانه يعلم السرّ الذي هو في قرار نفسك ولم تظهره ويعلم ما هو أخفى من السرّ وهي الأمور التي ستجري عليك وتفعّلها ، ولا تعلمها أنت ، وليست هي في نفسك الآن .

وقد أمر الله تعالى الإنسان أن يعلم ويؤمن أن الله يعلم ما في نفسه حتى يأخذ حذره من غضبه وعذابه جل وعلا ، وهذا قوله تعالى :

(فاحذروه) أي : احذروا وخافوا عذاب الله إن أنتم عصيتم الله خفية عن الناس .

^١ انظر كتاب (التقرب إلى الله تعالى) لمولانا الشيخ الإمام رضي الله عنه

^٢ سنن ابن ماجه في المقدمة

والله تعالى يعلم ما جال في صدوركم من خواطر ، وما استقرّ في قلوبكم من نيات وعزائم وهمم .

وقال تعالى : (ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم) .

فقوله تعالى : (إلا هو ثالثهم) كلمة (هو) تدل على غيبته سبحانه وتعالى عن أبصارهم لكنه جل وعلا معهم، يراهم ويطلع عليهم .

فقل لمن أراد معصية الله تعالى : ابحث عن مكان لا يراك الله فيه ، واعصه حيث لا يراك ، وأنت للإنسان ذلك لأن الله تعالى يقول : (وهو معكم أين ما كنتم) ويقول عز من قائل : (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا) .

وإذا كنت تستحي من أن يراك أبوك في حالة المعصية ، أفلا تستحي من الله تعالى الذي خلقك ورزقك وأمدك وهو يراك ويطلع عليك ، ألا تستحي من أن تعصيه جل وعلا ؟!

قال تعالى : (ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم) أي : يخبرهم سبحانه بأعمالهم يوم القيامة لما يُجاء بهم للحساب ، يخبرهم بأعمالهم عن علم وشهود منه جلّ وعلا .

قال تعالى : (إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه) وقال جل وعز : (فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين) أي : سوف يقص الله تعالى على كل عبد أعماله وأقواله وما صدر عنه مفصلاً ، كل ذلك بعلم منه جلّ وعلا ، ولم يكن سبحانه غائباً عن عبده ، بل كان شاهداً عليه ، وهذا قوله تعالى : (وما كنا غائبين) أي : بل كنا حاضرين شاهدين .

وقال تعالى : (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور)

أي : يعلم ما تخفي الصدور في ضمائر القلوب من نيات وعزائم وهمم وخواطر ووساوس ، ويعلم جل وعلا العين الخائنة التي تمتد إلى الحرام وتنظر إلى ما لا يحل ، ويعلم ما يصدر من العين من خيانة صاحبها بأن يشير إلى فلان مثلاً بالسخرية والاستهزاء وهكذا ..

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [لَتُغْضَنَ أَبْصَارُكُمْ، وَلَتُحْفَظَنَّ فُرُوجُكُمْ، وَلَتُقِيمَنَّ وُجُوهُكُمْ أَوْ لَتُكْسَفَنَّ وُجُوهُكُمْ] أي : يذهب نور الإيمان من الوجه حتى يبدو مظلماً في الدنيا ، مسوداً يوم القيامة .

ومن حفظ بصره عن الحرام أذاقه الله حلاوة الإيمان ، ففي الحديث عَنْ حُدَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: [النَّظَرَةُ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَسْمُومَةٌ، فَمَنْ تَرَكَهَا مِنْ خَوْفِ اللَّهِ أَثَابَهُ جَلٌّ وَعَزٌّ إِيْمَانًا يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ] ٢ .

وقال تعالى في بيان سعة علمه لكل شيء :

(هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير) .

وهذه الآية في سورة الحديد التي افتتحها سبحانه بقوله : (سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) .

والتسبيح على ثلاثة مراتب : فهناك تسبيح الحقيقة وتسبيح القول وتسبيح الحال .

١ المعجم الكبير للطبراني

٢ مستدرک الحاكم كتاب الرقاق

أما تسبيح الحقيقة فهو أن كل شيء يسبح الله تعالى، وأما تسبيح الحال فإن حال كل ذرة في الكون يدل على تسبيحها لله تعالى لأن الله تعالى هو الذي خلقها بعد أن كانت في العدم ، فكل ذرة في الكون تدل على أن هناك موجدأ أوجدها ، وخالقأ خلقها ، وأنه جل جلاله قادر عليم حكيم ، إذ لولا ذلك لما وُجدت على شكل معين وصورة محددة وحجم وكم وكيفٍ لائق مناسب ، إذاً كل شيء في الكون يدل على الله تعالى ويبين لك كمالات الله جل وعلا ، وينزه الله تبارك وتعالى عن النقائص .

فقد دلت الذرة الكونية على أن الله تعالى قادر ، وليس بعاجز ، وهو عليم ، وليس غير ذلك ، وهذا هو معنى التسبيح والتحميد الذي أشار إليه سبحانه بقوله : (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) .

أي : ما من شيء في الكون إلا يدل على أن لله المحامد والكمالات ، وينزهه عن النقائص والآفات ، وهذا تسبيح حقيقي ذاتي وتسبيح حال ، وتسبيح قال ، كما بين ذلك سبحانه بقوله : (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) .

أي : فلا قدرة لكم على سماع تسبيح الأشياء ، وقد تسمعون تسبيحها ولكن لا تفهمون منطقتها إلا إذا علمكم الله تعالى ، كما قال تعالى مخبراً عن سيدنا سليمان عليه السلام قوله : (علّمنا منطق الطير) والطير تسبح الله ، كما قال تعالى : (والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه) .

وقد علّم الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم وأطلعه على تسبيح الأشياء حتى الأشجار والأحجار والجمادات كلها^١.

^١ وهذا باب كبير تجده في موضعه في كتاب مولانا الشيخ الإمام (محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع العالم) في الجزء الأول .

قوله تعالى (له ملك السموات والأرض)

أي : هو وحده المدبّر لأمر السموات والأرض والمتصرف فيها وحده ، ولكي يبين أحقية ذلك قال تعالى : (يحيي ويميت) ، فهل غير الله مَنْ يحيي ويميت ؟ قوله تعالى : (وهو على كل شيء قدير * هو الأول) أي : السابق على جميع الموجودات ، وما من أول إلا والله تعالى قبله ، وهو جل وعلا الأول الذي لا أول له (والآخر) أي : الباقي ولا آخر له .

(والظاهر) أي : الظاهر بصفاته وآثار أسمائه في الكون كله ، فمن نظر في العالم يرى قدرة الله ، يرى عظمة الله ، يرى رحمة الله ، يرى علم الله ، يرى حكمة الله.. وهكذا

(والباطن) أي : هو الباطن من حيث الكنه وحقيقة ذاته جلّ وعلا ، فلا يمكن لمخلوق أن يدرك كنهه وحقيقة ذات الله سبحانه .

وقال تعالى : (الله نور السموات والأرض) أي : به ظهرت من ظلمة العدم ، فهو سبحانه نورها أي : مظهرها ، ومن شأن النور أن يُظهر الأمور دون أن يحلّ فيها ، فلو أنك دخلت غرفة مظلمة لا ترى فيها شيئاً ، ولا تميز الباب من النافذة من الأريكة فإذا أوقدت المصباح راح نور المصباح يُظهر لبصرِكَ ما في الغرفة من أشياء ومتاع ، ولكن هذا النور لم يحلّ أو يتحد في هذه الأشياء التي أظهرها ، فافهم .

وإن الذي أعطى الشمس نورها وأظهرها هو أعظم ظهوراً منها ، وما من ظاهر إلا والله تعالى أظهر منه ، وما من نيرٍ إلا والذي نوّره أشدّ نوراً منه .

قوله تعالى : (يعلم ما يلج في الأرض) أي : ما يدخل في الأرض من قطرة الماء حين تنزل ، فيعلم أين مستقرها وما هو أثرها ، ويعلم ما يدخل في الأرض من حبة نبات ونواة ثمرة زرعتها الإنسان وأخفاها في الأرض ، وهو سبحانه يعلم عن هذه الحبة هل ستنبت وتثمر أم لا ، ويعلم جلّ وعلا ما أودع في الأرض من معادن ونيابيع ومخازن وكنوز وجميع ما فيها ، ويعلم سبحانه (وما يخرج منها) من نبات وزروع ومعادن وماء متنوع في تراكيبه وغير ذلك .

(وما ينزل من السماء) أي : ما ينزل من السماء من كل شيء خزائنه عند الله تعالى كما قال عز من قائل : (وإن من شيء) أي : وما من شيء (إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) ويشمل هذا ما يراه الإنسان كالمطر وما لا يراه .

(وما يعرج فيها) من ملائكة الله ومن أرواح المؤمنين حين تفارق أبدانهم ومن أعمال الصالحين التي تصعد إليه سبحانه .

قوله تعالى : (وهو معكم أين ما كنتم) وقد ذكر سبحانه هذا المعنى في عدة آيات حتى يوقن الإنسان بذلك ، لأن من أيقن بالشيء حمله يقينه على الاحتراز منه ، ومعية الله تعالى للإنسان معية منزّهة عن الشبه والمثل ، فليست معية جسم ، ولا معية روح ، ولا معية تشبه معية الملائكة الحافظين ، بل هي معية من ليس كمثله شيء جلّ وعلا .

ومن علم وأيقن أن الله تعالى معه استحيا من الله ، ولا يبلغ الإنسان حقيقة الإيمان وكمال الإيمان حتى يتحقق بهذا كما قال صلى الله عليه وسلم ^١ : [إن أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت] ^٢ .

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم ^٣ : [ثلاث من فعلهن فقد طعم طعم الإيمان : من عبد الله وحده فإنه لا إله إلا الله ، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه ، رافدة عليه في كل عام ، ولم يعط الهرمة ولا الدرنه ولا الشرط اللئيمة ولا المريضة ^٤ ، ولكن من أوسط أموالكم ، فإن الله لم يسألكم خيره ولم يأمركم بشره ، وزكى نفسه ، فقال رجل : ما تزكية المرء نفسه ؟ قال : أن يعلم أن الله معه حيثما كان] ^٥ .

^١ رواه الطبراني في الأوسط والكبير

^٢ مسند الشاميين للطبراني

^٣ كما في سنن البيهقي الكبرى

^٤ قال في عون المعبود شرح سنن أبي داود: الدرنه - بفتح الدال بعدها راء مكسورة - هي الجرباء ، والشرط - بفتح الشين و الراء هي صغار المال وشراره واللئيمة هي البخيلة باللبن.

^٥ رواه البخاري في التاريخ الكبير والبيهقي في السنن الكبرى والطبراني في المعجم الصغير وابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني وأبو نعيم في معرفة الصحابة

يعني : أن ذلك يحمله على التباعّد عن المعاصي والعمل بالصالحات ،
ويكون بذلك يسعى في تزكية نفسه بالتخلي عن الرذائل والتحلي
بالمحاسن ، والتطهّر عن الدنس والرّجس ، والتطيب بالجمال والكمال .

وقال جل جلاله في سورة طه : (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا
يحيطون به علماً) .

فهو سبحانه محيط علماً بكل شيء ، فلا يُحاط به علماً ، وكيف يحيط
المخلوق بمن هو محيط به ؟!

وكيف للمخلوق الممكن المحدود في علمه أن يحيط علماً بمن لا نهاية
له جل وعلا ؟! وكيف يسع المتناهي من لا يتناهي ؟!

وعلم الله تعالى بالأشياء كلها على حدّ واحد ، فهو جل وعلا يعلم العرش
وعظمه وكبره ، ويعلم ذرة الغبار في الفضاء ، كل ذلك على حدّ سواء في
علمه سبحانه ، لأن علمه سبحانه لا يتناهي ، ونسبة المتناهي مهما كان
كبيراً أو صغيراً إلى ما لا يتناهي هي على حدّ واحد .

وقال تعالى : (ق والقرآن المجيد * بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال
الكافرون هذا شيء عجيب * أئذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد * قد علمنا
ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ) وهذا لما أنكر المشركون
البعث بعد الموت والحساب في الآخرة زعماً منهم أن أجسامهم وعظامهم
ستبلى وتصير تراباً وتختلط في تراب الأرض وتمضي عليها الدهور ، فأَي
علم يميّز تراب أجسامهم عن تراب الأرض ؟ وأي قدرة ستجمع ذلك
وتبعثه من جديد ؟!

فقال تعالى في الردّ عليهم : (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) أي : ما
تأخذه الأرض من أجسامهم وعظامهم ويتحول إلى تراب .

(وعندنا كتاب حفيظ) يحفظ ذرات الأجسام والعظام ، والكتاب الحفيظ
في الآية هو عالم كبير جمع الله فيه وحفظ ذرات الأجسام الإنسانية .

وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [كَانَ رَجُلٌ يُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ فَلَمَّا حَصَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ لِبَنِيهِ: إِذَا أَنَا مِتُّ فَأَخْرِقُونِي ثُمَّ اطْحَنُونِي ثُمَّ ذَرُونِي فِي الرِّيحِ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا، فَلَمَّا مَاتَ فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ فَأَمَرَ اللَّهُ الْأَرْضَ فَقَالَ: اجْمَعِي مَا فِيكَ مِنْهُ، فَفَعَلَتْ فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: "يَا رَبِّ حَشِيَّتُكَ" فَغَفَرَ لَهُ^١.

وفي رواية مسلم : [فَغَفَرَ لَهُ بِذَلِكَ]^٢.

وقال تعالى : (قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض والله على كل شيء قدير) .

وقوله تعالى : (ما في صدوركم) أي : ما في قلوبكم ، وإنما يذكر الصدر لأن القلب في ساحة الصدر ، وإن الشيء قبل أن يدخل في القلب لا بد أن يمرّ على الصدر ، وكذا إذا خرج من القلب فلا بد أن يمرّ على الصدر ثم يظهر.

وقال عز من قائل : (والله عليم بذات الصدور) أي : بالقلوب التي في الصدور ، فهو جل وعز عليم بما في القلب ، وعليم باستعداد القلوب.

وفي الحديث القدسي :

[وَأَنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يَصْلُحُ لَهُ إِلَّا الْغِنَى] أي : سعة المال [وَلَوْ أَفْقَرْتُهُ أَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَأَنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يَصْلُحُ لَهُ إِلَّا الْفَقْرُ، وَلَوْ بَسَطْتُ لَهُ أَفْسَدَهُ ذَلِكَ]

وهذا في حقّ أهل العناية الذين تولاهم الله بولايته كما دلّ عليه صدر الحديث : [مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَادَرَنِي بِالْمُحَارَبَةِ]

ودلّ عليه أيضاً قوله تعالى في الحديث القدسي المتقدم : [وَإِنْ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ] أي : كَمَلِ الإيمان .

^١ صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء

^٢ صحيح مسلم كتاب التوبة

[وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ يُرِيدُ الْبَابَ مِنَ الْعِبَادَةِ] أي : يريد أن يصل إلى درجة من العبادة أكثر مما هو عليها .

[فَأَكْفَهُ عَنْهُ لَيْلًا يَدْخُلُهُ الْعُجْبُ، فَيُفْسِدُهُ ذَلِكَ] أي : والعجب مفسدة في حقه لأنه يحبط عمله، فأن يبقى المؤمن في نوع من العبادة ويرى نفسه مقصراً عن بلوغ غيرها ويرجو من الله تعالى أن يعطيه أجر تلك العبادة التي لم يستطع فعلها ، هذا خير له من أن يدخلها ويدخل عليه العجب لذلك يكفه الله عنها رحمة وعناية به .

[وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيْمَانَهُ إِلَّا الصَّحَّةُ وَلَوْ أَسْقَمَتْهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ "، أَظْنُّهُ قَالَ: " وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيْمَانَهُ إِلَّا السَّقَمُ، وَلَوْ صَحَّحْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، إِنِّي أَدَّبَرُ عِبَادِي بِعِلْمِي بِقُلُوبِهِمْ، إِنِّي بِهِمْ عَلِيمٌ خَيْرٌ]^١.

فسل الله تعالى أن يوفقك لما هو خير لك ولا تمل عليه إرادتك فهو تعالى أعلم بما فيه صلاح دينك وما انطوت عليه نفسك وما استعد له قلبك .

^١ انظر الأسماء والصفات للبيهقي

حول معاني سورة : (قل هو الله أحد)

قال الله تعالى : (قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد) .

(كُفُواً) بضم الكاف والفاء، والمعنى : ولم يكن أحد كفواً ولا نظيراً ولا شبيهاً له جلّ وعلا .

وتسمى هذه السورة : "سورة التوحيد" و"سورة الإخلاص" أي: إخلاص التوحيد لله تعالى، و"سورة التجريد" ^١ أي: تجريد التوحيد عن الشبه والمثيل، ومن قرأ هذه السورة أعطاه الله تعالى ثواب ثلث القرآن إجمالاً كما دلّ عليه قوله صلى الله عليه وسلم : [أَيُعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ فِي لَيْلَةٍ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟ قَالُوا: وَكَيْفَ يَقْرَأُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ] ^٢.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [اِحْشُدُوا] أي: اجتمعوا [فَإِنِّي سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، فَحَشَدَ مَنْ حَشَدَ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَرَأَ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) ثُمَّ دَخَلَ، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ: إِنِّي أَرَى هَذَا خَبَرٌ جَاءَهُ مِنَ السَّمَاءِ فَذَلِكَ الَّذِي أَدْخَلَهُ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنِّي قُلْتُ لَكُمْ سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، أَلَا إِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ] ^٣.

^١ انظر تفسير الرازي للسورة الكريمة

^٢ صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها

^٣ صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها

وقد جاء في فضائل هذه السورة أحاديث كثيرة ، لأنها سورة التوحيد أي: توحيد الله نفسه جلّ وعلا، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

[من قرأ (قل هو الله أحد) عشر مرات بني له بها قصر في الجنة ، ومن قرأها عشرين مرة بني له بها قصران في الجنة ، ومن قرأها ثلاثين مرة بني له بها ثلاثة قصور في الجنة، فقال عمر بن الخطاب: والله يا رسول الله إذا لتكثرن قصورنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أوسع من ذلك]¹، واعلم أن من بنى الله له قصرًا في الجنة فإنه سبحانه لا يهدمه ،

بل لا بد لذلك المؤمن أن يدخله أي: يدخل قصره ، ويعني هذا أنه سيُخْتَم له في الدنيا بالإيمان ويموت على الإيمان حتى يدخل الجنة ويدخل قصوره التي بناها الله له بقراءته سورة الإخلاص .

وفي الحديث الذي رواه الدارمي : [من قرأ (قل هو الله أحد) خمسين مرة غفر الله له ذنوب خمسين سنة]².

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: [جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنِّي أَحِبُّ هَذِهِ السُّورَةَ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ]³.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ الْيَهُودَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " يَا مُحَمَّدُ صِفْ لَنَا رَبَّكَ الَّذِي بَعَثَكَ " فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)⁴.

فقوله تعالى : (قل هو الله أحد) جاء في سياق الجواب عن سؤالهم.

وقد قيل لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (قل هو الله أحد) فقال كما قيل له، أي: كما قال الله تعالى له .

¹ سنن الدارمي كتاب فضائل القرآن

² سنن الدارمي كتاب فضائل القرآن

³ مسند الإمام أحمد ١١٩٨٢

⁴ كما في الأسماء والصفات للبيهقي

وقد سئل أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ عَنِ الْمُعَوِّذَتَيْنِ فَقَالَ: إِنِّي سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: قِيلَ لِي: (قُلْ) فَقُلْتُ .. الحديث^١

قوله تعالى : (قل هو الله أحد):

(قل هو) يدل على أن كلمة (هو) اسم من أسماء الله يدل على الغيب المطلق عن الإدراك والإحاطة به، بل هو كما هو جل وعلا ، ولا يعلم كيف هو إلا هو عز وجل ، ولا يمكن لمخلوق أن يدرك حقيقة (هو) ولا كنه ذاته جلّ وعلا ، كما قال تعالى :
(ولا يحيطون به) أي بـ [هو] (علماً).

وإنما يعلم المخلوق من أسماء الله تعالى وصفاته ما علّمه الله في القرآن وعلى لسان خير الأنام صلى الله عليه وسلم، وذلك لأن المخلوق متناهٍ في عقله وفكره ومداركه وقلبه، أما الله تعالى فلا يتناهى في ذاته ولا في صفاته ، وكيف يصحّ للمتناهي أن يحيط بمن لا يتناهى جل وعلا ؟ !!

فقوله تعالى: (قل هو) دلّ على الذات الإلهية والكنه الإلهي الذي لا يمكن إدراكه ومعرفة حقيقته، ثم ذكّر سبحانه باسم (الله) فقال عز من قائل :
(قل هو الله) أي : ليعرفه الخلق بأسمائه وكمالاته جل وعلا ، وأجمعُ الأسماء الإلهية هو اسم (الله)، وهو اسم علم يدل على الذات الإلهية المتصفة بجميع الكمالات والمنزهة عن النقائص والآفات .

قوله تعالى: (قل هو الله أحد) وفي هذا المعنى قال سبحانه : (وهو الواحد القهار) فهو سبحانه أحد واحد ، حقيقة لا عدداً .

وهناك فرق كبير بين الوحدة المطلقة التي هي لله وحده والوحدة العددية ، وذلك لأن الواحد أمر اعتباري ويقبل التعدد ، فلو كان أمامك جماعة من الناس ، وطلب منك عدّهم فبدأت بالعدّ من زيد مثلاً وأعطيته رقم واحد ، ثم ببكرٍ لأعطيته رقم اثنين وهكذا، فأنت الذي اعتبرت زيدا بعددك "الواحد" ولو ابتدأت العدّ ببكرٍ لأخذ رتبة "الواحد" وهكذا ..

^١ كما في مسند الحميدي بهذا اللفظ وأصله في صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن

فالواحد العددي أمر اعتباري ، وهو يقبل التعدّد ، لأنك لما تقول : (اثنان) تعني بذلك واحداً وواحداً ، وهكذا فالثلاثة هي واحد وواحد وواحد، وعلى هذا المعنى قامت وحدة المخلوقات، فكل إنسانٍ واحدٌ لكنه يقبل التعدد أثناء العدّ والاعتبار، أما وحدة الله تعالى فهي الوحدة الحقيقية المطلقة التي لا تقبل التعدّد ، لأنه جل وعلا لا إله آخر يُعدُّ معه ، فلا واحد على الحقيقة ولا أحد على الحقيقة إلا الله تبارك وتعالى.

ولما بيّن سبحانه أنه أحد دلّ على أنه ليس قبله أحد ، وهذا ما جاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: [لَا يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يُقَالَ هَذَا: "خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ فَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ؟" فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلْيَقُلْ: "آمَنْتُ بِاللَّهِ"]^١.

وفي رواية : [فَإِذَا قَالُوا ذَلِكَ فَقُولُوا: (اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)، ثُمَّ لِيَتَفَلَّحْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا وَلْيَسْتَعِذْ مِنَ الشَّيْطَانِ]^٢.

وهذا جواب بيّن فيه صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى أحد ، وليس مثل الأحد أحد ، وإذا كان الواحد الاعتباري العددي لا أحد قبله فكيف بالأحد الحقيقي ؟!

ألا ترى أنك إذا شرعت في العدّ تبدأ من قولك : واحد اثنان وهكذا؟..

ولو سُئِلت : لم ابتدأت بقولك : "واحد" ؟ لقلت : إنه ليس قبل الواحد أحد حتى أبدأ العدّ منه ؟ فإذا كان هذا في الواحد العددي فما بالك بالواحد الحقيقي المطلق ؟! وهو الله تعالى الذي هو الأول الذي لا أول له، ولا أحد قبله ، وهو سبحانه أحد لا يقبل التعدّد ، فلا إله معه لأن ذاته سبحانه لا نهاية لها ، وقدرته لا تتناهى، وعلمه لا يتناهى، وهكذا سائر كمالاته جل وعلا لا تتناهى، وهو سبحانه غني عما سواه، فما الحكمة من أن يكون معه إله آخر ؟!

^١ صحيح مسلم كتاب الإيمان

^٢ سنن أبي داود كتاب السنة

قوله تعالى: (الله الصمد):

وفي هذا حجة على المنكرين لأن آثار اسمه سبحانه (الصمد) مشهودة بالعيان مثبتة بالجنان لدى كل إنسان، فلا يمكن لعاقل أن ينكر وجود الله تعالى لأن آثار اسم (الصمد) ظاهرة في الأكوان كلها ، فما معنى اسمه جل وعلا (الصمد)؟

الصمد هو المقصود في جميع الأمور والحاجات .

ويقال في لغة العرب : صمد القوم إلى أميرهم أي: قصدوه في مهماتهم.

ويقال : صمدوا له وصمدوا إليه^١

فالصمد هو المصمود إليه أي: المقصود ، فهو سبحانه غني عما سواه ، وكل ما سواه مفتقر إليه تبارك وتعالى في كل شيء، فهم صامدون إليه سبحانه أي: قاصدوه، يقصدونه دائماً في حاجاتهم وأمورهم كلها.

ومن آثار اسم (الصمد) أنه سبحانه سدّد لكل مخلوق حاجاته وما فيه بقاء وجوده وصلاح حياته في الدنيا والآخرة .

فمن حاجات الإنسان الدنيوية والتي يتوقف عليها استمرار حياته أن سخر له الشمس والقمر والماء والهواء، قال تعالى :

(الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار * وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار * وآتاكم من كل ما سألتموه) أي: سؤال حال وحقيقة ، إذ إن الإنسان لم يسأل الله ذلك بقلبه أي بلسانه قبل أن يخلق الله الشمس والقمر والهواء والماء، بل إن ذرات الإنسان وحقيقته تسأل الله تعالى ذلك ليبقى على الإنسان وجوده ويستقيم أمر حياته .

^١ انظر لسان العرب ٢ / ٢٨٥

وإن سؤال الذات والحقيقة أمر واقعي مشهود ، فكل ذرة في الإنسان تسأل الله تعالى أن يمدّها لِمَا أوجدها له ، فالمعدة تسأل الله تعالى أن يمدّها لتَهضم الطعام وكذا القلب والأحشاء ، في حين لم يسأل الإنسان ربّه ذلك بلسانه.

فقوله تعالى : (وآتاكم من كل ما سألتموه) أي: سؤال ذات وحقيقة بدليل قوله سبحانه : (وإن تعدوا نعمة الله) أي: عليكم (لا تحصوها).

ولا تفهم من قوله تعالى: (من كل ما سألتموه) سؤال الدعاء باللسان !

إذ قد يسأل الإنسان ربّه ويدعوه لأمر فيجيبه إليها، وأمور يؤخرها له في الآخرة ، وقد يصرف عنه من المساوئ ما هو يعلمه جل وعلا ، فالله عز وجل لم يعط عبده كل ما سأله بلسانه في الدنيا، إذّا ليس المراد من قوله تعالى : (ما سألتموه) سؤال اللسان بل سؤال الحقيقة الوجودية .

وهذا العطاء والإمداد الإلهي للخلائق هو تسديد حاجاتهم، فمن هو الذي يسدّد حاجات العباد ؟ إنه هو الله (الصمد) أي المقصود في جميع الحاجات .

وقال تعالى : (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد * إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وما ذلك على الله بعزيز) .

والفقر في الآية هو الفقر الذاتي الوجودي ، لا فقر الحال ، فكل الناس فقراء إلى الله ، بل كل ذرة منهم فقيرة إلى الله بذاتها ووجودها ، وتسأله دائماً أن يمدّها بالوجود والحياة والغذاء والهواء و ...

والله تعالى هو الغني بذاته عن غيره ، وهو الذي يمدّ كل ذرة في الوجود بقوله جل وعز : (كن) حتى يبقى عليها كيانها ووجودها ، ولو قطع سبحانه مدد التكوين عن المكوّن لحظة لرجع إلى العدم .

ورؤي مرة الإمام زين العابدين بن الحسين رضي الله عنهما متعلقاً بأستار الكعبة يدعو :

ألا أيها المقصود في كل حاجة شكوت إليك الضرّ فارحم شكايي
ألا يا إلهي أنت تكشف كربتي فهب لي ذنوبي كلها واقض حاجتي
أتحرقني بالنار يا غاية المنى فأين رجائي ثم أين مخافتي^١

وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: [أَنْفَقَ أَنْفَقَ عَلَيْكَ، وَقَالَ: يَدُ اللَّهِ مَلَأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةً، سَحَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَبِيَدِهِ الْمِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ]^٢.

وهذا الميزان هو الذي ذكره سبحانه بقوله : (والسمااء رفعها ووضع الميزان) وهو ميزان العدل والقسط الإلهي فيخفض ويرفع ويعزّ ويذلّ ويبسط ويقبض وهو المتصرف جل وعلا .

فقوله تعالى : (وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها) إذ (إن الإنسان لظلوم) لنفسه (كفّار) لنعم ربه عليه .

أي : فتطهر أيها المسلم من صفة الظلم والنكران ، واشكر الله على نعمه عليك ، ولا تظلم نفسك بأن تعصي الله فتعرضها لعذابه ، ولا تحرم نفسك النعيم في الآخرة بل أقبل على عبادة الله لتنال هذا النعيم .

وقوله سبحانه : (وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها)

وذلك لأن النعمة الواحدة بظاهرها قد انطوت فيها نِعَم كثيرة لا تحصى فلو تفكرت في قطعة الخبز التي تأكلها كم من نعمة لله فيها عليك حتى وصلت إليك لفهمت قوله تعالى : (وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها) .

^١ انظر المستطرف ١ / ١٣٣

^٢ صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن

النهى عن البحث في حقيقة الذات الإلهية العلية

قد يُشكل على الإنسان فهم قوله تعالى : (قل هو الله أحد)
فلم جيء بقول: (قل هو) ولم يُكتَفَ بقول : " قل الله أحد " ؟
إن كلمة (هو) في الآية لها معنى كبير ، وذلك حتى يبين الله لعباده أن
الهوية الذاتية الإلهية والكنه الإلهي غيب مطلق عن المخلوق ،
فلا يمكن لمخلوق أن يدرك حقيقته جل وعلا أو أن يحيط به علماً ..
فمعنى (قل هو) أي : هو كما هو لا يعلم كيف هو إلا هو عز وجل ،
وذلك لأنه هو سبحانه لا يتناهى ، والمخلوق مُتَنَاهٍ بذاته وعقله وقلبه
ومداركه ، وكيف يتسع المتناهي من لا يتناهى ؟!
ومن جهة أخرى فإن الله تعالى (ليس كمثله شيء) ، فلا يمكن للمخلوق
أن يحيط به علماً ولا يمكنه أن يتصور حقيقة مَنْ ليس كمثله شيء
سبحانه وتعالى .

وقد حذّر جل جلاله ونهى الإنسان عن البحث في حقيقة ذاته تبارك
وتعالى ، وأحاله وأمره أن يعرفه بأسمائه التي هو سبحانه علّمها خلقه في
كتابه العظيم وعلى لسان رسوله الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه
وسلم ، وفي هذا يقول سبحانه : (ويحذركم الله نفسه)
أي : احذروا أن تبحثوا عن حقيقة الذات الإلهية ، لأن من راح يبحث عن
حقيقة ذات الله تعالى فقد ظن أن ذاته تعالى تشبه ذوات المخلوقات
فوقع عندئذ في التشبيه والمماثلة ، وهذا باب في الشرك ، والله تعالى لا
شريك ولا نظير ولا مثل ولا شبيه له ، كما قال تعالى : (ليس كمثله شيء) .
ونُقل عن سيدنا أبي بكر رضي الله عنه قوله :

العَجْزُ عَنْ دَرَكِ الإدْرَاكِ إدراكُ وَالبُّحْثُ عَنْ سِرِّ ذاتِ الربِّ إشراكٌ^١

^١ انظره في كتاب "حول تفسير سورة الإخلاص" ص ٢٣ للشيخ الإمام رضي الله
عنه ، وقد عزاه بعضهم إلى سيدنا علي كرم الله وجهه ورضي عنه

فإن معرفة العبد وإدراكه أنه عاجز عن إدراك حقيقة الذات الإلهية هما غاية ما يمكن للعبد إدراكه ومعرفته ، وإنما يعرفه سبحانه بأسمائه وصفاته جل وعز ، ومن أراد أن يبحث عن حقيقة ذات الله تعالى فقد اعتقد أن الله كخلقه ، لأن الخلق يمكن التعرف إلى ذواتهم ، وبهذا يكون الإنسان قد جعل الناس شركاء مع الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وفي هذا يقول سبحانه : (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) ، وكلمة (الأبصار) تطلق على معنيين :

بصر العينين اللتين هما في الوجه ، وبصر القلب ويقال عنه : بصيرة وتجمع على بصائر ، وهذان المعنيان ذكرهما سبحانه في قوله لما أخبر عن البرق : (يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار) أي : أبصار العيون ، يعني أن شدة ضوء البرق يكاد يذهب ببصر من حدّق بعينه ناظراً إليه .

(يقلّب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار) أي : أبصار القلوب لأنهم هم أهل الاعتبار والمعرفة ، فلما قال سبحانه : (لا تدركه الأبصار) يعني : لا تدركه أبصار العيون ولا تدركه أبصار القلوب ، يعني : لا تدرك حقيقته ولا تحيط به جلّ وعلا ، لأن الإدراك بالشيء يعني الإحاطة به وبلوغ الغاية والنهاية منه ، فيقال : " أدركته " إذا مشيت وسعيت طويلاً حتى حصلت عليه ، ومن ذلك ما أخبر سبحانه عن أصحاب موسى عليه السلام لما تبعهم فرعون بجنوده وكان البحر أمامهم : (فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون) وعلى هذا المعنى : فلا يمكن لبصر الإنسان ولا لبصيرته أن يدرك الغاية والنهاية في معرفة حق الله تعالى ، فلا تحيط به سبحانه الأبصار رؤية ، ولا تدركه البصائر القلبية علماً ولا معرفة .

ألا ترى - والله المثل الأعلى - أنك تنظر إلى السماء فتراها ولا يمكنك أن تقول : إني لا أراها ، ولكنك لا تحيط بها نهاية ولا حقيقة ، وكذلك ترى الشمس ولكنك لا تحيط بها ولا تدرك حقيقتها ببصرك ، بل يكلّ بصرك ويعجز إذا أطال النظر إليها ، فإذا كان الإنسان عاجزاً عن إدراك حقيقة السماء والشمس وغيرها من المخلوقات فأنتي له أن يدرك حقيقة ذات الله جل جلاله بصرًا وعلماً ومعرفة !!؟

فلا تنافي ولا تعارض بين قوله تعالى : (لا تدركه الأبصار) وبين قوله تعالى :
(وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة) ، لا تعارض بينهما إذا فهمت ما تقدم
بيانه ، إذ لا يلزم من رؤية الشيء الإحاطة به أو إدراك حقيقته فافهم .

وفي الحديث الذي رواه الإمام البخاري عن سيدنا جرير رضي الله عنه
قال: [خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ فَقَالَ: إِنَّكُمْ
سَتَرُونَ رَبَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا تَرُونَ هَذَا لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ]¹.

وقوله صلى الله عليه وسلم : [كما ترون هذا] التشبيه هنا من حيث
الظهور وعدم الخفاء، لا من حيث الهيئة والكيفية، فهو سبحانه أجل
وأعظم وليس كمثله شيء، وفي رواية : [إنكم سترون ربكم عياناً]² أي:
ظاهراً جلياً يتجلى عليكم بالرؤيا بلا خفاء ، حيث يراه جميع أهل الجنة .

وفي الحديث أَنَّ النَّاسَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ:
هَلْ تَمَارُونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟ قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ،
قَالَ: فَهَلْ تَمَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟ قَالُوا: لَا]

وفي مسند الإمام أحمد : [هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ نِصْفَ النَّهَارِ؟]
[قَالَ: فَإِنَّكُمْ تَرُونَهُ كَذَلِكَ]³، أي: يتجلى سبحانه تجلياً ظاهراً على جميع
أهل الجنة ..

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
قَالَ: [إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَسُوقًا يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ، فَتَهْبُ رِيحُ الشَّمَالِ فَتَحْثُو فِي
وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ، فَيَرْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالًا فَيَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ وَقَدْ
ارْدَادُوا حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُوهُمْ: وَاللَّهِ لَقَدْ ارْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا
وَجَمَالًا ، فَيَقُولُونَ: وَأَنْتُمْ وَاللَّهِ لَقَدْ ارْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا]⁴.

¹ صحيح البخاري كتاب التوحيد

² صحيح البخاري كتاب التوحيد

³ صحيح البخاري كتاب الأذان

⁴ صحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها

وفي سنن الترمذي : [إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَسُوقًا مَا فِيهَا شِرَاءٌ وَلَا بَيْعٌ إِلَّا الصُّورَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، فَإِذَا اشْتَهَى الرَّجُلُ صُورَةً دَخَلَ فِيهَا]^١.

وهذا التجلي بالجمال والكمال والحسن والبهاء هو استعداد لتجلي رب العالمين عليهم بالرؤيا وهو ما ورد في قوله تعالى : (وجوه يومئذ ناضرة) أي: عليها البهاء والحسن والجمال (إلى ربها ناظرة).

^١ في كتاب صفة الجنة

حول معاني اسمي الله تعالى (الرحمن الرحيم)

قال تعالى : (الرحمن على العرش استوى).

وقال سبحانه : (إن ربكم الرحمن).

وقال جل وعلا مخبراً عن الملائكة الكرام عليهم السلام قولهم:

(ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً).

وقال جل جلاله : (ورحمتي وسعت كل شيء)..

فقوله تعالى : (الرحمن) هو اسم جامع من أسماء الله تعالى يدلّ على أنه

سبحانه متصف بالرحمة العامة التي عمّت كل شيء ، فهو رحمن

بالمؤمنين والكافرين والفاسقين وسائر الأشياء من المخلوقات والبهائم

والحيوانات، يدل على ذلك قوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى)

وعالم العرش محيط بالعوالم كلها ، فاسم الرحمن محيط بالعوالم كلها ،

وذلك لفقر العوالم كلها وحاجتها إلى اسم (الرحمن).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

[لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ] وفي رواية : [لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ]^١

[كَتَبَ فِي كِتَابِهِ وَهُوَ يَكْتُبُ عَلَى نَفْسِهِ وَهُوَ وَضَعُ عِنْدَهُ عَلَى الْعَرْشِ:

إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي]^٢.

وهذا معنى قوله تعالى : (كتب على نفسه الرحمة)، ومعنى قوله

سبحانه: (ورحمتي وسعت كل شيء) فهو سبحانه أوجب على نفسه أن

يرحم جميع خلقه حتى الكفار يرحمهم بالرحمانية العامة والتي من آثارها

أن يمدّهم بالغذاء والماء والهواء ويمدّهم بالمال والبنين و...

^١ صحيح مسلم كتاب التوبة

^٢ صحيح البخاري كتاب التوحيد

وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ، أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَغْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللَّهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]¹.

وهذا الحديث فيه البشارة بسعة رحمة الله تعالى ، وفيه التخويف من عذاب الله تعالى ، وبيان شدة حاجة العالم إلى رحمة الله يوم القيامة حتى إنه سبحانه يرحم الخلائق بالمئة جزء كلها، فما أعظم أهوال يوم القيامة حتى احتاج الناس إلى تلك الرحمة!

وأما اسمه جل وعلا (الرحيم) ففيه الرحمة الخاصة كما قال تعالى :
(يختص برحمته من يشاء) وهي للمؤمن فقط كما قال تعالى :
(وكان بالمؤمنين رحيماً).

واعلم أن الله تعالى ولو أدخل الكافر جهنم لكنه لا يقطعه عن رحمانيته كما قال تعالى مخبراً عن سيدنا إبراهيم عليه السلام قوله :

(يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن) وذلك أن الكافر إنما دخل جهنم بمقتضى العدل الإلهي ، ثم إن نسبة عذابه في جهنم لا تزيد عن مدة استحقاقه ، وليست شدة العذاب واحدة على الكافرين كلهم في جهنم فهناك من الكفار مَنْ ظلم وطغى وبغى ، ومنهم من كفّ عن الناس شرّه ، ومنهم من سعى في إعانة الناس في أمور الدنيا، وهكذا فلا يتساوى هؤلاء في شدة العذاب وإن كان جميع الكفار خالدين في النار من حيث المدة .

¹ صحيح مسلم كتاب التوبة

وقد ذكر سبحانه مظاهر وآثار اسم (الرحمن) في سورة كاملة سماها سورة (الرحمن)، وفيها يقول سبحانه : (الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان) ، وفيها يذكر سبحانه النعم الكبرى على عباده ويمتنّ عليهم بها فيقول عز من قائل: (فبأي آلاء ربكما تكذبان) أي: بأي نعم ربكما يا معشر الجن والإنس تكذبان؟! والحال أنكم لا تستطيعون إنكار نعم الله عليكم لأنها مشهودة لديكم ، وفي قوله تعالى : (فبأي آلاء ربكما تكذبان) : استفهام تقريرى ، يعني : لا يسع الإنسان والجن إلا أن يعترفوا ويقرّوا بنعم الله عليهم ، فهو سبحانه يقرّهم بنعمه عليهم .

لقد افتتح الله تعالى السورة بقوله : (الرحمن) ليبين أنه ذكر في هذه السورة مظاهر رحمته العامة والخاصة ، وذكر فيها جملاً من الآلاء والنعم التي تفضّل بها على عباده .

وأول وأعظم رحمة رحم الله بها عباده هي إنزاله القرآن الكريم على سيد الأنام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وتعليمه له لأن فيه سعادة الدنيا والآخرة، وهذا قوله تعالى : (علّم القرآن)

فذكر نعمة العلم ثم الخلق وذلك لفضل العلم ومكانته ومنزلته .

وقد أنزل الله تعالى القرآن وعلمه سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ، وفي ذلك رحمة للعالمين كما قال تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ، وقال جل وعلا : (حم * تنزيل من الرحمن الرحيم)

فلقد علّم سبحانه القرآن أول إنسان وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فعلمه أولاً تلاوة القرآن ، وعلمه معاني القرآن التي تتوقف عليها مصالح وسعادة بني الإنسان في الدنيا وفي الآخرة ، ثم أمره أن يعلم الناس كما قال تعالى : (ويعلمهم الكتاب والحكمة) .

وهذا قوله تعالى : (علّمه البيان) أي : علّمه بيان القرآن ليبينه للناس

كما قال سبحانه : (لتبين للناس ما نزل إليهم) ..

وقال جل وعلا : (إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه) .

أي: إن علينا أن نبين معانيه إليك حتى تبين للناس ما نزل إليهم .

فقوله تعالى : (علّم القرآن) أي: علّم سبحانه وتعالى أولاً سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم الذي أنزل الله عليه القرآن علمه تلاوة القرآن الكريم ، وله طريقة وأسلوب خاص في قراءته ، فقرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم كما علّمه الله ، وأسمعه الصحابة رضي الله عنهم فتعلموا منه وهكذا من بعدهم إلى يوم الدين .

ولا تصح قراءة القرآن إلا كما جاءت عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي علّمه الله إياه كما قال تعالى : (وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) .

وقوله تعالى : (علم القرآن * خلق الإنسان) يعني الإنسان الأول الكامل المكمل كلّ إنسان وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي علّمه الله القرآن وعلّمه البيان عن القرآن ، ومن سلك طريق رسول الله واتبعه فهو إنسان بالإنسانية الكاملة ، ومن أعرض عن طريقه فهو حيوان بصورة إنسان .

وليس المراد من (الإنسان) في هذه الآية الكريمة سيدنا آدم عليه السلام لأنه سبحانه ذكر آدم عليه السلام فيما بعد ذلك في قوله جل وعلا : (خلق الإنسان من صلصال كالفخار * وخلق الجان من مارج من نار) .

وليست الواو في قوله تعالى : (وخلق الجان) للترتيب ، بل هي للجمع لأن الجان خلقهم الله قبل آدم عليه السلام كما قال تعالى :

(والجان خلقناه من قبل من نار السموم) .

واعلم أن أول المخلوقات من حيث الروح ومن حيث الحقيقة النورانية هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لذلك ذكره سبحانه أولاً قبل خلق آدم عليه السلام إذ من هو الإنسان الذي قرن الله ذكره بالقرآن ؟ ! نعم هو الإنسان الذي أنزل عليه القرآن وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : (خلق الانسان) : فذكر سبحانه خلقه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سياق تعداد نعمه وفضائله على خلقه، فأرسل سبحانه سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه القرآن ليرحم العباد كما قال تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) فعمّت رحمة رسول الله صلى الله عليه وسلم العالمين كلهم . وقوله تعالى : (خلق الإنسان) يدل على فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرفه على سائر الأنبياء عليهم السلام . ويرحم الله القائل ^١ :

قد شرف الله أرضاً أنت ساكنها وشرف الناس إذ سواك إنساناً
وكلمة الإنسان مشتقة من الأنس كما قالوا :
وما سمي الإنسان إلا لأنسه ^٢ .

فهو يُؤنس أي : فيه صفة المؤانسة والملاطفة، لا صفة الوحشة والغلظة وهو يُرى بخلاف عالم الجن الأخفياء .
ويقال عن الرجل : إنسان ، وعن المرأة : إنسان، وفي لغة ضعيفة رديئة يقال عن المرأة: إنسانة .

وقد نزل الله القرآن على أعظم إنسان وأشرف إنسان ، لأن نزول القرآن لا يتحملة كل إنسان بل يحتاج لاستعداد وأهلية وقوة، ولذلك فإن الله تعالى أعدّ وأمدّ سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم من الآزال السابقة حتى نزل عليه القرآن الذي فيه صلاح العالم كله .

^١ الشاعر أبو الطيب المتنبى المتوفى سنة ٣٥٤ هـ

^٢ قال الحافظ الزرقاني في شرح المواهب ٤٦٤/٥ : قال الشاعر:

وما سمي الإنسان إلا لنسيه

بناءً على قول الكوفيين، مشتق من النسيان، وفي نسخة: "لأنسه" على قول البصريين، من الأنس.

وإن في امتنانه جل وعلا بتعليم القرآن الكريم تذكيراً بنعمة القرآن من وجوه كثيرة، منها أن يعلم كل إنسان أن هذا القرآن الذي هو كلام الله قد علّمه الله رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ليقرأه على الناس ويتعلموه منه، ثم يقرؤوه ولا يهجروه هجر تلاوة ولا هجر عمل به، وفي الحديث: [مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ (الم) حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَاَمٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ]^١، ثم تكون مضاعفة الحسنات على قدر خشوع القارئ وحضوره وفهمه وتدبره معاني القرآن الكريم، وفي الحديث: [وَمَا تَقَرَّبَ الْعِبَادُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِمِثْلِ مَا خَرَجَ مِنْهُ يَغْنِي الْقُرْآنُ]^٢.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [يَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ وَذَكَرَنِي عَنْ مَسْأَلَتِي أُعْطِيَتْهُ أَفْضَلُ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ، وَفُضِّلَ كَلَامِ اللَّهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفُضِّلَ اللَّهُ عَلَى خَلْقِهِ]^٣.

وقوله تعالى : (علّمه البيان) أي : أن الله تعالى علّم رسوله صلى الله عليه وسلم البيان عن القرآن ليبين للناس ما نزل إليهم ، فجاءت أحاديثه صلى الله عليه وسلم ببيانات عن القرآن الكريم لمن تفهّم وتدبّر ، فلقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم القرآن للناس قولاً وعملاً وأحكاماً ، فبين صلى الله عليه وسلم عليه وسلم معنى قوله تعالى : (وأقيموا الصلاة) فقال : [صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي]^٤، وبين لهم معنى آية : (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً) فقال صلى الله عليه وسلم: [خذوا عني مناسككم]^٥... وهكذا لا تؤخذ معاني القرآن إلا عن صاحب البيان عن القرآن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

^١ سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن

^٢ طرف حديث في مسند الإمام أحمد ٢١٢٧٤

^٣ سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن

^٤ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الأذان وسنن الدارمي كتاب الصلاة عن

مالك بن الحويرث رضي الله عنه

^٥ طرف حديث في السنن الكبرى للبيهقي بهذا اللفظ وأصله في صحيح مسلم كتاب الحج بلفظ: [لتأخذوا مناسككم].

من فضائل سورة الرحمن

إن مما جاء في فضلها أن الله تعالى يقرؤها على أهل الجنة ، وحين يسمعون القرآن من الله تعالى فكأنهم ما سمعوه من قبل^١.

ومن حكمة ذلك : أنه سبحانه يذكر فيها نعمه وممّته على خلقه ، فمنها نعم دنيوية ومنها أخروية ، فلما صار أهل الجنة في الجنة ورأوا ما وعدهم الله تعالى به من ألوان النعيم جعل سبحانه يقرّهم بها ويذكّرهم بفضله عليهم بقوله جل وعلا: (فبأي آلاء ربكما تكذبان) .

وهم يشكرونه سبحانه على ذلك كما شكروه على نعمه في الدنيا لما كانوا فيها .

وفي سورة الرحمن ذكر سبحانه نعمه على خلقه كلهم، فبعد أن ذكر نعمه العظمى بإنزال القرآن وبعثة خير الأنام صلى الله عليه وسلم ذكر ما تتوقف عليه حياة أجسام بني الإنسان وهي الشمس التي تُنَاط بها حياة العالم من إنسان وحيوان وزرع.

^١ قال الشيخ الإمام في كتابه (تلاوة القرآن المجيد) ص ٥٧ : روى الترمذي الحكيم عن بريدة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: [إنّ أهل الجنة يدخلون على الجبّار كل يوم مرتين، فيقرأ عليهم القرآن، وقد جلس كل امرئ منهم مجلسه الذي هو مجلسه، على منابر الدرّ والياقوت والزمرد والذهب والفضة بالأعمال، فلا تقرّ أعينهم قط كما تقرّ بذلك، ولم يسمعوا شيئاً أعظم منه ولا أحسن منه، ثم ينصرفون إلى رحالهم وقرّة أعينهم ناعمين إلى مثله من الغد]. وهذا من أعظم النعيم وأجلّ أنواع التكريم، وتعريضهم لذة في سماعهم ما ذاقوا لها من قبل مثيلاً ولا معشاراً منها ولا فتيلاً، كما روى السجزي في الإبانة عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً:

[كأنّ الناس لم يسمعوا القرآن حين يتلوه الله تعالى عليهم في الجنة]
وقد روي أنّ الله تعالى يقرأ على جميع أهل الجنة سورة الرحمن، ليقرّوا له بالفضل والامتنان. اهـ

وإذا كانت الحياة الحيوانية النباتية والحياة الإنسانية الجسدية منوطة بالشمس الفلكية ، فإن سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة متوقفة على أنوار الشمس المحمدية ، ولذلك ذكرها سبحانه أولاً فقال جل وعلا :
(خلق الإنسان)، ثم ذكر سبحانه بعد ذلك الشمس الفلكية فقال عز من قائل : (الشمس والقمر بحسبان) .

وقد ذكر سبحانه وتعالى في القرآن شمسين : الشمس الفلكية المعروفة فقال عز من قائل: (وجعلنا سراجاً وهاجاً) ، وذكر لنا شمساً لا يأتي منها إلا النور فقال سبحانه : (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً* وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً) .

وهذا هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي هو السراج المنير ، ولا غنى للناس عن النور ولا للحظة ، أما شمس السماء فهم في غنى عنها وقت الليل ليسكنوا ويرتاحوا ، وقد يشتد حرّها عليهم فيأتي من وهجها الضرر والأذى ، أما النور فلا يأتي منه إلا الخير لأن من شأنه الكشف والظهور ، كل ذلك يدل على حاجة العالم إلى الشمس المحمدية أشد وأعظم من حاجته إلى الشمس الفلكية.

قوله تعالى : (الشمس والقمر بحسبان)

أي: بحساب دقيق يعجز عنه أهل الأرض ، وكلمة (حسبان) أبلغ من كلمة حساب ، فتأمل في ذلك وانظر حصوله ، ولعلّ من له باع في علم الفلك ظهر له من سر ذلك الحسبان ، وعلم شيئاً من قدرة الله تعالى وتقديره.

قال تعالى : (والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم).

فالشمس والقمر بحسبان في مواقعهما وأبعادهما عن الأرض وعن غيرهما وفي جريانهما في أفلاكهما وهكذا .

قوله تعالى : (والنجم والشجر يسجدان)

والنجم : ما نجم في السماء أي من الكواكب ، وأما ما نجم في الأرض فهو ما ظهر من النباتات التي لا ساق لها .

قوله تعالى : (والسمااء رفعها ووضع الميزان)

أي: رفعها بقدرته وقوته جل جلاله وجعل فيها الكواكب ووضع الميزان فوقها أي: وضع الميزان فوق السموات .

أما الميزان فهو ميزان مقادير تنزلات الإمدادات الإلهية للخلائق كلها كما قال تعالى : (وكل شيء عنده بمقدار)، وقال سبحانه : (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : [يَمِينُ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَغِيضُهَا شَيْءٌ، سَحَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ] ويشمل هذا إمداد الخلائق كلها بما فيه وجودها وصلاح بقائها .

[وَبَيْدِهِ الْأُخْرَى الْمِيزَانُ يَرْفَعُ الْقِسْطَ وَيَخْفِضُ]^١ أي: بمقتضى علمه وحكمته جل وعلا .

أما موازين الحساب فيضعها الله تعالى يوم القيامة للحساب والجزاء، قال سبحانه: (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) أي: في يوم القيامة . وتفكر في قوله تعالى : (ووضع الميزان)

وقوله سبحانه : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة)

أي: أنها لم توضع بعد ، بل سيضعها الله يوم القيامة للحساب.

وقال عز من قائل : (وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) أي: أتينا بها للحساب، وفي هذه الآية ينبه الله سبحانه عباده إلى دقة موازين الحساب.

^١ طرف حديث في سنن ابن ماجه في المقدمة والرواية له

وقوله تعالى : (ونضع الموازين) يدل على تعدد الموازين ، فهناك ميزان العقائد الإيمانية ، وهناك ميزان الأقوال ، وميزان الأفعال ، وميزان الأخلاق ، ويدل على ذلك ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم في قوله :

[كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ]¹.

فقوله صلى الله عليه وسلم : [ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ] أي: في ميزان الأقوال . وفي الحديث : [والحمد لله تملأ الميزان]² أي: تملأ ميزان الأقوال نوراً لمن قالها مؤمناً مخلصاً من قلبه .

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : [مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ]³.

أي: في ميزان الأخلاق ، فكما تتعدد الموازين في الدنيا وتختلف في أحكامها فهي في الآخرة أدق وأجل ، ألا ترى أن ميزان الذهب يختلف عن ميزان الخبز ، وميزان الطعام يختلف عن غيره .. وهكذا ..

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : [إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا]⁴.

¹ صحيح البخاري كتاب الإيمان والندور

² طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الطهارة

³ سنن الترمذي كتاب البر والصلة

⁴ سنن الترمذي كتاب البر والصلة

دعاء حملة العرش ومن حوله للمؤمنين

وقد أخبر سبحانه أن من جملة وظائف حملة العرش ومن حوله أن يستغفروا للمؤمنين، قال تعالى : (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم) أي: يسبحون الله تعالى متلبسين بحمدهم له جل وعلا يعني أن تسبيحهم مصحوب بالتحميد ، وهذا مبدأ الإيمان والعقيدة التي فطر الله تعالى الأشياء عليها ، قال عز وجل : (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) .

وقوله تعالى : (يسبحون^١ بحمد ربهم ويؤمنون به) أي: يصلون له، والمراد من الإيمان هنا الإيمان العملي لأن الملائكة مؤمنون خلقهم الله تعالى لعبادته، ويدل على هذا قوله تعالى : (وما كان الله ليضيع إيمانكم) أي: صلاتكم، وهي صلاة الصحابة الذين توجهوا في قبلتهم إلى بيت المقدس وماتوا قبل أن تُحوّل القبلة إلى الكعبة المشرفة^٢ .

فقوله تعالى : (ويؤمنون به) أي : يصلّون لله .

وفي الآية قال الله تعالى : (والصفات صفاء)

وقال سبحانه : (وإنا لنحن الصافون * وإنا لنحن المسبحون)

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم:

[فُضِّلَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ لَهَا الْأَرْضُ طُهْرًا وَمَسْجِدًا، وَجُعِلَتْ صُفُوفُهَا عَلَى صُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ]^٣.. الحديث

^١ التسبيح هو : تنزيه الله عما لا يليق به ، والتحميد : إثبات الكمالات اللائقة به جل وعلا، وليست الباء في قوله تعالى : (يسبحون بحمد ربهم) ليست للتعدية ^٢ روى الترمذي في سننه عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: [لَمَّا وَجَّهَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْكَعْبَةِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ بِأَخْوَانِنَا الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ يُصَلُّونَ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ } [الْآيَةُ] .

^٣ مسند الإمام أحمد ٢٢١٦٧

وذلك لأن الصفوف في الصلاة خاصة بالأمة المحمدية ، إذ لم تكن صلوات الأمم السابقة تشتمل على الاصطفاف ، فشرف الله الأمة المحمدية في عالم الفرش بالتشبه في صلاتهم بمن يصلي حول العرش . قوله تعالى : (ويستغفرون للذين آمنوا) استغفاراً مطلقاً وذلك لأنهم مؤمنون ، وصار بين الملائكة و المؤمنين من أهل الأرض أخوة الإيمان ومحبة ، فهم يحبون لهم الخير ، لأن صفة الإيمان جمعت بينهم وتقتضي الوفاء .

(ويستغفرون للذين آمنوا) بأن يقولوا : (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك) يعني أنهم يستغفرون استغفاراً عاماً لجميع المؤمنين ، واستغفاراً خاصاً للتائبين إلى الله تعالى . قوله تعالى : (ربنا) فدعوا الله تعالى وسألوه باسم الربوبية ، وينطوي تحت هذا حكم وأسرار منها:

قولهم بلسان الحال : "أنت يا ربنا مننت علينا بالوجود ، وخلقنا من غير أن نسألك ، وأكرمتنا وتفضلت علينا بالتربية والقوة والحياة دون أن نسألك ، فأنت أسرع بالخير منا ، فكيف إذا سألناك ودعوناك ؟ نعم أنت الرب المجيب فلا تَرَدُّنا" .

ولذلك فإن الدعاء وسؤال الله بصفة الربوبية هو دأب الأنبياء والأولياء وإن كانوا يدعون الله باسمه الجامع (اللهم) يعني يا الله .

وهذا ما بيّنه سبحانه في القرآن الكريم عن الأنبياء عليهم السلام وعن الصالحين رضي الله عنهم أجمعين .

قوله تعالى : (فاغفر للذين تابوا) ويشمل هذا من تاب عن الكفر ودخل في الإيمان ، ومن تاب عن المعاصي والذنوب ، وهكذا كل على حسبه .

(واتبعوا سبيلك) أي : اتبعوا الطريق الموصل إليك وإلى مرضاتك وجنتك ، وما هذا السبيل إلا طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال فيه تعالى : (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم* صراط الله) .

فقوله تعالى : (واتبعوا سبيلك) أي : اتبعوا نبيك سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ، وفي هذا يقول تعالى : (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله) .

فمن سلك سبيل رسول الله صلى الله عليه وسلم وَصَلَ إلى الله تعالى .

قوله تعالى : (ربنا وأدخلهم جنات عدن) أي : جنات إقامة دائمة لا تحوّل عنها (التي وعدتهم ومن صلح) أي : صلح بالإيمان

(من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) أي : إكراماً لهم ليتّم لهم النعيم في الجنة (إنك أنت العزيز الحكيم) .

عن سعيد بن جبیر رضي الله عنه قال: [يدخل الرجل] - أي : المؤمن الكامل - [الجنة، فيقول: أين أبي، أين أمي، أين ولدي، أين زوجتي؟ فيقال: لم يعملوا مثل عملك، فيقول: كنت أعمل لي ولهم، فيقال: أدخلوهم الجنة؛ ثم قرأ (جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم)^١ .

فأدخلوا الجنة ليكمل نعيم المؤمن الكامل.

قوله تعالى : (وقهم السيئات) أي : اجعل بينهم وبين السيئات وقاية فلا يقعون في المعاصي ، وقهم المكاره والمساوىء .

(ومن تق السيئات) أي : وإن أعظم المساوىء التي يسوء بها حال الإنسان هو مكاره الآخرة ، ومن تق السيئات (يومئذ) أي : يوم القيامة (فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم) .

وقد أخبر سبحانه أن حملة العرش ومن حوله من العوالم والملائكة والأرواح العلوية التي لا يعلمها إلا الله يسبحون بحمد ربهم ويتشرفون ويتقربون إلى الله بذلك ، وذلك حتى ينتبه أهل عالم الأرض - وهم أهل عالم الفرش كما قال تعالى : (والأرض فرشناها) وقال سبحانه : (الذي جعل لكم الأرض فراشاً) - حتى ينتبهوا ولا يغفلوا عن تسبيح الله وحمده جلّ وعلا .

^١ انظر تفسير الطبري لهذه الآية الكريمة

وقد أخبر سبحانه عن جميع العوالم والمخلوقات أنها تسبح بحمد ربها فقال تعالى : (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً) .

أي : قد تسمعون أصواتهم بالتسبيح ولا تفهمون ، وقد لا تسمعون ولا تفهمون ، فمن ذلك أصوات الطيور، قال تعالى : (والطيور صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه) .

ولكن الإنسان لا يفهم منطق الطير إلا من علمه الله من الأنبياء والرسول والأولياء ، وكذلك فإن الدواب وسائر الحيوانات تسبح الله تعالى وكذلك الجمادات والأشجار^١ .

(إنه كان حليماً غفوراً) أي لولا أنه تعالى حليم غفور لعجل العقاب على الغافلين عن ذكره وتسبيحه وحمده جل وعلا ، كيف وقد أخبرهم أنه ما من شيء إلا يسبح بحمده ، ومع ذلك يُعرضون ولا يُبالون ؟ !

وقد ندب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته إلى تسبيح الله وحمده بصيغ جامعة منها :

[سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم أستغفر الله وأتوب إليه]^٢ .

فينبغي الإكثار منها صباحاً أول النهار .

وأن تكثر في ضحوة النهار من : [سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته]^٣ .

^١ وانظر تفاصيل ذلك في موضعه من كتاب الشيخ الإمام "محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع العالم" الجزء الأول .

^٢ انظر الحديث في مسند البزار

^٣ روى الإمام مسلم في صحيحه عن أم المؤمنين السيدة جُوَيْرِيَّة رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى وَهِيَ جَالِسَةٌ فَقَالَ: مَا زِلْتُ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكَ عَلَيْهَا قَالَتْ: نَعَمْ ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكَ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتُ مِنْذُ الْيَوْمِ لَوَزِنَتْهُنَّ "سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَاءِ نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمَدَادَ كَلِمَاتِهِ" .

وأما بقية النهار فينبغي الإكثار من : [سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم] ^١.

قوله تعالى : (ويستغفرون للذين آمنوا) أي : لأن بينهم وبين المؤمنين أخوة الإيمان ومحبة ، وهذا ما يجب أن يتحقق به المؤمنون على وجه الأرض من المحبة والوداد والنصح .

وقد سأل حملة العرش الله تعالى للمؤمنين المغفرة لأنهم أحوج إليها من أي شيء ، وعلى مغفرة الله تتوقف سعادة الأبد في الجنة ، وهذا الاستغفار عام لجميع المؤمنين ، وهناك استغفار خاص للمؤمنين التائبين إلى ربهم ، جاء في قوله تعالى مخبراً عن الملائكة الكرام عليهم السلام قولهم :

(ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم * ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم) .

وفي هذا إكرام من الله تعالى للمؤمنين التائبين ، فيكرم الله المؤمن التائب إليه بأن يلحق به من صلح بالإيمان من والديه وأزواجه وذريته فيدخلهم الله الجنة بشفاعته المؤمن التائب المتبع صراط رسول الله صلى الله عليه وسلم.

^١ جاء في سنن أبي داود في كتاب الصلاة أن النبي صلى الله عليه وسلم علم هذا الذكر أحد الصحابة رضي الله عنهم.

وروى السمرقندي في كتابه "تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين" عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال: [جاء إسرائيل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: قل يا محمد "سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، عدد ما علم الله تعالى وزنة ما علم الله تعالى وملاء ما علم الله تعالى" فمن قالها مرة كتب الله له خمس خصال، كتبت من الذاكرين الله كثيراً، وكان أفضل من ذكره بالليل والنهار، وكان له غرسا في الجنة وتحاتت عنه ذنوبه، كما يتحات ورق الشجر اليابس، ونظر الله إليه ومن نظر الله إليه لم يعذب].

وكلمة (الزوج) تطلق على الذكر والأنثى ، وقد تكون المرأة أصلح من زوجها فتشفع به ، وإذا كان هو أصلح منها شفّع بها ، فيشفع الأصلح بالصالح .

وقوله تعالى : (تابوا واتبعوا سبيلك) أي : تطهروا من الذنوب وآفات القلوب وتطيبوا وتكملوا باتباع طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد اشتملت الآية على معنى التخلية والتحلية - وهي التزكية - ، أي على معنى التخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل .

وفي الآية تنشيط لهمة المؤمن أن يتوب إلى الله تعالى دائماً ليكسب فضل دعاء حملة العرش له ، وليشفع في أهله يوم القيامة ، وإن الله تعالى يحب من العبد أن يتوب إليه كما قال تعالى : (والله يريد أن يتوب عليكم) أي : يحب أن يتوب عليكم فبادروا إلى التوبة .

وهو سبحانه يفرح بتوبة عبده فرحاً لائقاً به سبحانه ، جلّ وعلا عن الشبه والمثيل .

روى الإمام مسلم عن سَمَاءَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: خَطَبَ النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ فَقَالَ: [لِلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ حَمَلَ زَادَهُ وَمَزَادَهُ عَلَى بَعِيرٍ ، ثُمَّ سَارَ حَتَّى كَانَ بِقَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ فَأَدْرَكَتُهُ الْقَائِلَةُ فَنَزَلَ فَقَالَ تَحْتَ شَجَرَةٍ ، فَغَلَبَتْهُ عَيْنُهُ وَأَنْسَلَ بِعِيرُهُ ، فَاسْتَيْقَظَ فَسَعَى شَرْفًا فَلَمْ يَرَ شَيْئًا ، ثُمَّ سَعَى شَرْفًا ثَانِيًا فَلَمْ يَرَ شَيْئًا ، ثُمَّ سَعَى شَرْفًا ثَالِثًا فَلَمْ يَرَ شَيْئًا ، فَأَقْبَلَ حَتَّى أَتَى مَكَانَهُ الَّذِي قَالَ فِيهِ ، فَبَيَّنَمَا هُوَ قَاعِدٌ إِذْ جَاءَهُ بِعِيرُهُ يَمْشِي حَتَّى وَضَعَ خِطَامَهُ فِي يَدِهِ ، فَلِلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ مِنْ هَذَا حِينَ وَجَدَ بِعِيرَهُ عَلَى حَالِهِ]¹ .

تنبيه : إن اتباع العلماء العاملين والأئمة المجتهدين والأولياء العارفين هو في حقيقته اتباع لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن هؤلاء كلهم متبعون لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومبلغون عنه .

¹ صحيح مسلم كتاب التوبة

ألا ترى إلى الإمام في الصلاة إذا كثر المقتدون به ولم يروه أو لم يسمعوا صوته راح من يبلغ عنه !

وقد يتعدد المبلغون عن الإمام على حسب كثرة المقتدين به ، والمبلغ عن الإمام هو متبع له ومبلغ عنه فافهم مهمته ، ومن خالف المبلغ في أفعاله فيقال : لا وحدك صليت ولا بإمامك اقتديت !!

وهذه مهمة العلماء فهم مبلغون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جاء به ، وكلُّ منهم يقول في دليله : قال الله تعالى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكما قال الإمام البوصيري^١ في قصيدته المشهورة بـ "البردة"^٢ :

وكلهم من رسول الله ملتئم غرّاً من البحر أو رشفاً من الدّيم

^١ إمام المديح النبوي سيدي محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله الصنهاجي البوصيري المصري، شرف الدين، أبو عبد الله، نسبته إلى بوصير - من أعمال بني سويف، بمصر - توفي في الإسكندرية سنة ٦٩٦ هـ رحمه الله ورضي عنه.
^٢ قال الشيخ زكريا الأنصاري رحمه الله ورضي عنه في كتابه (الزبدة الرائقة في شرح البردة الفائقة) ص ٢٢٨ :

وحكي عنه - أي عن الإمام البوصيري - أنه قال : "حصل لي فالج أبطل نصفي" - وهو المعروف بالشلل النصفي - "فأنشأت هذه القصيدة ونمت، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم فمسح بيده المباركة علي فعوفيتُ من وقتي" . اهـ
ويذكر أن الإمام البوصيري رأى حضرة النبي صلى الله عليه وسلم في المنام يلقي عليه بردته الشريفة فبرىء فوراً ولهذا سميت القصيدة بـ "البردة" .
والشيخ زكريا الأنصاري هو شيخ الإسلام القاضي زين الدين زكريا بن محمد بن زكريا الأزهري الشافعي المتوفى سنة ٩٢٦ هـ عن مائة وثلاث سنوات رحمه الله ورضي عنه.

فضائل التسبيح والتحميد

روى الإمام الترمذي أن أبا ذر رضي الله عنه سأل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: [بأبي أنت وأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْكَلَامِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟] - أي: بعد القرآن الكريم - [قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا اضْطَفَأَهُ اللَّهُ لِمَلَأْتِكْتَهُ] - وفي رواية: لعباده^١ - [سُبْحَانَ رَبِّيَ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ رَبِّيَ وَبِحَمْدِهِ]^٢.

وروى الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مِائَةً مَرَّةً حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ رَبْدِ الْبَحْرِ]^٣.

وفي مسند البزار عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ["سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ" مَنْ قَالَهَا كُتِبَتْ كَمَا قَالَهَا، ثُمَّ عُلِّقَتْ بِالْعَرْشِ، لَا يَمْحُوهَا ذَنْبٌ عَمِلَهُ صَاحِبُهَا حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ يَوْمَ يَلْقَاهُ وَهِيَ مَخْتُومَةٌ كَمَا قَالَهَا].

^١ مسند الإمام أحمد ٢٠٣٥٧

^٢ سنن الترمذي كتاب الدعوات

^٣ صحيح البخاري كتاب الدعوات

الخوف من النار والطمع في الجنة

يجب على المؤمن أن يخاف من عذاب الله جل جلاله ومن النار ، لأن نار الله المحرقة تحرق أجسام الكفار كما قال تعالى : (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب).

وأما بالنسبة لعصاة المؤمنين الذين ماتوا ولم يتوبوا فقد جاء في الحديث : [حتى إذا كانوا فحماً أذن بالشفاعة]^١.

وقد سأل حملة العرش ربهم تبارك وتعالى أن يقي المؤمنين عذاب جهنم فقالوا كما أخبر سبحانه عنهم (وقهم عذاب الجحيم) وسألوا الله لهم الجنة فقالوا (ربنا وأدخلهم جنات عدن).

وهذا يدل على عظم أمر الجنة وفضلها ، ففيها رؤية رب العالمين وتجلياته ورضوانه ونعيمه لأهل الجنة ، وتحيته لهم ومناجاته لهم ، وفيها معية سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومرافقته ومجالسته ، وفيها ألوان النعيم بأكمله .

ولا يزهد بالجنة أو يستخف بشأنها إلا جاهل غلبه الغرور بنفسه يزعم أنه يريد الله ورضاه ولا يريد الجنة !!

وما علم هذا الأحق أن رضا الله في الجنة، وأن رؤيته تبارك وتعالى في الجنة، وهي دار ضيافته وسلعته التي من أجلها اشترى أموال المؤمنين و أنفسهم ، أتراه بعد ما اشترى أنفس ما عندهم وأغلى ما عندهم يعطيهم مقابله ثمناً بخساً ؟!

جل الله عن ذلك، بل جعل سبحانه الجنة وما فيها ثواباً لهم، فما أعظمها وما أفضلها إذاً !

ومن أجل ذلك فإن الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام كلهم سألوا الله الجنة، وكذا سألها الصحابة والعلماء والعرفاء وكبار أهل الإيمان، كما أخبر سبحانه بذلك وجاءت الأخبار الصحيحة في ثبوت ذلك .

^١ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الإيمان

ويتحتم على كل مؤمن أن يسأل الله الجنة كما تقدم بيان ذلك^١.

وروى ابن ماجه عن السيدة عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم علّمها هذا الدعاء : [اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا عَادَ بِهِ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ كُلَّ قَضَاءٍ قَضَيْتَهُ لِي خَيْرًا]^٢.

واعلم أنه يجب على الإنسان أن يعبد الله لذاته لأنه جل وعلا إله يُعبد، والعبادة حق ذاتي له تبارك وتعالى ، ولكن من جملة عبادة الإنسان ربه أن يسأله الجنة لأنه سبحانه رغبه فيها وأمره أن يسأله إيّاها، وهو سبحانه فضلاً وكرماً منه جعل الجنة ثواباً للمؤمنين ، وجعلها دار ضيافته لهم وإكرامه لهم وتجلياته عليهم ورضوانه عليهم وهكذا .

^١ انظر البحث في كتاب : (التقرب إلى الله تعالى) لمولانا الشيخ الإمام رضي الله عنه .

^٢ سنن ابن ماجه كتاب الدعاء

وحدانية الله تعالى في خلقه الأشياء

قال سبحانه : (يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون).
أي: لا إله إلا هو الخالق الرازق ، فلا أحد غيره يتصف بصفة الخلق .
وقال تعالى : (ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه).
وقال سبحانه : (الله خالق كل شيء) أي: أوجد كل شيء من العدم ،
وهذا المعنى في الخلق لا يكون إلا لله وحده ، فهو وحده الخالق أي:
الموجد للأشياء بعد عدم .

وهناك الخلق بمعنى التصوير والتقدير، كما قال تعالى لعيسى عليه السلام :
(واذ تخلق من الطين) أي: تُصَوَّر من الطين وتُقَدَّر (كهية الطير بإذني
فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني) أي : يكونها الله طيراً حياً، فالمكوّن
والخالق للطير بجسم ولحم وعظم وروح هو الله تعالى، وهو جل وعلا
الذي يقول للهيئة التي يصورها عيسى عليه السلام على صورة الطير ثم
ينفخ فيها عليه السلام يقول لها الله تعالى: [كوني طيراً] فتكون كما أراد الله
تعالى .

ونظير هذا ما أمر الله به الملك الذي ينفخ الروح في الجنين وهو في بطن
أمه، ينفخ الملك الروح في الجنين بقول الله : (كن)^١ .

وهناك الخلق بمعنى الافتراء والكذب كما قال تعالى مخبراً عن إبراهيم
عليه السلام يعظ قومه: (وتخلقون إفكاً) أي: كذباً^٢ ، ومنه قولهم :
"اختلق فلان كذا" أي: افترى أمراً .

^١ روى الإمام مسلم في صحيحه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ :
[حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ
خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عِلَاقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ
مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ] ... الحديث
^٢ انظر تفسير الحافظ السيوطي للآية الكريمة في الدر المنثور

فلقد أخبر سبحانه أنه خالق كل شيء ، وكل شيء - ما سوى الله - هو مخلوق ، ولذلك قال تعالى : (ليس كمثله شيء) لأن ما سوى الله مخلوق فكيف يُتصور أن يكون الخالق كَخَلْقِهِ ؟!

وهو سبحانه واجب الوجود، وهو الذي أوجد الأشياء من العدم بإيجاده ، وهو سبحانه المتفرد بالقدم الذي لا أول له ولا انتهاء .

روى الإمام البخاري عنه صلى الله عليه وسلم قوله : [كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ] أي: كان عرشه على الماء بالكينونة الحادثة ، أي: خلق عرشه على الماء، أما الكينونة الأولى الواردة في قوله صلى الله عليه وسلم: [كَانَ اللَّهُ] فهي مسلوبة الزمن إذ كان الله في الآزال حيث لا زمان ولا مكان .

[ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ] أي: بعد خلق العرش بمدة لا يعلمها إلا هو جلّ وعلا.

[وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلِّ شَيْءٍ]^١ أي: والحال أنه قد كتب قبل خلق السموات والأرض في الذكر كل شيء ، والمراد من الذكر هنا الذكر الأول الذي هو أم الكتاب وهو كتاب القضاء والقدر الذي ذكر فيه جل وعلا كل شيء.

والذكر يطلق على القرآن الكريم كما في قوله تعالى : (إنا نحن نزلنا الذكر)، فقد ذكر الله تعالى فيه كل شيء مما يعود على الإنسان وغيره ، لكن الناس يتفاضلون في فهم القرآن، وهم على مراتب في ذلك .

فسبحانك يا ربنا حيث كنت ، وسبحانك حيث تكون ، سبحانك حيث كنت في أزل الآزال، في القدم الذي لا أول له ، وفي البقاء الذي لا نهاية له ، سبحانك أنت أنت كما هو أنت .

^١ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب التوحيد

خُلِقُ الله جل جلاله الإنسانَ

لقد خلق الله تعالى سيدنا آدم عليه السلام -وهو أبو البشر- خلقه من تراب الأرض ، ثم خلق منه زوجه السيدة حواء من مادة في ضلعه الأيسر^١ ، وسميت السيدة حواء بذلك لأنها خُلقت من حيٍّ، خُلِقَ لا ولادة ، ثم خُلِقَ بنو الإنسان من ماء مَهِين كما هو معروف .

وقد ذكر سبحانه في سورة الإنسان -وتسمى سورة الدهر أيضاً- ذكر خلقه للإنسان وَلِمَ خلقه وإلى أين مآله .. قال سبحانه :

(هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) وهذا استفهام تقريرى يقرّر فيه سبحانه أنه أتى على الإنسان زمان طويل لم يكن فيه مخلوقاً ، وهذا باعتراف كل إنسان ، ولا يحتاج إلى برهان ولينظر كل إنسان إلى مئة سنة قبله مثلاً أين كان ؟!

ثم خلق الله الإنسان وصار له كيانٌ ووجودٌ يُذكر به ويُعرف به بأنه فلان ابن فلان ، وله حكمه واعتباره ، فمن هو الذي خلقه وطوّره وأعطاه العقل والحواسّ والمدارك ؟

قال تعالى : (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج) أي: من نطفة حوت العناصر التكوينية كلها والقوى والمدارك والقوى الشهوانية البهيمية الغضبية والقوى العلوية الملكوتية.

وكان سائلاً يقول : لِمَ خلقتني الله ؟

قال تعالى : (نبتليه) أي: ليختبره جل وعلا ويمتحنه بالتكاليف الشرعية بما فيها من أوامر فيها صلاحه وسعادته، ومناهٍ فيها ضرره وفساده، يعني أن الله تعالى خلق الإنسان ليختبره بالتكاليف الشرعية كما قال تعالى: (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم) أي: يختبركم (أياكم أحسن عملاً).

^١ انظر تفسير ابن كثير لقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا رُؤُوسَهُمْ ..) الآية الكريمة.

وإن الذي صنع المصنع هو العالم به وبما يصلحه وبما يفسده ، وإن الإنسان هو من خلق الله وصنعه كما قال تعالى : (صنع الله الذي أتقن كل شيء) .

فهو سبحانه وحده العالم بما فيه صلاح الإنسان وفساده ، فأنزل عليه الهدى في ذلك وهي التكليف الشرعية، وهذا قوله تعالى :

(إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه) أي: هو سبحانه الخالق للإنسان، وهو الذي يشرع للإنسان ويأمره وينهاه كما قال تعالى :
(ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) .

ولما كان الامتحان والاختبار يتطلب من الإنسان إرادة وقوة واختياراً ومدارك حتى يطبق تلك التكليف الشرعية كلف الله الإنسان بعدما كمله بالمدارك والحواس والقوى ، وجاء التكليف على نسبة ما أعطاه من القوى والمدارك قال تعالى : (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) .

قوله تعالى: (فجعلناه سميعاً بصيراً) وإن السمع والبصر نوافذ للعقل ، فجعل الله تعالى الإنسان عاقلاً سميعاً بصيراً قوياً ، ولا يمكن للإنسان بعقله أن يهتدي إلى ما فيه صلاحه وسعادته وما فيه فساده وضرره إلا ببيان من الذي خلقه وهو الله تعالى ، فلذلك لم يتركه جل وعلا بل قال :
(إنا هديناه السبيل) أي : بيّنا له طريق الخير من طريق الشر ، كما قال تعالى في آية ثانية: (وهديناه النجدين) وهذا الهدى الإلهي للإنسان كان بواسطة الرسل عليهم السلام والكتب التي أنزلها سبحانه عليهم .

وإن صاحب الهدى التام لجميع الأنام هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال فيه تعالى : (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد) أي : إنما أنت منذر وهاد لكل قوم صلى الله عليه وسلم .

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : [إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ وَأَحْسَنَ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ^١ صلى الله عليه وسلم أي : خير هدي وأعظم هدي جاء به نبي أو رسول هو هدي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلن هذا في افتتاح خطبه الشريفة، ومن اهتدى بهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثبتته الله بالجواب في القبر لما يسأله الملائكة: [مَا عَلِمْتَ بِهَذَا الرَّجُلِ] فيجيب : [هُوَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى فَأَمَنَّا وَأَجَبْنَا وَاتَّبَعْنَا وَصَدَّقْنَا]^٢.

ومن مشى مع صاحب النور استنار بنوره ، وهذا قوله تعالى : (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون) .

قوله تعالى : (إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً).

وهذا بيان لموقف الإنسان من الهدى والتكاليف الشرعية ، فهناك شاكر لله مؤمن ، وهناك كفور أي : مستكبر عن الحق لم يعترف به، والحال أنه قد عرفه، ثم قال تعالى في عاقبة الكافرين الذين استحقوا العذاب : (إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً) .

وقال جل وعلا في عاقبة المؤمنين : (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً) .

وقال تعالى في إثبات اختيار الإنسان ومشيتته بعد أن هداه وبين له الخير من الشر : (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى)

أي أعرضوا عن الهدى الذي جاءهم به صالح عليه السلام ، وآثروا ضلالهم وكفرهم وأحبوا ما هم فيه ، فتركهم الله في ضلالهم وأمدّهم فيه، وفي الآية : (قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدّاً) ..

^١ طرف حديث في سنن النسائي كتاب صلاة العيدين

^٢ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الجمعة

وهذا الهدى أي : هدي البيان والدلالة هو حجة الله على خلقه كما أخبر سبحانه عن الكافر والفاجر الذي يتمنى الرجوع إلى الدنيا : (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون * أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين * أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين * أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين) .

قال سبحانه في الردّ عليهم : (بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين) .

أي : إن الله هدى الإنسان ببعثة الرسول صلى الله عليه وسلم وإنزال القرآن الكريم ، ومع ذلك يكذب الكافر ويقول : (لو أن الله هداني ! فلقد هداه الله ولكنه استحب العمى على الهدى كما أخبر سبحانه .

ومن رأى الحق وانضم له واختاره وفقه الله لاتباعه كما قال تعالى في الحديث القدسي : [فاستهدوني أهدكم] .

أما من رأى الحق ولم يختره وأعرض عنه أضلّه الله ، وهذا قوله تعالى : (ويضل الله الظالمين) أي : لأنهم ظالمون أعرضوا عن الحق .

ولذلك يتحتم ويجب على من عرف الحق أن يسأل الله أن يوفقه لاتباعه وهذا معنى قوله تعالى : (اهدنا الصراط المستقيم) أي : وفقنا لاتباعه وزدنا هدى فوق هدى كما قال تعالى : (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) .

قوله تعالى : (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه)

أي : خلقه سبحانه بعد أن مرّت عليه دهور ودهور في العدم ولم يكن له وجود خارجي يُذكر به بين الناس ، فمن الذي أوجده؟ ومن الذي رجّح وجوده على عدمه فأوجده؟ هذا هو الله خالق كل شيء .

وسمي الإنسان بذلك لأنه يُؤنس ويُرى ، وعُرف هذا من مقابلة كلمتي "إنسان" و"ناس" بـ "الجن" في كثير من آيات القرآن الكريم ، والجن أخفيا مختبئون لا يُرون ، أما الإنسان فهو يُبصر ويُؤنس ، أي : فيه صفة الأنس واللطافة والركة واللين .

ويقال عن الإنسان : (بَشَر) كما في قوله تعالى : (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) ، والبشر سمي بذلك لأنه ظاهر البَشَرَة أي الجلد، بخلاف جميع الحيوانات التي كسا الله جلدها إما بالصوف أو الشعر أو الوبر ، وهذا من حكمة الله تعالى وتقويمه لخلق الإنسان فلم يجعل جسمه كله مغطى بالشعر إلا مواضع من بدنه وذلك لأنه سيلبس الثياب ويتجمل ويتزين بها .

تنبيه : لقد خلق الله تعالى حواء فقط من مادة استخرجها من أعلى ضلعه الأيسر^١ ، وهذا قوله تعالى : (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها) أي : خلق منها زوجها خلقاً لا ولادة، وأما باقي بني آدم رجالاً ونساء فلقد خلقهم الله تعالى بالتوالد كما قال تعالى : (وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساء) وليست كل امرأة مخلوقة من زوجها، فافهم .

تنبيه ثانٍ : إن الكفار المعرضين عن الحق على قسمين :

منهم من كان يعرض عن سماع الحق بل لا يريد سماعه أصلاً ويريد أن يبقى على كفره وضلاله وفجوره ، فقصر عن سماع القرآن ودعوة الرسول عليه الصلاة والسلام له إلى الهدى والنور كما أخبر سبحانه عن هؤلاء : (حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ) .

وقال جل وعلا : (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) .

فكانوا يأخذون بالضجة والتشويش إذا قرأ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن الكريم حتى لا يسمعوا منه ولا يدخل قلوبهم، وقد فعل ذلك هؤلاء استحاباً منهم للكفر والضلال كما قال تعالى : (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) أي : آثروا الضلال والفجور على الهدى والنور ، فأمدّهم الله في ضلالتهم .

١ انظر تفسير ابن كثير لقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا) .

وَمِنَ الْكَفَّارِ مَنْ سَمِعَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ وَهَدِيَ خَيْرَ الْأَنَامِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَرَفَ الْحَقَّ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَعْتَرَفْ بِهِ كِبَرًا وَعِنَادًا أَوْ عَصَبِيَّةً وَجَهْلًا ، وَمِثْلُهُ كَمَنْ أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ وَقَتَ الصُّحُوةِ وَرَاحَ يَنْكُرُ طُلُوعَ الشَّمْسِ ، وَهَذَا شَأْنُ الْكَافِرِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : (جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرَوْا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا) أَي: حَتَّى لَا يَسْمَعُوا الْحَقَّ ، فَأَثَرُوا الصَّمَمَ عَلَى سَمَاعِ الْحَقِّ ، وَكَذَلِكَ كَفَّارُ قُرَيْشٍ لَمَّا قَالُوا - كَمَا أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْهُمْ - : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ) لَمَّا قَالُوا ذَلِكَ أَصَمَّ اللَّهُ آذَانَهُمْ عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: (صَمَّ بَكُمْ عَمِي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) .

قال سبحانه : (يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) فهم عرفوا الحق ولكن لم يعترفوا به.

وقال جل وعلا: (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) والجحود هو : إنكار بعد علم .

وكلا الفريقين كافر ، وإن استمروا على كفرهم وإعراضهم طبع الله على قلوبهم الكفر كما قال تعالى : (بل طبع الله عليها بكفرهم) أي : ختم عليها بسبب كفرهم وعنادهم عن الاعتراف بالحق بعد ما ظهر لهم نوره وصدقه ، وهذا قوله سبحانه : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم)

وقوله جل وعلا : (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) أي : لأنهم لم يؤمنوا به أول مرة .

ومن هذا يعلم الإنسان أن الكفر والطابع والختم على القلب منوط بعمل الإنسان واختياره للكفر وإعراضه عن الحق ، ولذلك قال تعالى : (قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدًّا) أي: طالما أنهم استحَبُّوا الضلال والاستمرار عليه فإن الله تعالى يمدهم في ضلالهم.

وقال تعالى : (من كان يريد العاجلة) أي : الدنيا .

(عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً) وفي هذا يثبت سبحانه للإنسان إرادة واختياراً ومشية كما قال جل وعلا أيضاً : (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً) .

وقال تعالى : (ذلك جزيناهم ببغيهم) أي : بسبب كفرهم وبغيهم وضلالهم (وإنا لصادقون) أي : فلا ظلم ولا جور .

وليس القضاء والقدر حجة للعباد على الله تعالى ، وليس هو حجة لله على عباده ، أما الحجة على الإنسان فهي عمله الذي اختاره بإرادته ومشيته ، ولم يسلبه القضاء اختياره ، وإذا صدر عن الإنسان عمل لا اختيار له فيه فلا مسؤولية ولا مؤاخذه عليه ، كالمضطر والمخطئ والناسي والمُكره .

وهكذا فإن حجة الله على عباده هي أعمالهم وليست قضاءه وقدره جل وعلا ، إذ لو كان قضاء الله حجة على العباد لجازاهم بمقتضى ما قضى وقدر عليهم ، ولا حاجة للتكليف والشرعة ، إذ هو سبحانه وتعالى يعلم أن فريقاً منهم في الجنة وفريقاً منهم في السعير ، ولو كان قضاء الله حجة على العباد لخلقهم وأقام الساعة وأدخل فريقاً الجنة وفريقاً النار دون أن يكلفهم بالأعمال الشرعية ، ولكن الله تعالى يقول : (هل تجزون إلا ما كنتم تعملون) .

ولم يحتج عليهم سبحانه بقضائه ولا بعلمه جل وعلا ، بل بأعمالهم .

ولذلك لما دخل أهل النار النار قالوا كما أخبر سبحانه :

(وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) .

أي : اعترفوا بأن تعذيب الله لهم أمرٌ حق لأنهم كفروا وأعرضوا عن دعوة الرسل فقالوا كما أخبر سبحانه : (وحقت) ، ولم يقولوا : جارت أو ظلمت .

وقال سبحانه : (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير
*فاعترفوا بذنبهم) أي : لم يحتج الكافرون على كفرهم بقضاء الله وقدره
، بل اعترفوا بكفرهم وأنهم يستحقون العذاب .

وقال تعالى : (ولو ترى إذ وُقِفُوا^١ على ربهم)
أي : أوقفتمهم الملائكة وعرضتهم على الله تعالى ..
(قال) أي : قال لهم ربهم .

(أليس هذا بالحق) أي : أليس الحشر والنشر والحساب والعقاب أمراً
حقاً ؟

(قالوا بلى وربنا) أي اعترفوا أنه حق وأقسموا بالله على ذلك .
(قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) .

يعني : أليس سؤالي لكم بالحق ؟ أليس حسابي لكم بالحق ؟
أليس تعذيبي لكم بالحق ؟ قالوا : بلى أي : كله حق ، ولا حجة لهم على
الله أبداً .

وأما من عرف الحق الذي هدى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فما
عليه إلا أن يعترف به ويذعن له ، وإذا رأى من نفسه معارضة وممانعة
وتلكؤاً وتكاسلاً فليسأل الله أن يوفقه لاتباع الحق ، وهذا ما أمر الله به في
سورة الفاتحة : (اهدنا الصراط المستقيم) .

أي : قولوا (اهدنا) أي : وفقنا للسير على الصراط المستقيم الذي جاء به
رسول الله صلى الله عليه وسلم وسار عليه أتباعه الذين أنعمت عليهم .

^١ فيه تضمين لمعنى فعل آخر كما هو في بلاغة العرب ، وعُرف هذا من تعدية فعل
(وقف) بحرف على ، جاء في تفسير الخازن : " يعني: على حكم ربهم وقضائه
ومسأله، وقال مقاتل: عرضوا على ربهم "اهـ

واعلم أن لكل إنسان أربعة أعداء تقف له بالمرصاد وهي :

إبليس والدنيا والنفس والهوى ، كما قالوا :

إني بُليت بأربع يرميني بالبُلى من قوس لها توتير

إبليس والدنيا ونفسي والهوى يا رب أنت على الخلاص قدير^١

فقد تحمل النفس صاحبها على التكبر فلا يعترف بالحق وإن ظهر له ،
ومن هنا تفهم معنى قول الله تعالى مخبراً عن السامري المنافق الذي
صنع العجل من ذهب : (وكذلك سولت لي نفسي)

وقال عز من قائل في ابني آدم عليه السلام : (فطوعت له نفسه قتل
أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين) .

وجاء في الآية : (بل سولت لكم أنفسكم أمراً) .

وهنا يتساءل الإنسان من الذي زين لإبليس فعلته ووسوس له ذلك مع أنه
لم يكن إبليس قبله ؟!

نعم هي نفسه التي حملته العجب والكبر كما أخبر سبحانه : (أبي
واستكبر) ، وهناك اتباع الهوى بمعنى اتباع شهوات النفس الدنيّة كالزنا
وشرب الخمر وغيرها ، وهناك الدنيا بأموالها وزخارفها التي تشغل الإنسان
عن آخرته .

ولو كان الأمر مسنداً إلى الهوى فأى هوى يُتبع ؟

لأن أهواء الناس متضاربة متناقضة ، لذلك كان لا بد من شريعة تحكم
على الناس بحيث تصير أهواؤهم تابعة لها.

قال تعالى : (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن
فيهن بل أتيناهم بذكرهم) الذي فيه صلاحهم وسعادتهم (فهم عن
ذكرهم معرضون) .

^١ انظر الفتوحات المكية ٣١٤/١ للشيخ الأكبر سيدي محيي الدين بن عربي رضي
الله عنه.

ولما يقول العبد في قراءته للفاتحة : (اهدنا الصراط المستقيم) يلاحظ أن للهداية مراتباً وهي تقبل الزيادة كما قال سبحانه : (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) .

فلما يقول العبد : (اهدنا) ويكرر ذلك دائماً يعني بها : "ثبتنا يا رب على الهدى ووفقنا إليه ، وزدنا هدى فوق هدى في العقيدة والعمل والقول والخلق" .

فقد يكون المرء على هدى في صلاته ، لكنه مقصر في زكاته، وقد يكون على هدى في خلقه لكنه مقصر في بعض جوانب الأخلاق الحسنة وهكذا فالهداية على أنواع ومراتب .

ولذلك كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في افتتاح الصلاة :
[وَاهِدْنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ] ^١ .

ولما جاء الحصين والد عمران إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : "مَا تَأْمُرُنِي أَنْ أَقُولَ؟" فَقَالَ لَهُ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [قُلْ: اللَّهُمَّ قِنِي شَرَّ نَفْسِي وَاعْزِمْ لِي عَلَى أَرْشِدِ أَمْرِي] ^٢ .

وفي رواية : [اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي وَأَعِزَّنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي] ^٣ .

وفي رواية : [اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَهِدُّكَ لِأَرْشِدِ أَمْرِي] ^٤ يعني : أسألك أن توفقني لأرشد أمري .

وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا علياً رضي الله عنه أن يقول:
[اللهم اهدني وسدّدني] ^٥ أي : زدني هدى في جميع أموري وسدّدني فيها كي تكون موافقة لما فيه رضا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

^١ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها

^٢ مسند الإمام أحمد ١٩١٤١

^٣ سنن الترمذي كتاب الدعوات

^٤ المعجم الصغير للطبراني

^٥ صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار

وعَلَّمَ سيدنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم سِبْطه الحسن بن علي رضي الله عنهما وعليهما السلام علّمه هذا الدعاء الذي رواه الإمام أحمد في مسنده عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رضي الله عنهما قَالَ: [عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ فِي قُنُوتِ الْوُثْرِ: "اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، فَإِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، إِنَّهُ لَا يَدُلُّ مَنْ وَالَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ"]^١.

فقوله: [اهدني] أي: زدني هدى فوق هدى، ومن حصل على الزيادة فقد حافظ على الأصل فافهم.

والمعنى: يا رب إنك قد هديت أحبائك لك وقربتهم إليك، فأنا أسألك أن تجعلني منهم كما جعلتهم بفضلك ومثلك.

وفي معنى آخر: أي: اهدني يا رب لأن أكون مع الهداة المهتدين وهم الذين أنعم الله عليهم، كما قال تعالى: (صراط الذين أنعمت عليهم).

ومن مشى مع الركب آمن من الأعداء ووصل بسلام^٢.

وقال تعالى في بيان الصراط المستقيم الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يس * والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين * على صراط مستقيم).

فقوله تعالى: (يس) يعني: يا سيد العالمين^٣، وهو خطاب لسيدنا محمد إذ إن جميع النداءات الإلهية والخطابات الموجهة إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تأتي بألقاب التشريف والتكريم، ومعها ذكر مقاماته العالية صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى: (يا أيها النبي) (يا أيها الرسول) (يا أيها المدثر) (يا أيها المزمل) .

١ ١٦٢٥

٢ وانظر أنواع الهدى في الجزء الأول من كتاب "محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع العالم" للشيخ الإمام رضي الله عنه.

٣ انظر تفسير العلامة الألوسي ٥٤/١٧

وفي الحديث : [أنا سيد ولد آدم]^١.

وفي رواية البيهقي : [أنا سيد العالمين]^٢.

قوله تعالى : (والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين).

أقسم سبحانه بالقرآن ، وقسم الحق يدل على قوة المقسم عليه ، ليبين سبحانه أنه أكبر شاهد على صدق نبوة ورسالة سيدنا محمد التي هي القرآن الكريم النازل عليه ، فبين القسم والمقسم عليه مناسبة قوية .

قوله تعالى : (إنك لمن المرسلين) فيه حجة يقيمها الله على جميع العالم وينبهم إلى أن محمداً هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي هذا حجة على أهل الكتاب والمشركين والملحدين .

فيقال للجاحد الذي ينكر رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم بل وينكر وجود الله تعالى يقال له : من أين هذا القرآن الكريم المعجز ؟؟

وكلام مَنْ هو ؟

انظر وتفكر فيه: هل هو كلام بشر ؟

لقد عجز البشر عن الإتيان بمثله ولو بسورة، إذ هو كلام رب البشر ، مما يدل على أن هناك خالقاً للبشر أرسل فيهم رسولاً وأنزل عليه القرآن .

ومن المشركين من ينكر رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ويثبت رسالة إبراهيم عليه السلام وإسماعيل عليه السلام - مع أنه لم يبق له إلا بقايا من شريعة إسماعيل عليه السلام وذلك لتقادم العهد ، وهذا الذي أوقع العرب في الجاهلية - ، ويعتقد أن إبراهيم عليه رسول الله وكذلك إسماعيل عليهما السلام - وقد ثبتت رسالة إبراهيم عليه السلام بالبينات والصحف التي أنزلها الله عليه وثبتت نبوة إسماعيل عليه السلام- فيقال لهم:

^١ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الفضائل وسنن الترمذي كتاب تفسير القرآن

^٢ ذكره الرازي في تفسيره وعزاه إلى البيهقي في «فَصَائِلِ الصَّحَابَةِ»

هذا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يأتيكم ببينات ومعجزات أعظم مما جاء به إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهذا هو القرآن الذي يقرؤه عليكم قد عجزتم عن الإتيان ولو بسورة مثله ، فما لكم لا تؤمنون برسالته ؟!

وفي ذلك حجة على من أثبت رسالة موسى وأنه رسول الله ، وأنكر رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وكذلك من صدق رسالة عيسى وأنكر رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، فيقال لهم : إن كان قد ثبتت عندكم رسالة رسول بالمعجزات والبيانات التي جاء بها ، فيجب أن تثبت عندكم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لأنه جاء بمعجزات وبيانات أعظم وأكبر من جميع ما جاءت به الرسل والأنبياء قبله، وهذا القرآن هو أجمع الكتب الإلهية وأعظمها .

فقوله تعالى : (إنك لمن المرسلين)

يعني أن من آمن برسول فمن باب أولى أن يؤمن بك يا رسول الله ، ومن كفر بك فقد كفر بالرسول كلهم ، لأن جميع الرسل بشروا برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإن كانوا ينكرون أنه تنزيل من العزيز الرحيم فليأتوا بمثله إن كانوا صادقين!

قوله تعالى : (يس * والقرآن الحكيم) : ذكر سبحانه قلب الأكوان في قلب القرآن^١ ، لأن (يس) هي قلب القرآن كما في الحديث الذي رواه الإمام الترمذي عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبًا، وَقَلْبُ الْقُرْآنِ (يس)، وَمَنْ قَرَأَ (يس) كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِقِرَاءَتِهَا قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ عَشْرَ مَرَّاتٍ]^٢ وقلب الأكوان هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أي : خلاصة الأكوان ، وهو المقصود الأول من خلق الله تعالى .

^١ انظر تفسير الألوسي ٥٤/١٧

^٢ سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن والرواية له وسنن الدارمي كتاب فضائل القرآن

وقوله تعالى : (إنك لمن المرسلين *على صراط مستقيم) أي : فمن
اتبعك وَصَلَ إلى رب العالمين ، وفي هذه الآية شهادة من الله تعالى أنه
صلى الله عليه وسلم على الصراط المستقيم ، وذلك حتى يُلزم العباد
باتباعه صلى الله عليه وسلم ، وعدم الانحراف عن سبيله، كما قال تعالى:
(وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن
سبيله) .

دورة الامتحان التكليفي للإنسان

قال سبحانه : (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً) .

قوله تعالى : (نبتليه) أي : نختبره، نأمره وننهاه ، فهل يَأتمر أم يتمرد ؟
ثم هل في هذه التكليف الشرعية مصلحة في حق الإنسان ؟

نعم إن هذا الامتحان بالتكليف الشرعية تتوقف عليه سعادة الإنسان في الدنيا وفي الآخرة، ألا ترى إلى من دخل دورة امتحان واختبار فكان مقصوده النجاح حتى ينال مرتبة ويسعد بها ؟

فكيف إذا عرض على الإنسان أن يدخل دورة اختبار تسعده في الدنيا وفي الآخرة ؟! وهذه هي التكليف الشرعية ، وهي مضمونة النجاح لمن قصد النجاح ومشى في طريق الفلاح .

ولقد تقدم الإنسان واختار لنفسه أن يدخل هذا الاختبار ، وهو الذي سأل الله تعالى ذلك، وفي هذا يقول سبحانه : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً) .

والأمانة في هذه الآية هي التكليف الشرعية بما فيها من عقائد إيمانية قلبية وأعمال جارحية وأقوال وأخلاق وآداب ، وهذه التكليف عرضها الله تعالى على السموات سماء بعد سماء فاعتذرت وأشفقت وخافت ، وسألت الله أن تبقى على ما كتبه لها من معرفته سبحانه وتسبيحه وحمده .

وهذا العرض عرض حقيقي غير تمثيلي ، ولا تعجب من ذلك فإن للسموات والأرض وسائر الأشياء التي خلقها الله تعالى إن لكل منها إدراكاً لائقاً بها وبنشأتها، فهي تسبح الله تعالى كما قال جل وعلا : (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده) .

وقد خاطبها الله تعالى وأمرها بأوامر كما قال جل وعلا : (ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين) .

وكذلك الأرض والجبال فإن لكل منها إدراكه ومعرفته وأحكامه واعتباره،
ولقد أفرد سبحانه ذكر الجبال مع أنها من عالم الأرض ، وذلك لما لها من
أحكام خاصة، فمن جملة ذلك أنها تسبّح الله دائماً وأمرها سبحانه أن
تردّد مع داود عليه السلام التسبيح، قال عز من قائل: (يا جبال أوبي
معه)، فعرض جل جلاله الأمانة على السموات : هل تؤدين الواجب ولك
الثواب ، وإلا فعليك العقاب ؟!

فنظرت وأشفقت من أن تدخل في باب التكليف ، ورضيت بأن تبقى على
ما هي عليه من التكليف ، إذ فطرها جل وعلا على معرفته وتسبيحه،
ولو أنها اختارت التكليف لأنشأها الله تعالى نشأة تليق بالتكليف الشرعية
التي ستلقى على عاتقها.

وكذلك كان العرض على الأرض والجبال فأبت وأشفقت من عاقبة حملها
لتلك الأمانة.

ولقد خلق الله السموات والأرض والجبال قبل أن يخلق الإنسان، وكان
الإنسان آخر المخلوقات في عالم الأرض ، ولمّا خلقه الله سبحانه عرض
عليه الأمانة وهذا لما استخرج سبحانه من صلب آدم ذريته ، ويسمى
"الميثاق الأول"، قال سبحانه وتعالى :

(وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم
ألست بربكم قالوا بلى) أي أنت ربنا .

فلقد استخرج الله الذراري من الأصلاب صلباً بعد صلب ، وجعلها على
هيئة الذرّ ، وألبسها العقل والتفكير ، واستنطقها بقوله : (ألست بربكم)
فلم يسعهم الإنكار لأنهم على مرأى ومسمع منه تبارك وتعالى فكيف
ينكرون ؟

بل قالوا : (بلى) أي : أنت ربنا .

فأشهد سبحانه عليهم السموات والأرض والملائكة وقال لهم : سأرسل إليكم رسلاً، وأنزل عليكم كتباً تذكركم بيومكم هذا^١ .

ففي ذلك اليوم عرض سبحانه التكليف الشرعية على آدم وذريته، ونظر الإنسان في نفسه وفي هذه التكليف المعروضة عليه فرأى أنه بحاجة إليها ليصلح أمره ، لأنه رأى في نفسه دواعي الشهوات والقوى الحيوانية والغضبية والبهيمية ، ورأى أنها تحمله على الظلم والجهل إذا لم يتطهر منها ، فتقدم وحمل الأمانة والتزمها حتى يسعد بحملها ويحسن حاله في الدنيا وفي الآخرة .

وهذا قوله تعالى : (إنه كان ظلوماً جهولاً) .

أي لأنه كان ظلوماً جهولاً ، ولا يزيل ظلمه وجهله ولا يرفعه إلى مستوى العدل والعلم إلا حمل الأمانة ، فاختر حملها وحملها .

ولما جاء الناس إلى الدنيا -وهي عالم التكليف لما اختاروا حمله- نسوا عهدهم وميثاقهم الأول وحاجتهم لتلك التكليف ، وغرتهم الدنيا والهوى والشيطان بتزيينه ، فأرسل الله الرسل يذكرونهم بميثاقهم الأول كما قال سبحانه : (فذكر إنما أنت مذكر) .

فمنهم من آمن وبقي على ما كان عليه ، ومنهم من أنكر وكذب الرسل حتى صار به الطريق إلى جهنم.

^١ قال الحافظ ابن كثير في تفسيره : عن أبي بن كعب رضي الله عنه في قول الله تعالى (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) الآية والتي بعدها، قال: فجمعهم له يومئذ جميعاً، ما هو كائن منه إلى يوم القيامة، فجعلهم أرواحاً ثم صورهم ثم استنطقهم فتكلموا، وأخذ عليهم العهد والميثاق، وأشهدهم على أنفسهم (ألست بربكم قالوا بلى)، الآية، قال: [فإني أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة: "لم نعلم بهذا"، اعلموا أنه لا إله غيري ولا رب غيري، فلا تشركوا بي شيئاً، وإني سأرسل إليكم رسلاً يذكرونكم عهدي وميثاقي، وأنزل عليكم كتبتي]، قالوا: نشهد أنك ربنا وإلهنا، لا رب لنا غيرك، ولا إله لنا غيرك، فأقروا له يومئذ بالطاعة . اهـ

ومما تقدم يتبين لك أن الإنسان هو الذي اختار حمل التكاليف الشرعية والدخول في الدورة الامتحانية بما فيها من أوامر ومناه ، وذلك لما رأى في نفسه الاستعداد لحملها، وأنه لا يكون نجاحه وفلاحه وسعادته إلا بها،

كما تقول : "عرضت الماء على فلان فشرب ، إنه كان عطشان" و "عرضت الماء على فلان فأبى إنه كان رَيَّان" ^١ وهكذا ترى أن العطش حمله على التقدم لشرب الماء.

وإن صفة الظلم والجهل وما يتفرع عنهما حملت الإنسان على التقدم لحمل الأمانة ليزيل عنه هذه الصفات الذميمة ويتحلى بالفضائل والمكارم ، وإن نتيجة الاختبار بالتكاليف الشرعية هي كما قال سبحانه : (إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً) .

أما عاقبة الكافرين فهي (إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً) والسلاسل في الأيدي والأرجل ، والأغلال في الأعناق ، والسعير هي النار المحرقة نعوذ بالله منها .

وأما عاقبة المؤمنين فهي: (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً) ^٢ . قال تعالى : (وفي الأرض آيات للموقنين) أي : آيات دالة على الله تعالى يستدل بها العاقل وتوصله إلى درجة اليقين .
(وفي أنفسكم) أي : وفي أنفسكم آيات للموقنين أيضاً .
(أفلا تبصرون) .

^١ قال في لسان العرب ١٣ / ١٩٢ : الرَّوَاء هو الماء الذي يُزوي فهو رَيَّان، فالرَّيَّان فَعْلان من الرَّيَّ .

^٢ وانظر تفاصيل الكلام على الأبرار والمقربين ونعيم كل منهم في كتابي (التقرب إلى الله تعالى) و (محاضرات حول صفات أهل الجنة) لمولانا الشيخ الإمام رضي الله عنه .

وهكذا ترى أنه سبحانه لَفَت العباد إلى التفكير في آياته جل وعلا ، لأن مَنْ رأى الآيات والعوالم شاهدَ قدرة وعظمة مَنْ صنعها، واستدلّ بها على وحدانيته وعلمه وحكمته جل جلاله ، ولذلك ألزم سبحانه العباد أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد أن أعلمهم وأشهدهم مشاهد وحدانيته وقدرته في العوالم كلها ، وأشهدهم مشاهد صدق رسوله صلى الله عليه وسلم بالبينات والمعجزات التي جاء بها ، وأعظمها القرآن الكريم المعجز بما فيه من أحكام وحكم وإخبار عما كان وسيكون .

مقتضيات شهادة الإنسان بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم

أولاً: وجوب اتباع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علّمتنا إنك أنت العليم الحكيم، أما بعد :

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري قال بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان].

تقدّم بعض الكلام على الشهادة بأنه لا إله إلا الله وعلى الشهادة بأن سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقلنا بأن الشهادة بأن سيدنا محمداً رسول الله تتطلب أموراً لا بدّ منها، وذلك لأن رسالته صلى الله عليه وسلم عامّة إلى جميع الأمم إلى يوم الدين ، ولأنه خاتم الأنبياء والمرسلين فلا نبي بعده ولا رسول بعده.

وهذه الشهادة بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم تتطلب الاعتقاد بأنه رسول الله إلى الإنس والجن وسائر العوالم .

وأنت أيها الإنسان من جملة الناس، فهو صلى الله عليه وسلم رسول الله إليك أرسله الله تعالى برسالته إليك، فماذا يجب أن يكون موقفك من هذا الرسول ورسالته صلى الله عليه وسلم؟

إنك إذا أرسل إليك رجل كبير له شأنه وسلطته رسالةً فإنك تحترم رسول ذلك الرجل وتحترم رسالته، فما بالك - ولله المثل الأعلى - برسالة رب العالمين التي أرسلها بواسطة رسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وتتضمّن هذه الرسالة سعادة الإنسان وما فيه صلاحه وفلاحه في الدنيا والآخرة ؟ !!

وإن المقصود من رسالة رب العالمين إلى خلقه هو الإنسان، وليس هناك حاجة لرسول الله عندك ولا غرض له عندك .

قال تعالى : (قل لا أسألكم عليه أجراً) وإنما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم برسالة لك فيها سعادتك ومصلحتك، فانظر موقفك مع رسول الله ورسالته، ألا يجب عليك أن تبحث في مضمون هذه الرسالة وتتعلق بالرسول الذي جاءك بها ؟!

لقد أرسل الله تعالى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ليرحم به العباد كما قال سبحانه : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)، وأرسله ليهدي الناس إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، قال جل وعلا : (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد)، وقال عز من قائل : (واتبعوه لعلكم تهتدون) .

وأرسله سبحانه إلى الإنسان حتى يسعده في الدنيا ويسعده في الآخرة فيدخله الجنة ويبعده عن النار، قال تعالى : (إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً) أي : أرسلناك بالدليل الحق والبرهان القاطع بشيراً بالجنة ونذيراً من النار.

ولقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وهمّة وغرضه هداية الناس ونفعهم، قال تعالى : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) .

وتفكّر في كلام العظيم فهو كلام عظيم، وتفكّر في كلام العليم فهو يتضمن المعاني العالية والعلوم الكبيرة.

فقوله تعالى : (لقد جاءكم رسول) أي : عظيم شأنه وكبير أمره كما هو معروف في لغة العرب أن التنكير هنا للتفخيم^١.

^١ قال الحافظ السيوطي في الدر المنثور عند تفسيره لهذه الآية الكريمة : وأخرج الحاكم عن ابن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ { لقد جاءكم رسول من أنفسكم } يعني من أعظمتكم قدراً » .

وقال أبو السعود العمادي في تفسيره : { وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ } هو النبي صلى الله عليه وسلم ، والتنكير للتفخيم. اهـ ١٧٠/١

(من أنفسكم) أي : معروف عندكم منذ صِغَر سِنِّه بالصدق والأمانة والعفة والحصانة.

وما هو موقفه صلى الله عليه وسلم معكم ؟

قال تعالى : (عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم) أي : يصعب عليه ما يصعب عليكم، وما يؤلمكم يؤلمه، وما يشقُّ عليكم يشقُّ عليه، فَيَعِزُّ عليه صلى الله عليه وسلم ما يصيبكم من عَنَتٍ وشدة وكرب، ويصعب عليه ذلك لأنه صلى الله عليه وسلم جاءكم أولى بكم من أنفسكم، وأرحم بكم من آبائكم وأمهاتكم ، بل هو صلى الله عليه وسلم أرحم بكم من أنفسكم ، كما قال تعالى : (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم).

فهو صلى الله عليه وسلم يهتمُّ أمر كل إنسان ، فإن آمن به صلى الله عليه وسلم واتبعه فرح صلى الله عليه وسلم بذلك وسُرَّ، وإن أعرض الإنسان أسِف صلى الله عليه وسلم وحزن عليه كما قال تعالى في بيان ذلك : (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات)، وقال جل وعلا : (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين)، وقال جل وعز : (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً).

فجاءت الآيات من الله تعالى وفيها تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لكي يخفّف على نفسه الضيق والحزن بسبب إعراض الكافرين وجحودهم بعد ما دعاهم صلى الله عليه وسلم وتبيّن لهم الحق ، فيحزّن عليهم صلى الله عليه وسلم لأنهم لم يستجيبوا لدعوته وفيها حياتهم وسعادتهم، وفوتوا الخير على أنفسهم لما أعرضوا عنه صلى الله عليه وسلم .

ولكي يظهر لك الأمر واضحاً فإليك ما يقرب لك فهم ذلك :

إذا رأيت إنساناً عطشان يلهث من شدة العطش، ورحت تقرب إليه ماءً عذباً فُراتاً وهو يعرض عنك وأنت تذهب وتتعب نفسك لعله يتقبّل منك الماء ويشربه ، وهو يعاند ويعارض مع أنه يعلم أنه ليس لك حاجة عنده سوى إنقاذه من الهلاك.

نعم .. إن مقتضى العقل السليم والفكر الصحيح أن يقبل الإنسان دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم له، وأن يستجيب لدعوته لأن فيها خيره ونجاحه وسعادته في الدنيا والآخرة.

كما يجب على الإنسان أيضاً أن يتعلق برسول الله متّبِعاً لجنابه الشريف ومحّبّاً له أكثر من محبته لنفسه، لأنه صلى الله عليه وسلم يحب الخير لك أكثر مما تحبه أنت لنفسك.

ولقد أرسله الله تعالى شاهداً على من آمن به، يشهد له بالإيمان سواء من آمن به من أهل زمنه أو من بعدهم إلى يوم الدين، قال تعالى : (إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا* فعصى فرعون الرسول) أي : فلا تكونوا مثله ، واحذروا معصية رسولكم.

فكما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو رسول إلى الناس جميعاً إلى يوم الدين فكذلك هو شاهد على كل من أرسل إليه وآمن به، قال تعالى : (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً).

وإن الله تعالى يُشهد رسول الله أمته وأعمالهم حتى قال صلى الله عليه وسلم : [عُرِضْتُ عَلَى أُمَّتِي الْبَارِحَةَ لَدُنْ هَذِهِ الْحُجْرَةِ، حَتَّى لَأَنَا أَعْرِفُ بِالرَّجُلِ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدِكُمْ بِصَاحِبِهِ]^١.

وعُرِضَتْ عَلَيْهِ صلى الله عليه وسلم أُمَّتُهُ فِي مناسبات متعددة كما دلت على ذلك الأحاديث الشريفة، وتُعرض عليه أعمالهم كما في قوله صلى الله عليه وسلم :

[حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم ووفاتي خير لكم] - أي أن خيره لا ينقطع عن أمته صلى الله عليه وسلم-[تُعرض علي أعمالكم فما رأييت من خير حمدت الله عليه، وما رأييت من شر استغفرت الله لكم]^٢.

^١ انظر المعجم الكبير للطبراني

^٢ عزاه في مجمع الزوائد إلى البزار وقال: رجاله رجال الصحيح، ورواه ابن سعد في الطبقات

فهو صلى الله عليه وسلم يشهد للمؤمن من أمته ويشفع به ويتولاه، ولا يتركه أبداً في وقت يتركه فيه أهله وأصحابه حيث يوضع في قبره وهو في أشد الحاجة إلى أنيس وبشير لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرحم بالإنسان المؤمن من أبيه وأمه وولده، بل أرحم به من نفسه فلا يتخلى عنه.

وقد قال صلى الله عليه وسلم :

[ما من مؤمن] وفي مسند أبي يعلى الموصلي : [ولا مؤمنة]
[إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم {النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم}]^١.

وإن أول برازخ الآخرة التي يدخلها الإنسان هي القبر .

فلا بدّ إذاً لمن أراد أن يتحقق بشهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم لا بد له أن يتبع هذا الرسول الكريم حتى يكون على هدى من الله ويظفر بسعادة الدارين وينال محبة الله تعالى له، وهذا ما نبّه إليه سبحانه بقوله عز من قائل: (واتبعوه لعلكم تهتدون)، وقوله تبارك وتعالى : (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون)، وقوله عز وجل : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله).

وإن شهادة الإنسان بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم تُوجب عليه اتباع النبي صلى الله عليه وسلم ومحبته فوق محبة كل مخلوق كما قال سبحانه : (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله) أي بأمر الله ، أي : لم يرسل سبحانه رسوله حتى يقول لهم الناس: " أنتم رسل " فهم رسل الله سواء قال لهم الناس ذلك أم لم يقولوا، وإنما أرسل سبحانه رسله الكرام عليهم الصلاة والسلام كي يتبعهم الناس ويطيعوهم فيما جاؤوا به.

^١ رواه الإمام أحمد في مسنده ٨٠٦٦ ورواه البخاري في صحيحه في كتاب تفسير القرآن والرواية له عن أبي هريرة رضي الله عنه.

واعلم أن جميع ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحكام فيها بيان الحلال والحرام إنما هي مصالح ومنافع للعباد سواء بين لهم شيئاً من حكمة ذلك التحريم أم لم يبين، وعلى العاقل أن يدرك أنه صلى الله عليه وسلم لم يحرم شيئاً فيه منفعة أو مصلحة للناس، وإلا لما حرّمه ، وذلك لأن الله تعالى الذي خلق الأشياء كلها وجعل فيها التأثير المخصوص عرّف ذلك رسوله صلى الله عليه وسلم وعلمه جميع الأمور كما قال تعالى : (وعلمك ما لم تكن تعلم) فجاءت إرشاداته وتعاليمه صلى الله عليه وسلم في الحلال والحرام عن علم بخصائص الأشياء وما ينفع الناس وما يضرهم .

وكلمة (النبي) مأخوذة من "النبأ"^١، وباب النبوة باب نوراني رباني كبير يفتحه الله على أنبيائه الكرام عليهم السلام، وأعظمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ويفيض الله سبحانه عليهم في دقائق الليل والنهار العلوم والمعارف بطرق متنوعة.

ولقد أطلع الله سبحانه من باب النبوة سيدنا إبراهيم عليه السلام على ملكوت السموات والأرض ، قال تعالى : (وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض)، وكان إبراهيم عليه السلام في الأرض ، وكشف له سبحانه عن جميع ما هنالك حتى العرش^٢.

ولقد أطلع الله سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم وكشف له عن أمور لم تُكشَف لأحد غيره، وذلك ليلة أُسري وعرج به إلى ما فوق السماء السابعة فلا تنكر ذلك ، وإنما عليك اتباع مَنْ أمرك الله باتباعه، وكن من الذين أخبر عنهم سبحانه إذا جاءهم شيء من الله ورسوله أن يقولوا :
(سمعنا وأطعنا) .

^١ انظر لسان العرب ١٦٢/١

^٢ قال الحافظ السيوطي في الدر المنثور : وأخرج آدم بن أبي إياس وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في الأسماء والصفات عن مجاهد في قوله تعالى (وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض) قال : آيات، فُرِجَتْ له السموات السبع فنظر إلى ما فيهن حتى انتهى بصره إلى العرش ، وفرجت له الأرضون السبع فنظر إلى ما فيهن .

وإن طريق القرب ونيل الولاية هو اتباع سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم كما في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَتْهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ].
وفي رواية عند الطبراني في الأوسط : [من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة].

اللهم انفعنا بأوليائك المقربين يا رب العالمين.

وكلمة (ولي) على وزن : "فعليل" تحتمل معنى الفاعل والمفعول كما هو في لغة العرب ، ولا تناقض في هذا، فالولي محب لله محبوب من الله كما قال تعالى : (يحبهم ويحبونه).

وقد تكون من القُرب أيضاً^١ وهو (الْوَلِيُّ) فيكون معنى "الولي" : المتقرب إلى الله تعالى والمقرب من الله جل وعلا.

فلقد بين سبحانه في هذا الحديث القدسي طريق القرب والولاية وهو قوله جل وعلا: [وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ].

وهذا هو التقرب إليه سبحانه بأداء الفرائض ، ومنها الفرائض الإيجابية العملية وهي أداء الفرائض ، ومنها الفرائض السلبية وهي اجتناب المحرّمات التي حرّمها الله ورسوله، لأن ترك المحرّمات فرض على كل إنسان، ومن تحقق بمقام قرب الفرائض بأن امتثل الفرائض واجتنب المحرّمات نال مقام الولاية العامة..

أما طريق نيل الولاية الخاصة فيكون بالإكثار من النوافل التي هي زيادة على الفرائض وهذا قوله سبحانه: [ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل] أي : زيادة على الفرائض.

^١ انظر لسان العرب مادة "ولى"

[حتى أحبه] أي : حتى ينال مقام المحبوبة الخاصة من الله تعالى ،
فبعد أن كان محباً صار محباً ومحبباً.

والنفل في الشرع هو : كل ما زاد على الفرض ، فهناك نوافل الصلاة أي ما
زاد على الفرائض المعروفة ، وهناك نوافل الصيام وهي ما زاد عن صيام
شهر رمضان ، ونافلة الصدقة هي ما زاد عن الزكاة المفروضة وهكذا ...
وفي الحديث يقول صلى الله عليه وسلم :

[أَفْضَلُ الصَّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ شَهْرُ اللَّهِ الْمُحَرَّمُ، وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ
الْفَرِيضَةِ صَلَاةُ اللَّيْلِ]¹، وفي رواية : [قيام الليل]².

ويكون ذلك بصلاة السنة القبلية والبعدية لأنها تابعة للفرائض وممهدة
لها .

وأحب الصلاة إلى الله بعد الفرائض هي صلاة الليل كما قال صلى الله
عليه وسلم :

[عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم ، وهو قرابة إلى ربكم]
أي : بالقرب الخاص

[وَمَكْفَرَةٌ لِلْسَيِّئَاتِ ، ومنهاة للإثم]³ أي : تجعل في القائم مناعة عن
ارتكاب المحرمات .

وروى الترمذي عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال:

[لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، انجفل الناس إليه]
أي : أسرعوا إليه [وقيل: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجئت في
الناس لأنظر إليه، فلما استتبَّ وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم
عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب] أي : آيات صدقه ونبوته ورسالته
واضحة جلية في وجهه الشريف وفي سائر ذراته صلى الله عليه وسلم ..

¹ صحيح مسلم كتاب الصيام

² انظر مسند عبد بن حميد

³ سنن الترمذي كتاب الدعوات

[وكان أول شيء تكلم به أن قال: أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلّوا والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام]^١، اللهم اجعلنا منهم يا مولانا .

ومن زعم أنه من أهل الولاية الخاصة لأنه يكثر من النوافل ، فيقال له : إن لهذا المقام -وهو مقام قرب النوافل- له علامات وشواهد صدق لا بُدَّ أن تظهر على أهل هذا المقام، وهي الكرامات وخوارق العادات في السمع والبصر وغير ذلك، فهل أنت صرت من أهل مقام قرب النوافل وحرمتك سبحانه كراماته وعطاءه لأهل هذا المقام ؟!

إنه سبحانه لا يظلم ، ولا يحرم مستعداً استعداداه وقابليته وأهليته فهو أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين ، إلا أنك لما زعمت أنك حصلت على مقام قرب النوافل فإنك متوهم في ذلك وإن كنت تكثر من النوافل على زعمك ، ولا بُدَّ لك أن تعلم أن النافلة لا تكون زيادة على الفرض إلا إذا كان الفرض كاملاً لا يحتاج إلى جبر وإكمال، فقد يصلي الإنسان فرضه بلا حضور ولا خشوع فيه، وقد يخلّ بآداب الصلاة فتأتي النوافل التي يحسب المصلي أنها نافلة زيادة على فرضه تأتي فتجبر نقص صلاته وتكمل خللها، بل ربما لا تكفي لذلك، فأين هذا المصلي إذاً من مقام قرب النوافل ؟!

وينطبق هذا على بقية الفرائض والطاعات والنوافل .

ولا بد للمصلي في أول مراحل خشوعه في الصلاة أن يلاحظ معاني ما يقول وأسرار ما يفعل من قيام وركوع وسجود وقعود بين يدي الله سبحانه، وليست الصلاة مراسم شكلية خالية عن المعاني والأسرار . قوله سبحانه في الحديث القدسي : [فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به] .

وهذه هي النتائج والآثار التي تظهر على من حلّ في مقام قرب النوافل ..

^١ سنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع

فيحفظ سبحانه سمعه وبصره ومداركه وقواه عن الوقوع في الحرام ،
ويجعل له سبحانه مناعة عن ارتكاب الحرام فلا يسمع هذا العبد ولا
يبصر إلا ما فيه رضا الله تعالى .

وفي رواية الإمام أحمد : [وفؤاده الذي يعقل به] أي : فلا يعقل ولا يفهم
إلا ما يرضي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وهذا ما جرى عليه
أصحاب رسول الله والتابعون من بعدهم فلا يعقل أحدُهم ولا يفهم إلا
ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنهم التابعي الجليل عبد الله بن ثوب^١ وقصته مع الأسود العنسي
الكذاب كما أوردها الإمام النووي رحمه الله تعالى بإسناد الإمام أحمد في
كتاب الزهد عن شرحبيل بن مسلم أن الأسود بن قيس العنسي الكذاب
لما ادعى النبوة باليمن بعث إلى أبي مسلم الخولاني فلما جاءه قال: أتشهد
أني رسول الله؟ قال: ما أسمع، قال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فقال:
نعم، فردد ذلك عليه ، فأمر بنار عظيمة فأجّجت فألقى فيها أبا مسلم فلم
تضره، فقليل للأسود: إنْفِه - أي: أخرج من أرضك - وإلا أفسد عليك مَنْ
تبعك، فأمره بالرحيل إلى اليمن.

فأتى أبو مسلم المدينة وقد توفي سيدنا رسول الله واستخلف أبو بكر رضي
الله عنه فأناخ أبو مسلم راحلته بباب المسجد فقام يصلي إلى سارية -
أي: عمود من أعمدة المسجد - فبصر به عمر بن الخطاب رضي الله عنه
- وقد جاء في سنن الترمذي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَنْظَلٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقَالَ: [هَذَانِ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ] - فقام
إليه فقال له: مَنْ الرجل؟ فقال: مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ، قال عمر: فلعلك الذي
أحرقه الكذاب بالنار.

^١ قال ابن عبد البر في الاستيعاب : أبو مسلم الخولاني العابد، أدرك الجاهلية وأسلم
قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ولم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقدم
المدينة حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو معدود في كبار التابعين،
كان فاضلاً ناسكاً عابداً وله كرامات وفضائل. اهـ ٦٦/٢

قال: ذلك عبد الله بن ثوب، فقال عمر: نشدتك بالله أنت هو؟
قال: اللهم نعم.

فاعتنقه ثم بكى ثم ذهب به حتى أجلسه فيما بينه وبين أبي بكر فقال:
الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني من أمة محمد صلى الله عليه وسلم
من فُعل به كما فعل بإبراهيم عليه الصلاة والسلام خليل الرحمن.

وقد روى هذه القصة الإمام أحمد رضي الله تعالى عنه بإسناده المتصل
عن الثقات كما ذكرها غيره من المحدثين ومنهم ابن حبان في صحيحه.

قوله تعالى في الحديث القدسي : [ويده التي يبطش بها، ورجله التي
يمشي بها] فيُمدّه الله تعالى بقوة في يده ورجله ويحفظه أن تمتد يده أو
تمشي رجله إلى الحرام، ويدخل في هذا الباب جميع الكرامات وخوارق
العادات التي يجريها الله تعالى على يد أوليائه المقرّبين .

ثانياً : وجوب التعرف إلى شيء من مقاماته صلى الله عليه وسلم التي خصّه الله سبحانه بها

إن ممّا يجب على المؤمن أن يعلم أن هناك مقامات خصّ الله بها نبيه سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم، وذلك حتى يحقق شهادته أن محمداً هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن جملة هذه المقامات أنه صلى الله عليه وسلم أُعطيَ مقام أحمد الحامدين لرب العالمين، وأُعطيَ مقام محمّد المحمودين في جميع العالمين، وأُعطيَ مقام أنه صاحب لواء الحمد ، وصاحب المقام المحمود ، وصاحب سورة الحمد التي خصّه الله تعالى بها من جميع الأنبياء والمرسلين عليهم جميعاً الصلاة والسلام.

وهذه خمسة مقامات سنأتي على بيانها إن شاء الله تعالى حتى يعلم المؤمن فضل هذا الرسول الكريم ، وحتى يعرف ما معنى وما يشتمل عليه اسم النبي الأكرم [أحمد] ، وماذا ينطوي من المراتب تحت اسم النبي الأعظم [محمد] عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام .

لقد ذكر سبحانه في الكتب الإلهية التي أنزلت على الأمم السابقة اسمي النبي الكريمين [أحمد] و [محمد] صلى الله عليه وسلم ، وذَكَرهما في القرآن العظيم، وإن هذين الاسمين يدلان على المقامات العالية التي خصّ الله تعالى بها رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، وهذان الاسمان لا يدلان على الذات المحمدية فحسب ، بل هما من أسماء الصفات التي تدل على مقامات ومراتب عالية نالها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهما اسمان يدلان على الذات المحمدية المتصفة بالكمالات .

فهو صلى الله عليه وسلم [أحمد] كما أخبر سبحانه عن عيسى عليه السلام قوله: (ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) يعني بذلك سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم الذي قال :

[أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة عيسى قومه ، ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام]..^١ الحديث

وقوله صلى الله عليه وسلم: [أنا دعوة أبي إبراهيم] أي : لما دعا إبراهيم عليه السلام ربه جل وعلا ، كما في الآية: (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك)... الآية.

فقوله تعالى : (اسمه أحمد) أي : اسمه العلمي واسم مقامه ورتبته أنه أحمد الحامدين لرب العالمين، فليس هناك أحد من خلق الله أحمد لله تعالى من سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والحمد هو ذكر محامد المحمود، وكلما عرف الإنسان من كمالات من يحمده زاد حمده وثناؤه عليه، ويُطلق على ذلك أحيانا: [المدح] كقولك عن فلان الذي تعرف فيه صفات الكرم والعلم والشجاعة ، وصرت تحمده بهذه الصفات المتحقق بها فتقول : "فلان شجاع كريم عالم محسن"، وهكذا يكون حمد الحامد ومدح المادح على حسب علمه بصفات وكمالات من يمدحه ويحمده .

وإن علم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالله تعالى وبكمالاته وبجلاله وعظمته سبحانه علم فرداني لا يعلمه أحد غيره ، فحَمِدَ الله تعالى به، لأن الله تعالى علّمه محامد لم يطلع عليها غيره، ولذلك فإنه صلى الله عليه وسلم هو أحمد الحامدين لرب العالمين .

ولقد حَمِدَ صلى الله عليه وسلم حَمِدَ الله تعالى في الدنيا حمداً لم يحمده به أحد غيره من الأنبياء والرسل والملائكة ، ولقد حَمِدَ الله تعالى حمداً ملاً به ذرات الكون كله، وسيحمد الله يوم القيامة بمحامد لم يحمد الله بها من قبله أحد ، ولن يحمده بها من بعده أحد، فهو صلى الله عليه وسلم أحمد في كل العوالم .

^١ كما في مسند الشاميين للطبراني والرواية له وانظر مسند الإمام أحمد ١٦٥٣٧

ومن محامده صلى الله عليه وسلم في الدنيا ما كان يقوله في صلاته حين يرفع رأسه الشريف من الركوع فيقول : [سمع الله لمن حمده] يعني أن الله تعالى يسمع ويجيب حمد الحامد له، وطالما الأمر كذلك فيجب على المصلي أن يحمد الله تعالى فكان رسول الله يقول: [رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلءَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمِلءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ]^١ أي : حمداً يملأ السموات ويملاً الأرض، ويملاً أيضاً ما شئته يا رب من المخلوقات ، ملء الكرسي وملء العرش وملء الجنة وملء السدره، ملء ما خلقتة يا رب وما تخلقه من عوالم، كل ذلك أملؤه حمداً لك يا رب العالمين.

فلم يترك صلى الله عليه وسلم ذرة في العوالم كلها إلا وملاًها بحمد الله تعالى فأتى لغيره من الحامدين أن يبحثوا عن فراغ لم يملأه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حمداً حتى يملؤوه حمداً لله جل وعلا ؟!

وطالما أن حمده صلى الله عليه وسلم لله تعالى قد ملأ العوالم كلها وأحاط بها فلا يسع الحامد إلا أن يحمد الله تعالى بما حمده به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن دعائه صلى الله عليه وسلم في صلاة الليل بعد تكبيرة الإحرام :
[اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيَّامُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ]^٢
والمعنى : لك الحمد يا رب حمداً يليق بقيوميتك.

وفي رواية : [ولك الحمد أنت قَيَّومُ السموات والأرض ومن فيهن]^٣.

وفي رواية : [وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ]^٤
والمعنى واحد .

^١ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الصلاة

^٢ طرف حديث في سنن النسائي كتاب قيام الليل وتطوع النهار وصحيح ابن خزيمة كتاب الصلاة

^٣ انظره في كتاب خلق أفعال العباد للإمام البخاري ومصنف الإمام عبد الرزاق

^٤ صحيح البخاري كتاب الدعوات

وفي رواية : [وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ مَالِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ]^١.

وفي رواية : [وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ]^٢.

وهكذا كان صلى الله عليه وسلم يحمد الله تعالى حمداً لائقاً بصفاته جل وعلا، وقِيُومِيَّة الله تعالى لا انتهاء لها ، وحمده صلى الله عليه وسلم تابع لها فلا انتهاء له .

وقوله صلى الله عليه وسلم : [اَللّٰهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ].

أي: أنت الذي ظهرت بنورك السموات والأرض، فأنت أفضت النور على المعدومات الممكنة حال ظلمتها في العدم فاستنارت بنور الوجود فظهرت من العدم إلى الوجود .

فكان صلى الله عليه وسلم يحمد الله تعالى بمحامد لائقة بصفات الحق جل وعلا ، وذلك بوحى من الله تعالى، قال جل وعلا: (وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى) .

ولقد علّم الله تعالى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم هذه المحامد ، وجهر بها صلى الله عليه وسلم وسمعها الصحابة رضي الله عنهم وبلغوها حتى وصلت إلى من بعدهم وهكذا يَتَّبِع المؤمنون رسول الله في كل ما جاء عنه، ويحمد المؤمن ربه جل وعلا بما حمده به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والحمد والمدح مردود إلى أمرين :

فهما إما أن يكونا بسبب صفات كمال ذاتية اتصف بها المحمود ، وإما بسبب صفات فضل ونوال، فربما تمدح فلاناً بصفات العلم والصلاح والحلم وحسن الخلق ، وقد تمدحه لأنه يحسن إليك ويغدق عليك العطاء .

^١ طرف حديث في سنن ابن ماجه كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها

^٢ انظر مسند الإمام أحمد ٣١٩٦

أما حمد العبد لله تعالى فيكون على الكمالات المطلقة المتصف بها سبحانه، ويُحمد سبحانه على صفات النوال والعطاء والفضل ونعمه التي لا تحصى على عبادته، وهذا قوله تعالى : (الحمد لله رب العالمين).

ولقد كان صلى الله عليه وسلم يحمد الله على كمالاته تبارك وتعالى ، ويحمده على نواله وعطائه سبحانه بكلمات من المحامد جامعة ، لا يسع المؤمنَ مهما علم أو فهم إلا أن يتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم في قولها .

ومن حمده صلى الله عليه وسلم لله تعالى بعد الطعام :

[الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلَا مُوَدَّعٍ وَلَا مُسْتَعْنَى عَنْهُ رَبَّنَا]¹.

قوله تعالى مخبراً عن سيدنا عيسى عليه السلام قوله : (ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) فهو اسم وصفٍ ورتبة ومقام خصّ الله به سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم من بين جميع الأنبياء والرسل قبله .

وهو صلى الله عليه وسلم أحمد الحامدين لرب العالمين في جميع العالمين، فَحَمِدَ الله في الدنيا بما لم يحمده أحد قبله ولن يحمده أحد بعده، وكذلك فهو صلى الله عليه وسلم يحمد الله تعالى يوم القيامة بمحامد لم يُطلع الله عليها أحداً غيره.

ففي الحديث الذي رواه الإمام البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَآجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ] أي : اضطربوا فيما بينهم بسبب شدة الهم والكرب الذي أصابهم.

[فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ اشفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ]

أي : فيذهبون إلى آدم عليه السلام لعله ينقذهم من هول ما هم فيه.

¹ سنن أبي داود كتاب الأطعمة

[فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ فَإِنَّهُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ ، فَيَأْتُونَ
إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا] أي : لست أهلاً لهذا المقام.

[وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللَّهِ، فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا،
وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى فَإِنَّهُ رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ] أي : رُوحُ خلقها الله.

[فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ فَيَأْتُونِي فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا] ولم يفعل هذا صلى الله عليه وسلم إلا بأمر
الله تعالى.

وقد يقال : طالما أن الأمر لا ينكشف إلا بواسطة سيدنا محمد صلى الله
عليه وسلم فلم لم يتوجه الناس إليه مباشرة ؟

نعم ذهبوا إلى هؤلاء الرسل عليهم السلام حتى يتبين لهم تقاصرهم عن
التقدم لهذا المقام، وأنه لا يليق لمقام الشفاعة العظمى إلا سيدنا محمد
صلى الله عليه وسلم.

ثم قال صلى الله عليه وسلم : [فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذَنُ لِي، وَيُلْهِمُنِي
مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لَا تَحْضُرُنِي الْآنَ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ] أي : بأسماء
إلهية لم تظهر في عالم الدنيا، وإنما هي الآن في حضرة اسم الله (الباطن)،
وستظهر في الآخرة ويعلمها الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم
فيحمده بها.

[ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا]، وفي رواية : [فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ سَاجِدًا]^١

فهو صلى الله عليه وسلم أول من يرى ربه جل وعلا في كل العوالم ، كما
رآه جل وعلا في عالم الدنيا ليلة الإسراء والمعراج.

وفي رواية : [فيدعني ما شاء الله أن يدعني]^٢

أي : وهو صلى الله عليه وسلم يثني على الله ويسترحم الله ويسترضيه
ويطلب عفوه ومغفرته جل وعلا.

^{١١} صحيح البخاري كتاب التوحيد

^٢ صحيح البخاري كتاب التوحيد

وفي رواية : [ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَيَّ أَحَدٌ قَبْلِي]^١.

وفي مسند الإمام أحمد : [فَأَحْمَدُهُ بِمَحَامِدٍ لَمْ يَحْمَدْهُ بِهَا أَحَدٌ كَانَ قَبْلِي وَلَيْسَ يَحْمَدُهُ بِهَا أَحَدٌ بَعْدِي]^٢.

أي : أن هذه المحامد لم يعلمها قبل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أحد ، ولا يمكن أن يعلمها أحد بعده، وإنما اختص الله بها سيدنا محمداً بمقتضى اسمه [أحمد] صلى الله عليه وسلم.

[فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمِعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعَ] .
فيشفع صلى الله عليه وسلم أولاً في أهل الموقف عامة كي ينفض أمرهم إلى الحساب، ثم يستأذن صلى الله عليه وسلم على ربه جل جلاله ويسجد له فيشفعه في أمته [فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيْمَانٍ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ]
أي : فيشفع رسول الله صلى الله عليه وسلم في المؤمنين العصاة من أمته ويخرجهم من النار.

[ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمِعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعَ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ أَوْ خَرْدَلَةٍ]
وهي أصغر من حبة البر [مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرِجْهُ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ] .

قال صلى الله عليه وسلم : [ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمِعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعَ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةٍ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمِعْ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعَ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَتَذُنُّ لِي فِيمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ] أي : مع ملازمتها : محمد رسول الله.

^١ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن

[فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَكِبْرِيَايَ وَعَظَمَتِي لأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ^١] أي : وهم أعصى العصاة ويسمّون الجهنميون.

وفي رواية : [حَتَّى مَا يَبْقَى فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ]^٢ أي وجب عليه الخلود وهم الكفار .

أما اسمه الكريم صلى الله عليه وسلم [محمد] أي : محمد المحمودين في كل العالمين، يقال : "فلان محمود السيرة" لحسن خلقه ومعاملته فيحمده الناس على ذلك فهم حامدون وهو محمود، وكلما زادت كمالات ذلك المحمود زاد حمد الناس له، فَمَنْ هو المحمود فوق كل محمود مِنْ كل محمود خلقه الله تعالى ؟ نعم .. هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي هو أكثر خلق الله تعالى محمودية لأنه أعظم خلق الله كمالاً ونوالاً، فلقد أفردته الله تعالى بمقامي [محمد] و [أحمد]، كما أفردته بعدة مقامات كمقام الشفاعة العظمى ومقام الوسيلة، ولذلك فإن جميع الخلق يحمدون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنهم الملائكة الذين أخبر سبحانه عنهم أنهم يصلون على النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك الأنبياء والمرسلون عليهم السلام، والمؤمنون به من كل أمة ، وكذلك أمته المتبعة له صلى الله عليه وسلم.

حتى إن الكفار يحمدون رسول الله ويثنون عليه، فهم في الدنيا لم يعترفوا برسالته ولم يصدقوا بمحاسن شريعته صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم في الآخرة سيعترفون بذلك لا محالة، سيّما لما تشتد الكربات والأهوال على أهل الموقف ولا يجدون من ينقذهم ويغيثهم منها إلا سيدنا محمداً رسول الله فيصير أهل الموقف بمن فيهم من الكفار يحمدون رسول الله ويثنون عليه لأنه كشف عنهم التجلي الإلهي بالغضب الأكبر حتى جعلوا يتمنون الخلاص ولو إلى جهنم كما قال صلى الله عليه وسلم : [فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ]^٣.

^١ صحيح البخاري كتاب التوحيد

^٢ صحيح البخاري كتاب التوحيد

^٣ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الإيمان

واعلم أن الآمنين في برازخ الآخرة هم أهل الإيمان الذين لم يخلطوا
إيمانهم بشرك ومظالم مع العباد، وفي هذا يقول سبحانه : (الذين آمنوا
ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) اللهم اجعلنا
منهم، آمين.

وهكذا فإن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم محمود من كل خلق الله
تعالى من إنسهم وجنهم وبرهم وفاجرهم، فهو صاحب مقام الحمد الذي
أشار إليه سبحانه بقوله: (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً).

وجاء في آخر حديث الشفاعة عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ :
ثُمَّ تَلَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الْآيَةَ { عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا
مَحْمُودًا } قَالَ: وَهَذَا الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ الَّذِي وَعَدَهُ نَبِيُّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ^١.

وقال صلى الله عليه وسلم : [أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهَلْ تَذَرُونَ بِمِ
ذَاكَ؟] أي: هو صلى الله عليه وسلم السيد الذي يُرْجَعُ إليه في المهام كلها
حتى في الآخرة، قال صلى الله عليه وسلم : [يَجْمَعُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ] وهي أرض الموقف الواسعة التي يَحْشُرُ
فيها سبحانه جميع الخلائق حتى الحيوانات والوحوش، وتسمى أرض
الساهرة، كما قال سبحانه : (فإنما هي زجرة واحدة * فإذا هم بالساهرة)
أي: الأرض الواسعة المخيفة التي لا ينام مَنْ عليها لشدة المخاوف، ولا
أمان إلا لأهل الإيمان الكامل.

قال : [فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنْ
الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَمَا لَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ:
"أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ
إِلَى رَبِّكُمْ" فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: "اِئْتُوا آدَمَ" فَيَأْتُونَ آدَمَ] ... إلى أن
قال صلى الله عليه وسلم : [فَيَأْتُونِي فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ
وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَغَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى
رَبِّكَ] .

^١ صحيح البخاري كتاب التوحيد

فيشفع صلى الله عليه وسلم في أهل الموقف ثم يشفع في عصاة المؤمنين على مراتب في الشفاعة.

ثم يقال : [يَا مُحَمَّدُ ادْخُلِ الْجَنَّةَ مِنْ أَمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ]^١.

وهذه شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في الخواص الذين لا حساب عليهم، فهم يدخلون أبواب الجنة الثمانية في آن واحد وهذا بسبب نشأتهم الأخروية الجنانية ، وهذا من خصوصيات أهل الجنة أن يتعدد وجودهم في قصورهم وهم يتنعمون بوجودهم هذا وذاك في آن واحد .
وجزى الله عنا سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ما هو أهله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين .

^١ صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن

البحث حول الكلمتين الشريفتين [محمد] و [محمود]

إن كلمة [محمد] أبلغ من كلمة [محمود] فهو صلى الله عليه وسلم كثير المحمودية لأنه كثير في صفات الحمد التي يُحمد عليها، وهي المحاسن والكمالات التي اتصف بها صلى الله عليه وسلم على وجه فرداني بين خلق الله كلهم، وهو صلى الله عليه وسلم أكثر محمودية من العالمين، فما من عاقل في العالمين إلا وهو يحمد سيدنا محمداً، حتى إن الكافر لو عقل وأنصف لحمد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا بد أن يأتي يوم يظهر فيه ذلك جلياً، وترى فيه الخلائق كلهم يحمدون سيدنا رسول الله حتى الكفار ويمدحونه ويثنون عليه، وهذا يوم القيامة لما يصير الناس في عالم الموقف ولا ينقذهم ولا يخلصهم من أهواله وكرباته الشديدة إلا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وهو صلى الله عليه وسلم يُحمد على كمالاته ومحاسنه المتصف بها، ويُحمد على ما جاء به من شريعة فيها صلاح وسعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، وقد جاء بيان ذلك فيما رواه أحمد في مسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَاهُ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ مَلَكًا^١ فجلس أحدهما عند رأسه الشريف صلى الله عليه وسلم، وكان مضطجعا، وجلس الآخر عند رجله الشريفتين، وطلب أحدهما من الآخر أن يضرب مثالا للنبي صلى الله عليه وسلم وأُمَّته [فَقَالَ: إِنَّ مَثْلَهُ وَمَثْلَ أُمَّتِهِ كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفَرٍ] أي مسافرين [انْتَهَوْا إِلَى رَأْسِ مَفَارِزٍ] أي : بطن صحراء

^١ جاء في حديث آخر في صحيح البخاري كتاب الطب قوله صلى الله عليه وسلم للسيدة عائشة رضي الله عنها : يَا عَائِشَةُ أَشْعَرْتَ أَنَّ اللَّهَ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ أَتَانِي رَجُلَانِ فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلِي ... الحديث ، قال الحافظ ابن حجر في الفتح : وَوَقَعَ فِي رِوَايَةِ مَعْمَرٍ عِنْدَ أَحْمَدَ وَمُرْجَأُ بْنُ رَجَاءٍ عِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ كِلَاهُمَا عَنْ هِشَامٍ : " أَتَانِي مَلَكَانِ " وَسَمَاهُمَا ابْنُ سَعْدٍ فِي رِوَايَةِ مُنْقَطِعَةِ جَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ . اهـ ٢٩٦/١٦

[فَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ مِنَ الرَّادِّ مَا يَقْطَعُونَ بِهِ الْمَفَارَةَ وَلَا مَا يَرْجِعُونَ بِهِ،
فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ أَتَاهُمْ رَجُلٌ فِي حُلَّةٍ حَبْرَةٍ^١ فَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ وَرَدْتُ بِكُمْ
رِيَاضًا مُعْشِبَةً وَحِيَاضًا رُوءَاءَ أَتَتَّبِعُونِي؟ فَقَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَانْطَلِقْ بِهِمْ
فَأُورِدْهُمْ رِيَاضًا مُعْشِبَةً وَحِيَاضًا رُوءَاءَ، فَأَكَلُوا وَشَرِبُوا وَسَمِنُوا فَقَالَ لَهُمْ:
أَلَمْ أَلْقَكُمُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ فَجَعَلْتُمْ لِي إِنْ وَرَدْتُ بِكُمْ رِيَاضًا مُعْشِبَةً وَحِيَاضًا
رُوءَاءَ أَنْ تَتَّبِعُونِي؟ فَقَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَإِنَّ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ رِيَاضًا أَعْشَبَ مِنْ هَذِهِ
وَحِيَاضًا هِيَ أَرْوَى مِنْ هَذِهِ فَاتَّبِعُونِي، قَالَ: فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: صَدَقَ وَاللَّهِ
لَنَتَّبِعَنَّهُ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: قَدْ رَضِينَا بِهَذَا نُقِيمَ عَلَيْهِ^٢].

وهذا مثال ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من مصالح الدنيا
ومصالح الآخرة، وما يسعد الإنسان في الدنيا وما يسعده في الآخرة،
فلم تكن شريعته صلى الله عليه وسلم تسعد الإنسان في الآخرة فقط
وتهمل أمر دنياه، بل إن شريعته صلى الله عليه وسلم سعادة للإنسان في
الدنيا والآخرة لمن تفكر وتدبر.

ألا ترى أن في شرع الرسول صلى الله عليه وسلم حفظ الحقوق وحسن
الجوار والمعاملة مع سائر خلق الله؟! وقد سعد من التزم بها، فهناك
قسم من الناس أخذوا بما جاء به رسول الله من مصالح ومنافع الدنيا ولم
يرغبوا في الآخرة، وهناك المؤمنون الذين أخذوا بما فيه مصالح الدنيا
ومصالح الآخرة، وقالوا: لقد حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما
فيه سعادة الدنيا فكيف لا نصدق بما فيه سعادة الآخرة؟!
فعملوا بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم واتبعوه.

فانظر في أمره صلى الله عليه وسلم كيف أنقذ الإنسان من جهله وضلاله
المبين، وانتقل به إلى الهدى والنور المبين؟ ألا يُحمدُ على ذلك صلى الله
عليه وسلم؟

^١ ثوب يمني فيه وشي وتخطيط

^٢ ٢٢٧٨

نعم حقاً إنه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي أنقذ الناس من الجاهلية بما فيها من سفك دماء ونهب أموال وهتك أعراض ووأد بنات وقتل أولاد ... الخ ، وارتقى صلى الله عليه وسلم بالإنسان في درجات الإنسانية الكاملة .

ولقد كان صلى الله عليه وسلم يصدر كتبه التي أرسلها إلى الملوك والأمراء بقوله : [من محمد عبد الله ورسوله إلى ...] .

فيذكر اسمه الكريم [محمدًا] ليلفت إلى معانيه ومحاسن ما جاء به صلى الله عليه وسلم .

وكان كتابه صلى الله عليه وسلم إلى هرقل : [بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ] أي : المعظم عندهم [سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ] أي : الكلمة التي تدعو إلى الإسلام وهي : لا إله إلا الله محمد رسول الله [أَسْلِمَ تَسْلَمَ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ، وَ { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ }]^١ .

ولما وصل الكتاب إلى هرقل ، وكان يقرأ الكتب السماوية السابقة والتي فيها آيات تبشر بسيدنا محمد رسول الله ، ويرى اسم [محمد] واسم [أحمد] مكتوباً في التوراة والإنجيل كما أخبر سبحانه عن عيسى بن مريم عليه السلام قوله (ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) .

وقال تعالى : (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل) .

وجاء أن موسى عليه السلام قال:

[ربِّ إني أجد في التوراة أمة هم الآخرون من الأمم ، السابقون يوم القيامة ، فاجعلهم أمتي] أي : أتباعي الذين هم في زمني .

^١ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب بدء الوحي

[قال جل وعلا : تلك أمة محمد ، قال : رب إني أجد في التوراة أمة أناجيلهم في صدورهم] أي : يحفظون المصحف غيباً في صدورهم ، ولم يكن يتمكن أحد من بني إسرائيل من حفظ التوراة إلا أنبياءهم ورسولهم [يقرءونها وكان من قبلهم يقرءون كتبهم نظراً ولا يحفظونها فاجعلهم أمتي، قال : تلك أمة أحمد] ^١... الحديث .

لما وصل كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل ، راح يسأل عن نسبه الشريف وسيرته الحميدة وعن خُلُقهِ ومعامَلته حتى يتبين له أن تلك الصفات صفات أنبياء، ثم إنه أمر بإحضار كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقام له أدباً وهيبة ... جاء في سنن سعيد بن منصور:

[فجعل يقرأ الكتاب وهو يعرق جبينه من كرب الكتاب ، وفي شدة القَرِّ] أي البرد .

ثم أمر بفتح الكتاب ففتح ، وقرأ فيه :

[بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.. مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ]

وكل كلمة من هؤلاء الكلمات دلت على مقامات عظيمة من مقاماته صلى الله عليه وسلم والتي أفردده الله تعالى وخصّه بها.

فهو صلى الله عليه وسلم عبد الله الذي نال مقاماً في عبوديته وعبادته لله تعالى لم ينله أحد، وهو رسول الله إلى جميع الأمم على مرّ الزمن إلى يوم القيامة بالرسالة العامة الجامعة.

ثم إن أخاً لهرقل كان يجلس إلى جانبه نظر في الكتاب وقال لهرقل :

"لا تقرأ هذا الكتاب ، بدأ بنفسه قبلك ، ولم يُسمِّك مَلِكاً ، وجعلك صاحب الروم ، قال :إن يكن بدأ بنفسه فهو كتب إلي ، وإن كان سمانى صاحب الروم فأنا صاحب الروم ، ليس لهم صاحب غيري" ^٢.

^١ انظر دلائل النبوة للبيهقي

^٢ انظر سنن سعيد بن منصور

وقوله تعالى : (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم)

أي : نتساوى في هذه الكلمة نحن وأنتم وهي :

(ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) ..

فَإِذْ هِرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ فِي دَسَكْرَةَ^١ لَهُ بِحِمَصَ، ثُمَّ أَمَرَ بِأَبْوَابِهَا فَعُلِّقَتْ، ثُمَّ أَطْلَعَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الرُّومِ هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلَّاحِ وَالرُّشْدِ وَأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ فَتُبَايَعُوا هَذَا النَّبِيَّ؟ فَحَاصُوا حَيَصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى الْأَبْوَابِ فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ، فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفَرَتَهُمْ وَأَيْسَرَ مِنَ الْإِيمَانِ قَالَ: رُدُّوهُمْ عَلَيَّ، وَقَالَ: إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي آتِيفًا اخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ فَقَدْ رَأَيْتُ، فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَأْنِ هِرَقْلٍ^٢.

وهكذا كان رسول الله يصدر كتبه باسمه الشريف (محمد) ، وولفت أنظار العقلاء إلى التفكير في معنى هذا الاسم ، فإنه جاء بما يُحمد عليه صلى الله عليه وسلم.

وقد تقدم في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم يشفع في أهل الموقف بعد أن استغاثوا به صلى الله عليه وسلم^٣، فينفض أمرهم إلى الحساب ، ثم يشفع صلى الله عليه وسلم في أهل الكبائر من أمتة كل على حسب ذنوبه ومعصيته ، فمنهم من يشفع به فلا يدخل النار أصلاً، ومنهم من يشفع به فيخرجه من النار ، ولولا شفاعته صلى الله عليه وسلم لطال عليهم أمد العذاب في جهنم ، إلى أن يشفع صلى الله عليه وسلم فيمن كان في قلبه أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان ، فيخرجون من النار ويلقون في نهر الحياة الذي هو على باب الجنة ، ويقال : [يا أهل الجنة أفيضوا عليهم من الماء].

^١ الدسكرة بناء كالقصر

^٢ انظر صحيح البخاري كتاب بدء الوحي

^٣ جاء في صحيح البخاري كتاب الزكاة : [إِنَّ الشَّمْسَ تَذُو يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَبْلُغَ الْعَرَقُ نِصْفَ الْأُذُنِ فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ اسْتَعَاثُوا بِآدَمَ ثُمَّ بِمُوسَى ثُمَّ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ].

روى الإمام البخاري رحمه الله رضي عنه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ يَقُولُ اللَّهُ: "مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرَجُوهُ" فَيَخْرُجُونَ قَدْ امْتَحَشُوا^١ وَعَادُوا حُمَمًا، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهْرِ الْحَيَاةِ فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ]^٢.

وروى الإمام مسلم رحمه الله رضي عنه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمْ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ أَوْ قَالَ: بِخَطَايَاهُمْ فَأَمَاتَتْهُمْ إِمَاتَةً، حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحَمًا أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرٍ، فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ]، وفي رواية البيهقي: [أفيضوا عليهم من الماء]^٣

[فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْجَنَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ]^٤.

فتنمو أجسادهم وتربو ، وينشئهم الله نشأة لائقة لدخول الجنة فيطهرون ويطيبون ويدخلون الجنة، ثم يشفع رسول الله صلى الله عليه وسلم في أهل الجنة ، وذلك في رفع درجاتهم وترقية منازلهم كما يشفع في أهل الدرجات العالية حتى في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب كما تقدم في الحديث: [يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مَنْ أُمِّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنَ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيَمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ] ..

^١ قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٤١٩/١٨: "إِمْتَحَشُوا" بِفَتْحِ الْمُثَنَاءِ وَالْمُهْمَلَةِ وَضَمِّ الْمُعْجَمَةِ أَيِ احْتَرَقُوا ، وَالْمَحَشُ احْتِرَاقُ الْجِلْدِ وَظُهُورُ الْعَظْمِ، قَالَ عِيَّاضُ: ضَبَّطْنَاهُ عَنْ مُتَقِنِي شُيُوخِنَا وَهُوَ وَجْهُ الْكَلَامِ ، وَعِنْدَ بَعْضِهِمْ بِضَمِّ الْمُثَنَاءِ وَكُسْرِ الْحَاءِ. اهـ

^٢ صحيح البخاري كتاب الرقاق والرواية له وصحيح مسلم كتاب الإيمان وقال النووي في شرحه صحيح مسلم: وأما (الحبة) فبكسر الحاء وهي بزر البقول والعشب تنبت في البراري وجوانب السيول، وأما (حميل السيل) فبفتح الحاء وكسر الميم ، وهو ما جاء به السيل من طين أو غثاء ومعناه: محمول السيل ، والمراد التشبيه في سرعة النبات وحسنه وطراوته

^٣ انظر شعب الإيمان للبيهقي

^٤ صحيح مسلم كتاب الإيمان

واعلم أن الله تعالى إكراماً للسيد الأعظم صلى الله عليه وسلم تفضّل وأنعم على هذه الأمة المحمدية بأن يدخل الجنة سبعين ألفاً بغير حساب ، ومع كل ألف منهم سبعون ألفاً ..

كما قال صلى الله عليه وسلم عندما عُرضت عليه الأمم :
[فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الْأُفُقَ فَقِيلَ: هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ، وَمَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ].

وفي مسند الإمام أحمد :

[إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ زَادَنِي مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعِينَ أَلْفًا]^١

وفي رواية : [أُعْطِيتُ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَقُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَاسْتَرَدْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فَزَادَنِي مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعِينَ أَلْفًا]^٢.

وفي سنن ابن ماجه : [وَعَدَنِي رَبِّي سُبْحَانَهُ أَنْ يَدْخَلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا، وَثَلَاثُ حَثَيَاتٍ مِنْ حَثَيَاتِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ]^٣ ولا يعلم عدد كل حثية^٤ إلا الله تعالى.

وإذا عرف الإنسان ذلك كله ألا يجب عليه حينئذ أن يحمد هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ويحبه ويثني عليه لأنه يتبين له أنه صلى الله عليه وسلم [محمد] حقاً !!؟

وهذا ما يقتضيه العقل الصحيح والفطرة السليمة والذوق السليم ، وجاء الشرع يأمر به لأنه أمر مقبول معقول .

١ ٢٢٤٠٦

٢ مسند الإمام أحمد ٢٢

٣ كتاب الزهد

٤ قال في تحفة الأحوذى : [حَثَيَاتٍ] بَفَتْحِ الْحَاءِ وَالْمُثَلَّثَةِ جَمْعُ حَثِيَةٍ، وَالْحَثِيَةُ وَالْحَثْوَةُ يُسْتَعْمَلُ فِيمَا يُعْطِيهِ الْإِنْسَانُ بِكَفْيِهِ دُفْعَةً وَاحِدَةً مِنْ غَيْرِ وَرْنٍ وَتَقْدِيرٍ. وقال في لسان العرب ١٤/١٦٤ : قال ابن الأثير : هو مبالغة في الكثرة.

وهذا قوله صلى الله عليه وسلم :

[لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ]^١.

وفي رواية : [وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ]^٢.

وهذا لأنه صلى الله عليه وسلم أولى بالمؤمنين من أنفسهم كما بين سبحانه فقال : (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) أي : أحق بهم من أنفسهم ، وأرحم بهم من أنفسهم ، وأعطف عليهم من أنفسهم ، أفلا يجب مقابل ذلك أن يكون صلى الله عليه وسلم أحب إلى أحدهم من نفسه ؟!

وفي بيان هذه الآية قال صلى الله عليه وسلم :

[مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ]^٣.

ويشمل هذا من كان في زمنه صلى الله عليه وسلم من الصحابة الكرام رضي الله عنهم ومن بعدهم من المؤمنين إلى يوم الدين .

^١ مسند الإمام أحمد ١٢٣٤٩

^٢ مسند الإمام أحمد ١٨١٩٣

^٣ انظر صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن

لواء الحمد

روى أبو داود في سننه عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ خُرُوجًا إِذَا بُعِثُوا] أي : أول من يخرج إلى الحشر - كما بينه قوله صلى الله عليه وسلم في حديث آخر : [أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَأَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفِّعٍ] ^١ أي أول من يشفعه الله تعالى في الخلائق - .

[وَأَنَا خَطِيبُهُمْ إِذَا وَقَدُوا، وَأَنَا مُبَشِّرُهُمْ إِذَا أَيْسُوا] أي : عندما يصيرون في حالة اليأس لما تشتد عليهم الأهوال في عالم الموقف .

[لِوَاءِ الْحَمْدِ يَوْمَئِذٍ بِيَدِي، وَأَنَا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى رِجِّي وَلَا فَخْرَ] ^٢. وفي رواية : [آدَمُ فَمَنْ دُونَهُ تَحْتَ لِوَائِي وَلَا فَخْرَ] ^٣ .

فقوله صلى الله عليه وسلم : [وَلَا فَخْرَ] أي : ولا فخر أعظم من هذا الفخر بفضل الله عليه وإكرامه له صلى الله عليه وسلم.

أو أن المعنى: لا أقول ذلك فخراً من تلقاء نفسي ، بل أقول ذلك شكراً لربي على ما أنعم عليّ ، لأنه سبحانه أمره بالتحدث بنعمة ربه عليه فقال تعالى : (وأما بنعمة ربك فحدث) .

وقوله صلى الله عليه وسلم : [آدَمُ فَمَنْ دُونَهُ] أي : من الأنبياء الكرام من سيدنا آدم إلى سيدنا عيسى عليهم جميعاً الصلاة والسلام كلهم تحت لوائه صلى الله عليه وسلم، فقد انضم الأنبياء والرسل والصالحون من أممهم تحت لواء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وروى الترمذي والدارمي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

[جَلَسَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْتَظِرُونَهُ] أي : جلسوا إلى جانب حجرته الشريفة ينتظرون خروجه إليهم

^١ سنن أبي داود كتاب السنة

^٢ سنن الترمذي كتاب المناقب

^٣ طرف حديث في مسند الإمام أحمد ٢٤١٥

[قَالَ: فَخَرَجَ حَتَّى إِذَا دَنَا مِنْهُمْ سَمِعَهُمْ يَتَذَكَّرُونَ فَسَمِعَ حَدِيثَهُمْ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: عَجَبًا إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ اتَّخَذَ مِنْ خَلْقِهِ خَلِيلًا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَقَالَ آخَرُ: مَاذَا بِأَعَجَبَ مِنْ كَلَامِ مُوسَى كَلِمَهُ تَكْلِيمًا، وَقَالَ آخَرُ: فَعِيسَى كَلِمَةُ اللَّهِ وَرُوحُهُ، وَقَالَ آخَرُ: آدَمُ اصْطَفَاهُ اللَّهُ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ فَسَلَّمَ وَقَالَ: قَدْ سَمِعْتُ كَلَامَكُمْ وَعَجَبْتُكُمْ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللَّهِ وَهُوَ كَذَلِكَ، وَمُوسَى نَجِيُّ اللَّهِ وَهُوَ كَذَلِكَ، وَعِيسَى رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ وَهُوَ كَذَلِكَ، وَآدَمُ اصْطَفَاهُ اللَّهُ وَهُوَ كَذَلِكَ] أي : وكل ذلك مقامات كبيرة وعظيمة.

[أَلَا وَأَنَا حَبِيبُ اللَّهِ وَلَا فَخْرَ] أي : أنه صلى الله عليه وسلم أحبّ أحباب الله إلى الله جل وعلا، ولا يشاركه أحد في هذا المقام.

[وَأَنَا حَامِلُ لَوَاءِ الْحَمْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفِّعٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يُحَرِّكُ حِلَقَ الْجَنَّةِ فَيَفْتَحُ اللَّهُ لِي فَيُدْخِلُنِيهَا وَمَعِيَ فُقَرَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا فَخْرَ] أي : وهم وراءه صلى الله عليه وسلم مباشرة من أمته.

[وَأَنَا أَكْرَمُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَلَا فَخْرَ] ١.

ولواء الحمد هو لواء عظيم واسع إلتوت فيه - أي اجتمعت - الأسماء والمحامد الإلهية ، وينضم تحته كل الأنبياء والرسل والمؤمنين على مراتبهم ، وكلُّ منهم يأخذ العلم والمحامد عن لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو لواء مفتوح كالراية الكبيرة الواسعة الممتدة بحيث تشمل جميع الرسل والأنبياء والمؤمنين من خلق الله ، وعن لوائه صلى الله عليه وسلم يستمدون ويأخذون المحامد الإلهية بتوجيهه وتعاليمه وإرشاده صلى الله عليه وسلم .

ونسأل الله تعالى أن يوفقنا لاتباعه صلى الله عليه وسلم ، وأن يفيض علينا من بركاته ، وينفحنا بنفحاته ، ويمدنا بإمداداته ، ويملأنا من أسرارهِ وأنواره ، وأن يعطف علينا قلبه الشريف .. آمين.

١ سنن الترمذي كتاب المناقب وسنن الدارمي في المقدمة

ثالثاً

إن الشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله هي أصل أصول الإيمان وعنها تتفرع جميع شعب الإيمان ، ولقد أعلى سبحانه هذه الشهادة ، وكتبها على العرش ، وكتبها على صفحات السموات والأرض ، وكتبها على أبواب الجنة ، وكتبها على أوراق شجر الجنة ، وكتبها في قلوب عباده المؤمنين كما قال سبحانه : (كتب في قلوبهم الإيمان) .

ومما يدل على أنه سبحانه كتب هذه الشهادة على العرش ما جاء في الأحاديث الواردة بطرق متعددة يقوي بعضها بعضاً ، منها ما رواه الطبراني عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لما أسري بي إلى السماء السابعة فإذا على ساق العرش الأيمن : [لا إله إلا الله محمد رسول الله]^١.

وفي الحديث الذي رواه الحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : [أوحى الله تعالى إلى عيسى : آمِنَ بِمُحَمَّدٍ وَمُرَّ أَمَّتُكَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ ، فَلَوْلَا مُحَمَّدٌ مَا خُلِقْتَ آدَمُ وَلَا الْجَنَّةُ وَلَا النَّارُ ، وَلَقَدْ خُلِقْتَ الْعَرْشَ عَلَى الْمَاءِ فَاضْطَرَبَ فَكُتِبَتْ عَلَيْهِ "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ" فَسُكِنَ]^٢.

وروى ابن أبي عاصم في السنة وأبو نعيم عن أنس رضي الله عنه قال : [إن الله تعالى قال : يا موسى إنه من لقيني ، وهو جاهل بمحمد أدخلته النار ، فقال موسى : ومن محمد ؟ قال : يا موسى وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أكرم عليّ منه ، كتبت اسمه مع اسمي على العرش قبل أن أخلق السماوات والأرض والشمس والقمر بألفي ألف سنة]^٣.

^١ قال الشيخ الإمام في كتابه (شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) : وروى الطبراني وابن قانع وابن مردويه عن أبي الحمراء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [لَمَّا أُسْرِيَ بِي إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَإِذَا عَلَى سَاقِ الْعَرْشِ الْأَيْمَنِ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ] كما في (الحصن الحصين) . اهـ .
^٢ قال الحافظ الزرقاني : رواه أبو الشيخ في (طبقات الأصفهانيين) ، وصححه الحاكم وأقره السبكي في (شفاء السقام) ، والبلقيني في (فتاويه) ، ومثله لا يقال رأياً فله حكم الرفع . اهـ .

^٣ انظر شرح المواهب للزرقاني ٢٣٨/٤

وروى ابن النجار في تاريخ بغداد والرافعي في تاريخ قزوين عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [دخلت الجنة فرأيت في عارضتي الجنة مكتوباً ثلاثة أسطر بالذهب ، السطر الأول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، والسطر الثاني ما قدمنا وجدنا وما أكلنا ربحتنا وما خلّفنا خسرتنا ، والسطر الثالث أمة مذنبه ورب غفور].

يعني أن المؤمنين إنما يدخلون الجنة تحت قنطرة : [لا إله إلا الله محمد رسول الله] ، ولولا مغفرة الله لهم لما دخلوا الجنة ، وكل مؤمن مفتقر إلى مغفرة الله على حسب رتبته ومقامه .

ولا بد لمن أنكر وجحد في الدنيا الشهادة بأن لا إله إلا الله محمد رسول الله ، لا بد له أن يشهد بها يوم القيامة ولكن حين لا تنفعه تلك الشهادة .

فعن أنس رضي الله عنه أن بلالاً الحبشي رضي الله عنه مؤذن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ينادي ويؤذن في المحشر كما كان يؤذن في مسجد رسول الله ، ويسمع صوته أهل المحشر كلهم ، فحين تسمع الأنبياء وأممهم قوله : [أشهد أن محمداً رسول الله] يقولون : ونحن نشهد على ذلك^١ .

إذا علمت ذلك أيها المؤمن فسل الله أن يحفظ عليك شهادتك [أن لا إله إلا الله محمد رسول الله] وأن يثبتك عليها ، قال تعالى : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) .. الآية .

والقول الثابت الذي هو أصدق الأقوال وأثبت الثابتات إنما هو [لا إله إلا الله محمد رسول الله] .

روى البخاري عن البراء بن عازب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [الْمُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِي الْقَبْرِ يَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ }]^٢ .

^١ قال الزرقاني في شرحه على المواهب ٣١٤/٨ : روى ابن زنجويه عن كثير بن مرة الخضرمي مرفوعاً .. وذكر الحديث .

^٢ صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن

وتثبتت الله تعالى للمؤمن في الدنيا هو أن يموت على شهادة [لا إله إلا الله محمد رسول الله]، وتثبيته له في الآخرة يكون في برازخ الآخرة وأولها عالم القبر حين تسأله الملائكة ويثبته الله على قول [لا إله إلا الله محمد رسول الله] .

وإن شهادة الإنسان أن لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم تتطلب منه أن يعبد الله تعالى كما أمره ، وأن يتبع رسول الله فيما جاء به ، وأن تكون عبادته وطاعته لله ورسوله مقرونة بمحبة الله جل وعلا ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم .

واعلم أنه كلما ازداد المؤمن معرفة بسيدنا رسول الله وبمقاماته وكمالاته ازداد حباً له وتعظيماً ، وصحّت شهادته بأن محمداً رسول الله .

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد قال صلى الله عليه وسلم :
[أُعْطِيتُ مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ] أي : من جملة ما أعطاني الله تعالى .
[فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هُوَ ؟ قَالَ: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَأُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ]
[أي : خزائن الأرض] وَسُمِّيتُ أَحْمَدَ، وَجُعِلَ التُّرَابُ لِي طَهُورًا، وَجُعِلَتْ أُمَّتِي خَيْرَ الْأُمَمِ] أي : لأنه صلى الله عليه وسلم هو خير الرسل .

فلقد خصّ الله تعالى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم باسم (أحمد)، وهو اسم يدل على مقام عظيم وهو أنه صلى الله عليه وسلم أحمد حامدين لرب العالمين في جميع العالمين ، ولواء الحمد بيده صلى الله عليه وسلم، وقد وسع جميع الأنبياء والرسل وأقوامهم المؤمنين ، في حين اقتصر فيه لواء كل نبي على أمته فقط ، لأن حمد كل نبي ورسول لم يبلغ ما بلغه رسول الله في مقام الحمد فكان لواء الحمد بيده الشريفة صلى الله عليه وسلم واسعاً يشمل جميع الأنبياء والرسل كما قال صلى الله عليه وسلم : [آدم فمن دونه تحت لوائي ولا فخر] .

وقوله صلى الله عليه وسلم : [وَأُعْطِيَتْ مَفَاتِيحُ الْأَرْضِ].

فهو صلى الله عليه وسلم الفاتح الأول لها وإن كانت الممالك قد فتحت على يد أتباعه صلى الله عليه وسلم وانتشر الدين في الشرق والغرب، كما أن مفاتيح الأرض بما حوته من خيرات هي بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكل خير إلهي يتنزل على مخلوق إنما هو بواسطة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال : [وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللَّهُ يُعْطِي]^١.

وهذا مقتضى قوله تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) أي : في كل العالمين.

وقد ورد قوله صلى الله عليه وسلم : [أعطيت] أو : [أوتيت مفاتيح خزائن الأرض] في أحاديث متعددة وفي مناسبات متعددة^٢.

منها ما رواه الشيخان عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ يَوْمًا فَصَلَّى عَلَى أَهْلِ أُحُدٍ صَلَاتَهُ عَلَى الْمَيِّتِ ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: [إِنِّي فَرَطُ لَكُمْ وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ] أي : إني سابقكم إلى الحوض أنتظركم ، وسوف يشهد صلى الله عليه وسلم على أمته لأن أعمالهم تُعرض عليه الآن وهو في الحياة البرزخية العالية.

[وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ، وَإِنِّي أُعْطِيَتْ مَفَاتِيحُ خَزَائِنِ الْأَرْضِ أَوْ مَفَاتِيحُ الْأَرْضِ، وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي، وَلَكِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَتَنَافَسُوا فِيهَا]^٣ أي : لا يخاف الرسول صلى الله عليه وسلم أن تشرك أمته من بعده بأن يعبدوا الأصنام ولا أن يجعلوه صلى الله عليه وسلم إلهاً مع الله تعالى ، ولكنه صلى الله عليه وسلم حذر أمته من التنافس في أمور الدنيا والتراحم عليها والتكاثر من أموالها فتشغلهم عن الآخرة .

^١ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب العلم

^٢ جاء في صحيح البخاري قوله صلى الله عليه وسلم : [بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ إِذْ أُوتِيَتْ خَزَائِنُ الْأَرْضِ] وفي مسند الإمام أحمد : [أُوتِيَتْ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ].

^٣ صحيح البخاري كتاب الجنائز وصحيح مسلم كتاب الفضائل

قوله صلى الله عليه وسلم : [وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ] فقد أقسم صلى الله عليه وسلم وهو على منبره الشريف في مسجده الشريف في مدينته المنورة بأنواره أقسم للصحابة رضي الله عنهم أنه يرى حوضه في عالم الموقف ، وهذا لأنه صلى الله عليه وسلم يرى ما لا يرى غيره ، ويسمع ما لا يسمع غيره^١ ، كما أخبرهم صلى الله عليه وسلم بذلك ، وقد كشف له سبحانه عن العوالم الآتية والعوالم الماضية.

ولقد أعطاه الله تعالى الرؤيا من خلفه ومن أمامه فكان صلى الله عليه وسلم يقول للصحابة : [أَحْسِنُوا صَلَاتَكُمْ فَإِنِّي أَرَاكُمْ مِنْ خَلْفِي كَمَا أَرَاكُمْ أَمَامِي]^٢ أي : فاعرفوا ذلك واحذروا. وقال صلى الله عليه وسلم : [وَجَعَلْتُ أُمَّتِي خَيْرَ الْأُمَمِ]^٣ ، وهذا بيان قوله تعالى : (كنتم خير أمة أخرجت للناس).

ولقد مضت قبلنا أمة خيرة و أمة شريرة ، والأمة الخيرة هم الذين اتبعوا وآمنوا برسولهم عليهم السلام، وإن خير وأفضل تلك الأمة الخيرة هي أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كما قال عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام : [إِنَّكُمْ تَتِمُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً] أي : خيرة فاضلة مرت قبلكم [أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ]^٤ ، فاعرف أيها المؤمن المحمدي منزلتك وكرامتك عند الله تعالى وحافظ على هذه الكرامة والفضيلة بحرصك على اتباع خير الرسل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وقد صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً المنبر فقال : [أَنَا مُحَمَّدٌ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ، قَالَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَلَا نَبِيَّ بَعْدِي، أُوتِيَتْ فَوَاتِحَ الْكَلِمِ وَخَوَاتِمَهُ وَجَوَامِعُهُ، وَعَلِمْتُ كَمْ خَزَنَةُ النَّارِ وَحَمَلَةُ الْعَرْشِ، وَتُجَوَّرُ بِي]^٥.. الحديث، أي : أسرى الله بي وعُرج بي إلى العوالم العلوية.

^١ جاء في مسند الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ].. الحديث

^٢ مسند الإمام أحمد ٨٥٧١

^٣ طرف حديث في مسند الإمام أحمد ٧٢٤

^٤ سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن

^٥ مسند الإمام أحمد ٦٣١٨

فلقد كان صلى الله عليه وسلم يعلن عن اسمه الشريف [مُحَمَّد] حتى تعلم الأمة مقامه، وأن هذا الاسم الكريم يدل على ذاته الشريفة ، وعلى مقاماته المنيفة التي لم ينلها نبي غيره.

وقد قرن الرسول صلى الله عليه وسلم اسمه الكريم بقوله :[النبي الأُمِّي] ليبين أنه نبي حقاً لأن أُمِّيَّته دليل على صدق نبوته، فقد نشأ صلى الله عليه وسلم أُمِّيًّا لم يدرس ولم يسمع من معلّم، وهذا بعلم قومه ، ثم لما بلغ صلى الله عليه وسلم من عمره المبارك أربعين سنة جاء بالقرآن المعجز وبالوحي وبالعلوم من الله تعالى التي يعجز عنها البشر كلهم، ولقد كان عنوان نبوته ورسالته صلى الله عليه وسلم ومبدؤها قوله تعالى : (اقرأ باسم ربك) أي : اقرأ باسم ربك الذي ربك وَعَنَّاك بالعناية الخاصة فأنت تقرأ بتعليمه سبحانه لا بدراستك ، فأنت أُمِّي لم تتعلم القراءة والكتابة من قبل .

ثم قال سبحانه : (اقرأ وربك الأكرم) فهو سبحانه كريم يتكرم على خلقه ، ولكن كرمه عليك يا محمد هو أعلى وأعظم ولذلك قال تعالى : (وكان فضل الله عليك عظيماً)، وتقدّم أنه صلى الله عليه وسلم كان يصدر كتبه إلى الملوك بقوله : [من محمد عبد الله ورسوله إلى ...] .

ولما أرسل صلى الله عليه وسلم كتابه إلى النجاشي^١ ملك الحبشة افتتحه بقوله :

[بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة] فسمّاه ملكاً لأنه صلى الله عليه وسلم علم بالوحي أنه سيؤمن، أما هرقل فسمّاه عظيم الروم لعلمه أنه لن يؤمن .

^١ اسمه أصحمة والنجاشي لقب له ولملوك الحبشة، واسمه بالعربية عطية، أسلم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولم يهاجر إليه لانشغاله بأمر رعيته وكان رداءً للمسلمين نافعا، وقصته مشهورة في المغازي في إحسانه إلى المسلمين الذين هاجروا إليه في صدر الإسلام ، ومات في بلده قبل فتح مكة وكان ذلك في شهر رجب ، رحمه الله ورضي عنه، والنجاشي بفتح النون على المشهور وقيل تكسر ، وتخفيف الجيم وأخطأ من شددتها وبتشديد آخره.

[سلام عليك] وفي رواية : [سَلِّمْ أَنْتَ]^١ أي : أنت في سلم وأمان من الله تعالى ، وكل ذلك مبشرات له لأنه سيقبل دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويؤمن به [فإني أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة] وذلك لأن النجاشي كان على دين النصرانية الصحيح

[فحملت بعيسى ، فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه]
أي : بروح خلقها الله تعالى وأمر جبريل أن ينفخ الروح في مريم

[وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعتني وتؤمن بي وبالذي جاءني ، فإني رسول الله ، وقد بعثت إليكم ابن عمي جعفرًا ، ومعه نفر من المسلمين ، فإذا جاءوك فاقرهم ودع التجبر فإني أدعوك وجنودك إلى الله وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي ، والسلام على من اتبع الهدى]^٢.

فلما وصل إليه الكتاب وضعه على رأسه وعينه، ونزل عن سريره فجلس على الأرض، ثم أسلم وشهد شهادة الحق ودعا بحق من عاج^٣ وجعل فيه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: "لن تزال الحبشة بخير ما كان هذا الكتاب بين أظهرهم"^٤

^١ انظر تاريخ الطبري ٢٩٤/٢

^٢ كما في دلائل النبوة للبيهقي

^٣ الحق : وعاء صغير ذو غطاء والعاج مادة من ناب الفيل

^٤ انظر السيرة الحلبية ٣٤٧/٣

وأمر النجاشي قومه أن يؤمنوا وقد فعلوا^١.

وفي رواية أن النجاشي قال: "أشهد أنه رسول الله، فإنه الذي نجد في الإنجيل، وإنه الرسول الذي بشر به عيسى ابن مريم، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه وأوضئه"^٢.

أي : لولا انشغاله بسياسة الرعية وتدبير أمرهم لهاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليكون خادماً له ويشرف نفسه بخدمة نعلي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي رواية أن النجاشي قال : "ولولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أقبل نعليه"^٣.

ولما توفي النجاشي جاء الخبر من السماء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصحابة أن يصلوا عليه ، وصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم^٤.

^١ قال الحافظ السيوطي في الدر المنثور ٤٣٠/٣ : وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية والواحي من طريق ابن شهاب قال : أخبرني سعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وعروة بن الزبير قالوا: «بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري ، وكتب معه كتاباً إلى النجاشي ، فقدم على النجاشي ، فقرأ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين معه ، وأرسل النجاشي إلى الرهبان والقسيسين فجمعهم ، ثم أمر جعفر بن أبي طالب أن يقرأ عليهم القرآن ، فقرأ عليهم سورة مريم ، فأمنوا بالقرآن وفاضت أعينهم من الدمع ، وهم الذين أنزل فيهم: (وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيَّيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ).

^٢ المسند ٤١٦٨ وسنن أبي داود كتاب الجنائز

^٣ عزاه في مجمع الزوائد للإمام الطبراني

^٤ جاء في صحيح البخاري كتاب المناقب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال حين مات النجاشي: [مَاتَ الْيَوْمَ رَجُلٌ صَالِحٌ فَقُومُوا فَصَلُّوا عَلَى أَخِيكُمْ أَصْحَمَةَ] .

وفي صحيح مسلم كتاب الجنائز عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [مَاتَ الْيَوْمَ عَبْدٌ لِلَّهِ صَالِحٌ أَصْحَمَةُ، فَقَامَ فَأَمَّنَّا وَصَلَّى عَلَيْهِ].

ومن هنا فهم بعض الأئمة مشروعية صلاة الغائب أي الصلاة على الميت الغائب لأنه صلى الله عليه وسلم صلى عليه غيباً ، ومن الأئمة من قال : إنها صلاة المشاهد المعايين لما ورد في بعض الأحاديث أن جبريل عليه السلام خفض الجبال بين المدينة والحبشة حتى رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ملك الحبشة في أرضه وصلى عليه صلاة المشاهد^١ ..
ونسأل الله تعالى أن يزيدنا في سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حباً ، وله اتباعاً ، ومنه قرباً ، وأن يوفقنا لما يحبه ويرضاه .. آمين .

^١ انظر المسألة مفصلة في كتاب تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذى ج ٤ ص ١١٤

رابعاً : معنى كلمة [رسول الله]

لقد أرسل الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم إلى عباده كلهم سواء الذين كانوا في زمنه أو من يأتي بعدهم إلى يوم الدين، كما قال تعالى :

(قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً)، فجاء صلى الله عليه وسلم برسالة من عند الله تعالى عامة إلى جميع الأنام ليبْلِّغ هذه الرسالة ويبينها، ورسالته صلى الله عليه وسلم هي الكتاب والحكمة كما قال تعالى : (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة)، أما الكتاب فهو القرآن الكريم ، وأما الحكمة فهي السنة النبوية من أقوال النبي الكريم وأفعاله وتقريراته وجميع ما نُقِل عنه صلى الله عليه وسلم .

ويجب على العاقل أن يكون موقفه من هذه الرسالة الإلهية موقف المسرّع إلى قراءتها والاطلاع عليها ثم العمل بما فيها لأن فيها سعادة من عمل بها في الدنيا وفي الآخرة، وذلك لأن الله تعالى إنما أرسل رسوله صلى الله عليه وسلم ليُطاع فيما جاء وأمر به لا لمجرد أن يُشَهد له أنه رسول الله فقط دونما اتباع له !

وفي هذا يقول سبحانه : (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله) أي : بأمر الله جل وعلا.

واعلم أنه ليس لله تعالى غرض عند عباده ليكلفهم ما لا يطيقون ، أو يأمرهم بما لا يستطيعون ، وإنما كانت رسالته سبحانه لعباده شريعة لهم وفيها ما يضمن لهم الحياة السعيدة في الدنيا وفي الآخرة، ففيها بيان الحقوق والواجبات وحسن المعاملات ، وفيها بيان طرق التقرب من الله تعالى للفوز برضوانه ودخول جنّته سبحانه، فعندما يشهد الإنسان أن سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن شهادته هذه تحتم عليه أمرين : الأول : أن يعمل بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من رسالته، والثاني : أن يحبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فوق محبة كل مخلوق.

فالاتباع والمحبة متلازمان ، ولا يجد الإنسان لذةً ونعيم الاتباع إلا بمحبة المتبوع صلى الله عليه وسلم، واتباعُ بلا محبة كجسد بلا روح.

ومن محاسن الشريعة المحمدية أن الله تعالى أوصى الأولاد بآبائهم وأوصى الآباء بأولادهم فقال سبحانه : (ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً) وقال تعالى : (يوصيكم الله في أولادكم) .

ويُقال لمن راح يقسو على زوجته دون سبب شرعي لأن ذلك يرضي أمه، وإن لم يفعل ذلك تدعو أمه وتغضب عليه، يقال له : قال صلى الله عليه وسلم : [لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق]^١، وإن الله تعالى عادل يكره الظلم والجور ، ولا يستجيب دعاء الظالم بل يستجيب دعوة المظلوم، وإذا عرف الإنسان حقه وواجبه امتنع عن البغي على غيره فلا يبغي على زوجته بل يأمرها بما شرع الله، ولا يبغي على ولده بل يأمره بما شرع الله ، وهكذا نجد أن الشريعة المحمدية جاءت لإصلاح وسعادة بني البشر على اختلاف مراتبهم .

قال صلى الله عليه وسلم : [لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به ثم لا يزيف عنه]^٢ والزيغ هو الميل، أي : لا يؤمن أحدكم حتى يكون بقلبه ومشتهى نفسه تابعاً لشريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيحب ما أحبه رسول الله وشرعه، ويكره ما كرهه رسول الله وحرّمه، وأن يكون ذلك بدافع المحبة له صلى الله عليه وسلم لأنه جاءك أيها المؤمن بكل خير، وهو صلى الله عليه وسلم يحب الخير لك أكثر مما تحبه أنت لنفسك ، أفلا يجب عليك أن تحبه أكثر من محبتك لنفسك ؟! .

واعلم أن من لم يُحكم صلته بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم باتباعه ومحبته صلى الله عليه وسلم فقد عرض نفسه لخطر فتنة السؤال عنه صلى الله عليه وسلم في الآخرة، وأول ذلك في عالم القبر في وقت تخلّى الإنسان فيه عن ماله ومتاعه وترك أهله وأصحابه وصار رهين عمله.

^١ انظر مصنف ابن أبي شيبة

^٢ قال ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم: خرج هذا الحديث الحافظ أبو نعيم في كتاب الأربعين وشرط في أولها أن تكون من صحاح الأخبار وخرجته الأئمة في مسانيدهم ورواه الحافظ أبو بكر بن عاصم الأصبهاني وليس عنده: ولا يزيف عنه

ومن لم يتحقق بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم شقّ وصعب عليه الجواب لأنه صار في عالم تحقق فيه الحقائق ، ولا يتكلم الإنسان إلا بالوقائع، فمن أجاب دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمن به واتبعه ثبتته الله بالقول الثابت وقال كما ورد في الحديث: [هُوَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى فَأَجَبْنَا وَاتَّبَعْنَا]¹.

أما من لم يكن من أهل الاتباع فكيف يمكنه أن يقول : [وَاتَّبَعْنَا]؟!

وروى الشيخان والرواية للبخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [مَا مِنْ شَيْءٍ لَمْ أَكُنْ أُرِيْتُهُ إِلَّا رَأَيْتُهُ فِي مَقَامِي حَتَّى الْجَنَّةُ وَالنَّارُ ، فَأَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ مِثْلَ أَوْ قَرِيبَ - لَا أَذْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ²- مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ، يُقَالُ: مَا عَلِمْتُكَ بِهَذَا الرَّجُلِ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ أَوْ الْمُؤَقِنُ - لَا أَذْرِي بَأَيِّهِمَا قَالَتْ أَسْمَاءُ- فَيَقُولُ: هُوَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى فَأَجَبْنَا وَاتَّبَعْنَا، هُوَ مُحَمَّدٌ ثَلَاثًا، فَيُقَالُ: نَمْ صَالِحًا قَدْ عَلِمْنَا إِنْ كُنْتَ لِمُوقِنًا بِهِ، وَأَمَّا الْمُنَافِقُ أَوْ الْمُزْتَابُ - لَا أَذْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ - فَيَقُولُ: لَا أَذْرِي سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُه³].

فقوله صلى الله عليه وسلم:

[مَا مِنْ شَيْءٍ لَمْ أَكُنْ أُرِيْتُهُ إِلَّا رَأَيْتُهُ فِي مَقَامِي حَتَّى الْجَنَّةُ وَالنَّارُ] أي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام مقاماً أطلعه الله تعالى فيه وكشف له عن جميع المغيبات حتى الجنة والنار ، وقد حصل ذلك له صلى الله عليه وسلم في عدة مناسبات، قال صلى الله عليه وسلم : [فَأَوْحِيَ إِلَيَّ] أي : أوحى الله إليّ في ذلك المقام .

[أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ] أي : أنكم تُمتحنون وتُختبرون يا أمة محمد لما يصير أحدكم في قبره.

¹ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب العلم

² راوية الحديث السيدة أسماء بنت سيدنا أبي بكر رضي الله عنهما

³ صحيح البخاري كتاب العلم وصحيح مسلم كتاب الكسوف

[مِثْلَ أَوْ قَرِيبٍ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ] أي : يُختبر أحدكم بشدة مثل فتنة الدجال التي لا ينجو منها إلا من أَمَنَهُ اللهُ تعالى، نسألك اللهم الأمن والسلام بجاه سيد الأنام صلى الله عليه وسلم. آمين

[يُقَالُ مَا عَلِمْتُكَ بِهَذَا الرَّجُلِ ؟] أي : بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. [فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ أَوِ الْمُؤَقِّنُ فَيَقُولُ : هُوَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ] فيترأى له رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعرفه لما كان يشهده بقلبه في الدنيا بنور إيمانه ، وبالنور تظهر حقائق الأمور .

[جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى فَأَجَبْنَا وَاتَّبَعْنَا]^١ ... الحديث، أي : جاءنا بالأدلة والهدى من الله لما فيه خير الدنيا والآخرة فأجبناه بأن شهدنا أنه لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، واتبعناه فيما أَمَرَنَا به ، ولا يقول ذلك إلا المؤمن المتبع .

وهكذا سوف يُسأل الإنسان عن موقفه مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاً لما يصير في قبره وكذلك في الحشر وعالم السؤال أيضاً كما قال صلى الله عليه وسلم : [وَلَيَلْقَيْنَ اللَّهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ يُتْرَجَمُ لَهُ فَلَيَقُولَنَّ لَهُ : أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولًا فَيُبَلِّغَكَ]^٢ أي : فماذا عملت ؟ هل اتبعته أم لا ؟

ومما تقدم يتبين للإنسان أن شهادته بأن سيدنا محمداً رسول الله تعالى تطالبه بأمرين كبيرين هما اتباعه صلى الله عليه وسلم مع محبته فوق محبة كل مخلوق .

ولا يكمل إيمان المؤمن حتى يتحقق بمحبة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الوجه الذي بينه صلى الله عليه وسلم بقوله : [لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ]^٣

^١ صحيح البخاري كتاب العلم وصحيح مسلم كتاب الكسوف

^٢ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب المناقب

^٣ مسند الإمام أحمد ١٢٣٤٩

وفي رواية : [وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ]^١.

وذلك لأنه ما من مخلوق يحب لك الخير بأجمعه والسعادة الكاملة أكثر من محبة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك لك ، حتى إنه صلى الله عليه وسلم يحب الخير لك أكثر مما تحبه أنت لنفسك، وهذا قوله تعالى : (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) .

وقد حذر سبحانه وأوعد بالعذاب من قدّم شيئاً من مشتتهياته ورغبات نفسه على محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فقال تعالى :
(قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فtribصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين) .

أي : فمن لم يتحقق بما أمره الله من محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فهو فاسق خارج عن أمر الله ، ولينتظر أمر الله به بالعذاب .
وليعلم كل عاقل أن المحبة من أعمال القلوب ، ويظهر أثرها على الجوارح ، وليست المحبة بالدعاوى، فمن أحب شيئاً سكن في قلبه وأكثر من ذكره.

فقل لمن يدعي محبة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه يفديه بروحه وماله :

هل تذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من ذكرك أموالك وتجارتك ومصنعك ومزرعتك ؟

وعندما تستيقظ من نومك في الصباح ما هو أول ما يشغل بالك ويمر على قلبك ؟

وكذلك لما تريد النوم في المساء بماذا تفكر ؟ وماذا يجول في قلبك ؟

^١ مسند الإمام أحمد ١٨١٩٣

هل أنت تهتم باتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم والصلاة عليه ؟
أم أنك تنام والدنيا همّك ، وتستيقظ والدنيا همّك ، ومع ذلك تزعم أنك
تحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فوق محبة كل مخلوق ؟!
ومن كان يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم حقاً فإنه لا يغفل عن
ذكره صلى الله عليه وسلم والصلاة عليه لأن قلبه عامر بمحبته صلى الله
عليه وسلم كما قال المحبون رضي الله عنهم :

ساكن في القلب يعمّره لست أنساه فأذكره
غاب عن سمعي وعن بصري وسويدا القلب تُبصره

واعلم أن أسباب المحبة ترجع إلى أصلين هما الجمال والنوال ،
والجمال محبوب لذاته لا تُعلّل محبته ، وهذا أصل في الفطرة ، ألا ترى
أن كل إنسان يحب النظر إلى الأزهار والورود ، وكذلك يحب صفات
الكمال كالأخلاق العالية والذكاء والعفة والحلم والعلم والحكمة ... الخ .
وأما النوال فقد طبع الله الإنسان على محبة مَنْ أحسن إليه أو جاد عليه
أو أكرمه ، فمن تفكر وتدبّر علم على وجه قاطع أن صفات الكمال
والجمال والنوال مجتمعة في سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على
أكمل الوجوه وأتمّها بل هو صلى الله عليه وسلم ينبوعها وعن جنبه
الشريف تؤخذ ، كما قال صلى الله عليه وسلم: [إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ
الْأَخْلَاقِ]^١ وكذلك محاسن شرعه وهديه صلى الله عليه وسلم ، فلا أحسن
ولا أفضل مما جاء به صلى الله عليه وسلم .
ولقد بلغ من كرمه صلى الله عليه وسلم وحفاوته بالمؤمن أن تكفل به في
الدنيا والآخرة وسيشفع به ويأخذ بيده ، قال صلى الله عليه وسلم :
[ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة] .

^١ مسند الإمام أحمد ٨٥٩٥

تنبيه : ما ورد أن سيدنا عمر رضي الله عنه قال يوماً لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : [يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْآنَ يَا عُمَرُ]^١.

فلقد صدرت الكلمة الأولى من سيدنا عمر بطريقة عفوية دون أن ينظر في نفسه ويبحث في قلبه مَنْ هو أحب المخلوقات إليه ؟

فلما نبّهه صلى الله عليه وسلم بقوله : [لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ] نظر عمر في قلبه وتفكر في نفسه فرأى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إليه من كل مخلوق حتى من نفسه فقال : [فَإِنَّهُ الْآنَ وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْآنَ يَا عُمَرُ] أي: نطقت بالحق الذي أنت فيه .

ولقد بلغ من عطفه ولطفه صلى الله عليه وسلم أن عَقَدَ أَخُوَّةَ إيمانية بينه وبين كل مؤمن من أمته ممن سيأتي بعده إلى يوم الدين ، وأحبّ صلى الله عليه وسلم لقاء المؤمنين من أمته لِمَا لَهُ من حنان وشفقة بهم، ففي الحديث يقول صلى الله عليه وسلم : [وَدِدْتُ أَنِّي قَدْ رَأَيْتُ إِخْوَانَنَا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَسْنَا إِخْوَانَكَ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ أَصْحَابِي] أي: أنتم إخواني وأصحابي [وَإِخْوَانِي الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ ، وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ يَأْتِي بَعْدَكَ مِنْ أُمَّتِكَ؟ قَالَ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لِرَجُلٍ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ فِي خَيْلٍ بِهِمْ دُهْمٌ أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ، وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ] ^٢.

^١ صحيح البخاري كتاب الإيمان والندور

^٢ سنن النسائي كتاب الطهارة

والغرة هي نور في الوجه يضرب إلى الجبين وناصية الرأس، والتحجيل نور في اليدين إلى المرافق وفي الرجلين إلى الكعبين^١ ، فيقال: "هذا الأغر المحجل"، هذا محمدي".

وجاء في رواية الإمام أحمد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
[أَنْتُمْ أَصْحَابِي وَلَكِنْ إِخْوَانِي الَّذِينَ آمَنُوا بِي وَلَمْ يَرَوْنِي]^٢ أي: بيني وبينهم أخوة الإيمان.

وكذلك استحَب الفقهاء المبالغة في غسل اليدين إلى ما فوق المرافق، وكذا الرجلين إلى ما فوق الكعبين، حتى يزيد المؤمن في حليته وأنواره يوم القيامة حين يرد على حوض سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم^٣.

^١ قال في تحفة الأحوذى ١٤٢/٢ :

[أَمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرٌّ] بِضَمِّ الْغَيْنِ الْمُعْجَمَةِ وَشَدَّةِ الرَّاءِ جَمْعَ أَغَرَ وَهُوَ أَبْيَضُ الْوَجْهِ (مِنَ السُّجُودِ) أَيِّ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ فِي الصَّلَاةِ (مُحَجَّلُونَ مِنَ الْوُضُوءِ) الْمُحَجَّلُ مِنَ الدَّوَابِّ الَّتِي قَوَائِمُهَا بَيْضٌ، مَاخُودٌ مِنَ الْحَجَلِ وَهُوَ الْقَيْدُ كَأَنَّهَا مُقَيَّدَةٌ بِالْبَيَاضِ، وَالْمَعْنَى: يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْضُ الْوُجُوهِ مِنْ أَثَارِ السُّجُودِ ، وَبَيْضُ مَوَاضِعِ الْوُضُوءِ مِنْ الْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ مِنْ أَثَارِ الْوُضُوءِ ، فَالْغُرَّةُ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، وَالتَّحْجِيلُ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ سِيمَا هَذِهِ الْأُمَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

١٢١١٩٢

^٣ ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ إِلَى أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ أَيُّ غَسْلُ مَا فَوْقَ الْوَاجِبِ مِنْ أَعْضَاءِ الْوُضُوءِ أَوْ مَسْحُهُ لِمَا رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ نُعَيْمِ الْمُجَمَّرِ أَنَّهُ رَأَى أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَتَوَضَّأُ فَعَسَلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ حَتَّى كَادَ يَبْلُغَ الْمَنْكِبَيْنِ ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَيْهِ حَتَّى رَفَعَ إِلَى السَّاقَيْنِ ثُمَّ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : " إِنْ أَمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ " .

انظر حاشية ابن عابدين ١ / ٨٨ ، والفتاوى الهندية ١ / ٩ ، والمجموع ١ / ٤٢٧ .
٤٢٨ ، والزرقاني ١ / ٦١ ، وكشاف القناع ١ / ٩٤ والإقناع ١ / ٤٧

ولقد كان من جملة خطبته صلى الله عليه وسلم يوم حجة الوداع أن قال: [وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟ قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ بِأُضْبِعِهِ السَّبَابَةَ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ] أي: يقلبها ويميلها إلى الناس مشيراً إليهم [اللَّهُمَّ اشْهَدْ اللَّهُمَّ اشْهَدْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ]¹.

وقال صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع :

[اَعْبُدُوا رَبَّكُمْ، وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ، وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ]².

فإذا عرفت أيها المؤمن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب لك الخير أكثر مما تحبه لنفسك ، وقد تكفل بك وودَّ لقاءك وأخى بينه وبينك أخوة إيمانية ، ولا يتخلى عنك يوم القيامة بل يسأل عنك وينقذك، أفلا يجب عليك ذوقاً وعقلاً وفطرة وشرعاً أن تحب جنابه الشريف أكثر من محبتك لنفسك؟!

أفلا يجب عليك أن تُحْكَمَ صلتك به وتكثر من ذكره والصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم ؟!

أفلا يجب عليك أن تجعله صلى الله عليه وسلم أمامك وإمامك ونُصَبَ عينيك في اتباعه صلى الله عليه وسلم؟ لتكون من المفلحين في الدنيا والآخرة ، وتنعم بقربه صلى الله عليه وسلم

¹ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الحج

² مسند الإمام أحمد ٢١١٤٠

وجاء في الحديث عن ربيعة الجَرَشِيِّ رضي الله عنه قال: [أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى
الله عليه وسلم فَقِيلَ لَهُ : لَتَنَمَّ عَيْنُكَ ، وَلَتَسْمَعَ أُذُنُكَ ، وَلَيَعْقِلَ قَلْبُكَ .
قَالَ : فَنَامَتْ عَيْنِي ، وَسَمِعْتُ أُذُنَايَ ، وَعَقَلَ قَلْبِي .

قَالَ : فَقِيلَ لِي : سَيِّدُ بَنِي دَارٍ فَصَنَعَ مَأْدُبَةً ، وَأَرْسَلَ دَاعِيًا ، فَمَنْ أَجَابَ
الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ ، وَأَكَلَ مِنَ الْمَأْدُبَةِ ، وَرَضِيَ عَنْهُ السَّيِّدُ ، وَمَنْ لَمْ يُجِبِ
الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُلِ الدَّارَ ، وَلَمْ يَطْعَمْ مِنَ الْمَأْدُبَةِ ، وَسَخِطَ عَلَيْهِ السَّيِّدُ ،
قَالَ : فَاللَّهُ السَّيِّدُ [أي : بالسيادة المطلقة وهي سيادة الألوهية والربوبية ،
[وَمُحَمَّدٌ الدَّاعِي ، وَالدَّارُ الْإِسْلَامُ ، وَالْمَأْدُبَةُ الْجَنَّةُ] ^١ .

فلقد جاء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم برسالة يدعو فيها إلى صلاح
الدنيا والآخرة .

^١ كما في مقدمة سنن الدارمي

خامساً: إن الشهادة بأن محمداً رسول الله تتطلب من الشاهد اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومحبته فوق محبة كل مخلوق .

وإن الأسباب الموجبة لمحبهته صلى الله عليه وسلم ومتابعته كثيرة يجب على المؤمن أن يؤمن بها فمناها :

أولاً : أن يؤمن أنه صلى الله عليه وسلم جاء رحمة للعالم ، وكل إنسان من جملة العالم، قال تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)،

وقال صلى الله عليه وسلم : [يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُّهْدَاةٌ]^١

أي : أن الله تعالى أهدى عباده رحمة من عنده بأن بعث فيهم سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم، فلينظر العاقل في موقفه مع هذه الرحمة الإلهية المهداة، هل يلتبس رحمة الله تعالى باتباع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ أم يعرض عنها ويؤثر الشقاء في الدنيا وفي الآخرة ؟

فلقد جاء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم رحمة لكل إنسان ناصحاً له ، معلماً له ، هادياً له ، حريصاً عليه وعلى نفعه وسعادته، وحريصاً كل الحرص على أن يوصل له كل خير ويبعد عنه كل شر ، فلم يبتغ صلى الله عليه وسلم أجراً من إنسان أو جاهاً أو ملكاً في الأرض ، وإنما جاء صلى الله عليه وسلم ليسعد بدعوته واتباعه كل إنسان على مر الزمان، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يفرح ويُسّر بمن أجاب دعوته وآمن به، ويحزن ويتأسف على من أعرض وكفر، ويهتم ويتألم لذلك حتى نزلت الآيات وفيها التسلية له والتخفيف عنه، قال تعالى : (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات)، وقال عز وجل : (ولا تحزن عليهم)، وقال جلّ وعلا : (لعلك باخع نفسك) أي : مهلك نفسك (ألا يكونوا مؤمنين) .

^١ سنن الدرامي في المقدمة

وإذا علم العاقل أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حريص على هدايته ونفعه وإيصال الخير له أشد من حرصه على نفسه .. ألا يجب عليه مقابل ذلك أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إليه من نفسه ؟ وأن يسعى جاهداً في اتباعه لينال رضا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ؟

نعم .. هذا حق وأمر مقبول ومعقول ومنقول ضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً فقال:

[إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ: يَا قَوْمُ إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بَعِثَنِي وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُزَيَّانُ^١ فَالنَّجَاءُ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَذْلَجُوا فَأَنْظَلُوا عَلَى مُهْلَتِهِمْ، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاَحَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنْ الْحَقِّ]^٢.

يعني : أن هناك رجلاً خرج بعيداً عن بلده فرأى جيشاً مقبلاً من بعيد يريد أن يغير على أهل بلده ، وكان هذا الرجل حريصاً على أهل بلده فانطلق إلى مكان مرتفع - كما كان عليه عادة العرب إذا أراد أحدهم أن ينذر قومه - وخلع قميصه ولوح بشيء بيده لكي ينتبه إليه القوم ويسمعوا له فقال لهم : رأيت عدواً يريد أن يباغتكم في الليل ، فمنهم من صدقه وتعاطى السبب بأن رحل من البلد ، ومنهم من كذبه حتى باغته العدو وقضى عليه ، وهذا مثل من سمع دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصدقته واتبعه فنجى من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة ، ومثل من أعرض عن دعوته صلى الله عليه وسلم فشقي في الدنيا وفي الآخرة ..

^١ قال النووي في شرحه على صحيح مسلم ٧ / ٤٨٤ : قال العلماء : أصله أن الرجل إذا أراد إنذار قومه وإعلامهم بما يوجب المخافة نزع ثوبه ، وأشار به إليهم إذا كان بعيداً عنهم ليخبرهم بما دهمهم ، وأكثر ما يفعل هذا ربيعة القوم ، وهو طليعتهم ورقيبهم . قالوا : وإنما يفعل ذلك لأنه أبين للناظر ، وأغرب وأشنع منظراً ، فهو أبلغ في استحاثهم في التأهب للعدو . وقيل : معناه أنا النذير الذي أدركني جيش العدو ، فأخذ ثيابي ، فأنا أنذركم عرياناً . اهـ

^٢ صحيح مسلم كتاب الفضائل

وفي الحديث قال صلى الله عليه وسلم :

[إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا] أي : في الليل [فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وَالِدَّوَابُّ تَتَقَحَّمُ فِيهَا فَأَنَا آخِذٌ بِحُجْرِكُمْ وَأَنْتُمْ تَوَاقِعُونَ فِيهَا]^١ أي : تواقعون فيها بإسراعكم إلى المعاصي وتعاطي الشهوة المحرمة في حين أنه صلى الله عليه وسلم ينهاكم عن ذلك ويحذركم وبال عصيانه .

وفي هذا يتبين للعاقل موقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من إنقاذ الأمة من الهلاك والشقاء، وموقفه في دفع الضرر والشر عنهم، أفلا يجب عليهم أن يحبوه صلى الله عليه وسلم ويتبعوه ؟

ولقد أعطى الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم عقلاً راجحاً على عقول البشرية كلها، وأيده بالحكمة والفكر القويم ، بحيث تمكن صلى الله عليه وسلم بحكمته ورجاحة عقله أن ينهض بقومه من الجاهلية والضلال المبين إلى النور والصراط المستقيم، أفلا يجب على العاقل إذا علم هذا أن يستسلم لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أنقذ البشرية من ضلالها ، وهدى الناس إلى الحق المبين؟.

وأين عقل الإنسان - مهما كان كاملاً وذا فطنة وذكاء - من عقل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أرشد العالم كله بدعوته وهديه إلى سعادة الدنيا والآخرة؟! .

وقال سبحانه : (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً) .

ومن الحكمة أن يضع الإنسان الشيء في موضعه اللائق به ، فلقد كان صلى الله عليه وسلم يُنزل الناس منازلهم ويقدر مكانتهم ، فيأتي كل واحد بما يناسبه، ويقنعه بالحجة والبرهان بأسلوب يليق به .

^١ مسند الإمام أحمد ٧٠١٩

ولما كانت الحكمة هي وضع الشيء في موضعه سمّي الطبيب حكيماً لأنه يضع الدواء حسب الداء ، وحكمته الطبية حكمة جزئية، وإذا كان علم الطبيب ناقصاً جاءت حكمته فاسدة ، وربما وصف الدواء لغير الداء المخصّص له، فالحكمة إذاً هي تطبيق المعلومات الصحيحة ..

وتفكّر بعد ذلك في علوم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم التي قال فيها سبحانه : (وعلمك ما لم تكن تعلم) ، وقد أعطاه الله الحكمة وجعله منزلاً لها ، قال تعالى : (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم) فمن أراد الحكمة فلن يجدها إلا عند من نزلت عليه صلى الله عليه وسلم ، فلا تُلتمس إلا منه صلى الله عليه وسلم، والحكمة المحمدية هي أقواله وأفعاله صلى الله عليه وسلم وسيرته وأخلاقه الشريفة، ويطلق على مجمل ذلك "السنة النبوية" وهي الميزان لكل حكمة وفعل وفهم كما قال تعالى في صفة ما أنزله على رسوله من الحكمة:

(الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان) أي : وأنزل الميزان أيضاً بالحق عليك يا رسول الله، وهذا الميزان هو الحكمة المحمدية التي أنزلها الله على رسوله صلى الله عليه وسلم وقرّنها بالكتاب ، وهو أيضاً -أي الميزان - الوحي النبوي النازل من عند الله تعالى كما نزل الوحي القرآني من عند الله تعالى.

ولقد وصف الله تعالى الحكمة المحمدية بالميزان حتى يَزنَ المؤمن أموره فإذا أراد أن يتكلم بقول فليردّه أولاً إلى ميزان الشرع المحمدي، وإن أراد أن يتخلق بخلق فليرجع إلى الميزان المحمدي، وهكذا في سائر شؤونه وأفعاله، فإذا وافق ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو حسن، وإذا خالف فهو مردود على صاحبه، فلا يُعرف الحسن من السيئ، ولا الجميل من القبيح، ولا الصالح من الفاسد، ولا الضارّ من النافع إلا بالرجوع إلى الميزان المحمدي .

ومن أهمل الميزان فقد وقع في الخسران لأن كل واحد يزعم أنه على حق وقد يختلف الناس فيما بينهم في المفاهيم والأخلاق، فمن أين نعرف الحق ؟ ونعرف الذين هم على الحق ؟

نعم لا بد من ميزان توزن به هذه الأقوال والأفعال والأخلاق حتى يتبين صالحها وحسنها من سيئها وفاسدها، وهذا الميزان هو الذي أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وتجلّى ذلك في أحاديثه وأفعاله وأخلاقه وآدابه وسيرته الشريفة صلى الله عليه وسلم .

وإذا كان المريض يستسلم لطبيبه كلياً لثقته بعلمه وحكمته مع أن علمه وحكمته جزئية تقتصر على علم الطب فقط، فمن الأولى والأجدر بل من الواجب على كل عاقل أن يستسلم لما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أنزل الله عليه الحكمة وجعله مهبط الحكمة .

وعلمه وحكمته صلى الله عليه وسلم هي بوحى الله تعالى ، فلا تقبل النقص والخطأ ، ولذلك أوجب الله تعالى على عباده اتباع رسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقال تعالى : (واتبعوه لعلكم تهتدون) ،

وقال سبحانه : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) ، وكل ذلك من متطلبات شهادة الإنسان أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما أيقن الصحابة - وهم الصدر الأول من هذه الأمة - لما أيقنوا أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم قد آتاه الله العلم والحكمة ، وأنه معصوم بعصمة الله تعالى سلّموا واستسلموا دون توقّف ، وإن في القصة التالية ما يبين لك حرص الصحابة على اتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : جاء في الصحيحين والرواية للبخاري عن سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ رحمه الله ورضي عنه عن أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: [خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا إِلَى حَائِطٍ مِنْ حَوَائِطِ الْمَدِينَةِ لِحَاجَتِهِ، وَخَرَجْتُ فِي إِثْرِهِ، فَلَمَّا دَخَلَ الْحَائِطُ جَلَسْتُ عَلَى بَابِهِ وَقُلْتُ: لَأَكُونَنَّ الْيَوْمَ بَوَّابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَمْ يَأْمُرْنِي] أي أنه سيجعل نهاره ذاك في معية وملازمة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

[فَذَهَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَضَى حَاجَتَهُ وَجَلَسَ عَلَى قُفِّ الْبُئْرِ فَكَشَفَ عَنْ سَاقِيهِ] والساق ما كان تحت الركبة [وَدَلَّاهُمَا فِي الْبُئْرِ فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ يَسْتَأْذِنُ عَلَيْهِ لِيَدْخُلَ فَقُلْتُ: كَمَا أَنْتَ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ لَكَ، فَوَقَفَ فَجِئْتُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَبُو بَكْرٍ يَسْتَأْذِنُ

عَلَيْكَ، قَالَ: ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ، فَدَخَلَ فَجَاءَ عَنْ يَمِينِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَشَفَ عَنْ سَاقِيهِ وَدَلَّاهُمَا فِي الْبَيْتِ، فَجَاءَ عُمَرُ فَقُلْتُ: كَمَا أَنْتَ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ لَكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ، فَجَاءَ عَنْ يَسَارِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَشَفَ عَنْ سَاقِيهِ فَدَلَّاهُمَا فِي الْبَيْتِ، فَأَمْتَلَا الْقُفَّ فَلَمْ يَكُنْ فِيهِ مَجْلِسٌ، ثُمَّ جَاءَ عُثْمَانُ فَقُلْتُ: كَمَا أَنْتَ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ لَكَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ مَعَهَا بَلَاءٌ يُصِيبُهُ، فَدَخَلَ فَلَمْ يَجِدْ مَعَهُمْ مَجْلِسًا فَتَحَوَّلَ حَتَّى جَاءَ مُقَابِلَهُمْ عَلَى شَفَةِ الْبَيْتِ فَكَشَفَ عَنْ سَاقِيهِ ثُمَّ دَلَّاهُمَا فِي الْبَيْتِ، فَجَعَلْتُ أَتَمَنَّى أَخَا لِي وَأَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَأْتِيَ. قَالَ ابْنُ الْمُسَيَّبِ: فَتَأَوَّلْتُ ذَلِكَ قُبُورَهُمْ اجْتَمَعَتْ هَا هُنَا، وَانْفَرَدَ عُثْمَانُ^١

وذلك لأن أفعال رسول الله صلى الله عليه وسلم لها مفاهيم وإشارات ، كما أن لأقواله صلى الله عليه وسلم مفاهيم وإشارات ، وذلك لأنها أقوال وأفعال نبي الله صلى الله عليه وسلم .

ومن هذه القصة يفهم العاقل مدى اتباع الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم واستسلامهم له ، لأنهم أيقنوا يقيناً جازماً أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم هو حقاً رسول الله ، وأنه الذي قال فيه الله تعالى: (وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى) .

^١ قال النووي في تهذيب الأسماء واللغات ٢١٩/١ : سعيد بن المسيب: هو الإمام الجليل أبو محمد سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ المخزومي التابعي، إمام التابعين، وأبوه المسيب وجده حزن صحابي، أسلم يوم فتح مكة، توفي سنة ثلاث وتسعين رحمه الله تعالى ورضي عنه. ويقال: "المسيب" بفتح الياء وكسرهما، والفتح هو المشهور، وحكي عنه أنه كان يكرهه، ومذهب أهل المدينة الكسر.

سادساً : وإن مما يجب على المؤمن الذي يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وذلك حتى تصح شهادته بأن محمداً صلى الله عليه وسلم هو رسول الله حقاً أن يعتقد الشاهد أن الله تعالى هو ملك الملوك وفاطر السموات والأرض وخالق الخليقة ؛ اصطفى من خلقه بشراً وأعدّه وأمدّه وفضّله على سائر خلقه ، ونبأه وأرسله رسولاً إلى العالم كلهم ورسولاً إلى كل إنسان.

فليفكر الإنسان في نفسه ليعلم مقامه وكرامته على الله تعالى كما قال سبحانه : (ولقد كَرَّمْنَا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً) ..

ولقد تضمنت رسالة الله تعالى إلى خلقه الأمانة الكبرى التي عجزت وأشفقت من حملها السموات والأرض والجبال ، وتقدّم الإنسان لحملها ليزيل عن نفسه صفة الجهل والظلم ، وليتطهر ويرتقي في مراتب الكمال الإنساني .

والأمانة الإلهية الكبرى هي التكليف الشرعية بما حوته من عقائد إيمانية وأعمال جارحية تعبدية وأقوال وأخلاق وآداب ومعاملات .

وقال سبحانه مخاطباً أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم - ويدخل في هذا الخطاب كل إنسان من أمة صلى الله عليه وسلم ومن سيأتي بعده إلى يوم الدين - : (إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً * فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً) .

. أي : فلا تفعلوا يا أمة محمد كما فعل فرعون وقومه حيث تكبروا على موسى عليه السلام وشريعته .

ولقد بلغ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم رسالة ربه تبارك وتعالى على أكمل الوجوه، قال سبحانه : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) ..

أفلا يجب على العاقل عندئذ أن ينظر في رسالة رب العالمين إليه ، وأنه سبحانه لم يرسلها إلا من أجل إصلاحه وسعادته في الدنيا وفي الآخرة؟! ولا يتحقق ذلك إلا باتباع ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من عقيدة وأعمال وأقوال وأخلاق وآداب .

ومن أراد الوصول إلى الله تعالى ودخول جنة الله تعالى فعليه باتباع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع التحقق بمحبته صلى الله عليه وسلم فوق محبة كل محبوب، قال جل وعلا : (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم * صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور) .

ولقد كان من مواقفه صلى الله عليه وسلم مع العالم أن أرسله الله تعالى مزكياً لهم أي يطهر نفوسهم من الشرك والدنس والصفات الذميمة، ويطيبها ويكملها بالمكارم والفضائل والكمالات الإنسانية ، وهذا مقتضى قوله تعالى : (كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) .

والتزكية تدل على أمرين : الإزالة والنماء، فيقال : "فلان تزكى" أي : تطهر من الدنس وتكمل بالفضائل ، ومنه زكاة المال فهي تطهير له وتنمية وبركة فيه، فالتزكية تخلية وتحلية ، تخلية عن الرذائل وتحلية بالفضائل .

ولا يمكن لمؤمن أن يدخل جنة الله تعالى حتى يتزكى بتزكية رسول الله صلى الله عليه وسلم بحيث يتطهر من العيوب والنقائص ، ولا يبقى فيه ذرة دنس، وفي هذا يقول سبحانه : (جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى) أي : طهر نفسه بأن تحقق بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال صلى الله عليه وسلم : [لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ^١ مِنْ كِبَرٍ] أي: حتى يطهر منها ، فإن تاب في الدنيا تاب الله عليه، وإلا فلا بد أن تطهره أهوال البرزخ ، وإذا كان دنسه مستحكماً فيه فإن جهنم آخر محطة له ليطهر ويطيب، ثم يؤذن له بدخول الجنة لأن الجنة لا يدخلها إلا طاهر طيب كما قال تعالى : (طبتم فادخلوها خالدين).

وتفكر في قوله صلى الله عليه وسلم : [لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ] يعني أن ذرة الكبر هذه منعه من دخول الجنة مع أنه كان مصلحاً ومزكياً وصائماً وحاجاً ، ولو لم يكن كذلك لكان ترك الصلاة أو الزكاة أو غير ذلك مانعاً له من دخول الجنة، إلا أنه صلى الله عليه وسلم بين أن الذي منعه من دخول الجنة ذرة الكبر في قلبه، وهذا يبين خطر الكبر والتعالي على عباد الله تعالى وضرره على من أراد سلوك طريق القرب من الله تعالى .

وقل لمن يدعي العلم والصلاح والتقوى وهو ينظر إلى نفسه بعين الإكبار وإلى غيره بعين الاحتقار والاستصغار، قل له: إذا كانت ذرة الكبر في قلب المؤمن الصالح تمنعه من دخول الجنة، فما الظن بمن في قلبه ذرتان أو أكثر من الكبر ويزعم أنه من الواصلين المتقين ؟!

اللهم وفقنا لأن نزكي أنفسنا وقلوبنا بتزكية رسول الله حتى ندخل جنتك طيبين طاهرين . آمين .

ومن آفات النفس - التي ينبغي على كل مسلم أن يعالجها - الكبر والحقد والحسد والبغض وزرَب اللسان أي بذاءة اللسان والغلظة والخشونة والثقالة ، فقد يؤدي المؤمن غيره بإطالة الجلوس عنده أو سؤاله له ما لا يطيقه .

^١ والذرة من حيث الحجم هي آخر جزء يمكن الوصول إليه ، ولا يمكن تجزئته بعد ، فهي الجزء الذي لا يتجزأ
^٢ صحيح مسلم كتاب الإيمان

ولما أطل ناسُ الجلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن طعموا ، وكان رسول الله يستحي منهم حياء كرم أن يأمرهم بالانصراف ، نزل قوله تعالى مبيناً وجوب التزام الأدب في حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعدم إيدائه بالغلظة والخشونة: (فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم) أي: حياء كرم (والله لا يستحي من الحق) أي: من بيان الحق الذي يتضمن الأدب مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم^١.

ولكي يتحقق المؤمن باللطف والظرافة والأدب وحسن الخلق عليه أن يتزكى بتزكية رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك بالعمل بهديه وإرشاداته صلى الله عليه وسلم والتي فيها ما يطهر النفس ويهذبها ويطيبها بالفضائل والمكارم .

وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم : [إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ التَّرْتَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيِّهُونَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَلِمْنَا التَّرْتَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ فَمَا الْمُتَفَيِّهُونَ؟ قَالَ: الْمُتَكَبِّرُونَ]^٢.
والترثار هو الذي يكثر لغو الكلام الذي لا فائدة ولا طائل منه ، والمتشدد هو الذي يتكلف النطق في الكلام ويرفع صوته على الناس على سبيل التعالي والتكبر عليهم .

وفي الحديث يقول صلى الله عليه وسلم : [مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ]^٣.

^١ قال الحافظ السيوطي في الدر المنثور ١٩٢/٨: وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله تعالى { يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي } إلى قوله جل وعلا { غير ناظرين إناه } قال : غير متحينين طعامه { ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا } قال : كان هذا في بيت أم سلمة رضي الله عنها، أكلوا ثم أطلوا الحديث ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يخرج ويدخل ويستحي منهم والله لا يستحي من الحق.

^٢ سنن الترمذي كتاب البر والصلة

^٣ سنن الترمذي كتاب البر والصلة وقال عنه : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ . اهـ
وهو في صحيح ابن حبان كتاب الحظر والإباحة

وزاد البزار بإسناد جيد : [وَإِنْ حُسْنَ الْخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِصَاحِبِهِ دَرَجَةَ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ] ، ولم يذكر فيه : [وَإِنَّ اللَّهَ يَبْغُضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ] ..

ومن المؤسف أن تجد بعض المؤمنين يتخلق بالخلق الحسن مع الناس في بيعه وشرائه ومعاملاته معهم فقط ، وأما إذا دخل بيته فهو مع أهله وأولاده سيئ الخلق بذئ اللسان ، فقل لمن هذا وصفه :

أنت فعلت هذا مع الناس من أجل إرضائهم ، ومن أجل مصلحة لك شخصية أو مالية ، أما سمعت قول النبي صلى الله عليه وسلم :

[خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي] ؟!

يعني أن خير المؤمن يجب أن يكون منصرفاً في الدرجة الأولى إلى أهله ثم إلى جيرانه وأصحابه وبقية الناس .

وفي هذا قالت أم المؤمنين السيدة صفية بنت حيي رضي الله عنها :
[ما رأيت أحداً أحسن خُلُقاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم]^٢.

وروى الطبراني في الأوسط عن عابس بن ربيعة قال : قال عمر بن الخطاب على المنبر : [أيها الناس تواضعوا ، فإنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من تواضع لله رفعه] .

وقال صلى الله عليه وسلم : [مَنْ تَوَاضَعَ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ رَفَعَهُ اللَّهُ]^٣ .

ولا تعارض في ذلك لأن التواضع للمؤمن بسبب إيمانه وصلاحه هو في حقيقته تواضع لله تعالى ، وذلك لِمَا للمؤمن من كرامة على الله تعالى ،

والسخرية والاستهزاء بالمؤمنين - ولو كانوا من العصاة الفاسقين - هو أمر حذر منه الشارع الحكيم ويين خطره ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ)

. أي : عسى أن يكون من سخروا منه أحسن وأفضل في الحال منهم

^١ سنن الترمذي كتاب المناقب

^٢ المعجم الأوسط للطبراني

^٣ المعجم الأوسط للطبراني

فربّ فاسق يتقطع قلبه من الألم والأسف على ما يفعل ، ويسأل الله أن ينقذه مما هو فيه ليتوب إلى الله تعالى وينتهي عن فعل المعصية ، في حين أن الذي يسخر منه مغرور بنفسه ويرى في نفسه أنه ذلك الرجل التقى النقي فقل له : [إن من سخرت منه هو أفضل منك عند الله تعالى] أو يكون المعنى في قوله تعالى : (عسى أن يكونوا)

أي : أن يصيروا في المآل أحسن وأفضل ممن كان يسخر بهم .
وفي الحديث يقول صلى الله عليه وسلم : [مَنْ عَيَّرَ أَخَاهُ بِذَنْبٍ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَعْمَلَهُ]^١.

فلا تسخر أيها العاقل من أهل الفسق ولا تعيّرهم ولا تتكبر عليهم بل احمد الله تعالى على أن عافاك ، وسل الله لهم الهداية والتوبة..
جاء في موطأ الإمام مالك أن عيسى عليه السلام كان يقول: [فَارْحَمُوا أَهْلَ الْبَلَاءِ وَاحْمَدُوا اللَّهَ عَلَى الْعَافِيَةِ].

قال عبد الله بن مسعود : " لَوْ سَخِرْتُ مِنْ كَلْبٍ لَخَشِيتُ أَنْ أَحُولَ كَلْبًا " ^٢
والمراد أن ينزع الإنسان من نفسه صفة السخرية والاستهزاء من خلق الله كلهم لأنهم خلقه سبحانه.

ومن عافاه الله فليحمد الله على ذلك وليسأله التوفيق والثبات على دينه وليدعُ غيره بالمغفرة والتوبة على وجه النصح لهم لا التعالي عليهم .

وقال صلى الله عليه وسلم : [سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ] ^٣

والسبّ هو الشتم والطعن في الآخر فما الظن بمن يلعنه ويلعن أباه وأمه؟!!!

^١ سنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع

^٢ انظره في الزهد لهناد بن السري بهذا اللفظ وهو في مصنف ابن أبي شيبة بلفظ : " لو سخرت من كلب لخشيت أن أكون كلبًا " .

^٣ رواه الشيخان في صحيحيهما كلاهما في كتاب الإيمان

ومن التزكية أيضاً أن يزيك الإنسان لسانه بأن يطهره من الكلام البذيء،
ويطهر نفسه من الحسد والبغضاء.

وفي الحديث يقول صلى الله عليه وسلم : [دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ
الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ] وفي هذا يخبر صلى الله عليه وسلم عما سيقع في آخر
هذه الأمة من تغير القلوب ، ولم يكن في صدر هذه الأمة إلا التحابب
والتناصح.

[وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ تَخْلِقُ الشَّعْرَ وَلَكِنْ تَخْلِقُ الدِّينَ، وَالَّذِي
نَفْسِي بِيَدِهِ - أَوْ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ - لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا،
وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلَا أُنبِّئُكُمْ بِمَا يُثَبِّتُ ذَلِكَ لَكُمْ أَفْشُوا السَّلَامَ
بَيْنَكُمْ]¹.

ولقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم طريق العبادة والفرائض
المفروضة والنوافل المحبوبة والنتائج المطلوبة ثم بين أن ذلك كله
لا ينهض بالمؤمن العامل في المراتب العالية إلا إذا حفظ لسانه ففي
الحديث عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:
[كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ
وَنَحْنُ نَسِيرُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي
عَنِ النَّارِ] وفي هذا دليل على حرص الصحابة رضي الله عنهم على الفوز
بالجنة والتوقي من النار فما بال بعض العباد يزهدون في الجنة زعماً منهم
أنهم يريدون الله تعالى؟!

أما علم هؤلاء أن الجنة دار ضيافة الله ، والله تعالى رَغِبَ فيها لأنها
موضع تجلياته ومشاهداته وإحسانه ورضوانه وإكرامه للمؤمنين الذين
أرادوا وجهه الكريم جلّ وعلا؟!

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يبين لمعاذ رضي الله عنه خطر
وأهمية هذا الأمر:

¹ مسند الإمام أحمد ١٣٥٥ عن الزبير بن العوام رضي الله عنه

[قَالَ: لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ] اللهم يسر علينا ذلك .

[تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ] أي : المفروضة [وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ، ثُمَّ قَالَ أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ^١ الصَّوْمُ جُنَّةٌ] أي : وقاية [وَالصَّدَقَةُ] أي : النافلة [تُظْفِي الْخَطِيئَةَ كَمَا يُظْفِي الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، قَالَ ثُمَّ تَلَا: { تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ* فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } . وفي رواية : [وصلاة الرجل في جوف الليل شعار الصالحين]^٢

أي : لباسهم الملاصق لأبدانهم فلا يتركونه أبدًا، فإذا أردت أن تكون من الصالحين بالصالح الخاص فالبس لباسهم وواظب على قيام الليل.

وقوله تعالى : (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فكما أخفى المؤمن قيام الليل لله تعالى أخفى الله له ثواباً لا يعلمه إلا هو جل وعلا .

[ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ] أي : نطقاً بالشهادتين، وتحقيقاً بالاستسلام لأمر الله ورسوله [وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكٍ ذَلِكَ كُلُّهُ^٣]؟ أي : ما يحفظ عليك أعمالك الصالحة وأقوالك الطيبة ، فدلّه على حصانة ذلك كله لئلا يذهب ثواب أعماله إلى غيره.

[قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ: كُفَّ عَنْكَ هَذَا، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ثَكَلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟]^٤.

^١ سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم النوافل [أبواب الخير] لأنها تفتح لصاحبها خيري الدنيا والآخرة

^٢ قال ابن الأثير في جامع الأصول : أخرجه الترمذي

^٣ أي: بما يملك عليك أعمالك التعبدية ويبقيها لك مَدَّخَرَةً عند الله تعالى .

^٤ سنن الترمذي كتاب الإيمان

فشبهه صلى الله عليه وسلم اللسان بالحاصد الذي يأتي على الأخضر واليابس إذا لم يقيدده الإنسان ويلجمه بلجام الشريعة .

وحفظ اللسان يكون عن السبّ واللعن والقذف والكذب والغيبة والنميمة وعن السخرية والاستهزاء ببعض الكلمات الشرعية من أجل أن يضحك القوم .. وهكذا .. كل ذلك يحصد من أعمال الإنسان وأقواله الطيبة حتى يأتي يوم القيامة مفلساً قد أضاع ما جمعه من حسنات ليتقدم أصحاب الحقوق عليه ويأخذوا من حسناته .. وإن لم تف حسناته لقضاء ما عليه أخذ من سيئات خصومه وطُرحت عليه ثم طُرِح في النار كما دلّ عليه قوله صلى الله عليه وسلم : [أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ]^١ .

ولقد فسّر رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى الغيبة فقال : [أَتَدْرُونَ مَا الْغِيْبَةُ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُهُ] أي : أن تذكره بشيء يكرهه ولو كان في بيته أو في دابته ..

[قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَابْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهْتَهُ]^٢ أي: أتيت ببهتان عظيم أكبر من الغيبة.

وقد يزعم بعضهم أنه يتكلم هذا أمام فلان الذي يغتابه ، فقل له : هذا إيذاء عياني له وهو أشد حرمة من الغيبة .

^١ صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب عن أبي هريرة رضي الله عنه

^٢ صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب عن أبي هريرة رضي الله عنه

ومن ذلك كله يعلم المؤمن موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم مع العالم في تزكيتهم، والتزكية هي تطهير النفس من المفسد والخبائث والردائل ، وتحليتها بالكمالات والفضائل .

وتفكر في قوله صلى الله عليه وسلم : [وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصُمْتُ]^١ .

فسكوت الإنسان عن الشر يُعتبر عبادة وقربة إلى الله تعالى .

^١ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الأدب

سابعاً: إن من مقتضيات الشهادة بأن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله أن يعلم الشاهد فضل سيدنا رسول الله وكرامته على الله تعالى الذي أرسله إلى خلقه برسالة فيها سعادتهم وصلاح أمرهم في الدنيا والآخرة ، وإن شرف الرسول على شرف مرسله ، فما الظن إذاً برسول رب العالمين جل وعلا؟!

ولقد كان من مواقفه صلى الله عليه وسلم مع العالم - والتي أرسله الله تعالى بها- أنه صلى الله عليه وسلم جاء يزيي العالمين ، كما قال تعالى : (كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم) وقال سبحانه: (هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم) .

والتزكية كما تقدم هي التخلي عن الرذائل والقبائح ، والتحلي بالفضائل والمكارم ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يطهر النفوس من أدناسها وأمراضها، ويطيبها بالمحاسن والكمالات.

ألا ترى إلى من أراد أن يتجمل في هيئته وحسن سمته ولباسه تراه أولاً يمضي إلى الحمام ويغتسل وينظف جسمه من الأوساخ، ثم يلبس ثياباً نظيفة جميلة، ويتطيب بالروائح الزكية ليرى الناس منه جمال المنظر وحسن السميت وطيب الريح ؟!

وكما ينطبق هذا على الأجسام ينطبق على النفوس والقلوب ، فلا بد من إزالة صفات الرذيلة والأخلاق الذميمة من النفس ، ثم التخلق بالكمالات والفضائل .

وإن من آفات النفس ورعوناتها والتي يجب التطهر منها صفات الحسد والبغض والحقد والكبر والعجب والرياء واحتقار الناس واستصغار شأنهم والتعالي عليهم وهكذا ..

وقل لمن يتعالى على الناس ويزعم أنه أتقى وأصلح من فلان وفلان : ألم تسمع قول الله تعالى : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .

ومن الذي يغلم المتقين وتفاضلهم في التقوى؟ إنه الله وحده الذي ختم الآية بقوله جل وعلا : (إن الله عليم خبير) .

فليس لأحد أن يزعم أنه أتقى من فلان وإن رأى منه تقصيراً أو نقصاً فإن الله تعالى علّام الغيوب هو العالم الخير بما في القلوب من التقوى والخشية منه سبحانه .

ومن الآفات النفسية التي وقع فيها كثير من المسلمين الغيبة والنميمة، وربما قضوا ساعات وساعات في سهراتهم في الحديث عن فلان وفلانة وما علم هؤلاء أن محاذير الغيبة وأخطارها كبيرة ، أهمّها أن من استحكمت فيه الغيبة فقد عرّض إيمانه للزوال ، لأن الغيبة تحثّ إيمان المغتاب^١ .

ومن استحكمت فيه الغيبة فقد اتصف بصفة المنافقين ، فتطبع على قلبه صفة النفاق .

ولما بلغ النبيّ صلى الله عليه وسلم أن بعض المنافقين يتكلم في المؤمنين غضب وقال : [يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلْ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ] أي : زلاتهم أو سيئاتهم لتنشروها [فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعْ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعْ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ]^٢ .

وإن أعظم أسباب عذاب القبر هو الدنس والنجس بنوعيه : الحسّي والمعنوي أي نجاسة البدن وعدم الاستنزاه من البول ، ونجاسة اللسان بالغيبة والوقوع في أعراض الناس^٣ .

^١ روي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [الغيبة والنميمة يحتان الإيمان كما يعضد الراعي الشجرة] أي : كما يفعل الراعي لتساقط ورق الشجرة فإنه يضربها بالعصا أو يهزّها بيده ، وهذا معنى عضد الشجرة ، والحديث رواه الأصبهاني كما في ترغيب المنذري.

^٢ مسند الإمام أحمد ١٨٩٤٠

^٣ روى ابن ماجه في سننه عن أبي بكر رضي الله عنه قال: [مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَبْرَيْنِ فَقَالَ إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَيُعَذَّبُ فِي الْبَوْلِ وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُعَذَّبُ فِي الْغَيْبَةِ].

وكذلك فإن صاحب الغيبة الذي يغتاب غيره يعرّض أعماله الصالحة للزوال^١، وكل ذلك جاءت فيه أحاديث كثيرة عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد يزعم جاهل أنه لا يغتاب فلاناً ، وأنه مستعد أن يتكلم أمامه ، فقل له : هذا دليل جهلك في دين الله تعالى ، وإنّ فعلك هذا أشدّ حرمة من الغيبة ، لأن فيه إيذاء لفلان ومجابهة له بالأذى .

والغيبة كما تقدم بيان معناها عن صاحب البيان عن القرآن صلى الله عليه وسلم هي : [ذكرك أخاك بما يكره] أي : أن تذكر أخاك بصفة موجودة فيه ، لكنه يكره أن يُذكر بها .

وإذا كان النهي عن ذلك جاء في حال غيبة فلان ، فمن باب أولى أن يذكر أمامه طالما أن هذا الأمر يؤذيه في غيبته أو في حضوره ، كمن قال عن فلان مثلاً : إنه قصير القامة أصلع الرأس ، وهو يكره ذكر ذلك عنه سواء أمامه أو في غيبته .

والغيبة هي من جملة انتهاك الأعراض الذي حرّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

[لَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَنَاجَشُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِغْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسَبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ] أي : من احتقر أخاه المسلم فقد وقع في شر كبير [كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ] والعرض هو موضع القدح والذم ، ويشمل الأذى بأنواعه ، ومنه الغيبة والاحتقار والسب والاشتيم والازدراء .

وفي صحيح مسلم أيضاً بزيادة : [إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلَا إِلَى صُورِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى صَدْرِهِ] .

^١ كما في قوله صلى الله عليه وسلم : [وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيُعْطَى كِتَابَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْشُورًا ، فَيَقُولُ : رَبِّ ، أَلَمْ أَعْمَلْ حَسَنَةً يَوْمَ كَذَا وَكَذَا ؟] فَيُقَالُ لَهُ : مُحِيطٌ عَنْكَ بِأَعْتَابِكَ النَّاسِ [انظر كتاب مساوىء الأخلاق للخرائطي

وروى ابن ماجه عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قال: [رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ وَيَقُولُ: مَا أَطْيَبَ وَأَطْيَبَ رِيحِكَ، مَا أَعْظَمَكَ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكَ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَحُرْمَةُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ حُرْمَةً مِنْكَ مَالِهِ وَدَمِهِ وَأَنْ نَظُنَّ بِهِ إِلَّا خَيْرًا]¹.

يعني أن إيذاء المسلم أشد حرمة من إيذاء الكعبة ، فافهم ، لأن الله تعالى خلق الكعبة من أجل أن يتوجه المسلم إليها في صلاته لله تعالى وكذا في حجه وعمرته .

وروى الإمام البخاري عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: [خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَعْضِ حِيطَانِ الْمَدِينَةِ فَسَمِعَ صَوْتَ إِنْسَانَيْنِ يُعَذِّبَانِ فِي قُبُورِهِمَا² فَقَالَ: يُعَذِّبَانِ، وَمَا يُعَذِّبَانِ فِي كَبِيرٍ] أي : يعذبان بسبب أمر تستصغره الناس [وَأَنَّهُ لَكَبِيرٌ] أي : ولكنه عند الله كبير [كَانَ أَحَدُهُمَا لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ، وَكَانَ الْآخَرُ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، ثُمَّ دَعَا بِجَرِيدَةٍ فَكَسَرَهَا بِكَسْرَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَتَيْنِ فَجَعَلَ كِسْرَةً فِي قَبْرِ هَذَا وَكِسْرَةً فِي قَبْرِ هَذَا فَقَالَ: لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَنْبَسَا]³

وفي رواية الإمام أحمد : [إِنَّهُ يَهْوَنُ عَلَيْهِمَا مَا كَانَتَا رَطْبَتَيْنِ، وَمَا يُعَذِّبَانِ إِلَّا فِي الْبَوْلِ وَالْغَيْبَةِ]⁴.

¹ سنن ابن ماجه كتاب الفتن

² وهما من قبور المسلمين لأن رسول الله لم يكن يزور قبور المشركين قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ١/٣٤ : وَأَمَّا حَدِيثُ الْبَابِ فَالظَّاهِرُ مِنْ مَجْمُوعِ طُرُقِهِ أَنََّّهُمَا كَانَا مُسْلِمَيْنِ ، فِي رِوَايَةِ ابْنِ مَاجَهَ " مَرَّ بِقَبْرَيْنِ جَدِيدَيْنِ " فَأَتَتْهُمَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَفِي حَدِيثِ أَبِي أُمَامَةَ عِنْدَ أَحْمَدَ " أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِالْبَقِيعِ فَقَالَ : مَنْ دَفَنْتُمْ الْيَوْمَ هَاهُنَا ؟ " فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنََّّهُمَا كَانَا مُسْلِمَيْنِ ؛ لِأَنَّ الْبَقِيعَ مَقْبَرَةُ الْمُسْلِمِينَ. اهـ

³ صحيح البخاري كتاب الأدب

⁴ المسند ١٩٤٧٩

وقد بين سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن سبب عذابهما هو الغيبة وعدم التحاشي عن النجاسة الحسية ، ولو كان هناك غير ذلك من الأسباب الموجبة للعذاب لذكرها صلى الله عليه وسلم .

وفي الحديث عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرُوا رَجُلًا عِنْدَهُ فَقَالُوا: مَا أَعْجَزَهُ !

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اغْتَبْتُمْ أَخَاكُمْ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ قُلْنَا مَا فِيهِ، قَالَ: إِنْ قُلْتُمْ مَا لَيْسَ فِيهِ فَقَدْ بَهْتُمُوهُ^١ أي: هذه هي الغيبة بحقيقتها طالما أنه يكره ذكر ذلك عنه، وهذا يدلّك على محاسن دين الله تعالى ، وأنه دين جاء بكل جمال وكمال، ومن جملة ذلك أن يراعي الإنسان شعور أخيه المسلم فلا يؤذيه بكلمة أو إشارة لها وقع سيئ في نفسه .

ومن الجهالة التي وقع فيها كثير من المسلمين أن أحدهم إذا ذُكر عنده فلان من الناس يقول : دعونا من فلان فلن أقع في غيبته ، ويضع يده على فمه وكأنه يقول عن فلان أشياء وأشياء ، فيقال له : إن فعلك هذا أوهم السامعين أن فلاناً سيء السمعة ، وأنت تخفي من أمره ما لا يعلمه أحد ، وهو أشد من الغيبة لأنها قد تقتصر على بعض كلمات لكن إشارتك عنه بذلك أوهمت أنه كثير الشرور سيئ السمعة .. الخ

واعلم أن الذنوب المتعلقة بحقوق الناس لا تصحّ توبتك منها إلا بأداء الحق لأصحابه، أو طلب الصفح منهم ، وأن تصلح ما أفسدت عليهم بلسانك أو فعلك ، وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم :

[وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيُعْطَى كِتَابَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْشُورًا ، فَيَقُولُ : رَبِّ ، أَلَمْ أَعْمَلْ حَسَنَةً يَوْمَ كَذَا وَكَذَا ؟ فَيُقَالُ لَهُ : مُحِيتْ عَنْكَ بِأَغْتِيَابِكَ النَّاسَ]^٢

^١ انظر المعجم الكبير للطبراني وشعب الإيمان للبيهقي

^٢ انظر كتاب مساوئ الأخلاق للخرائطي

وذلك لأن أصحاب الحقوق يستوفون حقوقهم يوم القيامة من حسنات هذا المغتاب ، أو الذي وقع في أعراضهم بسبب أو شتم أو ضرب أو أكل مال أو إيذاء وهكذا.. إلا من استعفى من أصحاب الحقوق عليه ، وعفوا عنه .

وقد يصعب أو يشق أو يتعذر على المغتاب أو من وقع في عرض غيره ذمّاً أو قدحاً أن يطلب منه الصفح ويخبره أنه قد اغتابه ، وربما يعظم الضرر إن هو أخبره فيقال له :

عليك أن تعرّض في حديثك معه وتطلب منه السماح على اعتبار أنك قصّرت معه أو أسأت في حقه إجمالاً ، وتسأله العفو عن أمور قد صدرت منك ولا يرضاها هو ، دون أن تذكر تفاصيل الأمر..

ومن ناحية أخرى يترتب على المغتاب أن يعترف لمن اغتابه بأعمال خيرة ويذكره بالفضل والثناء الحسن على المأل الذين سمعوا منه الغيبة أو غيرها.. لعل الله تعالى يقبل ذلك ويتوب على هذا المغتاب الذي تاب من زرب لسانه .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا] أي : عليه من السيئات نحو هذا [فَيُعْطَى هَذَا] وهو من أصحاب الحقوق عليه .

[مِنْ حَسَنَاتِهِ] أي: من حسنات صلاته وصيامه وزكاته وحجّه وهكذا.

[وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ] أي : كما يفعل الدائنون مع المدين لهم .

[فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أَخَذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ]^١.

وقد يقال : كيف علم الإنسان يوم القيامة أن فلاناً قد اغتابه حتى راح يطالبه بحقه عليه ؟!

^١ صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب

فيقال : إن الله تعالى ربّ العالمين ينبيّ عباده يوم القيامة عمّا قيل فيهم وقيل لهم ، بحيث يحصل لكل إنسان علمٌ بما حوله ممّا له وعليه ، كما قال تعالى : (ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) .

ومن جملة الحقوق الأدبية فيما بين المسلمين إفشاء السلام وردّ السلام ، ومن قصر في ردّ السلام على من سلّم عليه كان عليه حقّ يؤديه يوم القيامة لصاحبه .

وفي الحديث أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ؟] يعني : أيّ أعمال الإسلام أكثر خيراً ونفعاً برّاً في المجتمع الإسلامي؟ [قَالَ: تَطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ]¹.

وَعَنْ سَيِّدِنَا عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: [جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ ثُمَّ جَلَسَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَشْرٌ، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ فَجَلَسَ، فَقَالَ: عِشْرُونَ، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، فَرَدَّ عَلَيْهِ فَجَلَسَ، فَقَالَ: ثَلَاثُونَ ثُمَّ أَتَى آخَرُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ وَمَغْفِرَتُهُ، فَقَالَ: أَرْبَعُونَ، قَالَ: هَكَذَا تَكُونُ الْفَضَائِلُ]².

فانظر إلى فضل السلام في دين الإسلام وما له من آثار طيبة في النفوس ، حيث يدخل السرور على أفراد المجتمع، ويذهب من صدورهم الأحقاد ، وهكذا يراعي الإسلام شعور وإحساس كل إنسان .

¹ صحيح مسلم كتاب الإيمان

² سنن أبي داود كتاب الأدب

وقال صلى الله عليه وسلم في الحديث المتقدم :

[فَإِنْ فَنَيْتَ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أَخَذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطَرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طَرِحَ فِي النَّارِ] أي : يُطرح عليه من سيئات أصحاب الحقوق عليه لأنه لم يبق عنده حسنات يؤدي بها ما عليه ، وليس هذا من باب قوله تعالى : (ولا تزر وازرة وزر أخرى) ، بل هو من باب الحوالة الشرعية كمن كان مديناً لك بكذا فأعطاك ولم يوفِ مالك عليه فحملته ممّا عليك .

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم :

[أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى ، يسعون بين الجحيم والحميم ، يدعون بالويل والثبور ، يقول أهل النار بعضهم لبعض : ما بال هؤلاء قد آذونا على ما بنا من الأذى ؟ قال : فرجل مغلق عليه تابوت من جمر ، ورجل يجر أمعاءه ، ورجل يسيل فوه قيحاً ودماً ، ورجل يأكل لحمه قال : فيقال لصاحب التابوت : ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى ؟ قال : فيقول : إن الأبعد مات ، وفي عنقه أموال الناس لم يجد لها فضلاً ، أو قال : وفاء] وفي الحديث قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَ يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ]^١

[ثم يقال للذي يجر أمعاءه : ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى ؟ قال : فيقول : إن الأبعد كان لا يبالي أين أصاب البول منه ، ثم لا يغسله ، ثم يقال للذي يسيل فوه قيحاً ودماً : ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى ؟ فيقول : إن الأبعد كان ينظر إلى كل كلمة قذعة خبيثة يستلذها كما يستلذ الرفث] والقذع هو الفحش من الكلام الذي يقبح ذكره ، وهو الإخبار بما يجري بين الزوجين من معاشرة زوجية وما يتعلق بذلك ^٢.

[ثم يقال للذي يأكل لحمه : ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى ؟ قال : فيقول : إن الأبعد كان يأكل لحوم الناس ويمشي بالنميمة]^٣.

^١ صحيح البخاري كتاب في الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس

^٢ انظر لسان العرب ٢٦٢/٨

^٣ انظر كتاب الزهد والرقائق لابن المبارك وحلية الأولياء لأبي نعيم والمعجم الكبير للطبراني وصفة النار لابن أبي الدنيا

وقد يقال : ما الذي نتناوله في حديث مجالسنا وسهراتنا طالما أن كل أمر نتكلمه عن الناس هو غيبة ؟

فيقال : أليس في هذا الذي تتكلمون عن مساوئه وتغتابونه ، أليس فيه من المحاسن وصفات الكمال ما يجعلكم تذكرونها في أحاديثكم عنه وتعدلون عن غيبته وذكر ما يكرهه ؟!

ومن جهة أخرى يقال لمن أراد الغيبة :

هَلَّا شَغَلْتِكَ عَيُوبُكَ عَنْ عَيُوبِ النَّاسِ ! ، أليس لك في ذكر الصالحين ومناقبتهم ما يغنيك عن غيبة فلان وفلان وفضول الكلام ؟!

أليس في ذكر الله تعالى والصلاة على نبيه صلى الله عليه وسلم ما يكفي ويغني عن غير ذلك من الكلام الذي لا طائل منه ؟!

وليعلم المغتاب أنه بعيد عن الله تعالى إذ إنه انشغل عن الله تعالى ووقع في عرض عباد الله ، وكفى بهذا مذلة وخسراناً .. ، ونسأل الله تعالى العافية .

ثامناً :لقد كان من مواقفهُ صلى الله عليه وسلم مع العالم أنه جاء مزكياً لهم.

قال تعالى : (كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم).
أي : يزيِّي نفوسكم وقلوبكم وعقولكم ، والتزكية - كما تقدم - على أمرين :
السلب والإيجاب ، فهي التطهّر والتخلي عن الرذائل ، والتطيّب والتحلي بالفضائل .

ومن ذلك زكاة المال فهي طهرة له مما شابه من الحرام ، وتنمية وبركة فيه
كما قال صلى الله عليه وسلم : [مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ]^١

ومن آفات النفس التي جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يحذر منها
ويأمر بالتخلي عنها آفة الغش ، ففي الحديث : [لَيْسَ مِنَّا مَنْ غَشَّ]^٢.

وأمر صلى الله عليه وسلم بالتخلي بصفة النصح وصفاء القلب والصدق
فقال صلى الله عليه وسلم لأنس بن مالك رضي الله عنه :

[يَا بُنَيَّ إِنْ قَدَرْتَ أَنْ تُصْبِحَ وَتُمْسِيَ لَيْسَ فِي قَلْبِكَ غِشٌّ لِأَحَدٍ فَأَفْعَلْ ،
ثُمَّ قَالَ لِي : يَا بُنَيَّ وَذَلِكَ مِنْ سُنَّتِي ، وَمَنْ أَحْيَا سُنَّتِي فَقَدْ أَحَبَّنِي ، وَمَنْ أَحَبَّنِي
كَانَ مَعِيَ فِي الْجَنَّةِ]^٣.

وفي رواية : [مَنْ أَحْيَا سُنَّتِي فَقَدْ أَحْيَانِي ، وَمَنْ أَحْيَانِي فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ]^٤.

^١ سنن الترمذي كتاب الزهد

^٢ مسند الإمام أحمد ٦٩٩١

^٣ سنن الترمذي كتاب العلم

^٤ انظر كتاب (ذم الكلام وأهله) لعبد الله الأنصاري

وفي الحديث الذي رواه الإمام مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ]^١.

ونسألك اللهم أن تجعل مجلسنا هذا مجلس علم ترضاه . آمين

وانظر في هذه التوجيهات والإرشادات المحمدية إلى المكارم والفضائل وحسن المعاملة، والتي يتوقف عليها صلاح المجتمع وسعادة الإنسان في الدنيا وفي الآخرة .

وقوله صلى الله عليه وسلم : [مَنْ نَفَسَ] وفي رواية : [مَنْ فَرَجَ]^٢
 [عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا] أي : فرج عنه ضيقاً أو شدة وقع فيها.
 وقوله صلى الله عليه وسلم : [كُرْبَةً] أي : ولو كانت كربة صغيرة جزئية
 [نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً] أي : كربة عظيمة

[مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ] ، وذلك لأن جزاء الله تعالى للعامل أكبر وأعظم من عمله، وما أحوج الإنسان إلى تفريج الله عنه كُرب يوم القيامة لأن كربات الآخرة أشد وأعظم ، كما قال صلى الله عليه وسلم في أهوال الموقف : [يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِيَ وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرَ ، وَتَذْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ]^٣.

^١ صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار

^٢ انظر كتاب (الترغيب في فضائل الأعمال وثواب ذلك) لابن شاهين

^٣ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن

وقد بيّن صلى الله عليه وسلم طريق السلامة من هذه الأهوال بالتفريج عن المؤمنين كُرْبَهُمْ في الدنيا .

وقوله صلى الله عليه وسلم : [وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ] أي: يسّر على من وقع في ضائقة مالية كالمدين مثلاً إذا يسّر عليه الدائن بأن يؤخر عنه الطلب ، وهذا قوله تعالى : (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) أي: ومن الأفضل والأحسن لكم أن تضعوا عنه شيئاً من الدين ، وإذا كان عسره شديداً فالعفو عنه أكمل وأولى .

وهذا قوله تعالى : (وَأَنْ تَصَدَّقُوا) أي: بالتجاوز عن المعسر كلاً أو بعضاً (خير لكم إن كنتم تعلمون) أي إن كنتم تعلمون فضل هذا الأمر عند الله تعالى ، ولو علمتموه لتسارعتم إليه .

وقال صلى الله عليه وسلم : [إِنْ رَجُلًا كَانَ فِيْمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَتَاهُ الْمَلَكُ لِيَقْبِضَ رُوحَهُ فَقِيلَ لَهُ: هَلْ عَمِلْتَ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: مَا أَعْلَمُ، قِيلَ لَهُ: انْظُرْ] وذلك لأن من حضر أجله وراح يغط في سكرات الموت فإنه في هذه الغطات يرى عمله [قَالَ: مَا أَعْلَمُ شَيْئًا غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ أَبَايْعُ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا وَأُجَازِيهِمْ فَأَنْظِرُ الْمُوسِرَ وَأَتَجَاوَرُ عَنِ الْمُعْسِرِ] أي: كان يحطّ عنه شيئاً من دينه أو كلّه حسب مال المدين [فَأَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ]^١ .

وذلك لأن معاملة الناس هي في الحقيقة معاملة مع الله تعالى ، لأن العباد عبادُ الله وهو مولاهم ومالكهم ، فمن صنع إحساناً مع عبد شكره الله تعالى .

وكما يعامل العبد عباد الله يعامله الله تعالى ، ألا ترى مثلاً – والله المثل الأعلى – ألا ترى إلى من كان له عبد مملوك - أيام كان هذا الأمر منتشرًا - فإن من أحسن إلى هذا العبد فرح بذلك سيده وسرّ، ومن آذاه فقد آذى مولاه ؟!

^١ صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء

بل هناك ما هو أدقّ من ذلك ، ألا ترى أن من أكرم هرة فلان وأطعمها
ودفع الأذى عنها ، فرح صاحبها وشكر من صنع ذلك المعروف ،

ومن آذاها فقد أساء إلى صاحبها؟!!

فاعتبر من هذا المثل وتفكّر في عباد الله جل وعلا ، فمن أحسن إليهم
أحسن إليه مولاهم وخالقهم ، ومن أساء إليهم رجع سوء فعله عليه.

وفي هذا يقول سبحانه : (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) ..

أي : هل جزاء الإحسان إلى عباد الله إلا الإحسان من رب العباد !

وهذا استفهام تقرير يبيّن فيه سبحانه أن معاملته مع عبده منوطة
ومتعلقة بمعاملة هذا العبد مع عباد الله تعالى ..

وقوله صلى الله عليه وسلم : [وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ] أي : ستر زلّته ، كما جاء في رواية : [وَمَنْ سَتَرَ عَوْرَةَ مُسْلِمٍ فِي الدُّنْيَا
سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ فِي الْآخِرَةِ]^١ والعورة هي الزلة أو السيئة يقع فيها العبد.

وفي رواية للحديث : [مَنْ عَلِمَ مِنْ أَخِيهِ سَيِّئَةً فَسَتَرَهَا سَتَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ]^٢ يعني ولو كانت السيئة صغيرة فعليك بالستر عنه
ولا تفضحه طالما أنه متستر ، لكنك اطلعت على ذلك فاکتم ولا تتكلم في
ذلك.

ومن يتبع زلات أخيه وسيئاته ليفضحها وينشرها بين الناس فإن الله تعالى
سيتبع عورته ويفضحها ، ومن زعم أنه لا زلة عنده ليفضحها الله بها ،
فيقال له : إن لم تتب إلى الله تعالى فإن الله سيبلوك بالذنب والمعصية
ليفضحك بها .

وفي الحديث : [لَا يَرَى امْرُؤٌ مِنْ أَخِيهِ عَوْرَةً فَيَسْتُرُهَا إِلَّا سَتَرَهُ اللَّهُ ، وَأَدْخَلَهُ
الْجَنَّةَ]^٣ فلا تكشف الستر عن عباد الله طالما أن الله قد سترهم ، وإلا
كشف الله عنك ستره .

^١ طرف حديث في مسند الإمام أحمد ٧٣٦٧

^٢ مسند الإمام أحمد ١٦٣٤٧

^٣ انظر المعجم الكبير للطبراني

وفي الحديث أن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه بلغه حديث عن مسلمة - أحد الصحابة الكرام - فرحل من المدينة المنورة إلى مصر ، وكان مسلمة والياً وسأله عن الحديث الذي بلغه عنه في ستر المؤمن وكان قد سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم فقال مسلمة : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : [من ستر على مؤمن ، فكأنما أحيا موءودة] ^١ والموءودة هي الأنثى الصغيرة التي كانوا في الجاهلية يدفنونها وهي حية.

وهذا من جملة ما يدلّك على حرص الصحابة رضي الله عنهم على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسماعه من بعضهم وتبليغه ونشره ، لأن القرآن الكريم والحديث الشريف هما رسالة رب العالمين إلى خلقه ، أفلا ينبغي الحرص على معرفتها والاطلاع عليها للعمل بما فيها ؟!

وقوله صلى الله عليه وسلم : [وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ] يعني : من أعان عباد الله أعانه الله على أمر دينه ودنياه.

ومن هذه الإرشادات المحمدية صلى الله عليه وسلم يفهم الإنسان مدى شمولية دين الله تعالى فليس الدين مقتصرًا على الصلاة والصيام والحج فقط ، فإن حقوق العباد فيما بينهم هي من أمور الدين أيضاً ، ولا يصلح المجتمع الإنساني إلا إذا انتشرت المحبة والمودة بين أفرادها ، وتآلفوا وتعاونوا فيما بينهم، وعون المسلم لأخيه قد يكون بالمال أو الجاه أو القوة حسب حاجة المستعين، ولا يأنف ولا يستنكف المؤمن من ذلك، فلقد كان سيد الناس صلى الله عليه وسلم يساعد الناس ويعينهم.

روى الإمام أحمد عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ الْفَائِشِيِّ عَنْ ابْنَةِ لِحَبَّابِ بْنِ الْأُرْتِ رضي الله عنه قَالَتْ: [خَرَجَ حَبَّابٌ فِي سَرِيَّةٍ فَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَعَاهَدُنَا حَتَّى كَانَ يَحْلُبُ عَنَّا لَنَا، قَالَتْ: فَكَانَ يَحْلُبُهَا حَتَّى يَظْفَحَ أَوْ يَفِيضَ، فَلَمَّا رَجَعَ حَبَّابٌ حَلَبَهَا فَرَجَعَ حِلَابُهَا إِلَى مَا كَانَ فَقُلْنَا لَهُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْلُبُهَا حَتَّى يَفِيضَ] أي يمتلئ الإناء الكبير ويفيض [وَقَالَ مَرَّةً: حَتَّى تَمْتَلِئَ ، فَلَمَّا حَلَبْتُهَا رَجَعَ حِلَابُهَا] ^٢ أي نقص ، وهذا من بركات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

^١ انظر المعجم الأوسط للطبراني

^٢ المسند ٢٥٨٤٩

وكان أبو بكر رضي الله عنه يحلب لجيرانه وأهل حيه أغنامهم حتى يكفي النساء هذا الأمر، فلما بويع له بالخلافة قالت جارية من الحي: الآن لا تُحلب لنا منائح دارنا، فسمعها أبو بكر فقال: بلى لعمري لأحلبنها لكم وإني لأرجو أن لا يُغيّرني ما دخلت فيه عن خُلق كنت عليه، فكان يحلب لهم أغنامهم^١.

وكل ذلك من باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: [وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ] أي: ما دام [الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ].

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي بنفسه مع الأرملة والمسكين فيقضي لهما الحاجة^٢ ..

وانظر في قوله صلى الله عليه وسلم: [وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ].

وهذا دليل شرف مجالس العلم ، وأن من واصلها وصل إلى الجنة ..

والسكينة ما يسكن لها القلب ، وتفرح لها الروح ، وسببها أن ملائكة الله تعالى تأوي إلى مجالس العلم وبصحبتها السكينة ..

وينطبق هذا على من قرأ في المسجد بمفرده أو في بيته كما حصل مع سيدنا أسيد بن حضير رضي الله عنه عندما كان يقرأ القرآن في الليل قال: [فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ الْمَصَابِيحِ، فَخَرَجْتُ حَتَّى لَا أَرَاهَا، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُ: تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ]^٣

وذلك لأن ملائكة الله في السموات يحبون أن يسمعوا كلام الله تعالى من أفواه المؤمنين ، فإذا علموا بذلك تنزلوا إلى المساجد أو بيوتات المسلمين التي يُقرأ فيها القرآن ، فالقرآن يستنزل الملائكة .. فافهم .

^١ انظر تاريخ الطبري ٦٢١/٢

^٢ انظر سنن الدارمي في المقدمة

^٣ انظر الحديث في صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن

وقوله صلى الله عليه وسلم : [وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ] : لأن تلاوة القرآن الكريم هي أفضل الأذكار الإلهية ، وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى : [مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ مِنَ النَّاسِ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَطْيَبَ]^١.

وقوله صلى الله عليه وسلم : [فِيمَنْ عِنْدَهُ] يعني الملاء الأعلى الذي هم حول العرش ، وذكر الله لعبده الذاكر له أن يثني عليه ويمدحه ويرضى عنه ، ويعلم الملاء الأعلى بذلك ، ويعلن ذلك في أهل السماء والأرض. ومن ذكره الله فيمن عنده فإن ذلك يعني أن الله تعالى سيختتم له بالخير وحسن العواقب.

اللهم اجعلنا من الذاكرين لك والمذكورين عندك ، واجعلنا ممن قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : [وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ]. آمين

^١ مسند الإمام أحمد ٨٢٩٦

تاسعاً: ومن مواقفه صلى الله عليه وسلم مع العالم أنه جاء يزكي النفوس والقلوب والعقول

قال تعالى : (كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم) أي يطهرها من الدنس والرجس والشبهات والضلالات وسوء الأخلاق، ويجملها بالكمالات والفضائل .

فمن تزكى بتزكية سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمل بما جاء به صلى الله عليه وسلم صار صاحب نفس زكية هي أهل لأن تحلّ في حظيرة القدس - اسم من أسماء الجنة^١ - في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، لأن الجنة لا يدخلها إلا صاحب نفس قدسية زكية نقية وفي هذا قال تعالى : (جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى)، وقال جل وعلا : (قد أفلح من تزكى) وقال تبارك وتعالى : (قد أفلح من زكاها* وقد خاب من دساها) .

والفلاح هو الظفر والفوز بغاية المنى وهي سعادة الدنيا والآخرة، والمفلح هو الذي زكى نفسه أي طهرها بتزكية رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحلّى وتجمّل بما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم من المكارم والفضائل.

وقوله تعالى : (وقد خاب من دساها) أي : خسر من دسّ نفسه ، والدّس هو الطمر والإخفاء كما قال تعالى : (أيمسكه على هون أم يدسه في التراب)

وهذا لما كانوا يئدون البنات في الجاهلية، ومبالغة فعل "دسّ" هي : "دسّس" أو "دسى"^٢، وهذا يعني أن الذي لم يعمل بتزكية رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دسّ نفسه أي غمّسها في الحفر السحيقة المظلمة الدنسة ..

وأما من عمل بتزكية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد نهض بنفسه وارتقى في الكمالات الإنسانية، وذلك لأن الذنوب أدناس تتراكم على مرتكبيها ، كمن أهان نفسه وألقاها في حفرة قدر ونجس.

١ انظر مسند الإمام أحمد ٢١١٩٠

٢ انظر تفسير الإمام الثعالبي ٥٩٦/٥

وقال صلى الله عليه وسلم في التحذير من الذنوب والمعاصي :

[اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله عنها، فمن أَلَمَ بشيء منها فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللَّهِ، وَلْيَتَّبِعْ إِلَى اللَّهِ، فإنه من يُبْدِلْ لنا صفحته نُقِمَ عليه كتاب الله] ^١
أي : ننفذ فيه أحكام الله من الحدود وغيرها.

وروى الشيخان عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ] أي : المهلكة لمن أصر عليها [قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّحَرُ] ولم يستثن صلى الله عليه وسلم نوعاً من السحر وفيه ردّ على من زعم أنه أراد الخير من سحر فلان ، فهو باب شيطاني يزينه الشيطان لفاعله [وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ] ^٢.

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : [أَلَا أُتَبِّئُكُمْ بِأكْبَرِ الْكَبَائِرِ ؟ ثَلَاثًا، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَكِنًا فَقَالَ: أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ ، قَالَ: فَمَا زَالَ يُكْرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ] ^٣
أي : رحمة به وشفقة عليه صلى الله عليه وسلم.

وعقوق الوالدين هو معصية الوالدين فيما أمرا به شرعاً ، أما إذا أمرا بأمر يحرّمه الشرع فلا طاعة لهما كما قال صلى الله عليه وسلم : [لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ] ^٤، ومن ذلك ما تقع فيه المرأة الجاهلة التي تأمر ولدها أن يضرب زوجته حتى ترضى عنه ، فيقال له : لا تعص الله في زوجتك ، ودع أمر أمك وحاول أن تبين لها أن طلبها غير شرعي وهكذا ، فلا تغضب أمك لإرضاء زوجتك ، ولا تؤذ زوجتك لإرضاء أمك ، وكلُّ له حدّه في شريعة الله ، فلا يجاوز أحد حدّه .

^١ رواه الحاكم في المستدرک وهو في موطأ مالك كتاب الحدود بلفظ قريب

^٢ صحيح البخاري كتاب الوصايا وصحيح مسلم كتاب الإيمان

^٣ صحيح البخاري كتاب الشهادات ، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح ١٦٤/٨ :
قَوْلُهُ : (فَمَا زَالَ يُكْرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ) أَي شَفَقَهُ عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَرَاهِيَةً لِمَا يُزْعِجُهُ، وَفِيهِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ كَثْرَةِ الْأَدَبِ مَعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمَحَبَّةَ لَهُ وَالشَّفَقَةَ عَلَيْهِ.

^٤ مسند الإمام أحمد ١٠٤١

ولو كان أمر الناس متروكاً لأهوائهم وآرائهم لاختلفوا في آرائهم وضلّوا وصار المجتمع إلى الفوضى والتشتت ، ومن هنا يفهم العاقل حكمة الشريعة المحمدية صلى الله عليه وسلم التي بيّنت لكل إنسان ما له من الحقوق وما عليه من الواجبات .

وقد بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الإصرار على المعاصي يعرّض الإيمان للزوال ، ولا عجب من المسلم أن يقع في الذنب لكنه يجب أن يبادر إلى التوبة إلى الله تعالى كما قال صلى الله عليه وسلم : [كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ] ^١.

وقال تعالى : (والذين إذا فعلوا فاحشة) أي بارتكاب كبيرة (أو ظلموا أنفسهم) أي بارتكاب صغيرة

(ذكروا الله) أي : ذكروا عظمة الله تعالى ووقوفهم بين يديه جل وعلا للحساب فحملهم هذا الذكر على التوبة والاستغفار

(فاستغفروا لذنوبهم) وهو سبحانه يقبل استغفارهم وتوبتهم ، وهذا قوله عز من قائل : (ومن يغفر الذنوب إلا الله) ، وقال سبحانه في آية ثانية : (ومن يعمل سوءاً) أي يعمل كبيرة (أو يظلم نفسه) أي يعمل صغيرة (ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً) .

وذلك لأن المؤمن إذا وقع في المعصية صار بين قلبه وربّه حجاب ، فيشعر بضيق الصدر والانقباض ، حتى إذا تاب واستغفر رفع الله الحجاب عن قلبه ، فوجد الله بمرآة قلبه غفوراً له رحيماً به .

ثم قال سبحانه : (ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) .

^١ سنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم :

[الطابع معلقة بقائمة عرش الله عز وجل، فإذا انتهكت الحرمة وعُمل بالمعاصي، واجترأ على الرب، بعث الله الطابع فيطبع على قلبه] أي على قلب المصير [فلا يعقل بعد ذلك شيئاً]^١.

وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المعاصي تسود القلب والوجوه ، وأن الطاعات تنور القلوب والوجوه .. ففي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم :

[إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فَإِذَا هُوَ نَزَعَ] أي : رجع [وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبُهُ وَهُوَ الزَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ { كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ }]^٢. ومن تاب من ذنبه وعزم على أن لا يعود وندم وتأسف على فعله ثم مضى عليه مدة وغلبته نفسه ووقع في الذنب فليسر أيضاً إلى التوبة . ولكل ذنب توبته طالما أن الله تعالى قد فتح باب التوبة لعباده كما قال سبحانه : (غافر الذنب وقابل التوب) أي : في كل لحظة .

ولقد سمى سبحانه العبادات بـ الصبغة، وهي صبغة الله النورانية التي تتخلل ذرات العابد لله تعالى كما يتخلل الصباغ بالألوان ذرات المصبوغ كله ولا يتغير ولا يتبدل لونه مهما جرى له ومضى عليه .

وقد ذكر سبحانه في القرآن الكريم نوعين للصبائغ : أحدهما جسماني والآخر قلبي روحاني .

أما الصباغ الجسماني فقال سبحانه في ثمرة الزيتون والزيت الذي يُستخرج منها : (وصبغ للآكلين) يعني أن من أكل الزيت استفادت منه خلايا جسمه كلها .

^١ شعب الإيمان للبيهقي والتوبة لابن أبي الدنيا ومسند البزار وعزاه في كنز العمال للدليمي

^٢ سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن

وأما الصَّبَاغ الذي هو أَجَلٌ من ذلك ، ويدخل في ذرّات القلب والعقل والروح ويظهر أثره على الوجه، فهو الذي أشار إليه سبحانه بقوله : (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون).

أي : الزموا صبغة الله التي لا يوجد أحسن منها ، والتي تُنال بعبادته سبحانه .

وقوله تعالى : (ونحن له عابدون) أي : نحن أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم العابدون لله ، وعبادتنا له أكمل من عبادة من قبلنا من الأمم .

وقال سبحانه في أثر العبادات النوراني : (سيماهم في وجوههم من أثر السجود) وإن عقل المؤمن وفكره يختلف اختلافاً كبيراً عن عقل وفكر الكافر ، والشواهد والوقائع كثيرة مشهودة ، فعقل المؤمن عقل نوراني واسع يعقله - أي : يمنعه - مما لا ينبغي فعله ، وأما عقل الكافر فهو عقل سفلي ضيق لا يعرف إلا تعاطي الشهوات ولا يبالي بما يفعل أو يقول .

وروى مسلم عن أبي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [الظُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأَانِ أَوْ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ]... الحديث^١.

فقوله صلى الله عليه وسلم : [وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ]

أي تملأ ميزان المحامد نوراً إذا صدرت عن قلب حاضر خاشع لله تعالى .

[وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأَانِ أَوْ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ]

أي : نوراً

[وَالصَّلَاةُ نُورٌ] أي نور لصاحبها في دنياه وفي آخرته ، وأولها في عالم القبر ثم في الحشر وعلى الصراط ..

^١ صحيح مسلم كتاب الطهارة

[وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ] أي تدلّ على إيمان صاحبها ، فمن منع زكاة ماله فلا برهان له يدلّ على إيمانه ، وإيمانه في خطر ، وربما كان منافقاً ..
[وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ] أي لقارئه إن عمل به فهو حجة له ، ويكون حجة عليه إن قرأه وترك العمل به .

ولقد بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم الطريق الميسر لتطهير الإنسان نفسه وإحجامها عن الذنوب وحملها على الطاعات ، وهو مراقبة الله تعالى على الدوام .

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم :

[ثَلَاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ طَعِمَ طَعِمَ الْإِيمَانِ : مَنْ عَبَدَ اللَّهَ وَخَدَهُ ، فَإِنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَعْطَى زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ رَافِدَةً ^١ عَلَيْهِ فِي كُلِّ عَامٍ ، وَلَمْ يُعْطِ الْهَرِمَةَ ، وَلَا الرَّدِيئَةَ ، وَلَا الشَّرْطَ اللَّئِيمَةَ ، وَلَا الْمَرِيضَةَ] ^٢ أي : لا يعتمد إلى خبيث وفاسد ما عنده فيتصدق به .

[وَلَكِنْ مِنْ أَوْسَطَ مَالِكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَسْأَلْكُمْ خَيْرَهُ ، وَلَمْ يَأْمُرْكُمْ بِشَرِّهِ]

قال تعالى : (ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخذيهِ إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد) .
قال صلى الله عليه وسلم : [وَزَكَّى عَبْدٌ نَفْسَهُ] أي : طهرها عن المحرمات وجملها بالصالحات

[فَقَالَ رَجُلٌ : وَمَا تَرْكِيَةُ الْمَرْءِ نَفْسَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ] ^٣ أي : وهذه المراقبة تجعل في المراقب حياء من الله تعالى يمنعه عن فعل المحرمات ويحمله على فعل الطاعات .

^١ فاعلة من الرشد ، وهو الإعانة ، رفدته إذا أعنته ، أي تعينه نفسه على أدائها
^٢ قال في عون المعبود شرح سنن أبي داود : الدرنة - بفتح الدال بعدها راء مكسورة - هي الجرباء ، والشرط - بفتح الشين و الراء هي صغار المال وشراره ، واللئيمة هي البخيلة باللبن .

^٣ انظر شعب الإيمان للبيهقي وهو في سنن أبي داود كتاب الزكاة بلفظ قريب

وفي الحديث يقول صلى الله عليه وسلم مخبراً عما سيقع في آخر هذه الأمة:

[لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالٍ تَهَامَةٌ بَيْضًا] أي : بأعمال صالحة كبيرة كثيرة مثل جبال مكة وما حولها [فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا، قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا، أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: أَمَّا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ] أي : هم من هذه الأمة [وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ] أي : من العبادات والقربات [وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا] ^١.

يعني : لا مراقبة عندهم لله تعالى فلا يستحيون من الله جل جلاله ولا يخشونه في خلواتهم، ويعملون المعاصي ، في حين أنهم أمام الناس ظاهرهم الصلاح والتقوى .

وإذا عمر قلب الإنسان بالإيمان صلح جسمه بالعمل ، وهذا قوله صلى الله عليه وسلم :

[إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ] ^٢، ومن لزم المراقبة حملته على التوبة مما هو فيه، والتوبة هي أول مقام من مقامات أهل الإيمان كما قال تعالى :

(التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين).

^١ سنن ابن ماجه كتاب الزهد

^٢ صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب

ولما سألت السيدة أُمّ سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم سألت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: [مَا لَنَا لَا نُذَكِّرُ فِي الْقُرْآنِ كَمَا يُذَكِّرُ الرَّجَالُ؟] قَالَتْ: فَلَمْ يَرْعِنِي مِنْهُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا وَنِدَاؤُهُ عَلَى الْمِنْبَرِ ، قَالَتْ: وَأَنَا أُسَرِّحُ شَعْرِي، فَلَفَفْتُ شَعْرِي ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى حُجْرَةٍ مِنْ حُجَرِ بَيْتِي فَجَعَلْتُ سَمْعِي عِنْدَ الْجَرِيدِ فَإِذَا هُوَ يَقُولُ عِنْدَ الْمِنْبَرِ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ:

{ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا }^١.

وروى الحاكم في مستدركه عن السيدة أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت : [يا رسول الله لا أسمعُ اللهَ ذَكَرَ النساءِ في الهجرة بشيء ، فَأَنْزَلَ اللهُ عز وجل (فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض) الآية.

^١ مسند الإمام أحمد ٢٥٣٨٩

أثر التزكية على النفس

لقد تقدم أن من مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع العالم أنه جاء (يزكيهم) أي يزكي قلوبهم بالعقيدة الصحيحة ، ويزكي أعمالهم بالأعمال الصالحة ، ويزكي أقوالهم بالكلم الطيب ، ويزكيهم خلقاً وأدباً بالأخلاق الحسنة والآداب الفاضلة .

ولقد بين صلى الله عليه وسلم أن الأخلاق الكريمة هي من أصول الإيمان وشعبه فقال عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام :

[إِنَّ أَكْمَلَ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَالْأَظْفَهُمْ بِأَهْلِهِ]^١.

وقال صلى الله عليه وسلم :

[مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ]^٢.

وقال صلى الله عليه وسلم :

[إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُذْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَاتٍ قَائِمِ اللَّيْلِ صَائِمِ النَّهَارِ]^٣.

وفي المعجم الكبير للطبراني : [إِنَّ الرَّجُلَ لَيُذْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الْقَائِمِ بِاللَّيْلِ الظَّامِ بِالْهَوَاجِرِ] .

وفي الحديث^٤ عنه صلى الله عليه وسلم : [إِنَّ الْعَبْدَ لَيَبْلُغُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ عَظِيمَ دَرَجَاتِ الْآخِرَةِ ، وَشَرَفَ الْمَنَازِلِ ، وَإِنَّهُ لَضَعِيفُ الْعِبَادَةِ] .

أي : لا نوافل كثيرة عنده ، فجاء حسن خلقه ورفع منزلته .

وإن الغاية من التزكية أن يتخلص الإنسان من صفة الإنسان الحيواني الشهواني ، ويلحق بالإنسان العلوي الرباني لأن الإنسان في حقيقته مَجْمَعُ عالمين ، وأيهما مال إليه التحق به .

^١ مسند الإمام أحمد ٢٣٥٣٦

^٢ سنن الترمذي كتاب البر والصلة

^٣ مسند الإمام أحمد ٢٣٤٥٤

^٤ المعجم الكبير للطبراني

فجسم الإنسان من عالم الأرض الترابي الكثيف ، وفيه الروح العلوية الربانية الأمرية، وإن من شأن الأرض أن تفسد من أقام عليها دون حائل ، وهذا أمر يشهده كل من جلس إلى الأرض بدون حاجز .

ومن هنا يعرف العاقل أن من أخلد إلى الأرض أفسدته ، كما قال تعالى في ذلك الذي انسلخ عن آيات الله جل وعلا وأعرض عنها :

(ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا).

وأما روح الإنسان فهي من عالم الأمر الرباني العلوي اللطيف، فالإنسان الحيواني أعطى لنفسه شهواتها ولم يكبح هواها الفاسد ففسدت نفسه وتسفل بها وصار لا يعرف من الدنيا إلا الأكل والشرب وتعاطي الشهوات،

وأما الإنسان الذي زكى نفسه بشرع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحافظ على شرف روحه العلوية القدسية لما التزم شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم -إذ لا بُدَّ للروح من توجيه وإرشاد- فإن جسمه يَشْرَفُ على شرف الروح التي فيه ، ويصير علوياً تابعاً لها ويرتقي بنفسه في مقامات الكمال الإنساني ويصير إنساناً علوياً طاهراً طيباً ربانياً كما قال تعالى :

(ولكن كونوا ربانيين)، ويلتحق مع الملائكة الكرام ، كما قال صلى الله عليه وسلم :[الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعَتُعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ] ^١ أي أن الذي يقرأ القرآن بالتجويد بمهارة هو مع السفارة الكرام البررة، وأما الذي يقرؤه ويتتبع فيه فله أجران : أجر التلاوة وأجر المشقة في التلاوة ^٢.

^١ صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها

^٢ قال النووي في شرحه صحيح مسلم ١٥٢/٣ : وَأَمَّا الَّذِي يَتَتَعَتُعُ فِيهِ فَهُوَ الَّذِي يَتَرَدَّدُ فِي تِلَاوَتِهِ لِيُضَعِفَ حِفْظَهُ فَلَهُ أَجْرَانِ : أَجْرٌ بِالْقِرَاءَةِ ، وَأَجْرٌ بِتَتَعَتُعِهِ فِي تِلَاوَتِهِ وَمَشَقَّتِهِ . قَالَ الْقَاضِي وَغَيْرُهُ مِنَ الْعُلَمَاءَ : وَلَيْسَ مَعْنَاهُ الَّذِي يَتَتَعَتُعُ عَلَيْهِ لَهُ مِنْ الْأَجْرِ أَكْثَرُ مِنَ الْمَاهِرِ بِهِ ، بَلِ الْمَاهِرُ أَفْضَلُ وَأَكْثَرُ أَجْرًا ؛ لِأَنَّهُ مَعَ السَّفَرَةِ وَلَهُ أَجُورٌ كَثِيرَةٌ ، وَلَمْ يَذْكُرْ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ لِغَيْرِهِ ، وَكَيْفَ يَلْحَقُ بِهِ مَنْ لَمْ يَعْنِ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَحِفْظِهِ وَإِثْقَانِهِ وَكَثْرَةِ تِلَاوَتِهِ وَرِوَايَتِهِ كَاغْتِنَائِهِ حَتَّى مَهَرَ فِيهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ومن تزكى بتزكية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد تطهر قلبه وروحه وعقله وعمله وقوله وخلقه وأدبه ، حتى صار صاحب نفس زكية طيبة طاهرة، وحينئذ تُفتح له أبواب الجنة يوم القيامة ويقول له خزنتها :

(سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) وذلك لأن الجنة كما جاء في الحديث تسمى حظيرة القدس الربّاني^١ فلا يدخلها إلا من طهرت نفسه من الخبث والدنس وطابت وزكت حتى صارت أهلاً لجوار رب العالمين. وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم :

[مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ قَالَ: " أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ " فُتِحَتْ لَهُ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ]^٢.

يعني : ومن سلك طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم فتحت له الأبواب ، ولا بد له أن يدخل الباب ويصل إلى المحراب .

ولقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأعمال التعبدية لها خصائص كبيرة منها : أنها تكفر ذنوب الإنسان، وترفعه في الدرجات ، فهي كفارات ودرجات ، ومنها ما يكون فيه تكفير للذنوب أكبر ، ومنها ما يكون فيه رفع للدرجات أكبر ، ومنها ما هو على حد سواء، ومن ذلك الصلاة .. فمن خصائصها أنها تكفر ذنوب المصلي وترفعه درجات ، وهذا معنى التخلية والتحلية ، فالأعمال التعبدية إذاً تطهر صاحبها من خطر السيئات وأدناسها، وتحليه بنور وكمال الطاعات ورفع الدرجات .

^١ انظر مسند الإمام أحمد ٢١١٩٠

^٢ سنن الترمذي كتاب الطهارة

روى الإمام البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: [أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا مَا تَقُولُ ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرْنِهِ؟ قَالُوا: لَا يُبْقِي مِنْ دَرْنِهِ شَيْئًا، قَالَ: فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِ^١ الْخَطَايَا]^٢.
وقال صلى الله عليه وسلم: [مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ وَكَتَبَ لَهُ بِهَا حَسَنَةً]^٣.

وقال أبو هريرة وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهما :

[خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقَالَ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ" - ثلاث مرات - ثم أَكَبَّ، فَأَكَبَّ كُلُّ رَجُلٍ مَنَّا يَبْكِي، لَا نَدْرِي عَلَى مَاذَا حَلَفَ عَلَيْهِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَفِي وَجْهِهِ الْبُشْرُ فَكَانَ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا مِنْ عَبْدٍ يُصَلِّي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَيَصُومُ رَمَضَانَ، وَيُخْرِجُ الزَّكَاةَ^٤، وَيَجْتَنِبُ الْكِبَائِرَ السَّبْعَ، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ لَهُ: ادْخُلْ بِسَلَامٍ]^٥.
وذلك لأن الكبائر تتطلب من العبد توبة خالصة معينة بشروطها ، وأما الصغائر فيكفرها الله تعالى بالصلاة والصيام وغيرها مما ورد عنه صلى الله عليه وسلم في ذلك .

^١ أي: بأداء الصَّلَوَاتِ

^٢ صحيح البخاري كتاب مواقيت الصلاة

^٣ مسند الإمام أحمد ٢٠٤٧٩

^٤ ولم يذكر الحج إما لعدم فرضيته بعد ، أو أنه لما ذكر الزكاة فلا شك أن الحج فرض على من وجبت عليه الزكاة لاستطاعته .

^٥ انظر تفسير ابن كثير ٢٧١/٢ وقال : وهكذا رواه النسائي، والحاكم في مستدركه، من حديث الليث بن سعد، ورواه أيضاً ابن حبان في صحيحه

روى مسلم في صحيحه عن مَعْدَانَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ الْيَعْمَرِيِّ قَالَ:
 [لَقِيتُ ثُوبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ:
 أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ أَعْمَلُهُ يُدْخِلُنِي اللَّهُ بِهِ الْجَنَّةَ، أَوْ قَالَ: قُلْتُ: بِأَحَبِّ الْأَعْمَالِ
 إِلَى اللَّهِ، فَسَكَتَ، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَسَكَتَ، ثُمَّ سَأَلْتُهُ الثَّالِثَةَ فَقَالَ: سَأَلْتُ عَنْ
 ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ لِلَّهِ
 فَإِنَّكَ لَا تَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلَّا رَفَعَكَ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا
 خَطِيئَةٌ]¹.

وروى الترمذي عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:
 [اخْتَبَسَ عَنَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ غَدَاةٍ عَنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ
 حَتَّى كِدْنَا نَتَرَاءَى عَيْنَ الشَّمْسِ، فَخَرَجَ سَرِيعًا فَثُوبٌ بِالصَّلَاةِ، فَصَلَّى رَسُولُ
 اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَجَوَّزَ فِي صَلَاتِهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ دَعَا بِصَوْتِهِ فَقَالَ
 لَنَا: عَلَى مَصَافِكُمْ كَمَا أَنْتُمْ، ثُمَّ انْقَلَبَ إِلَيْنَا ثُمَّ قَالَ: أَمَا إِلَيَّ سَأَحْدِثُكُمْ مَا
 حَبَسَنِي عَنْكُمْ الْغَدَاةَ أَيُّ قُمْتُ مِنَ اللَّيْلِ فَتَوَضَّأْتُ وَصَلَّيْتُ مَا قُدِّرَ لِي
 فَتَنَعَسْتُ فِي صَلَاتِي] بسبب التجلي الرباني عليه صلى الله عليه وسلم
 [فَاسْتَنْقَلْتُ، فَإِذَا أَنَا بِرَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ فَقَالَ:
 يَا مُحَمَّدُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّ، قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: لَا أَذْرِي
 رَبِّ، قَالَهَا ثَلَاثًا، قَالَ: فَرَأَيْتُهُ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيْ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ
 بَيْنَ ثَدْيَيْ فَتَجَلَّى لِي كُلُّ شَيْءٍ وَعَرَفْتُ [أَي: كُشِفَ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وسلم عن العوالم كلها وأفاض الله تعالى عليه من علم كل شيء].

[فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّ، قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ:
 فِي الْكَفَّارَاتِ، قَالَ: مَا هُنَّ؟ قُلْتُ: مَشْيُ الْأَقْدَامِ إِلَى الْجَمَاعَاتِ، وَالْجُلُوسُ
 فِي الْمَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ، وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ فِي الْمَكْرُوهَاتِ، قَالَ: ثُمَّ فِيمَ؟
 قُلْتُ: إِطْعَامُ الطَّعَامِ وَلَيْنُ الْكَلَامِ وَالصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، قَالَ: سَلْ،
 قُلْتُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ،
 وَأَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي، وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةً قَوْمٍ فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مَفْتُونٍ،

أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى حُبِّكَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّهَا حَقٌّ فَادْرُسُوهَا ثُمَّ تَعَلَّمُوهَا [١] .

وقوله صلى الله عليه وسلم : [وَالْجُلُوسُ فِي الْمَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ]

يعني أن تطيل الجلوس بعد فراغك من الصلاة في مكان صلاتك سواء في المسجد أو في بيتك ، لرواية : [وَأَنْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ] [٢]

وعلى قدر مدة الجلوس تكون نسبة تكفير الخطايا ..

والجلوس هو رباط في سبيل الله لأن المرء فيه يجاهد نفسه كما قال صلى الله عليه وسلم: [أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَأَنْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ] [٣] .

أي : لأنك ربطت نفسك وأوقفتها عند أمر الله تعالى صابراً محتسباً فلك أجر المجاهد في سبيل الله .

وقد يزعم إنسان أنه يحتاج إلى أمر يحمله على فعل الطاعات وترك المخالفات فيقال له :

إن الذي يحرض همته على فعل الطاعات ، ويقوّي إرادته على ترك المخالفات أن تعلم علماً جازماً بأن كل شيء نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم هو فساد وضرر لك ، ولولا ضرره لما حرّمه الله جل جلاله ورسوله صلى الله عليه وسلم عليك، وأن تعلم علماً جازماً أن كل شيء أمرك به هو خير ونفع لك ، ولولا ذلك لما أمرك به .

فيجب إذاً أن تصحح علمك بما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقوّي إيمانك بحكمة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي آتاه الله تعالى الكتاب والحكمة ..

١ سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن

٢ كما في مسند الشاشي

٣ صحيح مسلم كتاب الطهارة

ألا ترى إلى موقفك مع الأكلة المسمومة ، كيف تمتنع عنها ولو حاول
الناس إقناعك بأكلها ، لعلمك الجازم أن فيها ضرراً وأذىً على جسمك !!؟

وكذلك تبادر إلى الاتجار بالصنف العلاني لرواجه وكثرة الطلب عليه
لعلمك الجازم أن في ذلك خيراً ونفعاً يرجع إليك .

ومن ناحية أخرى فإنّ تذكّر الإنسان موقفه بين يدي الله تعالى للسؤال
والحساب يحمله على الإقلاع عن الذنب والإسراع إلى فعل الخير ،
وفي هذا يقول سبحانه بعد أن بين حرمة الربا وخطره :

(واثقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا
يظلمون) وذلك حتى يعين الإنسان على كبح جماح نفسه وإيقافها عند
حدود الله جل وعلا .

وإن هذه الآية هي آخر آية نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم ، فتدبر
فيها أيها العاقل واذكر موقفك بين يدي رب العالمين ، ولا تستبعد يوم
القيامة ، وذلك لأن الموت قريب من كل إنسان ، وهو أول برازخ الآخرة،
ومن دخل الباب رأى ما في داخله ، فمن دخل عالم البرزخ انكشفت له
برازخ الآخرة ، ورأى ما رأى على حسب إيمانه وحاله ، ونسأل الله تعالى
حسن الخاتمة .

وفي الحديث :

[مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ وَلَا حِجَابٌ
يَحْجُبُهُ]¹ .

وينبئ الله سبحانه كل عبد عن أعماله لأنه كان معه في الدنيا وشاهداً عليه
كما قال تعالى : (إنا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه) ، وقال سبحانه :
(فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين) أي : فلنخبرنهم بأعمالهم كلها
ولنقولن لهم : ما كنا غائبين عنكم بل كنا معكم شاهدين عليكم .

¹ صحيح البخاري كتاب التوحيد

اعتبار الأشياء بحقائقها لا بصورها

لقد بين سبحانه هذا في قوله جل وعلا :

(واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون * ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون).

وينطبق هذا الخبر على بلعم بن باعوراء^١ - وكان من عبّاد بني إسرائيل - إذ إنه أعرض عن آيات الله وأحكامه الشرعية وقبّح نفسه وتسفل لما انسلخ عن آيات الله تعالى ولم يعمل بها، وأخلد إلى الأرض متبعاً هوى نفسه وشهواته حتى صار في حقيقته كالكلب - وإن كانت صورته إنساناً - والكلب يلهث إن حملت عليه تطارده أو تركته ، وكذلك الكافر المعاند فإنه يعرض عن آيات الله تعالى ، سواء عليه أأنذر أم لم ينذر ، وسواء وعظ أم لم يوعظ ، كما قال تعالى :

(إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون).

وقال سبحانه يخبر عن عاد قوم هود موقفهم مع نبيهم سيدنا هود عليه السلام: (قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين).

ولا يعجب الإنسان من ذلك فقد بيّن سبحانه أن الكفار هم على الحقيقة كالبهائم، بل هم أضل لأنهم لا يعرفون من الحياة إلا الأكل والشرب وتعاطي الشهوات واللذائذ الجسمية ، وإن كانوا في صورهم ناساً من بني آدم ، قال تعالى : (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام)

وذلك لأن اعتبار الأشياء لا بصورها بل بحقيقتها ، ألا ترى أن السيارة المعروفة ما سميت بذلك إلا لأنها تسير ، ولو أصابها الضرر والتلف لصارت في شكلها وصورتها سيارة ، وفي حقيقتها كتلة حديد ومعادن .

^١ انظر تفسير ابن كثير ٤٥٧/٣

وكذلك الفرس الجواد المكرّ المفترّ لو هَرِمَ ومرض فهو فرس في الصورة فقط ، وكذلك الإنسان فهو إنسان بمعانيه وكمالاته الإيمانية والعملية والقلوبية والخلقية والأدبية ، وإذا فقدوها فهو إنسان في الصورة فقط ولكنه حيوان في حقيقته ، وربما اجتمعت فيه عدة صفات من صفات الحيوان كالمكر والخسة وحب الأذى والفساد والحقد ... الخ

ولقد جاء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يزكيّ النفوس الإنسانية فيطهرها من الآفات والصفات البهيمية ، ويحلّيها بالفضائل والكمالات الإنسانية ، حتى يصير الإنسان مؤمناً كاملاً علوياً قدسياً أهلاً لدخول جنة الله تعالى ، وفي هذا يقول عز من قائل :

(ومن تزكى فإنما يتركي لنفسه وإلى الله المصير)

أي : من تزكى بأن عمل بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنما يسعى بعمله هذا لدفع الأذى والضرر عن نفسه وجلب الخير والمنافع لها.

ومن لم يطهر ويطبّ في الدنيا ومات ولم يتب من ذنوبه فلا بد أن يلاقي من أهوال البرزخ ليذهب عنه الخبث والدنس ، وإذا كان الذنب مستحكماً فيه فإن جهنم آخر حمّام له يطهر فيه ثم يؤذن له بدخول الجنة وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم :

[أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا] وهم الكفار .

[فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يُحْيَوْنَ] أي : لا موت يقضي عليهم ويخلصهم من العذاب ، ولا حياة سعيدة طيبة يعيشونها .

[وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمْ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ ، أَوْ قَالَ : بِخَطَايَاهُمْ] وهم عصاة المؤمنين الذين ماتوا ولم يتوبوا .

[فَأَمَاتَهُمُ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحَمًّا أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ] أي : أذن الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بالشفاعة في أهل الكبائر بإخراجهم من النار ، والشفاعة على مراتب .

[فَجِئَءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ] أي : جماعات بعد جماعات حسب ما هم فيه .

[فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ] وهناك نهر الحياة على باب الجنة كما هو في حديث آخر^١.

[ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحَبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ^٢] فإذا نمت أجسامهم وطابت أذن لهم بدخول الجنة .

فانظر أيها العاقل في خطر الإصرار على الذنوب ، وبادر إلى التوبة ، ولا تعرّض نفسك لعذاب الله وسخطه .

ومن أصرّ على الذنوب فقد سلك طريق الكفر وزوال الإيمان كلياً ، كما بيّن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله :

[تُعْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوْدًا عُوْدًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أَشْرِيهَا] أي : تقبلها واستحلاها .

[نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءٌ حَتَّى تَصِيرَ^٣] أي : قلوب الناس [عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضٍ مِثْلِ الصَّفَا] وهو الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء [فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخِرُ أَسْوَدُ] وهو الذي انغمس صاحبه في الفتن والمعاصي .
[مُرَبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخَّيًّا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أَشْرَبَ مِنْ هَوَاهُ^٣] أي : لا يستحسن إلا ما وافق هوى نفسه الفاسدة ..

والكوز هو الكأس ، وقوله [مُجَخَّيًّا] أي : ككأس فيه ماء ، قَلْبٌ رَأْسًا عَلَى عَقَبٍ فَاسْتَفْرَغَ مَا فِيهِ ، وهذا مثل من أصرّ على المعاصي حتى استفرغ الإيمان كله من قلبه .

١ جاء في حلية الأولياء لأبي نعيم : [فَيَقُولُ: يَا جِبْرِيلُ، انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ فِي النَّارِ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ، فَيُخْرِجُهُمْ صَبَائِرَ قَدِ امْتَحَشُوا، فَيُلْقِيهِمْ عَلَى نَهْرٍ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ نَهْرُ الْحَيَاةِ] الحديث

٢ صحيح مسلم كتاب الإيمان

٣ صحيح مسلم كتاب الإيمان

ومما يحمل المؤمن على ترك الذنوب والمعاصي والتوبة إلى الله تعالى أن يعلم أن أعماله تُعرض على رب العالمين جل وعلا وعلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى الأهل والأقارب والعشائر وهم في البرزخ ، فليستح من الله تعالى ومن رسوله صلى الله عليه وسلم ، وليستح من أقاربه أن يروا في أعماله ما يشينه ويغضب الله تعالى ، ففي الحديث الذي رواه الحكيم الترمذي بإسناده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس على الله تعالى، وتعرض على الأنبياء وعلى الآباء والأمهات يوم الجمعة، فيفرحون بحسناتهم وتزداد وجوههم بياضاً وإشراقاً، فاتقوا الله ولا تؤذوا موتاكم] أي : فلا تعملوا أعمالاً سيئة تستاء منها الأموات إذا عرضت عليهم.

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم :

[أَلَا إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا] أي : بالنسبة لما مضى منها [إِلَّا مِثْلُ الدُّبَابِ، تَمُورُ فِي جَوْهَا، قَالَ اللَّهُ فِي إِخْوَانِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ، فَإِنَّ أَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَيْهِمْ] ^١، يعني : لا تعملوا أعمالاً سيئة يحزنون منها لما تعرض عليهم، ويتحسرون عليكم، وقد ورد أن أعمال العباد تُعرض على رب العالمين، وهناك العرض الفوري والعرض اليومي والأسبوعي والسنوي ، كما تُعرض الأعمال على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم غدوة وعشيّة ^٢، وهناك عرض خاص لأمر خاصة يوم الجمعة ، ومن جملته عرض الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم ، ففي الحديث : [حياتي خير لكم ينزل عليّ الوحي فأخبركم بما يحل لكم وَمَا يَحْرَمُ عَلَيْكُمْ، وموتي خير لكم] أي : أن خيره صلى الله عليه وسلم لا ينقطع عن أمته في حياته الدنيوية ولا بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، ومن ذلك الخير المحمدي ما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم : [تعرض عليّ أعمالكم كل خميس، فَمَا كَانَ مِنْ حَسَنٍ حَمَدْتُ اللَّهَ عَلَيْهِ، وَمَا كَانَ مِنْ ذَنْبٍ اسْتَوْهَبْتُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ] ^٣.

^١ انظر مستدرک الحاكم وشعب الإيمان للبيهقي

^٢ انظر البحث مفصلاً في كتاب الشيخ الإمام (صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى

الكبير المتعال ذي العزة والجلال) ص ٦٥

^٣ كما جاء في (الفردوس بمأثور الخطاب) للدليمي

ولا يحملنك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم على التماذي في الذنوب فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يفرح بك ويُسرّ إذا عُرض عليه عمل صالح خيّر لك، فافهم واستح من الله تعالى ومن رسوله صلى الله عليه وسلم أن يريا في عملك ما لا يُرضيهما ، وإذا كنت تستحي من أبيك وممن له ولاية عليك أن يعلم منك شيئاً من النقص والقبائح أفلا تستحي من الله تعالى خالقك وممّدك ، والذي يراك وهو معك؟!!

أفلا تستحي من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي جاء لخلاصك وإسعادك؟!

واستح من أبيك وأمك وهما في البرزخ أن يريا منك ما لا يليق ..

ويقول صلى الله عليه وسلم في عرض يوم الجمعة :

[إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ قُبِضَ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ، فَأَكْثَرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ] أي : معروضة علي عرضاً خاصاً في يوم الجمعة غير العرض العام ...

ولما سمع الصحابة رضي الله عنهم هذا الحديث من رسول الله صلى الله عليه وسلم أرادوا أن يفهموا هل هذا العرض في حياته الدنيوية فقط ؟ أم أنه مستمرّ بعد وفاته صلى الله عليه وسلم، وكيف يكون ذلك ؟

فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم : [قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ تُعْرَضُ صَلَاتُنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرِمْتَ؟ يَقُولُونَ: بَلِيَّتْ] أي : بليت بعد الموت [فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ]^١.

فلقد بيّن صلى الله عليه وسلم أن العرض عليه مستمر ولو بعد وفاته لأنه انتقل إلى الحياة البرزخية العالية ، وأن العرض أيضاً مستمر حكمه على الروح والجسم كما هو في حال الدنيا ، لأن الله تعالى حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء.

^١ سنن أبي داود كتاب الصلاة

ومن تدبّر فيما شرع الله له أن يقوله في كل صلاة :

[السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته] وأن الله تعالى لم يشرع السلام إلا على من يسمع السلام ويرده، من تدبّر في هذا علم أنه صلى الله عليه وسلم في الحياة البرزخية العالية ، ويسمع سلام المسلم عليه ويبلغه ذلك ويردّ عليه السلام^١.

وإذا كان السلام على كل ميت حين زيارته أمر شرعه الله ، لأن الميت يسمع السلام ويردّ ، لأنه في حياة لها خصائصها وأحكامها ، فما بالك بالحياة البرزخية التي أعطاها الله تعالى لسيدنا محمد رسول الله ؟!

تنبيه : اعلم أيها العاقل أن الله تعالى إنما شرع التحية بالسلام على من يسمع السلام ويرده ، ولذلك يُكره السلام على المشغول فكره بأمر ما ، وكذا على المشغول بعبادة كوضوء أو تلاوة قرآن حتى يفرغ ..

ولم يشرع سبحانه السلام على النائم لأنه لا يسمع سلام من يسلم عليه ولا يرده، وإنما شرع السلام على الميت لأنه يسمع السلام ويرده ..

لكن المسلم من أهل الدنيا لا يسمع ردّ الميت عليه، وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا دخل المقبرة سلّم على أهلها فقال :

[السلام عليكم أهل الديار]^٢.

وفي حديث آخر [السلام عليكم دار قوم مؤمنين]^٣.

^١ روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ].

^٢ روى الإمام مسلم في صحيحه عن سَلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: [كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَلِّمُهُمْ إِذَا خَرَجُوا إِلَى الْمَقَابِرِ فَكَانَ قَائِلُهُمْ يَقُولُ فِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ: " السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ " وَفِي رِوَايَةِ زُهَيْرٍ: " السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لِلْآحِقُونَ، أَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلَكُمْ الْعَافِيَةَ].

^٣ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الطهارة

وهناك فرق كبير بين النائم والميت ، فالنائم غطى النوم على حواسه وتحسسه للأشياء، أما الميت فقد انتقل إلى عالم البرزخ وأنشأه الله نشأة أهل البرزخ ولها أحكامها ، فالميت يسمع ويرى الزائر له ويتأثر بأعمال أهل الدنيا كما تقدم.

وروى الإمام أحمد في مسنده عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:
[سَمِعَ الْمُسْلِمُونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُنَادِي عَلَى قَلِيبٍ بَدْرٍ :
يَا أَبَا جَهْلٍ بَنَ هِشَامٍ، يَا عُثْبَةَ بَنَ رَبِيعَةَ، يَا شَيْبَةَ بَنَ رَبِيعَةَ، يَا أُمَيَّةَ بَنَ
خَلْفٍ هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا،
قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ تُنَادِي قَوْمًا قَدْ جَيَّفُوا؟] أي : صاروا جيفاً لا إحساس
ولا شعور عندهم [قَالَ: مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَا
يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُجِيبُوا] ^١ أي : لأنهم في برزخ آخر.

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع كلام المقبورين ويطلع على نعيم المؤمنين الصالحين منهم ، وعلى عذاب الكافرين والفاستقين منهم كما دلت عليه أحاديث كثيرة منها حديث من كان يمشي بالغيبة والنميمة والآخر الذي كان لا يستتر من بوله، والشواهد والوقائع على ذلك كثيرة ^٢ ..

ولقد نهى سبحانه أن نقول عن الشهداء "إنهم أموات " أي : لا إحساس أو تأثر عندهم ، فقال تعالى : (ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون) .

ومن قال : إني لا أقول عن الشهداء : "أموات " ، بل أعتقد ذلك، فقل له :
لقد بين سبحانه أنهم أحياء فلا تعتقد غير ذلك ، قال تعالى : (ولا
تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) .

^١ ١١٥٨٢ ، وقال في المرقاة : وقوله [لا يستطيعون أن يجيبوا] أي جواباً يسمعه الحي، وإلا فهم يردون حيث لا تسمع. اه أي : ولذلك لم يسمع بعض الصحابة جوابهم.

^٢ كما تقدم ص ١٨٥

أي : أحياء بالحياة البرزخية العالية، وهم يشهدون من النعيم ويطلعون على عوالم رب العالمين على حسب مقام كلّ منهم .

وإن مقام الشهادة مقام ينطوي في مقام النبوة ، فالأنبياء الكرام عليهم السلام أحياء عند ربّهم وإن فارقوا عالم الدنيا ، والدليل على أن الأنبياء كلهم يصلون في قبورهم ما رواه أبو يعلى والبيهقي في جزء ((حياة الأنبياء)) عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون].

وقال صلى الله عليه وسلم : [مَرَرْتُ عَلَى مُوسَى لَيْلَةً أُسْرِي بِي عِنْدَ الْكَثِيبِ الْأَحْمَرِ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ] ^١.

كل ذلك يدلّك ويبين لك بالبيان القاطع أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هو حي بالحياة البرزخية العالية، وهي أعلى من الحياة الدنيوية ، ويسمع سلام من يسلم عليه صلى الله عليه وسلم ، وتبلغه صلاة من يصلي عليه صلى الله عليه وسلم ، ويرد السلام ويصلي على من يصلي عليه ، وتُعرض عليه أعمال أمته صلى الله عليه وسلم كما تقدم .

واعلم أن الحياة على مراتب في الشعور والتحسس والإدراك، وحياة كل إنسان في كل عالم ينتقل إليه هي حياة حقيقية لها أحكامها ، ولكل إنسان تحسّس وشعور واطلاع يناسبه على حسب حاله .

^١ صحيح مسلم كتاب الفضائل والرواية له، وسنن النسائي كتاب قيام الليل وتطوع النهار

ومن البواعث التي تحمل الإنسان على العمل بشريعة الله وتزكية رسول الله صلى الله عليه وسلم:

أولاً: أن يتفكر الإنسان في عاقبة أمره ، وإلى أي شيء مآله ، وأن ينظر في مستقبله : أهو من السعداء أم من الأشقياء ؟

فإذا كان العاقل يعمل من أجل مستقبله الدنيوي حتى يعيش في رغد العيش عفيفاً مكفياً فيحتّم عليه أيضاً أن يعمل لمستقبله الأخروي الذي تتوقف عليه سعادة الأبد أو شقاء الأبد، وذلك لأن مستقبل الدنيا أمر محتمل إدراكه ، فلربما مات الإنسان وهو شاب !!!

أما مستقبل الآخرة فهو مستقبل مؤكد حصوله ، ولا بد له من بلوغه، وهو ما صار إليه الآباء والأجداد ومَن قبلهم ، فكيف يهمل من يدّعي الفهم والفتانة العمل لمستقبل مضمون بلوغه ، ويسعى جاهداً لمستقبل محتمل بلوغه ، وإن بلغه فهو مؤقت زائل، قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد) أي : لغد الآخرة .

(واتقوا الله إن الله خير بما تعملون) .

ثانياً: أن يعلم الإنسان علمً يقيناً أنه إن ترك العمل بشريعة الله تعالى وتزكية رسوله الله صلى الله عليه وسلم فقد عرّض نفسه لشدائد وكربات وأهوال الآخرة، ويبدأ ذلك من عالم القبر بعد مماته ، فيتحسّر ويتندّم حيث لا ينفعه الندم، وإلى هذا نبّه سبحانه عباده بقوله جل وعلا :

(وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون * واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون * أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطتُ في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين * أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين * أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين) .

أي : احذروا أن تقول نفس بعد موتها: "يا حسرتى على ما قصرتُ في شريعة الله واتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم" فيتحسّر الميت ويقول في نفسه : "وإنني كنت في الدنيا لمن الساخرين بأحكام الشريعة"

وهذا حال من يهزأ بقضايا الشريعة ويسخر من أهل العلم والصلاح، وربما أضحكته سبحة فلان أو عمامته أو إكثاره من ذكر الله جل وعلا، وقد يتهمه بالجهل والحماقة ، وما درى أنه هو الأحمق الجاهل ، وأن الجزاء من جنس العمل فلا بد أن يأتي يوم الفصل بين العباد ويسخر منه المؤمنون وهو في عذاب جهنم يُطرح ويهوي، فلقد تبين له لما صار في الآخرة أن قضايا الآخرة حق و حقيقة ، يتكيف وقد عاينها وأحس بعذابها ؟ وعلم أن سخريته واستهزاءه بشرع الله لما كان في الدنيا أمر عاد عليه بالوبال والعذاب !!؟

ويتمنى على الله تعالى أن يرجعه إلى الدنيا لحظة ليصلح ما أفسد ، وأنى له ذلك ؟!

ثالثاً: و ومن البواعث التي تحمل الإنسان على العمل بشريعة الله وتزكية رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلم أن عمله في الدنيا هو صاحبه الذي لا يفارقه في الآخرة، ويلزمه من حين موته ، فإذا كان العمل صالحاً كان خير جليس وأنيس لعامله ، وإن كان غير ذلك كان ظلامياً موحشاً مخيفاً لعامله، وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم : [يَتَّبِعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ أَهْلُهُ وَمَالُهُ، وَيَبْقَى وَاحِدٌ عَمَلُهُ] ^١ . ومن تفكر وتدبر في هذه الموعظة المحمدية حملة ذلك على العمل الصالح ليكون له خير جليس وأنيس في وقت سيتركه فيه أهله وماله ، بل إن ماله سيتركه من حين موته قبل أن يوضع في قبره ، ولو ناداه بلسان حاله لقال: "أنا الذي أتعبت نفسي وأفنيت عمري في جمعك فلم تركتني"؟

ولقال له ماله : "لا كلام لك معي ، فلم أعد ملكاً لك ، بل صرت ملكاً لورثتك وهم يتصرفون بي حيث شاؤوا" .

^١ كما في سنن النسائي كتاب الجنائز والرواية له وفي صحيح البخاري كتاب الرقاق

ومن لم يكن يؤدي زكاة ماله انقلب ماله الذي كان يحرص عليه ويحرسه
انقلب إلى ثعبان كبير أقرع يطوّقه من رقبته ويقول له : [أنا مالك أنا كنزك]
أي: فكيف أتركك وقد أضعت عمرك من أجلي ؟!!

ولا يزال ثعبان ماله يلدغه ويخنقه حتى يصير إلى أهوال الحشر ولا يفارقه
كما بين ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأما أهل الميت فما كان منهم إلا أن حملوه وشيّعوه إلى قبره ، ثم انصرفوا
عنه يبحثون عما ترك ، ولو أمكنه أن يسألهم أن يبكوا معه لاعتذروا
وقالوا : "لقد انتهت مهمتنا معك ، وصرت أسير عملك" .

رابعاً: أن يعلم الإنسان أن جوارحه وجوانحه ومداركه وحواسه الحسية
والمعنوية كلها أمانات لله تعالى ، ائتمنه عليها وأمره أن يتصرف بها كما
شرع سبحانه ، وسوف يسأله الله عز وجل عنها ، فمن خالف أمر الله ،
وتصرف في أماناته على غير ما شرع الله سبحانه فقد خان الأمانة وعرض
نفسه لسخط الله وعذابه، قال تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم) .

وقال جل وعلا : (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً) .
فقل لمن يلقي سمعه إلى غيبة فلان وفلان لعله يسمع عنهم زلة أو هفوة
فيروح ينشرها على الناس ، قل له : "أنت خائن لأمانة الله عندك ، وقد
أسأت التصرف في حاسة السمع التي أنعم الله بها عليك ، ولا بد أن
يسألك الله ويحاسبك إن لم تتب من ذنبك" .

١ روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ
شُجَاعًا أَقْرَعَ، لَهُ زَيْبَتَانِ، يُطَوِّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَأْخُذُ بِلَهْزِمَتَيْهِ يَغْنِي بِشِدْقَيْهِ] - يعني
بشدي من الزكاة- [يَقُولُ: أَنَا مَالِكٌ أَنَا كَنْزُكَ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ { وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ
يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ.

وكذلك إذا شغل الإنسان فكره وأعمل قلبه في فلان من الناس وأنه كذا وكذا ، فهو - وإن لم يتكلم بذلك - مسؤول عن فؤاده أين شغله ؟ هل شغله بسوء الظن في فلان وفلانة ؟ وأن فلاناً لا خير منه ، وأن فلاناً يدعي الصلاح ولكنه كذاب بعيد كل البعد عن ذلك ..

فهذا كله سيُسأل عنه الإنسان فليحفظ سمعه وبصره وفؤاده ، وكذا اليد والرجل وسائر الجوارح، وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم :

[لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فَيَمَّا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ]¹ .

وقد نبّه سبحانه إلى خطر تضييع الإنسان عمره فقال عز من قائل مخاطباً الكافرين يوم القيامة : (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير) .

واعلم أيها العاقل أن كل لحظة من عمرك لها شأنها وقيمتها وأثرها الكبير فربما بلحظة واحدة ينال الإنسان سعادة الأبد ، وربما بلحظة واحدة يشقى ويخسر خسارة الأبد، فما أعظم لحظات العمر وما أهمّها ! فاحرص على كل لحظة من عمرك واحذر أن تضيعها فيما لا خير فيه .

ولكي يتضح لك الأمر انظر في رجلين أحدهما كافر والآخر مسلم ، وفي وقت واحد قدم رجل من أهل الصلاح والعلم فوعظ الكافر فاهتدى وآمن وقال : "لا إله إلا الله محمد رسول الله" ، وفي نفس اللحظة قدم رجل إلى ذلك المسلم وألقى في نفسه شبهات وضلالات في العقيدة ، فتمكّنت في قلبه واعتقدها وزاغ إيمانه، فانظر ماذا حصل لهذين الرجلين في نفس اللحظة، رجل كان كافراً فآمن وارتقى ، ورجل كان مسلماً فكفر وتسفل ، وربما يموت الرجلان في تلك اللحظة، ويكون أحدهما قد سعد وسعد سعادة الأبد ، والآخر شقي شقاوة الأبد، نسألك اللهم سعادة الأبد . آمين

وقوله صلى الله عليه وسلم : [وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ] يدلّ أولاً على وجوب تعلم كل إنسان ما لا بد منه من أمور دينه ، وهو العلم الذي تصحّ به عباداته ، ولا يُعتبر الجهل في أمور الدين الضرورية عذراً مقبولاً عند الله تعالى .

ومن الأمور الدينية الواجب على كل مسلم أن يعلمها معرفة المحرمات التي نهى الله عنها كالزنا والخمر والسرقه والسحر وغيرها .. ممّا حرّمه الله تعالى في القرآن أو على لسان سيد الأنام صلى الله عليه وسلم .
خامساً: واعلم أيها الإنسان العاقل المؤمن أنك ممنوع عن دخول الجنة حتى تطهر نفسك قولاً واعتقاداً وخُلُقاً وأدباً ، إذ إن الجنة لا يدخلها إلا الطاهر الطيب كما تقدم .

وفي الحديث يقول صلى الله عليه وسلم :

[يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْظَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَقْصُ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضِ مَظَالِمٍ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَأَحْدُهُمْ] أي : حين يدخل الجنة [أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا]^١

وهذا بيان قوله تعالى : (سيهديهم ويصلح بالهم * ويدخلهم الجنة عرفها لهم) فيخلق الله فيهم علماً ومعرفة بقصورهم ، ومنازلهم في الجنة ، فلا يتزاحمون ولا يتحIRON في معرفة منازلهم ، ولا يمكن لأحدهم أن يجاوز منزله .

ومعنى الحديث المتقدم : [يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ]

أي : بعد ما يمرّون على الصراط ، وذلك لأن موقف القصاص بين الخلائق يجري قبل المرور على الصراط ، وذلك في القضايا الكبيرة ، وتبقى بعض الأمور الصغيرة عند المؤمنين ، فيؤخر التقاضي فيها إلى ما بعد المرور على الصراط ..

^١ صحيح البخاري كتاب الرقاق

وهذا قوله صلى الله عليه وسلم : [فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ
وَالنَّارِ] وتكون هناك لدى المؤمن حسنات تفي بما عليه، فهؤلاء هم الذين
خلصوا من عالم القصاص ونجوا من المظالم الكبيرة ، ولكن بقي عليهم
أمور صغيرة ، أما من لم يكن عنده ما يكفي فإنه يهوي في جهنم أثناء
مروره على الصراط .

وهذا هو موقف الحبس في قنطرة بين الجنة والنار، ويجري القصاص
فيما بينهم من مظالم صغيرة كانت بينهم، أما مظالم الدماء والأموال
والأعراض فهي قبل المرور على الصراط ، كما تقدم بيانه .

ولكي تعرف شيئاً عن هذه الصغائر والتي لا بد من القصاص فيها، فمنها :
رجل قرأ السلام على آخر بوجه طلق باسم ، فردّ الآخر عليه السلام
بغلظة وخشونة ، فكان للأول حق على الآخر يطالبه به يوم القصاص
ويسأله : لِمَ رددت علي السلام بتلك الطريقة الجافة ؟

وانظر في قوله صلى الله عليه وسلم : [حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُفُّوا أَذِنَ لَهُمْ فِي
دُخُولِ الْجَنَّةِ] : أي : فلا يدخل الجنة إلا مهذب تقي نقي طاهر خير ، لأن
الجنة دار ضيافة رب العالمين ، وهي جواره كما في الحديث :

[خلق الله جنة عدن بيده ، وخلق فيها ثمارها ، وشقّ فيها أنهارها ، ثم
نظر إليها فقال : تكلمي ، فقالت : قد أفلح المؤمنون ، فقال : وعزتي
وجلالتي لا يجاورني فيك بخيل]¹ .

فدرة كبر تمنع الإنسان من دخول الجنة وإن كان مصلياً مذكياً صائماً
حاجاً هجّاداً سجّاداً ، حتى يطهر قلبه من ذرة الكبر التي فيه، وكذلك
البخل .. فكيف يصح للبخیل أن يجاور أكرم الأكرمين !!!

نعم لا ينال الجوار حتى يطهر من صفة البخل ويتهذب ويطيب .

¹ انظر المعجم الأوسط للطبراني

وقوله صلى الله عليه وسلم : [وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ] :

يعني : هل أنه اكتسبه وجمعه بطريق شرعي ؟ أم شابه الحرام ؟ وهل أنفقه في مصارفه المشروعة وأدى زكاته ووصل أرحامه وساهم في فعل الخيرات ؟ ، أم راح يسرف على نفسه ويبدل ماله في المحرمات ؟ !

ويدل هذا الحديث أيضاً على أن الإنسان يمكن له أن يجمع المال بطرق مشروعة مباحة ، وأما ما يتردد أحياناً على السنة العامة ويجعلونه حديثاً وهو : "ما جُمع مال من حلال قط" ، فهذا ليس بحديث ، وهو يناقض نصوصاً قرآنية ونبوية كثيرة، إذ إن الزكاة فرضت على الأغنياء الذين زاد المال عند أحدهم عن حاجته، ولو كان ماله حراماً فكيف فرض الله عليه الزكاة والنفقة والصدقة ؟ بل كان بيّن له عندئذ أن جمع المال في أصله أمر حرام !!

ولقد كان في الصحابة أغنياء جمعوا أموالاً بطرق مباحة شرعية وأنفقوا في سبيل الله، ومنهم سيدنا أبو بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وعروة البارقي^١ وغيرهم رضي الله عنهم .

سادساً: ومما يحمل الإنسان على التمسك بشريعة الله تعالى لتتزكى نفسه وتطهر وتطيب أن يراقب الإنسان ربه سبحانه في كل حركاته وتقلباته وأفعاله وأقواله ، وإذا أراد أن يتكلم كلمة فليزنها بميزان الشرع المحمدي فإن وافقت ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم نطق بها ، وإلا أمسك عنها، وليراقب دوماً أنه بين يدي الله تعالى وفي حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهل يجرؤ عندئذ على أن يتكلم بما شاء ؟ !!

وفي هذا يقول سبحانه : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله)

أي : في أعمالكم فافعلوا ما أمركم به واجتنبوا ما نهاكم عنه ..

^١ روى الإمام أحمد في مسنده عن عُرْوَةَ الْبَارِقِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ مَعَهُ بَدِينَارَ يَشْتَرِي لَهُ أَصْحِيَّةً -وَقَالَ مَرَّةً: أَوْ شَاةً- فَاشْتَرَى لَهُ اثْنَتَيْنِ، فَبَاعَ وَاحِدَةً بِدِينَارٍ وَأَتَاهُ بِالْأُخْرَى، فَدَعَا لَهُ بِالْبَرْكََةِ فِي بَيْعِهِ، فَكَانَ لَوْ اشْتَرَى الثَّرَابَ لَرَبِحَ فِيهِ.

(وقولوا قولاً سديداً) فلا يكفي تقوى الأعمال، بل لا بد من تسديد الأقوال، والقول السديد هو القول المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ، فليس فيه غيبة فلان أو سب فلان أو لعن فلان وهكذا ..

وقل لمن يتناول الناس في كلامه بالخفض والرفع والمدح والذم حسب هواه: "فرضاً ، لو أن الله تعالى كشف لك عن اللوح المحفوظ وأطلعك على حال فلان فاستره ولا تفضحه ولا تذمه طالما أن الله الغفور سائرّه ، ولا تكشف ستر الله عن خلقه حتى لا يكشف الستر عنك، كل ذلك إذا فُرض أنك صاحب كشف ، فكيف إذا كنت صاحب تكشيف ودعوى !!! ، وقد شغلت نفسك بالقليل والقال ، وأضعت أوقاتك في مراقبة فلان ماذا عمل وماذا أكل وأين ذهب ؟!!

ولقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الظن السيئ فقال :
[إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ]^١ أي : فلا تظن سوءاً في الناس ، لأن الظن إذا تمكّن في قلبك واستحكم فإنه يحملك على الحديث عن فلان الذي ظننت السوء فيه ..

واعلم أنه لا يقع الإنسان في الذنب والمعصية إلا إذا غفل عن الله واتخذته وراءه ، ولم يراقبه أمامه .

وقد ذمّ سبحانه ووبّخ أقواماً اتخذوا ربهم وراءهم ظهرياً والعياذ بالله ، قال سبحانه مخبراً عن رسوله شعيب عليه السلام قوله : (أرهطي أعزّ عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهرياً إن ربي بما تعملون محيط) .

وقال جل وعلا فيمن هجر القرآن وراء ظهره ولم يعمل به :

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) .

والقول السديد هو القول الصحيح الموافق لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أذى فيه ولا ضرر، ولا غلظة فيه ولا خشونة تؤذي السامعين، فكم من أناس تراهم في المجلس صامتين ، وإذا طلب من

^١ طرف حديث في موطأ الإمام مالك كتاب الجامع

أحدهم كلمة نطق بكلام كأنه يلفظ الأحجار من فيه ، وليته لم يتكلم أبداً
وبقي ساكناً وفي هذا يصدق قول من قال : سكت دهرًا ثم نطق صخرًا .

ولما سأل علي كرم الله وجهه ورضي عنه سأل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلمه دعاء يدعو به قال له صلى الله عليه وسلم :
[قُلْ : "اللَّهُمَّ اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي" ، وَادْكُرْ بِالْهُدَى هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ ، وَالسَّادِدِ
سَدَادَ السَّهْمِ]^١ .

وقوله صلى الله عليه وسلم : [اهْدِنِي] أي : اهدني إلى العمل الذي يرضيك
[وَسَدِّدْنِي] أي : في الأقوال

[وَادْكُرْ بِالْهُدَى هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ] أي : الموصل إلى الله تعالى وهو الهدى
الخاص بالتوفيق ، ولا شك أن سيدنا علياً رضي الله عنه هو من أكابر
المقربين إلى رب العالمين ، ولكنه يسأل الزيادة .

[وَالسَّادِدِ سَدَادَ السَّهْمِ] أي : فليكن كلامك سديداً كتسديدك السهم إلى
الهدف ، فلتكن أقوال المؤمن سديدة موافقة لمقاصد وأهداف الشريعة .
وهذا قوله صلى الله عليه وسلم : [لَا يَسْتَقِيمُ إِيْمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ
قَلْبُهُ ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ]^٢ .. الحديث

فكيف يزعم استقامة القلب ونظافته وطيبه من يطلق عنان لسانه في
فلان وفلان ؟

وقد بين صلى الله عليه وسلم أن القلب لا يستقيم إلا إذا استقام اللسان
أي : بالكلام .

وفي الحديث الذي رواه الترمذي عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ رضي الله عنه
قَالَ : قُلْتُ : [يَا رَسُولَ اللَّهِ حَدِّثْنِي بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ]^٣
وفي رواية مسلم قال : [قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ
عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ ، وَفِي حَدِيثِ أَبِي أُسَامَةَ : غَيْرَكَ]

^١ صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار

^٢ مسند الإمام أحمد ١٢٥٧٥

^٣ صحيح مسلم كتاب الإيمان

[قَالَ: قُلْ: رَبِّيَ اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقِمْ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَخَوْفُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ ؟
[أي : إن أنا آمنت والتزمت الإيمان فما الذي تخاف علي منه ؟

[فَأَخَذَ بِلِسَانِ نَفْسِهِ ثُمَّ قَالَ: هَذَا]¹.

وفي الحديث : [إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكْفِّرُ اللِّسَانَ] أي
تَتَذَلَّلُ وَتَتَوَاضَعُ لَهُ [فَتَقُولُ: اتَّقِ اللَّهَ فِينَا، فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنْ اسْتَقَمَّتْ
اسْتَقَمْنَا، وَإِنْ اعْوَجَجَتْ اعْوَجَجْنَا]².

وقال سبحانه في بيان خطورة ما يتكلم به الإنسان :

(ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) أي : سَطَّرت الملائكة أقواله كلها
، حتى الكلمة الواحدة الصغيرة في عدد حروفها ، ولا ينجو من هذا من
اشتغل فيما لا يعنيه كأن بحث عن فلان ماذا عمل ، وفلان ماذا أكل ،
وفلان ماذا ربح ... وهكذا

وقد قال صلى الله عليه وسلم : [مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ]³

أي : ومن سوء ونقص إسلام المرء اشتغاله فيما لا يعنيه ، ومن اشتغل
بما لا يعنيه فهو ناقص الإيمان .

وقال تعالى : (وكل صغير وكبير مستطر) ، إذا فالواجب على المرء أن
يشتغل بما يعنيه، أي : يهمله وينفعه في دينه أو دنياه التي أباحها الله له
من بيع ونحوه .

ومن زعم أنه يبحث عن فلان وفلان على سبيل التسلية ، فقد دلّ ذلك
على حمقه الشديد ، إذ لو كان عاقلاً لما ضيّع عمره في القيل والقال وكثرة
السؤال ، ففي الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :

[توفي رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يعني رجل:"
أبشر بالجنة" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أولا تدري فلعله
تكلم فيما لا يعنيه أو بخل بما لا ينقصه].

¹ سنن الترمذي كتاب الزهد

² سنن الترمذي كتاب الزهد

³ مسند الإمام أحمد ١٦٤٦

وهذا يعني أن الكلام فيما لا يعني الإنسان يعرض صاحبه للسؤال والحساب ويؤخره عن دخول الجنة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم :
[كُلُّ كَلَامٍ ابْنِ آدَمَ عَلَيْهِ لَا لَهُ، إِلَّا] أي : لكن [أَمْرٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهْيٍ عَنْ مُنْكَرٍ أَوْ ذِكْرِ اللَّهِ] ^١.

سابعاً: ومما يحمل المؤمن على التمسك بشريعة الله تعالى لتتزكى نفسه وتطيب أن يعلم ويؤمن بأنه سيُعرض على الله تعالى يوم القيامة ولا تخفى منه خافية ، ويصير السر والعلن والظاهر والباطن على حدّ سواء كما قال تعالى : (يوم تُبلى السرائر) أي : تظهر، وقال سبحانه : (يومئذ تعرضون) أي : على الله تعالى (لا تخفى منكم خافية) .

وفي ذلك يقول سيدنا عمر رضي الله عنه :

[حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا فإنه أهون لحسابكم، وَزِنُوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر] وما هو؟ [يوم تعرضون لا تخفى منكم خافية] ^٢.

فمن كان يستحي في الدنيا أن يُعرض على الناس أو على ذي جاه وسلطان بثياب قذرة نجسة ، فأولى به وأجدر أن يستحي أن يُعرض على رب العالمين يوم القيامة وعليه أثر الذنوب الظلمانية ، وقد يعرض عرياناً بادي العورة والقبائح على أهل الموقف كلهم ، فيستقبحون منظره ويشنّعون عليه ويفضح أمامهم ، وهذا شأن الكافر والمنافق والمصر والمعاند .

وأما من حصّل لباس التقوى في الدنيا فسيكون لباسه يوم القيامة وبه يُعرض على رب العالمين .. قال تعالى : (ولباس التقوى ذلك خير) .

ولا يلبس لباس التقوى إلا من تطهّر من الدّنس والنجس ثم تجمّل وتكمل باللباس النظيفة الطيبة ، كما هو حال الأجسام ، وهذا هو مقتضى تزكية العبد نفسه بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

^١ سنن الترمذي كتاب الزهد

^٢ عزاه في كنز العمال لمصنف ابن أبي شيبة والزهد للإمام أحمد والحلية لأبي نعيم وأصله في سنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع

ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم يخافون من موقف العرض على رب العالمين والحساب والسؤال ، مع أنهم نشؤوا وسلكوا طريق القرب من الله تعالى بتوجيهات وإرشادات وتعليمات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن شأن كَمَل الرجال أن يزداد خوفهم من الله تعالى كلما ازدادوا علماً به وقرباً منه جل وعلا ..

ومن ذلك ما ورد عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه قال :

[سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ وَخَرَجْتُ مَعَهُ حَتَّى دَخَلَ حَائِطًا] أي : بستاناً وسمي بذلك لأنه محوط [فَسَمِعْتُهُ وَهُوَ يَقُولُ وَبَيْنِي وَبَيْنَهُ جِدَارٌ وَهُوَ فِي جَوْفِ الْحَائِطِ] ولم يشعر بأنس رضي الله عنه إذ كان خلف الجدار [عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بَخٍ بَخٍ، وَاللَّهُ لَتَتَّقِيَنَّ اللَّهَ أَوْ لَيُعَذِّبَنَّكَ]¹ . وذلك لأن لكل إنسان في قلبه وأعظاً من الله يعظه ويذكره .

وروى البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [كَمْ مِنْ كَاسِيَةٍ] أي : نفسٍ ذكراً كانت أو أنثى [فِي الدُّنْيَا عَارِيَّةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]² .

وذلك لأن صاحب هذه النفس اهتم في الدنيا باللباس الجسماني أمام الناس وترك لباس التقوى فجاء يوم القيامة عارياً .

وبعد العرض على الله تعالى يكون الحساب ، ولا أدقّ منه ، حتى يؤتى بالشيء أو الكلمة ولو كانت أدقّ من حبة الخردل يؤتى بها للحساب ، كما قال تعالى : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) .

¹ موطأ الإمام مالك كتاب الجامع

² طرف حديث في صحيح البخاري كتاب اللباس

وفي الحديث القدسي يقول الله عز وجل يوم القيامة والناس في صعيد واحد : [يا عبادي أنا الله لا إله إلا أنا، أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين، يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون، فأحضروا حجتكم ويسّروا جواباً فإنكم مسؤولون محاسبون، يا ملائكتي أقيموا عبادي صفوفاً على أطراف أنامل أقدامهم للحساب] ^١ .
أي : على رؤوس أصابع أقدامهم .

فما أعظم موقف الحساب وما أشده وأخوفه إلا من آمنه الله وأكرمه الله ، وهم أهل التقوى والتوبة والحب .

اللهم اجعلنا منهم وأدخلنا الجنة بغير حساب بجاه أحب الأحاب إلىك سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثامناً: ومما يحمل الإنسان على التمسك بشريعة الله لتزكى نفسه بتزكية رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلم أن مصيره ومصير الخلائق كلها إلى الله تعالى ، ولا بد أن تظهر هناك الأشياء على حقائقها ، فيظهر الطاهر الطيب الذي زكى نفسه بالشرع المحمدي، ويظهر النجس الدنس الذي بقي على درنه ورجسه، وسيجازي الله كلاً على عمله ، ويظهر مصير السعيد ومصير الشقي كما قال تعالى : (إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير) .

ولا بد من مصير الإنسان إلى ربه مهما طال عمره ومهما أقبلت عليه الدنيا بأموالها ومتاعها ، إذ أين صار الآباء والأجداد ؟ قال تعالى :

(يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا) أي : وما فيها من مال وجاه فإن كل ذلك للزوال .

وقال تعالى : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملك الحق ..) الآية .

^١ عزاه السيوطي في الجامع الكبير إلى الديلمي وعزاه القرطبي في التفسير إلى الحافظ إلى القاسم عبد الرحمن بن منده في كتاب التوحيد.

أي : أفحسبتم أن الله قد خلقكم وأهملكم وترككم بلا شريعة تصلح أمر دنياكم وآخرتكم وأنه لا رجعة إلى الله ليثيب من عمل بشرعه وسعد، ويعاقب من شقي وخالف شرعه !

فإن حسابانكم هذا ليس من شأن الملك الحق ، فإن الله ملك حق يخلق بالحق وللحق ، ولا عبث ولا لهو ولا نقص في خلقه جل وعلا .

وإن المصير والرجوع إلى الله تعالى رب العالمين يبدأ بموت الإنسان ودخوله عالم البرزخ، فقل لمن يستبعد الموت وتشغله الدنيا عن تذكره :

أين أبوك وجدك ؟ فإذا ذكر أباه أو صاحبه الذي مات منذ عشر سنين مثلاً فقل له : لقد اقتربت من لقائه عشر سنين، فانظر في أمر نفسك واتق الله واستعد لدخول عالم البرزخ .

وإن شأن الرجال الراسخين في طاعة الله تعالى أن لا يغفلوا عن الآخرة ولقاء الله تعالى مهما عملوا في الدنيا وتاجروا ، طالما أنهم ملتزمون بأحكام الله في أعمالهم، قال تعالى : (رجال لا تلهيهم تجارة) أي مهما عظمت وكبرت ، إذ إن التجارة اليسيرة لا تلهي صاحبها أصلاً .
(ولا بيع عن ذكر الله) .. الآية .

وروى الإمام البخاري أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: [اسْتَيْقِظَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةً فَرِغًا يَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَاذَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنَ الْخَزَائِنِ، وَمَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الْفِتَنِ، مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الْحُجُرَاتِ - يُرِيدُ أَرْوَاجَهُ - لِكَيْ يُصَلِّيْنَ، رَبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الْآخِرَةِ] ^١.

وقوله صلى الله عليه وسلم : [وَمَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الْفِتَنِ]

يخبر صلى الله عليه وسلم عن الفتن التي ستقع آخر الزمن ، وأنها أنزلت من أم الكتاب إلى صحف الملائكة ، وأما وقت وقوعها فله وقته الذي قدره سبحانه له .

^١ صحيح البخاري كتاب الفتن

وقوله صلى الله عليه وسلم : [مَاذَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْخَزَائِنِ]
وهي خزائن العطاء الإلهي التي تفتح وقت السحر، ولذلك أمر صلى الله عليه وسلم بإيقاظ صواحب الحجرات رضي الله عنهن حتى يتعرضن لرحمة الله تعالى وينلن نصيبهن من تلك الخزائن .
ثم نبّه صلى الله عليه وسلم إلى وجوب تحصيل لباس الآخرة وهو التقوى، ومن لا تقوى عنده لا كسوة له في الآخرة ويبقى عرياناً .
روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [يُخْشَرُ النَّاسُ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا^١ ، فَأَوَّلُ مَنْ يُكْسَى إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثُمَّ قَرَأَ { كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ }^٢] .

^١ جمع أغرل أي : غير مختون

^٢ مسند الإمام أحمد ١٨٤٩

واعلم أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم يُحشر كاسياً بثيابه الشريفة التي دفن فيها، ثم هو أول من يُلبسه الله تعالى حلية أهل الجنة^١.

فكسوة الإنسان لما يخرج من قبره هي لباس التقوى، ويخرج من قبره عطشان يريد الماء، وإن الذنوب تحول بينه وبين ورود حوض رسول الله صلى الله عليه وسلم.

^١ قال الشيخ الإمام رضي الله عنه في كتابه (الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها): قال العلماء: وإنما كان الخليل أول من يكسى يوم القيامة لأنه أول من كسا الفقراء وأول من عري في ذات الله تعالى حين ألقى في النار، لا لأنه أفضل من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، بل الحق أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم يحشر كاسياً فهو صلى الله عليه وسلم يخرج من قبره الشريف بثيابه التي دفن فيها صلى الله عليه وسلم فتكون أولية الخليل في الكسوة بالنسبة للخلائق لا بالنسبة له صلى الله عليه وسلم، ويشهد لذلك أنه صلى الله عليه وسلم قد أكرمه الله تعالى وحفظه من أن يجرد من ثيابه حتى إنه لما قام الصحابة لغسله بعد وفاته صلى الله عليه وسلم رأوا أن يغسلوه وعليه ثيابه، وذلك تكربة وحرمة له صلى الله عليه وسلم، كما جاء في سنن أبي داود ومسنند أحمد ومستدرک الحاكم بأسانيد صحيحة عن عباد بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهم قال: سمعت السيدة عائشة رضي الله عنها تقول: (لما أرادوا غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: أنجرد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثيابه كما نجرد موتانا أم نغسله وعليه ثيابه؟ فلما اختلفوا ألقى الله تبارك وتعالى عليهم النوم حتى إنه ما منهم رجل إلا وذقنه في صدره ثم كلمهم مكرم من ناحية البيت - لا يدرون من هو -: اغسلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بثيابه، فقاموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فغسلوه وعليه ثيابه، يصبون الماء فوق القميص ويدلكونه بالقميص دون أيديهم) ثم جيء بثلاثة أثواب بيض كما في حديث مسلم عن السيدة عائشة رضي الله عنها: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كفن في ثلاثة أثواب بيض).

كما أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو أول من يكسى من حلل الجنة فقد روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: {أنا أول من تنشق عنه الأرض فأكسى حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش، ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري} صلى الله عليه وآله وسلم. اه بحروفه ص ١٨٠-١٨١.

وفي صحيح البخاري: [أَلَا وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلَائِقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ، أَلَا وَانَّهُ يُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتُ الشَّمَالِ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أَصْحَابِي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَذَرِي مَا أَحَدُثُوا بِعَدَاكَ].

وقد قال صلى الله عليه وسلم : [أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ] ^١ أي : سابقكم ومنتظركم، فلا تعرقل أيها الإنسان سيرك إلى الحوض بالذنوب بل تب إلى الله تعالى وتطهر منها في الدنيا قبل وفاتك.

واعلم أن المؤمنين لما يشربون من حوض رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما يشرب كلُّ منهم بكأس مخصص له دون تزاخم ^٢، وفي الحديث : [مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَخْلَى مِنَ الْعَسَلِ] ^٣

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب يوماً فقال في خطبته : [ألا إن الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر ، ألا وإن الآخرة أجل صادق يقضي فيها ملك قادر ، ألا وإن الخير كله بحذافيره في الجنة ، ألا وإن الشر كله بحذافيره في النار ، ألا فاعملوا وأنتم من الله على حذر] أي : على خوف وخشية من الله تعالى [واعلموا أنكم معروضون على أعمالكم ، (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)] ^٤.

وفي الحديث : [فَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانِي جَهَنَّمَ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِنَ الرُّسُلِ بِأُمَّتِهِ].

فهو صلى الله عليه وسلم أول من يشرف الصراط بالمشي عليه بأقدامه الشريفة فهو إمام الكل وأمام الكل .

[وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلَّا الرُّسُلُ] أي : وهم على الصراط [وَكَلَامُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ] أي : سلِّم أتباعنا ، لأن الرسل في سلام وأمان [وَفِي جَهَنَّمَ كَلَالِيبٌ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ قَدْرَ عَظَمِهَا إِلَّا اللَّهُ، تَخَطَّفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ] أي : معاصيهم [فَمِنْهُمْ مَنْ يُوبَقُ بِعَمَلِهِ]

^١ صحيح البخاري كتاب الرقاق

^٢ جاء في صحيح مسلم كتاب الصلاة قوله صلى الله عليه وسلم : [أَتَدْرُونَ مَا الْكُوْثَرُ ؟ فَقُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدْنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ ،

هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ آيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ].. الحديث

^٣ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الفضائل

^٤ كما في مسند الشافعي

أي : يهلك في جهنم [وَمِنْهُمْ مَنْ يُخَرِّدَلُ ثُمَّ يُنْجُو] أي : يصرع من أثر الكلوب الذي شده ثم يصحو وهكذا ، وأما عصاة المؤمنين الذين دخلوا جهنم فقال فيهم صلى الله عليه وسلم: [حَتَّى إِذَا أَرَادَ اللَّهُ رَحْمَةً مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَمَرَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ] أي : من كان يوحد الله تعالى [فَيُخْرِجُونَهُمْ] أي بسبب شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما دلت عليه أحاديث أخرى ، ويخرجون على مراحل [وَيَعْرِفُونَهُمْ بِآثَارِ السُّجُودِ، وَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ، فَيُخْرِجُونَ مِنَ النَّارِ مَنْ أَتَى أَثَرَ السُّجُودِ، فَيُخْرِجُونَ مِنَ النَّارِ قَدْ امْتَحَشُوا^١] أي احترقوا [فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاةِ فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، ثُمَّ يَفْرُغُ اللَّهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ وَيَبْقَى رَجُلٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ] وهو أعصى العصاة [وَهُوَ آخِرُ أَهْلِ النَّارِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ قِبَلَ النَّارِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ اصْرِفْ وَجْهِي عَنِ النَّارِ قَدْ قَشَبَنِي رِيحُهَا وَأَحْرَقَنِي ذُكَاؤُهَا، فَيَقُولُ: هَلْ عَسَيْتَ إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ بِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ، فَيُعْطِي اللَّهُ مَا يَشَاءُ مِنْ عَهْدٍ وَمِيثَاقٍ، فَيَصْرِفُ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ، فَإِذَا أَقْبَلَ بِهِ عَلَى الْجَنَّةِ رَأَى بَهْجَتَهَا سَكَتَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ قَدَّمَنِي عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَيْسَ قَدْ أُعْطِيتَ الْعُهُودَ وَالْمِيثَاقَ أَنْ لَا تَسْأَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنْتَ سَأَلْتَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ لَا أَكُونُ أَشَقَى خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: فَمَا عَسَيْتَ إِنْ أُعْطِيتَ ذَلِكَ أَنْ لَا تَسْأَلَ غَيْرَهُ؟ فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ لَا أَسْأَلُ غَيْرَ ذَلِكَ، فَيُعْطِي رَبُّهُ مَا شَاءَ مِنْ عَهْدٍ وَمِيثَاقٍ، فَيَقْدُمُهُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا بَلَغَ بَابَهَا فَرَأَى زَهْرَتَهَا وَمَا فِيهَا مِنَ النُّضْرَةِ وَالسُّرُورِ فَيَسْكُتُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ ادْخُلْنِي الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ اللَّهُ: وَيَحَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَعْدَرَكَ أَلَيْسَ قَدْ أُعْطِيتَ الْعُهُودَ وَالْمِيثَاقَ أَنْ لَا تَسْأَلَ غَيْرَ الَّذِي أُعْطِيتَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ لَا تَجْعَلْنِي أَشَقَى خَلْقِكَ، فَيَضْحَكُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهُ، ثُمَّ يَأْذَنُ لَهُ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ،

١ قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٤١٩/١٨ : " اِمْتَحَشُوا " بِفَتْحِ الْمُثَنَاءِ وَالْمُهْمَلَةِ وَضَمِّ الْمُعْجَمَةِ أَيْ احْتَرَقُوا ، وَالْمَحْشُ احْتِرَاقُ الْجِلْدِ وَظُهُورُ الْعَظْمِ ، قَالَ عِيَاض : ضَبَطْنَاهُ عَنْ مُثَنِّي شُيُوخِنَا وَهُوَ وَجْهُ الْكَلَامِ ، وَعِنْدَ بَعْضِهِمْ بِضَمِّ الْمُثَنَاءِ وَكَسْرِ الْحَاءِ. اهـ

فَيَقُولُ: تَمَنَّ، فَيَتَمَنَّى حَتَّى إِذَا انْقَطَعَ أُمْنِيَّتُهُ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: مِنْ كَذَا
وَكَذَا أَقْبَلَ يُذَكِّرُهُ رَبُّهُ حَتَّى إِذَا انْتَهَتْ بِهِ الْأَمَانِيُّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: لَكَ ذَلِكَ
وَمِثْلُهُ مَعَهُ^١.

وفي رواية : [ذَلِكَ لَكَ وَعَشْرَةُ أَمْثَالِهِ]^٢.

^١ انظر صحيح البخاري كتاب الأذان

^٢ انظر صحيح البخاري كتاب الأذان

الإنسان الكامل الرباني هو الإنسان الذي يتمسك بشريعة الله تعالى

من مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع العالم أَنَّ أُرسله الله تعالى مزكياً لهم كما قال سبحانه : (كما أُرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون * فاذكروني أذكركم واشكروا لي) أي : اشكروا لي نعمتي عليكم بأن أُرسلت فيكم محمداً صلى الله عليه وسلم .

(ولا تكفرون) أي : ولا تكفروا بنعمتي عليكم فلا تكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، بل تفكروا فيما جاءكم به واعملوا بهديه وإرشاده فقد جاء يزكي الإنسان في العقيدة والعمل والقول والخُلُق ، فيطهر الإنسان من الدنس والخبائث ، ويجمله بالفضائل والكمالات القولية والعملية والخلقية والأدبية ، وهكذا يسمو ويرتقي الإنسان في مراتب الكمال الإنساني فيصير إنساناً علوياً ربانياً.

ومن أعرض عن شرع الله ولم يتزكّ بتزكية رسول الله صلى الله عليه وسلم وبقي على دنسه وخبثه صار إنساناً في الصورة لكنه في حقيقته أضلّ من البهائم لأنه أخلد إلى الأرض ولم ينهض بنفسه عملاً بشريعة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد ضرب سبحانه في هذا مثلاً لكل عاقل فقال :

(واتلُ عليهم) أي : واتل عليهم يا محمد .

(نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين) .

وقد نزلت هذه الآيات في رجل من بني إسرائيل زمن موسى عليه السلام وهو بلعم بن باعوراء^١ الذي آمن بسيدنا موسى وعمل بآيات التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام ، لكن الإيمان لم يتمكن ويرسخ في قلبه فراح الكفرة من قومه يزيّنون له ويغرونه بالمال وغيره حتى انسلخ عن آيات الله وأحكامه بعد أن كان لايسها ، ومال إلى شهواته وتعاطي

^١ انظر تفسير ابن كثير ٤٥٧/٣

المحرّمات فأتبعه الشيطان وسيطر عليه بعد أن كان يزّين له ويوسوس
عن بعد قال تعالى : (ولو شئنا لرفعناه بها)

أي لرفعناه إلى الكمالات الإنسانية والمراتب العالية ، ولكنه ما أراد ذلك
بل اتبع شهوات هوى نفسه وتزيين الشيطان له ، وهذا قوله تعالى :
(ولكنه أخلد إلى الأرض) فأفسدته وفسد .

(واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث)
فلم تعد تنفعه الموعظة وسواء عليه أوعظ أم لم يوعظ ، وسواء عليه
أنذّر أم لم ينذر .. وهكذا

(ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص) يا رسول الله
(لعلهم يتفكرون) أي : من أجل أن يتفكر الإنسان من أمتك في هذا الذي
حصل لبلعم بن باعوراء ، وكيف ساءت عاقبته لأنه لم يأخذ بما يثبت
عليه إيمانه بالعمل الصالح والكلم الطيب ، لأن الإيمان في قلب المؤمن
كالشجرة ، إن أنت لم تسقها وتتعهد بها بالرعاية يبست وماتت .
وفي هذا تنبيه للمؤمن أن يكثر من الأعمال الصالحة مخلصاً مع الله تعالى
ليثبت الله إيمانه في قلبه .

ونسأل الله تعالى الثبات والزيادة في الإيمان وحسن الختام . آمين .

فمن لم يعمل بشرع الله تعالى فقد تسقّل بنفسه إلى مستوى البهيمية
الحيوانية والشهوانية الخبيثة، وفي هذا يقول سبحانه :

(والتين والزيتون * وطور سينين * وهذا البلد الأمين * لقد خلقنا الإنسان
في أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين * إلا الذين آمنوا وعملوا
الصالحات فلهم أجر غير ممنون * فما يكذبك بعد بالدين * أليس الله
بأحكم الحاكمين) .

فقد أقسم الله تعالى في هذه السورة بمواضع نزول النبوة والوحي أولاً على
سيدنا عيسى بن مريم بقوله تعالى : (والتين والزيتون)

إشارة إلى مهبط شريعة عيسى بن مريم وهي أرض فلسطين ..

ثم ذكر طور سيناء وهو مهبط نزول الشريعة على سيدنا موسى عليه السلام، ثم ذكر مكة المكرمة مهبط الوحي على سيدنا محمد^١ صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم)

وهو جواب للقسم ، والتقويم ضد الاعوجاج والانحراف ، فيقال :

شيء مستقيم وقويم ومتقوّم يعني : غير معوج .

فلقد خلق الله تعالى الإنسان في أكمل اعتدال في الصورة والعقل والخلق والتركيب .

قوله تعالى : (ثم رددناه أسفل سافلين * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) أي رددنا الإنسان الكافر أسفل سافلين ، بدليل قوله تعالى :

(إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فقد رفعهم الله أعلى عليين .

وقوله تعالى : (ثم) تفيد معنى التراخي وليست كالفاء في التعقيب فقد أشار سبحانه بقوله : (ثم) إلى أمر وهو أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وأنزل الشرائع الإلهية على هذا الإنسان - وهي المشار إليها في أول السورة في بداية القسم ، وهي شريعة عيسى وموسى وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم- .

وقد نزلت الشرائع على هذا الإنسان الكامل في الصورة والعقل والخلق حتى تحفظ عليه جماله وكماله وتصلحه وتسعده ، فمن تمسك بها علا وارتفع ، ومن تركها تسفل وهوى ، وكانت النتيجة بعد نزول الشرائع أن أكثر بني الإنسان كفروا فارتدّوا أسفل سافلين .

وقوله جل وعلا : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون).

ذَكَرَهُمْ عَلَى طَرِيقِ الْإِسْتِثْنَاءِ لِأَنَّهُمْ أَقَلُّ عِدَدًا مِنَ الْكَفَّارِ، وَهَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنُونَ رَفَعَهُمُ اللَّهُ أَعْلَىٰ عَلَيِّينَ .

^١ وفي هذه الأقسام ذكر سبحانه المحلّ وأراد الحالّ فيه ، وهو من باب المجاز .

فلقد جاء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم برسالة من عند الله
تعالى تنهض بالإنسان من الإنسان البهيمي الحيواني إلى الإنسان الإيماني
العلوي الرباني .

شرف الإنسان وكرامته على الله تعالى

لقد جاءت الشرائع الإلهية تحفظ على بني آدم كرامته وشرفه ، لأن الإنسان كريم على الله تعالى وله شرفه واعتباره ، فلقد كرم الله خلقه وأحسن تقويمه في صورته وجسمه وعقله وحواسه ، ولم يدعه سدى مهماً بل أنزل عليه الشرائع لتكمله وتجمّله، قال تعالى : (ولقد كرمنا بني آدم) فليُنظر الإنسان في وجوه هذا التكريم الإلهي له، ومن هذه الوجوه :

أولاً : خلق الله تعالى جسم الإنسان وسوّاه بيديه المنزّهتين قال تعالى : (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ) وفي هذا يردّ سبحانه على إبليس الذي اعترض وأبى أن يسجد لآدم كما أخبر سبحانه عن إبليس قوله : (رأيته هذا الذي كرمته عليّ) .

ولقد أمر الله تعالى ملائكته الكرام - الذين قال فيهم : (بل عبادٌ مكرمون)- أمرهم أن يسجدوا لآدم ، وكانت ذريته في صلبه ، فكلّهم نالوا هذا الشرف الأكبر والمقام الأفخم .

وقال سبحانه في تخليقه آدم عليه السلام : (فإذا سوّيته) أي : جسماً .

(ونفخت فيه من روحي) أي : من روح ابتدأت خلقها

(فقعوا له ساجدين) والروح هي من عالم الملكوت العلوي اللطيف ، ولا يتوقف خلقها على مدة ومادة ، وإنما تكون بأمر الله : (كن) ، وأما الجسم فهو من عالم الملك المادي المشهود ، ويتوقف تخليقه على مدة ومادة، قال تعالى : (تبارك الذي بيده الملك) ، وقال سبحانه : (فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء) .

فقد اجتمع في الإنسان جسم وروح أي ملك وملكوت ، ففيه الاستعداد والقابلية لأن يرتقي بجسمه ويصير تابعاً لروحه العلوية إن هو تزكّى وتطهّر وتلطف بأعمال الشريعة، وفيه الاستعداد لأن يتسفل ويهوي إن جعل روحه تابعة لجسمه بأن أخلد إلى الأرض وأهمّل أوامر الشريعة،

فلا يحفظ الكرامة الآدمية على الإنسان إلا العمل بالشرعية المحمدية،
والأ صار إنساناً في الصورة ، حيواناً بهيمياً في الحقيقة لأنه انسلخ عن شرع
الله ويحشر يوم القيامة على صورة البهائم^١ .

وقد بين سبحانه أنه لا يُصلح أمر الإنسان ويسعد حاله إلا عمله بشريعة
الله تعالى، وفي هذا يقول سبحانه : (إنا عرضنا الأمانة على السموات
والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان
ظلوماً جهولاً * ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات
ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً) .

والأمانة في الآية هي أمانة الله الكبرى التي ائتمن عباده عليها ، وهي
التكاليف الشرعية بما فيها من عقائد إيمانية قلبية وأعمال جارية وأقوال
وأخلاق وأحوال إحسانية وآداب .

وهكذا عرض الله هذه الأمانة على السموات : هل تحملينها بما فيها من
أوامر ومناهٍ؟ والنتيجة ثواب أو عقاب ، فأبت وأشفقت ، وكذلك الأرض
والجبال، فنظر الإنسان - وكان هذا في عالم أخذ الميثاق - نظر الإنسان في
أمر أبّت السموات والأرض والجبال حمله وأشفقت منه ، على اعتبار أنها
غير محتاجة لهذا الأمر إذ لو أنه سبحانه أراد تكليفها لكيفها كيفية أخرى،

فنظر الإنسان في نفسه دون أن تُعرض عليه هذه الأمانة فرأى أنه إن لم
تُعرض عليه هذه الأمانة -الشرعية - ولم يعمل بها لبقى ظالماً جاهلاً ،
فتقدّم وحملها ليذهب عنه الظلم والجهل، وهذا معنى قوله تعالى : (إنه
كان ظلوماً جهولاً)

^١ روى البخاري في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ قَالَ: [يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] وَآزَرُ هُوَ عَمَّ سَيِّدُنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ لِأَنَّهُ كَلِمَةُ " أَب " تَطْلُقُ عَلَى الْوَالِدِ وَالْعَمِّ وَالْجَدِّ [وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتْرَةً وَغَبْرَةً،
فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي، فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ، فَيَقُولُ
إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أُخْزِي مِنْ أَبِي
الْأَبْعَدِ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي حَرَّمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ مَا
تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ - أَي: ضَبْعٍ - مُلْتَطِخٍ فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي
النَّارِ".

أي : لأنه كان ظلوماً جهولاً ، فرأى في نفسه صفة الظلم والجهل ، ولا يمكنه أن يتطهر منها إلا إذا التزم أمانة الله فتقدّم وحملها ليزيل عنه الصفات الذميمة ، ويتحلى بالفضائل والكمالات وهذا كما تقول :
"عرضت الماء على فلان وفلان وفلان فلم يشربوا ، وتقدم زيد فشرب إنه كان عطشان " أي ليزيل عنه عطشه وهكذا.

ومن تفكّر في صفة الظلم والجهل علم أنها سبب كل بليّة ورزية ونقص ، أما الظلم فهو أن تفوّت المنفعة على نفسك أو على غيرك ، والجهل هو عدم المعرفة .

وطالما أن الإنسان مخلوق جسمه من الأرض ففيه دواعي الكسل والخمول والميل إلى الأرض ، فيضيع بذلك خيراً كثيراً على نفسه ، ويكون بذلك قد ظلم نفسه وغيره .

ألا ترى إلى ذلك الذي أهمل وتكاسل عن سقاية زرعه وأشجاره مع وجود الماء حتى هلك الزرع ويبس الشجر ، فجعل الناس يقولون عنه : إنه ظالم مع أنه لم يتعدّ على أحد ، نعم إنه ظلم نفسه وأضرّ بمن حوله .

والأظلم من هذا من وعده الله بالنعيم المقيم والجنان العالية وتكاسل عن الفوز بها ، فلم يعمل ولم يصلّ ، وبخل وتقاعس عن فعل الخيرات التي يعود نفعها إليه ، وهذا معنى قوله تعالى : (وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) فالكافر ظالم لنفسه ، والفاسق ظالم لنفسه ، والفاجر المذنب ظالم لنفسه ، ويختلف ظلم كل واحد على حسبه ، وأما من لم يظلم نفسه فهو المؤمن الذي يعمل الصالحات ، فهو الذي قد سعى في خير نفسه حالاً ومآلاً ، فلما تمسّك بالشرعية أزال الظلم أولاً عن نفسه ، وقد أمرته الشريعة أن لا يظلم غيره أيضاً في دمه أو ماله أو عرضه ، ثم عرّفته الشريعة وعلمته - بعد أن كان جاهلاً - فعرف الله تعالى بأسمائه وكمالاته وعرفه جل وعلا الحكمة من خلقه وخلق الأكوان حوله ، وهكذا جاء الشرع بالعلم والعدل والحق .

ولقد كان عرض الأمانة على الإنسان في عالم الذرّ يوم أخذ الله العهد والميثاق على بني آدم، وتقدّم الإنسان لحمل الأمانة كمن سمع أن في المعهد الفلاني دراسات عالية قيّمة ، فنظر في نفسه فرأى الأهلية والاستعداد لتلك الدراسة فراح بنفسه وانتسب إلى ذلك المعهد ، فيُقال عنه : لقد كان تصرفه صحيحاً حقاً ، وكان مصيباً فيما فعل .

وفي الآية : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان) .

فيها بيان لشرف الإنسان وفضل مرتبته حيث إنه حمل حملاً والتزم ما عجزت عنه السموات والأرض والجبال ، فما أكرمه عند الله تعالى !!! إنه صغير في حجمه بالنسبة للسموات والأرض والجبال ولكنه كبير في معناه .

وعلى الإنسان أن يفي بما حمّله وذلك بأن يتحقق بالشرعية التي التزم حملها وأما من اكتفى بألفاظها فقد علم ولم يعمل .

وقد ذمّ سبحانه أقواماً ادّعوا أنهم التزموا شرع الله ولكنهم لم يعملوا به ، واكتفوا بالألفاظ دون التحقق بها، قال سبحانه : (مثل الذين حمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً) أي : كُلفوا بالتحقق بما في التوراة من عقيدة ليحملوها في قلوبهم، وعملاً بجوارحهم، وقولاً بألسنتهم، وخُلُقاً بأحوالهم وهكذا .. لكنهم لم يحملوها ، واكتفوا بالألفاظ ، فهم كالحمار الذي حمل على ظهره كتباً ، فهل يستفيد منها شيئاً ؟!!

أي : فانظروا يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى ما فعلت الأمم السابقة بكتبهم، ولا تكونوا مثلهم ولا تتشبهوا بهم ، فلا تكتفوا بألفاظ القرآن والسنة دون التحقيق والتطبيق .

واعلم أن السموات والأرض والجبال وسائر الأكوان إنما هي مخلوقات خلقها الله تعالى وهي تعرف الله خالقها وتوحده وتسبح بحمده لكنها أبّت وأشفقت من حمل التكليف الشرعية لأنها غير محتاجة إليها في نشأتها الحالية، ولو أراد الله تكليفها لأعدّها لذلك على كيفية أخرى .

وقد يلتبس على الجاهل هذا الأمر ، وكيف خاطب الله السموات والأرض وهل لها عقل ومَدارك ؟

فيجب أن يعلم الإنسان العاقل أن كل مخلوق خلقه الله تعالى وأوجدَه قد تجلّى عليه باسمه : "الحي القيوم" ، فكل شيء موجود فهو حيّ وقائم بأمر الله وقيوميّة الله تعالى له .

والحياة على أنواع ، وحياة كل شيء على حسبه ، وهي حياة لائقة بنشأته فالجماد موجود له حياة ، وكلمة "حياة" تعني أن هناك إدراكاً، فكل موجود حيّ يعرف خالقه ويعي عنه، وهناك حياة الثّبات بالوجود والحركة والنّمّو ، وأما الإنسان ففيه حياة الوجود وحياة النّمّو وحياة الحواسّ ، وبهذه الحياة تعرف الأشياء ربّها لأن اسم (الحي القيوم) ظاهر أثره فيها .

وقد قال تعالى : (تسبّح له السموات السبع والأرض ومن فيهنّ وإن من شيء) أي : وما من شيء (إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) أي : لا تسمعون تسبيحهم ، وقد تسمعون أشياء لا تفهمون معانيها ، فالجماد يسبّح ، ولكن الإنسان لا يسمع تسبيحه ، والطير يسبّح ويسمع الإنسان منه صوتاً ولا يفهمه .

روى الإمام البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم صعد أُحُدًا وأبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم فرجف بهم - أي : اهتزّ طرباً وفرحاً - فقال صلى الله عليه وسلم : [اثبت أُحُد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان]^١ .

وقال صلى الله عليه وسلم في أُحُد : [أُحُدُّ هذا جبل يحبنا ونحبه ، على باب من أبواب الجنة]^٢ .

فأثبت له محبة ومحبوبة ، يعني أن له حياة ومعرفة وإدراكاً وتأثراً وهكذا..

^١ صحيح البخاري كتاب المناقب

^٢ المعجم الصغير للطبراني وأصله في صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير

وفي الحديث قال سيدنا علي رضي الله عنه :

[خرجتُ مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فجعل لا يمر على حجر ولا شجر إلا سلّم عليه]¹.

وقد بين سبحانه أن السموات والأرض والجبال تحب من آمن بالله وأحبّه ، وتكره وتغتاظ ممن كفر بالله جل وعلا ، قال تعالى :

(وقالوا اتخذ الرحمن ولداً * لقد جئتم شيئاً إدّاً) أي : فظيعاً منكراً (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخرّ الجبال هدّاً * أن دعوا للرحمن ولداً) أي : لأنهم نسبوا للرحمن ولداً (وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً) .

وليس لجاهل أن يزعم أن هذا من ضرب المثل والخيال، فإن الله تعالى يذكر في القرآن الحق والحقيقة كما قال تعالى : (وبالحق أنزلناه وبحق نزل) .

وروى الطبراني في الأوسط عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [ما من صباح ولا رواح] أي : مساءً [إلا وبقاع الأرض تنادي بعضها بعضاً : يا جارة هل مر بك اليوم عبد صالح صلى عليك أو ذكّر الله ؟] أي : حتى تشهد له يوم القيامة عند الله تعالى [فإن قالت : نعم ، رأت لها بذلك عليها فضلاً] .

ألم تسمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في المؤذن :

[المؤذّن يُغفّر له مَدَى صَوْتِهِ، وَيَشْهَدُ لَهُ كُلُّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ]² .

وافهم هنا وصية سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه : [يا معاذ اذكر الله عند كل شجر وحجر]³.. الحديث

¹ انظر المعجم الأوسط للطبراني

² سنن أبي داود كتاب الصلاة

³ انظر الزهد الكبير للبيهقي

وروى الإمام أحمد أَنَّ النبي صلى الله عليه وسلم مَرَّ عَلَى قَوْمٍ - وَكَانُوا حَدِيثِي عَهْدَ بِالْإِسْلَامِ - وَهُمْ وَقُوفٌ عَلَى دَوَابٍّ لَهُمْ وَرَوَاحِلَ فَقَالَ لَهُمْ: [اِزْكُبُوهَا سَالِمَةً وَدَعُوهَا سَالِمَةً، وَلَا تَتَّخِذُوهَا كِرَاسِيَّ لِأَحَادِيثِكُمْ فِي الطَّرِيقِ وَالْأَسْوَاقِ، فَرُبَّ مَرْكُوبَةٍ خَيْرٌ مِنْ رَاكِبِيهَا وَأَكْثَرُ ذِكْرًا لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْهُ]¹.

وفي الحديث أن نوحاً عليه السلام أوصى ابنه فقال لهما :

[آمُرُكُمَا بِاثْنَتَيْنِ وَأَنْهَاكُمَا عَنْ اثْنَتَيْنِ، أَنْهَاكُمَا عَنْ الشِّرْكِ وَالْكِبْرِ، وَآمُرُكُمَا بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ] أي : بالإكثار منها [فَإِنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا فِيهِمَا لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي الْكِفَّةِ الْأُخْرَى كَانَتْ أَرْجَحَ، وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا حَلَقَةً فَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهَا لَفَضَمَتْهَا أَوْ لَقَصَمَتْهَا، وَآمُرُكُمَا بِسُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ فَإِنَّهَا صَلَاةٌ كُلُّ شَيْءٍ وَبِهَا يُرْزَقُ كُلُّ شَيْءٍ]².

وقد قال جلّ وعلا : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٌ كُلُّ قَدْ عِلْمَ صَلَاتِهِ وَتَسْبِيحِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ) .
وعاّر على الإنسان أن يغفل عن ذكر الله تعالى في حين أن الأشياء كلها من حوله تسبّح الله وتحمده !

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الضفادع وقال :

[إِنْ نَقِيْقَهَا تَسْبِيْح]³ .

وقوله تعالى : (وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيْحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) أي : إنه كان حلِيمًا بكم غفوراً فلا يعاجلكم العقوبة على غفلتكم عن ذكره سبحانه في حين لا تفترّ الأشياء عن تسبيحه .

¹ المسند ١٥٠٧٦

² مسند الإمام أحمد ٦٨٠٤

³ المعجم الأوسط للطبراني

وقل لمن قسا قلبه وشكا عدم الخشية والحضور مع الله في صلاته :
أكثر من ذكر الله تعالى دائماً في ذهابك وإيابك وعملك وتجاراتك ،
ولا تغفل عن الله جل وعلا ، حتى إذا جاء وقت الصلاة دخلت فيها وأنت
على مراقبة وذكر لله تعالى ، مما يحمك على الخشوع والحضور فيها .

مشروعية التوسل والاستغاثة بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

إن مما يدل على مشروعية التوسل والاستغاثة بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لما نزل قوله تعالى : (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) قال صلى الله عليه وسلم :

[مَا مِنْ مُؤْمِنٍ] وفي مسند أبي يعلى الموصلي : [ولا مؤمنة]
[إِلَّا وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، اقرؤوا إن شئتم { النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم }]^١.

قوله صلى الله عليه وسلم : [ما من مؤمن] تفيد العموم فيشمل ذلك كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم الدين .

وقوله صلى الله عليه وسلم : [إِلَّا وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ]
أما في الآخرة فيتجلى ذلك بشفاعته الكبرى العظمى في أهل الموقف كلهم ثم بالشفاعات الأخرى ، وإذا كان أهل الموقف كلهم عندما لجؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم واستغاثوا به - كما في رواية البخاري^٢ -
أقرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأغاثهم وقال صلى الله عليه وسلم : [أنا لها ، أنا لها] كان ذلك مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم :
[مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ]..

فإذا صحَّ وجاز وثبت استغاثة الخلق كلهم برسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة فإن ذلك أيضاً جائز ومشروع ومندوب في الدنيا أيضاً لأنه صلى الله عليه وسلم هو القائل :

[مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ] .

^١ رواه الإمام أحمد في مسنده ٨٠٦٦ ورواه البخاري في صحيحه في كتاب تفسير القرآن والرواية له عن أبي هريرة رضي الله عنه.

^٢ جاء في صحيح البخاري كتاب الزكاة : [إِنَّ الشَّمْسَ تَذُنُو يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَبْلُغَ الْعَرَقُ نِصْفَ الْأُذُنِ فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ اسْتَغَاثُوا بِآدَمَ ثُمَّ بِمُوسَى ثُمَّ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] .

فكيف لا يجوز التوسل والاستغاثة بمن هو أولى بك من نفسك أيها
المؤمن أي : أرحم بك من نفسك وأشفق بك من نفسك وأعطف بك من
نفسك؟!!

وبمقابل ذلك يجب أن يكون هو صلى الله عليه وسلم في نفس المؤمن
أولى به من نفسه أي أحب إليه من خلق الله كلهم حتى أحب إليه من
نفسه، فافهم..

واعلم أن التبرك هو عين التوسل ومعناه جلب البركة من الله تعالى بفضله
هذا الأثر الذي يُتبرك به عند الله تعالى.

وجوه من الحكم في تلاوته صلى الله عليه وسلم آيات الله تعالى

ومن مواقفه صلى الله عليه وسلم مع العالم أنه جاء يتلو عليهم آيات الله تعالى ، أي : يتلو عليهم كلام الله تعالى بنصّه وكلماته وحروفه كما أوحاه الله إليه ، ولهذه التلاوة وجوه من الحكم منها :

أولاً: إن في تلاوته صلى الله عليه وسلم للقرآن الكريم شهادة على أنه حقاً رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ إنه صلى الله عليه وسلم نشأ أمياً لم يقرأ ولم يكتب ، فمن أين جاء بهذا القرآن المعجز ؟

ثانياً: إن في تلاوته صلى الله عليه وسلم للقرآن الكريم تعليماً للناس كيف يتلونه ، لأن تلاوة القرآن عبادة ، ولا بد لكل عبادة من بيان وتعليم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك كما قال صلى الله عليه وسلم للصحابة الكرام رضي الله عنهم في الصلاة : [صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي]^١ ، وفي الحج : [خذوا عني مناسككم]^٢ ، وفي تلاوته للقرآن كأنه صلى الله عليه وسلم يقول : " اقرؤوا القرآن كما سمعتموني أقرأ " .

ثالثاً: إن في تلاوته صلى الله عليه وسلم لآيات الله تعالى إيصالاً للروح القرآني إلى القلوب والأرواح الإنسانية ، فأی قلب تقبلها فقد حي صاحبها حياة الأبد ، وأي قلب أنكرها فقد مات ميتة الأبد ، وإن كان حيّ الجسم بالحياة الجسمانية المؤقتة ، وانظر تفاصيل ذلك في موضعه .

رابعاً: إن في تلاوته صلى الله عليه وسلم للقرآن إيصالاً للنور القرآني إلى القلوب لتستنير به ، والنور ما به الظهور ، والقرآن نور كما قال تعالى : (واتبعوا النور الذي أنزل معه) أي : أنزل عليه وهو معه لا ينفك عنه ولا يؤخذ إلا منه صلى الله عليه وسلم .

فمن أراد النور فليلتزمه من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا قال تعالى : (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) .

^١ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الأذان و سنن الدارمي كتاب الصلاة
^٢ طرف حديث في السنن الكبرى للبيهقي بهذا اللفظ وأصله في صحيح مسلم كتاب الحج بلفظ: [لتأخذوا مناسككم].

وأما موقفه صلى الله عليه وسلم فقد بين ذلك سبحانه في حكمة إرساله صلى الله عليه وسلم إلى العالم فقال جل وعلا : (كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون * فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون) .

أي : واشكروا لي نعمتي وفضلي عليكم أن أرسلت فيكم رسولاً يتلو عليكم آياتي ويزكيكم ، ويعلمكم معاني القرآن والحكمة أي : السنة النبوية ، ولا تكفرون .

ومن تزكى بتزكية سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - بأن تحقق بما جاء به صلى الله عليه وسلم من شريعة تتضمن عقائد إيمانية وأعمال إسلامية وأقوال طيبة وأخلاق حسنة ومعاملات صحيحة وأحوال إحسانية - من تحقق بذلك فقد زكى نفسه أي زكت نفسه وطهرت وطابت وصارت أهلاً لأن يزكيه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الآخرة بأن يشهد له بالعدالة والصدق والصلاح ، وذلك حتى تُقبل شهادته على الأمم السابقة بأن رسلهم عليهم السلام قد بلغتهم الدعوة إلى الله تعالى ، وهذا معنى قوله تعالى : (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً)^١ .

والمعنى : وكذلك جعلناكم أمة خياراً عدولاً أزكياً لتكونوا شهداء على الناس قبلكم ، ويكون الرسول عليكم شهيداً بالعدالة والصلاح حتى تقبل شهادتكم على الأمم قبلكم .

وقد سأل ذلك الفضل والمنة الإلهية سألها أهل العقل والإيمان ومنهم النجاشي ملك الحبشة وأتباعه لما آمنوا بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفوا الحق وأذعنوا له ، قال تعالى مخبراً عن ذلك :

(وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين)^٢ .

^١ انظر بيان ذلك في كتاب الشيخ الإمام (محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع العالم) الجزء الأول.

^٢ انظر تفسير البغوي للآية الكريمة

أي : مع الشاهدين من أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذين يزكيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويشهد لهم بالعدالة والإيمان حتى تقبل شهادتهم على من قبلهم ..

وكفى شرفاً وتكريماً لمن يشهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الله أنه زكي النفس كامل الإيمان ، اللهم اجعلنا منهم . آمين

فائدة : قال سبحانه في بيان حقيقة عيسى عليه السلام : (إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) أي : روح مُبْتَدَأُ خَلْقُهَا من الله جل وعلا ، أي ابتداء الله خلقها ..

ف (من) في الآية للابتداء ، وليست للتبعيض أو التجزؤ ، وهذا كما جاء في قوله تعالى : (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه)

أي : إن ابتداء خلق ما في السموات وما في الأرض هو منه جل وعلا ، أي هو سبحانه بدأ خلقها ، وليست السموات والأرض جزءاً من الله تبارك وتعالى.

وهذا قوله تعالى : (تنزيل الكتاب من الله) وليس الكتاب جزءاً من الله ، بل هو سبحانه ابتداء نزوله ابتداءً لا اقتطاعاً أو تبعضاً أو تجزؤاً ، فافهم . وكذلك فليس عيسى عليه السلام جزءاً من الله تعالى ، وقد أنكر سبحانه على من زعم ذلك فقال عز من قائل :

(وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين) ... إلى أن قال سبحانه : (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبيئ إسرائيل * ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون) .

فائدة : قال تعالى : (فسجد الملائكة كلهم أجمعون)

وهذا لما أخبر سبحانه عن سجود الملائكة عليهم السلام لآدم عليه الصلاة والسلام، وهو سجود تكريم وتعظيم ، لا سجود عبادة .

وقوله تعالى : (كلهم) أي : سجد جميع الملائكة، وجاء بكلمة (أجمعون) حتى يبين سبحانه أنهم سجدوا دفعة واحدة ، لا طائفة بعد طائفة ، بل خرّوا كلهم في آن واحد ساجدين لآدم عليه السلام امتثالاً لأمر الله تعالى، وتعظيماً لآدم عليه السلام .

بشارة سيدنا عيسى عليه السلام بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

قال تعالى في الإخبار عن ذلك : (وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصداقاً لما بين يديّ من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) .

ومما جاء في خطبة عيسى عليه السلام : [إن كنتم تحبونني فاعملوا بوصيتي : إنني سأطلب من ربي أن يبعث إليكم من بعدي فارقليط آخر] أي : رسولاً كثير الحمد لله تعالى ، وهذا هو معنى اسم النبي الكريم [أحمد] باللغة العبرانية^١ [وسيكون معكم إلى الأبد] أي : إلى يوم القيامة [وهو روح الحق ويخبركم عن كل شيء ويعلمكم كل شيء]^٢ .

فقد بشر عيسى عليه السلام بظهور سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه أحمد الحامدين لرب العالمين ، فهو صلى الله عليه وسلم أحمد من حمد الله تعالى من الأنبياء والرسل عليهم السلام ، لأن الله تعالى علّمه من أسمائه ما لم يعلم غيره وكان صلى الله عليه وسلم يحمد الله بما علّمه سبحانه وإياه .

^١ قال الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني رحمه الله ورضي عنه في كتابه (حجة الله على العالمين في معجزات سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم) : ولفظ " فارقليط " هو يوناني ترجمة عن اللفظ العبراني الذي قاله عيسى عليه السلام . اهـ ص ٧٧

^٢ قال الإمام الماوردي في تفسيره : {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ} يعني محمداً صلى الله عليه وسلم {الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ} لأن في التوراة في السفر الخامس : إني سأقيم لهم نبياً من إخوتهم مثلك ، وأجعل كلامي في فيه فيقول لهم كل ما أوصيته به .

وفي الإنجيل بشارة بالفارقليط في مواضع : يعطيكم فارقليط آخر يكون معكم الدهر كله . وفيها قول المسيح للحواريين : أنا أذهب وسيأتيكم الفارقليط روح الحق الذي لا يتكلم من قبل نفسه ، إنه نذيركم يجمع بين الحق ويخبركم بالأمر المزمعة ويمدحني ويشهد لي .

وجاء في تفسير الرازي لقوله تعالى (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق) : وَثَانِيهَا : ذَكَرَ فِي الْأَصْحَاحِ السَّادِسِ عَشَرَ هَكَذَا : «فَإِنَّ لِي كَلَامًا كَثِيرًا أُرِيدُ أَنْ أَقُولَهُ لَكُمْ ، وَلَكِنْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى قَبُولِهِ وَالْإِخْتِفَاطِ بِهِ ، وَلَكِنْ إِذَا جَاءَ رُوحُ الْحَقِّ إِلَيْكُمْ يُلْهِمُكُمْ وَيُؤَيِّدُكُمْ بِجَمِيعِ الْحَقِّ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ يَتَكَلَّمُ بِدَعَا مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ » .

وقوله عليه السلام : [وهو روح الحق] أي : يأتيكم هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ومعه روح من الله جل وعلا ينفخها في القلوب فتحيا بإذن الله تعالى ، وهذا ما بيّنه سبحانه بقوله : (استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بحياة الروح والقلب حياة الأبد ، لأن الروح الإنسانيّ يحيا بها الجسم الإنساني ، وأما حياة الروح الإنساني فهي الروح القرآني المحمدي .

وقوله عليه السلام : [ويعلمكم كل شيء] هو معنى قوله تعالى : (ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) .

[ويخبركم عن كل شيء] أي : يخبركم عن كل ما سيقع إلى يوم القيامة .

وقد جاء في ذلك أحاديث كثيرة منها ما جاء عن عمرو بن أخطب رضي الله عنه قال : [صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْفَجْرَ وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى خَضَرَتْ الظُّهُرُ ، فَنَزَلَ فَصَلَّى ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى خَضَرَتْ الْعَصْرُ ، ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ ، فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ فَأَعْلَمْنَا أَحْفَظْنَا]^١

ولولا إمداد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم للصحابة الكرام رضي الله عنهم بالقوة والثبات لتعبوا وانصرفوا ولكنه صلى الله عليه وسلم هو الذي يخطب فيهم ، والمدد الإلهي فيأض على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنه على أصحابه رضي الله عنهم .

^١ صحيح مسلم كتاب الفتن وأشراف الساعة

وروى الإمام البخاري في صحيحه عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ:
 [لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قُلْتُ:
 أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي التَّوْرَةِ
 قَالَ: أَجَلُ وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ
 { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا }
 وَحِزْرًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ، لَيْسَ بِفَطٍّ وَلَا
 غَلِيظٍ وَلَا سَخَابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ وَلَكِنْ يَغْفُو
 وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعُوجَاءَ بَأَنْ يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا
 اللَّهُ وَيَفْتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا وَآذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا^١ .

قوله: [وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعُوجَاءَ] أي : يصحح
 انحرافهم عن ملة إبراهيم عليه السلام ..
 [بَأَنْ يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ] أي : مع شقيقتها الملازمة لها وهي : محمد
 رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى : (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين
 حتى تأتيتهم البينة * رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة * فيها كتب قيامة) .
 أي أنه صلى الله عليه وسلم جاء وبيّنة صدقه معه وهي قوله تعالى :
 (يتلو صحفاً مطهرة * فيها كتب قيامة) .

فمن أين له هذا القرآن العظيم المعجز بوجوه من الإعجاز يعجز الإنسان
 عن إحصائها وحدّ كل منها ؟ ولقد نشأ صلى الله عليه وسلم أمياً لم يقرأ
 ولم يكتب فمن أين له هذا القرآن الجامع للعلوم كلّها والمتضمّن ذكر
 العوالم كلّها ؟ نعم إنه كلام الله تعالى أوحاه إليه وأمره أن يتلوه على الناس .
 وإن في قوله تعالى : (رسول من الله) تنبيه للعقلاء إلى معرفة فضل هذا
 الرسول وشرفه وكرامته وقدره ، فهو رسول من الله ، وليس رسول أحد
 من الخلق ، وشرفُ الرسول على شرف مرسله ، فاعرفوا فضل هذا
 الرسول وعظّموه وأحبّوه واتّبعوه .

وجوب تعظيمه وتوقيره صلى الله عليه وسلم

لقد نبّه سبحانه العباد إلى فضل ومكانة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم فقال سبحانه : (واعلموا أن فيكم رسول الله) أي : فاعلموا أن له فضله عليكم وعزّته ومقامه العالي ، وقوموا بواجب إيمانكم به بأن تعظّموه وتحبّوه وتتبعوه .

وقال سبحانه : (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) ومعنى (وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ) : أعزّوه وأكرموا .

وقال جل وعلا : (إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً * لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزّروه وتوقروه) أي : تحترموا وتجلّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم

(وتسبّحوه بكرة وأصيلاً) فذكر سبحانه حقّين من حقوق رسول الله صلى الله عليه وسلم بين حقّين من حقوقه سبحانه ، فذكر تعالى حقّه على عباده أن يؤمنوا به ، ثم ذكر حق رسول الله صلى الله عليه وسلم على العباد أن يحبّوه ويحترموا ويجلّوه ويعظّموه ، ثم ذكر سبحانه حقّه على عباده بالتسبيح بكرة وأصيلاً ، ويشمل هذا التسبيح بأنواعه عملاً كالصلاة ، وقولاً

ولقد بيّن سبحانه بعد هذه الآية الحكمة في وجوب تعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم والأدب معه وتوقيره فوق كل موقر ومحترم ، وأنه صلى الله عليه وسلم خليفة الله الأعظم ، قال تعالى : (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) .

وتفكّر في هذه الآية تعلّم فضل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلوّ مقامه فوق كل مقام ، وإن الأدب مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيمه وتوقيره هو أصل من أصول الدين والإيمان ، وليس هو من باب الامتنان ، بل يُخشى على من أساء أدبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم زوال الإيمان .

ولما جاء سيدنا جبريل عليه السلام إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان أخبره صلى الله عليه وسلم بذلك ثم قال الرسول صلى الله عليه وسلم للصحابة الكرام رضي الله عنهم بعد أن انصرف جبريل : [فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ]^١.

أي : أصول الدين ومجامعه ، وكان هذا التعليم بقاله وسؤاله وحاله وأدبه وتوقيره لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذه رواية مسند الإمام أحمد في بيان ذلك، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال :

[بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَاءَ رَجُلٌ فَذَكَرَ مِنْ هَيْئَتِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اذْنُهُ" فَذَنَا، فَقَالَ: "اذْنُهُ" فَذَنَا، فَقَالَ: "اذْنُهُ" فَذَنَا، حَتَّى كَادَ رُكْبَتَاهُ تَمَسَّانِ رُكْبَتَيْهِ] أي : جلس جلسة هي غاية في الأدب وهي كجلسة طالب العلم بين يدي معلمه [فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي مَا الْإِيمَانُ أَوْ عَنِ الْإِيمَانِ قَالَ: تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ، قَالَ سُفْيَانُ: أَرَاهُ قَالَ: خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قَالَ: فَمَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ: إِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَحَجُّ الْبَيْتِ وَصِيَامُ شَهْرِ رَمَضَانَ وَغُسْلُ كُلِّ ذِيكَ، قَالَ: صَدَقْتَ صَدَقْتَ، قَالَ الْقَوْمُ: مَا رَأَيْنَا رَجُلًا أَشَدَّ تَوْقِيرًا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ هَذَا، كَأَنَّهُ يَعْلَمُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ أَوْ تَعْبُدَهُ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَا تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ، كُلُّ ذَلِكَ نَقُولُ: مَا رَأَيْنَا رَجُلًا أَشَدَّ تَوْقِيرًا لِرَسُولِ اللَّهِ مِنْ هَذَا، فَيَقُولُ: صَدَقْتَ صَدَقْتَ، قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ بِهَا مِنَ السَّائِلِ، قَالَ: فَقَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ ذَلِكَ مَرَارًا، مَا رَأَيْنَا رَجُلًا أَشَدَّ تَوْقِيرًا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ هَذَا]^٢.

أي : أنه يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتلقى منه الجواب ، وهو في غاية الأدب والتعظيم لجناب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

^١ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الإيمان

^٢ ٣٢٥

شرف الإنسان وعلو رتبته بحمل الأمانة الإلهية الكبرى

والإيك بيان ذلك من عدة وجوه:

أولها: تقدّم الإنسان وحمل أمانة الله الكبرى عندما رأى في نفسه الحاجة إليها ليزيل عنه الظلم والجهل ، ويتحلى بالفضائل والكمالات الإنسانية، فلمّا حمل الأمانة صار موضعاً لخطاب الله تعالى له ، وصار أهلاً أن يقول الله له : (يا بني آدم) و (يا أيها الناس) و (يا أيها الذين آمنوا)

كل ذلك يدلّ على شرفه وكرامته على الله تعالى ، فجعل سبحانه يخاطبه بالأمر والأوامر .

ثانيها : فليُنظر الإنسان في خلقه وأصله وحسبه ونسبه ، فقد خلّقه الله كريماً بتخليقٍ كريمٍ من أبٍ كريمٍ لأمرٍ كريمٍ ، أي : لأن يكرّمه ويشرفه بمعرفته وقربه وحبّه وجواره جلّ وعلا .

ولم يخلق الله تعالى الإنسان للأكل والشرب وصرف الشهوة ، فإن البهائم أشدّ منه في ذلك ، ولم يخلقه سبحانه لجمع المال والذهب والفضة ، فإن جبال الذهب والمعادن أكبر منه جمعاً ، وربما وطئتها أقدام الدواب في سيرها .

وقد يشقى الإنسان ويُبلي جسده في جمع المال والتكاثر فيه ، حتى إذا جاءه الموت تركّه ومضى ولم يأخذ منه شيئاً ، فكيف يحرص العاقل على جمع شيء سيتركه حالاً أو مآلاً ، ويترك شيئاً سيصحبه إلى الأبد ؟!

ولقد نبّه الله تعالى عباده إلى ذلك ، وأن هناك من الخلائق مَنْ جمع المال وتكاثر فيه ، فأين هؤلاء الأقوام وأين صاروا وإلى ما أفضوا ؟؟

نعم لقد أفضوا إلى ما قدّموا وتركوا ما جمعوا من الدنيا في الدنيا .

قال سبحانه تعالى مخبراً عن قارون : (قال إنما أوتيته على علم عندي أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً) .

ثالثها : لقد خلق الله الإنسان وسخّر له أسباب الأكل والشرب والكسب حتى يستعين بها على استمرار حياته وبقاء وجوده ، وليس الأكل والشرب والشهوة والمال أشياء مقصودة لذاتها ، ولم يخلق الله تعالى الإنسان من أجلها ، بل خلقه الله تعالى ليعبده، كما قال عز من قائل :
(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) أي : وعندما يعبد الإنسان الله تعالى ينال مقام القرب والحب من الله جل وعلا .

وإذا قرب الله تعالى العبد إليه أعزّه بعزّته لأنه جل وعلا عزيز وله العزة المطلقة، وأكرمه لأن كل الخير عنده جلّ وعلا، وهو سبحانه المليك ، ومن تقرب إليه جعله مَلِكًا، قال تعالى : (وإذا رأيتَ ثَمَّ رأيتَ نعيمًا ومَلَكًا كبيرًا) .

فلم يشرع الله تعالى الشريعة لعباده كي يشدّد عليهم ويضيق عليهم ويخرجهم، قال تعالى : (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون) ومن تطهّرت نفسه بعبادة الله وطابت وصفت وارتقت في مقام القرب من حضرة ملك الملوك صارت أهلاً لجواره سبحانه في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

وإن أقل أهل الجنة منزلة من يملك قدر الدنيا وعشر أمثالها ، كما دلّت عليه الأحاديث^١ .

فأهل الجنة هم الملوك على الحقيقة إذ إن الله المليك جعلهم ملوكاً، والمليك هو المَلِكُ الثابت الذي لا ينفد ولا ينتهي حكمه .

رابعها : لقد بيّن سبحانه أنه خلق الإنسان من أجل العلم به والعمل له جلّ وعلا ، وفي هذا يقول سبحانه : (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ينزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً) .

فانظر وتفكّر في قوله عز من قائل : (لتعلموا) .

^١ جاء في صحيح البخاري كتاب الرقاق أن الله تعالى يقول لآخر أهل الجنة دخولاً الجنة: [اذهبْ فادْخُلْ الْجَنَّةَ فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشْرَةَ أَمْثَالِهَا].. الحديث.

أي : لقد خلق الله الإنسان ليعرفه جل وعلا ويعلمه بكمالاته وقدرته وعلمه وحكمته تبارك وتعالى ، فمن مصنوعات الله تعالى ومن مخلوقاته سبحانه يعرف الإنسان عظمة الله وعلمه وكمالاته جل وعلا ، والإنسان وما فيه هو عالم كبير يدلّ على عظمة الله وقدرته ، فليتفكر الإنسان في نفسه وفيما حوله من العوالم ليعرف عظمة الخالق وسعة علمه وقدرته سبحانه .

فهو جل وعزّ الحقّ الذي لا يمكن أن يُنكر وجوده ، كما قال تعالى :
(فوربّ السماء والأرض إنه لحقّ مثل ما أنكم تنطقون) .

وبما أن المتكلم لا يشك في نطقه أو سمعه أو بصره إذا تكلم أو سمع أو أبصر فيجب عليه من باب أحقّ وأجدر أن يوقن بأن الله حقّ وواجب الوجود ، وآيات وجوده سبحانه مشهودة تدلّ على قدرته وعلمه وعظّمته وكمالاته جل وعلا .

ويقول سبحانه : (ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون * ففروا إلى الله) أي : تفكّروا في هذا الكون الكبير حولكم تجدوا أن لكل شيء مقابلاً ، ولا بد من الإشارة في هذا السياق إلى أن الزوجية في القرآن قد تُطلق ويراد بها الذكورة والأنوثة ، كقوله تعالى : (خلق لكم من أنفسكم أزواجاً) ،

وقد يراد بها الذكورة والأنوثة غير البشرية كقوله تعالى : (سبحانه الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون) ، وقد يُراد منها : المقابلة أي : مقابلة صنف بآخر ، وهو قوله سبحانه : (ومن كل شيء خلقنا زوجين) أي : صنفين متقابلين ، كالليل مثلاً يقابله النهار ، وهكذا العلوّ والسفل ، والعلم والجهل والحياة والموت والنور والظلمة والملائكة والشياطين ، فتجد لكل شيء مقابلاً
(لعلكم تذكرون) أي لعلكم تتبصرون وتؤمنون بذلك .

أما هو سبحانه فلا مقابل له ، بل هو جل جلاله فردٌ أحد أي : غير مرّكب ، وهو تبارك وتعالى واحد أي : لا شريك له ، وهو عز وجل فرد أي : لا ندّ ولا مقابل له ، وهذا معنى الفردانية .

وإذا عرف الإنسان ربه بقدرته وعظمته وعلمه وكمالاته ، وعرف الإنسان أنه عبد مخلوق لله جل وعلا وجب عليه أن يعبد الله تعالى حتى يتقرب منه ، كما قال تعالى : (واسجد واقترب) ، وقال صلى الله عليه وسلم: [أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ] ^١.

فالسجود لله يقطع بالعابد مراحل كبيرة في القرب من الله تعالى، لا سيما إن سجد في وقت يقرب فيه الرب جل وعلا من عبده وهو وقت السحر كما قال صلى الله عليه وسلم : [إِنَّ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْعَبْدِ جَوْفَ اللَّيْلِ الْآخِرِ] ^٢ وبقرب على قرب يحصل الوصال لمن أراد الوصول حسب الأصول إلى حضرة رب العالمين جل وعلا .

وروى الإمام أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: [قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَوْمًا كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ مَا أَطْوَلَ هَذَا الْيَوْمَ!]

فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى الْمُؤْمِنِ حَتَّى يَكُونَ أَحَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيُهَا فِي الدُّنْيَا] ^٣.
أي : من حيث المدة والسهولة واليسر ، وذلك لأن المؤمن الكامل يشم رائحة الجنة وهو في عالم الموقف كما قال صلى الله عليه وسلم : [إِنَّ رِيحَ الْجَنَّةِ يُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ مِائَةِ عَامٍ] ^٤.

وفي رواية : [إن ريح الجنة ليوجد من مسيرة ألف عام] ^٥.

وقد قال تعالى : (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد) أي : قَرَّبَهَا اللهُ تعالى لهم فجعلوا يرونها بخضارها ونضارها ويشمون ريحها ويجدون نسيمها ، فلا يجدون هولاً ولا شدة كما يجد أهل الموقف ، وأما من حيث المدة فلا يشعر بطولها من كان في النعيم والقرب .

^١ صحيح مسلم كتاب الصلاة

^٢ طرف حديث في سنن النسائي كتاب المواقيت

^٣ مسند الإمام أحمد ١١٢٩٢

^٤ طرف حديث في مسند الإمام أحمد ١٩٥٦٩

^٥ كتاب صفة الجنة لأبي نعيم

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم :

[إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً لَمَنْ يَنْظُرُ إِلَى جَنَانِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَنَعِيمِهِ وَخَدَمِهِ
وَسُرُّرِهِ مَسِيرَةَ أَلْفِ سَنَةٍ، وَأَكْرَمَهُمْ عَلَى اللَّهِ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهِ غَدَوَةً
وَعَشِيَّةً ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
{ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ }^١.

خامسها : إن التمسك بشريعة الله تعالى التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم هي طريق موصل إلى الله تعالى ينتهي بالسالك إلى الحلول في مقعد صدق عند مليك مقتدر كما قال تعالى :

(الر) أي : أنا الله الرحمن^٢.

(كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد) ومن مشى على صراط الله وصل إلى الله ، أي : نال رضوانه وقربه ومحبته وجواره سبحانه في مقعد صدق عند مليك مقتدر، والسير على الصراط المستقيم هو بعبادة الله تعالى على موجب ما شرع، والعبادة هي طريق القرب إلى الله والحب لله، فمن ذلك الصلاة مثلاً ففيها يتقرب العبد من ربه كما قال تعالى : (واسجد واقترب) ، وهكذا سائر العبادات .

كما نهى سبحانه عن الخبائث والمحرمات لما فيها من ضرر على الإنسان في دينه ودنياه، قال تعالى:(ويحلّ لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث) . ومن جهل الإنسان أن ينظر إلى الشريعة على أنها حرج ومضايقة للإنسان ، أفلا ينظر إليها أنها علاج له، وفيها بيان ما يضره وما ينفعه !!؟

^١ سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن
^٢ انظر تفسير السمعاني للآية الكريمة

إن الإنسان إذا أصابه مرض توجّه إلى الطبيب المشهور بعلمه وحكمته في الطب وسلّمه نفسه وأصغى له واتباع ما وصفه له أمراً ونهياً لثقتّه بعلم الطبيب وحرصه على صلاح بدنه وصحته ، أفلا يتحتّم عليه إن كان عاقلاً أن يستسلم لأوامر رب العالمين العليم بالعلم المطلق والحكيم بالحكمة التي لا انتهاء لها، وذلك بأن يعمل بما شرّعه الله تعالى له من شرع فيه صلاح جسمه وقلبه وخُلُقهِ وعقله ودينه وآخرته ودنياه وصلاح المجتمع الإنساني كله !!؟

قال تعالى : (ألا يعلم من خلق) فالذي خلق الخلق هو أعلم بما فيه صلاحهم وسعادتهم، ولذلك شرّع لهم من الأوامر ما فيه صلاح أمرهم كما قال تعالى : (ألا له الخلق والأمر) فهو الخالق وهو الأمر جلّ وعلا لأنه هو العالم بما ينفع الإنسان فأباحه له، وبما يضرّ الإنسان فحرّمه عليه، ومن علم هذا فهم سرّ عبادة الله حينئذٍ .

سادسها : إن الإخلاص في عبادة الله تعالى والإكثار من الكلم الطيب يضمن لصاحبه الموت على الإيمان ودخول الجنة بسلام، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ الْجُهَنِيِّ صَاحِبِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [مَنْ قَرَأَ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) حَتَّى يَخْتِمَهَا عَشْرَ مَرَّاتٍ بَنَى اللَّهُ لَهُ قَصْرًا فِي الْجَنَّةِ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: إِذَنْ أَسْتَكَثِّرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللَّهُ أَكْثَرُ وَأَطْيَبُ]^١ يعني : كلما قرأ الإنسان سورة (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) عشر مرات بنى الله له قصرًا في الجنة ، وكل عشر بقصر ، ومن بنى الله له قصرًا في الجنة فإنه لا يهدمه بل هو ضمان من الله تعالى أن يدخله الجنة ويسكنه قصره أو قصوره، ولا يكون ذلك إلا بموته على الإيمان وثباته عند السؤال.. فافهم .

^١ مسند الإمام أحمد ١٥٠٥٧

ومن ذلك أيضاً ما رواه الإمام الترمذي عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي فَقَالَ:
يَا مُحَمَّدُ أَقْرَأُ أَمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةٌ الثُّرْبَةُ عَذْبَةٌ
الْمَاءُ، وَأَنَّهَا قِيَعَانُ^١، وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
وَاللَّهُ أَكْبَرُ]^٢ أي : فأكثرُوا من الغراس في الجنة حتى تلقوها يوم تدخلونها ،
لأن من غرس في الجنة ولو غرسة فإنها لا تموت ولا تيبس ، لأن أرض
الجنة طيبة وماؤها عذب ولا بد للغرسة أن تسأل عن غارسها ويدخل
الجنة .

^١ جاء في كتاب تحفة الأحوذى : (قِيَعَانُ) بِكَسْرِ الْقَافِ جَمْعُ قَاعٍ وَهِيَ الْأَرْضُ
الْمُسْتَوِيَّةُ الْخَالِيَةُ مِنَ الشَّجَرِ . اهـ ٣٦١/٨

^٢ سنن الترمذي كتاب الدعوات

مراتب النفس الإنسانية

إن من جملة مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع العالم أنه جاء يزكيهم - كما تقدم بيانه - ، والتزكية تعني التخلية عن الرذائل والتحلية بالفضائل ، فجاء صلى الله عليه وسلم يزكي القلوب بالعقائد الإيمانية الثابتة بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على حقيقتها ، وليست قضايا الإيمان مبنية على خيالات وأوهام وخرافات ، وجاء صلى الله عليه وسلم يزكي الجوارح بالأعمال الصالحة ، ويزكي الأقوال بالكلم الطيب ، ويزكي الأخلاق بالتحقق بالخلق الفاضل الكامل ، وبالتزكية المحمدية ينتقل الإنسان من طور الإنسان الحيواني الشهواني إلى طور الإنسان العلويّ الربانيّ ، وذلك لأن الإنسان مخلوق من جسم وروح ، ولكلّ منها مطالبه ودواعيه ، فالجسم ترابي أرضي ، والروح علوية أمرية ربانيّة قدسية ،

والجسم من عالم الملك ، والروح من عالم الملكوت ، وقد اجتمعا في الإنسان ، فمن اتبع شهوات جسمه ونفسه وأخلد إلى الأرض فسد وتسفل وصار إنساناً حيوانياً بهيمياً ، وإن جعل الإنسان جسمه تابعاً لروحه ونهض به عاملاً بشرع الله تعالى فقد ارتفع بجسمه وتكامل وصار إنساناً ربانياً علوياً ، وعاد إلى مرجعه الأول وهو الجنة وحلّ في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وذلك لأن الجنة هي الوطن الأصلي للإنسان ، فقد خلق الله آدم عليه السلام وسوّاه ونفخ فيه من روحه وكرمه وأسجد له ملائكته وأسكنه الجنة مع ذريته التي كانت في صلبه .

وكما تنظر إلى الشجرة بثمارها وأوراقها وأغصانها ، وقد كانت مجملة في النواة فكذلك الشجرة الآدمية ، كان فروعها - وهم بنو آدم عليه السلام - كانوا في صلبه ثم تفرّعوا شيئاً فشيئاً ..

ولمّا أسكن الله تعالى آدم عليه السلام وزوجّه السيدة حواء أسكنهما الجنة أمّرهما أن لا يقربا شجرة ، اختُلف في نوعها ، ولكنها لدى التحقيق شجرة من أشجار الدنيا ، وضعها الله في الجنة للامتحان والاختبار ، بحيث أن من أكل منها جرّث عليه أحكام أهل الدنيا من تحرك الأحشاء في البطن والتغوط وغيره^١ ، أما الأكل من باقي أشجار الجنة فليس له هذا الحكم ، بل يرشح جسم الأكل منها رشحاً كما دل عليه الحديث^٢ .

ولمّا أكل آدم عليه السلام وزوجته من تلك الشجرة الدنيوية كان منهما ما كان ، وهبطا إلى الأرض وهبطت معهما تلك الشجرة ، ومن وراء هذا الهبوط حكم عالية منها :

أن يشهد الإنسان عوالم الله ومخلوقاته ويطلع عليها ويتعرف إلى آثار أسمائه سبحانه ، وأن يعلم أن سبب هبوطه هو إبليس اللعين ، فعليه جاهد أن يسعى للرجوع إلى وطنه الأصلي إلى جوار ربه جل وعلا .

فهبوط آدم إلى الأرض كان هبوطاً في الصورة ترقياً في المعنى ، إذ رفعه الله فوق ما كان عليه من المراتب لمّا تاب ، وأعطاه النبوة والرسالة والخلافة ، قال تعالى : (ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) .

ولقد أرسل الله الرسل عليهم السلام وأنزل عليهم الشرائع ليُذكّروا الإنسان بوطنه الأصلي حتى لا ينشغل في الدنيا ويغتر بما فيها ، فكان من الناس مَنْ استوطن الدنيا ورضي بها وكفر بالآخرة ، ومنهم من أجاب دعوة الرسل وتذكّر وآمن واستعدّ للآخرة ..

وقد نبّه الله تعالى عباده إلى ذلك بقوله : (يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) .

^١ قال الحافظ السيوطي في الدر المنثور : وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي العالية قال : كانت الشجرة من أكل منها أحدث ، ولا ينبغي أن يكون في الجنة حدث اهـ ٨٠/١ .

^٢ جاء في مسند الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله ورضي عنه قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أهل الجنة : [حَاجَةٌ أَحَدِهِمْ عَرَقٌ يَفِيضُ مِنْ جُلُودِهِمْ مِثْلُ رِيحِ الْمِسْكِ ، فَإِذَا الْبَطْنُ قَدْ صَمُرَ] .

أي : لا تغرنكم الدنيا مهما أقبلت عليكم ومهما رأيتم من زينتها ومتاعها
فكل ذلك للزوال والخراب .

وقال تعالى : (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور * سابقوا إلى مغفرة من
ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله
ورسله) يعني أن الدنيا متعة مؤقتة كما يتمتع الصبي باللعب ، قال عز من
قائل : (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو) وهذا لمن أقبل على الدنيا وترك
الآخرة فهو كالذي يلهو ويلعب ، ولا يعود ذلك عليه بالنفع والفائدة .

واللعب هو ما يسلي الإنسان في وقته ولا ينفعه في مستقبله بل هو
للتسلي وإذهاب الملل والضجر ، وإذا كبر الصبي راح يلعب بنوع آخر من
اللعب وهو في الأموال والتجارات والصناعات لأنها لن تنفعه في الآخرة ،
أما شأن المؤمن فيعمل دائماً لأمر تنفعه في المستقبل ، فيعمل في الدنيا
لأجل معاشه والعون على تطبيق دينه وإصلاح معاده ، لا بقصد الدنيا
وجمعها والتكاثر فيها ، فلا يطمئن المؤمن إلى الدنيا بل يضع الآخرة نصب
عينيه ويستعد لها ، ويجعل الدنيا عوناً له على سفره إلى الآخرة .

ولقد جاء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يزكي النفس الإنسانية
من المستوى الحيواني الشهواني إلى المستوى العلوي الرباني ، لأن النفس
- باعتبار أنها أرضية جسماً - تميل إلى دواعي الأرض والتراب الذي خلق
الجسم منه ، وهذه النفس بهذه الصفة يُقال عنها " النفس الأمارة
بالسوء " ، قال تعالى في بيان هذه النفس : (إن النفس لأمر بالسوء) ،
يعني : أن صاحب هذه النفس - التي لم تتطهر بعد ولم تتزك بتزكية رسول
الله صلى الله عليه وسلم - تأمره نفسه بالشر والفساد ، وتميل إلى أهوائها
أي : ميولها الأرضية من شهوات وغيرها ، وقد يكون ذلك ضرراً في حقها
إذا ليس كل ما تهواه النفس ينفع النفس ، لأنها لا تعلم خيرها من شرها ،
وصلاحها من شقائها ، فلا بدّ إذاً من علاجها بأن يجعل الإنسان هوى
نفسه أي ميله ومشتهاه تابعاً لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

وهذا قوله صلى الله عليه وسلم : [لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به]^١ ، فقد تهوى النفس أمراً ، وعلى الإنسان حينئذ أن ينظر في هذا الأمر: هل هو مشروع يوافق ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم أم يخالفه ؟ فإن وافق أخذ به ، وإلا صَرَف نفسه عنه لأن فيه ضرراً عليه في الحال والمآل، ومثال ذلك من أعطى للصبي الصغير الذي لا يعقل أعطاه حريته وتركه يتصرف كيف يشاء، فربما عبث في القاذورات ، وربما مدَّ يده إلى النار فيؤذي نفسه ، وموقف العاقل من هذا أن يمنع الصبي من فعل ذلك كله حرصاً على سلامته .

وربما اصطحب الوالد ابنه الصغير إلى مكان رأى فيه قرصاً كبيراً جميل الألوان براقاً ، فنظر فيه الوالد وعلم أنه ثعبان قد التفت على نفسه وبدا على شكل القرص ، وأما الولد الصغير فقد يعجبه شكل القرص وألوانه وربما تقرب منه ولمسه ولعب به فأصابه من أذى الثعبان ما أصابه إن لم يمنعه أبوه من ذلك ويبين له حقيقة هذا القرص ، وهكذا هي النفس الإنسانية تأخذ بظواهر الأشياء ولا تعلم خيرها من شرّها فتحتاج إلى من يعرفها بحقيقة ما ينفع وما يضر ، ولا يمكن للمخلوق أن يعلم ذلك ، بل إن الذي خلق الأشياء وأودع فيها ما أودع ، هو الذي يعلم ما يضرّ منها وما ينفع الإنسان ، فجاءت الشريعة الإلهية تبين للإنسان ما ينفعه فجعلته حلالاً مباحاً له ، وتبين له ما يضرّه فجعلته محظوراً حراماً عليه .. وهذا قوله تعالى : (يحل لهم الطيبات) أي : لأنها طيبات نافعة لهم،

(ويحرم عليهم الخبائث) أي : لأنها خبائث فيها ضرر عليهم - وإن لم يظهر أثر ضررها - لأن الذي حرّمها يعلم ما فيها ، ولذلك حرّمها ، وإن لم يُطلّعك على وجوه ضرّها، قال تعالى : (ألا يعلم من خلق) ، وقال سبحانه : (والله يعلم وأنتم لا تعلمون) .

^١ قال ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم: خرج هذا الحديث الحافظ أبو نعيم في كتاب الأربعين وشرط في أولها أن تكون من صحاح الأخبار وخرجته الأئمة في مسانيدهم ورواه الحافظ أبو بكر بن عاصم الأصبهاني

ومن هنا يتبين للعاقل أن الشريعة الإلهية جاءت لإصلاح الإنسان وسعادته ، وليس فيها إثقال ومشقة وإحراج للناس ، قال تعالى :
(ما جعل عليكم في الدين من حرج) ، وقال جل وعلا : (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون) .

وقال تعالى في بيان حكمة بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) فجاء صلى الله عليه وسلم رحمة لهم ، وليس ضرراً لهم أو إحراجاً ، جزاه الله عنا خير الجزاء .

وإذا عالج الإنسان نفسه بتزكية رسول الله صلى الله عليه وسلم انتقل بنفسه من النفس الأمارة بالسوء إلى النفس اللوامة ، وصاحب هذه النفس يعمل ما أمره الله تعالى به ولكنه قد يقع أحياناً في بعض المخالفات فيندم على ذلك ويتوب إلى الله تعالى ..

كما أن صاحب هذه النفس يلوم نفسه على ما خالف وعلى ما قصر فيه من فعل الخيرات ، كأن دخل مرة في صلاة الفرض وترك السنة القبلية لاستعجاله لأمر ما ، فلما فرغ من صلاة الفرض ندم وجعل يلوم نفسه على تركه للسنة وأنه ضيّع على نفسه ثوابها ، وهكذا يواظب على معالجة نفسه وتزكيتها حتى ينتقل إلى رتبة النفس المطمئنة .

وفي بيان النفس اللوامة يقول سبحانه : (لا أقسم بيوم القيامة * ولا أقسم بالنفس اللوامة * أيحسب الإنسان أن نجمع عظامه * بلى قادرين على أن نسوي بنانه * بل يريد الإنسان ليفجر أمامه * يسأل أيان يوم القيامة * فإذا برق البصر * وخصف القمر * وجمع الشمس والقمر * يقول الإنسان يومئذ أين المفر * كلا لا وزر * إلى ربك يومئذ المستقر * ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر * بل الإنسان على نفسه بصيرة * ولو ألقى معاذيره) .

فقوله تعالى : (لا أقسم بيوم القيامة) : وهذا رد على من أنكر الحشر والنشر كما أخبر سبحانه عنهم قولهم : (أئذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد) .

فقله سبحانه : (لا) أي: لا كما يقولون وينكرون الآخرة (أقسم بيوم القيامة) .

(ولا أقسم بالنفس اللوامة) أي: أقسم بالنفس اللوامة .

(أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه) أي: إن هي تفتت وتبعثرت في تراب الأرض.

(بلى قادرين على أن نسوي بنانه) أي: سنجمع عظامه ولو بليت وتفرقت ، حال كوننا قادرين أي الآن على أن نسوي بنانه، والبنان يطلق على الأصابع أو على رؤوس الأصابع ، فهو سبحانه قادر الآن على أن يسوي أصابع الإنسان على قدر واحد ، لكن في ذلك تضییع على الإنسان مصالح كثيرة ، وفي اختلاف الأصابع في الطول والعرض والشكل مصلحة للإنسان وعون له على العمل والإمساك والتحريك وهكذا.

ومن جهة أخرى فقد خالف سبحانه في أشكال الأصابع وتعاريجها وخطوطها حتى إنه يتميز الواحد عن الآخر بوقع أصابعه وبأثرها على الحبر ولهذا لجأ أولو الأمر لتمييز فلان عن فلان بهذه الطريقة .

إذاً فتفكروا وتدبروا وانظروا في هذا الخلق العظيم ، وأن لكل إنسان شكله وصفاته التي تميزه عن غيره ، وكل إنسان عالم بحد ذاته فالذي قدر على خلق ذلك كله هو قادر على خلق الإنسان مرة أخرى يوم حشره ونشره وهذا قوله تعالى : (بلى قادرين على أن نسوي بنانه)

أي قادرين على أن نجمعه في الآخرة ونسوي بنانه كما سويناه في الدنيا .

ومن جهة أخرى فإن قوله تعالى : (بلى قادرين على أن نسوي بنانه)

بأن نجعلها كخف البعير متّحدة ملتصقة فيما بينها، أي: فاحمد الله أيها الإنسان على فضل الله عليك بأن جعل أصابعك متفرقة ، وفي ذلك مصلحة ومنفعة لك في أمور حياتك .

قوله تعالى : (بل يريد الإنسان ليفجر أمامه * يسأل أيان يوم القيامة)

أي يريد الإنسان الكافر أو الفاسق أن يستمر في فجوره منكراً أو مستبعداً يوم القيامة .

(فإذا برق البصر * وخسف القمر * وجمع الشمس والقمر)

أي: لا تستبعد أيها الإنسان وقوع القيامة فلا بد لها أن تقوم، والساعة ساعية وأنت ساعٍ إليها كالقطارين السريعين لا بُد أن يصطدما .

(فإذا برق البصر) أي: عند الموت إذ يشخص بصر الإنسان لأن الروح لما تفارق الجسم يتبعها ناظراً إليها شاخصاً للأعلى^١ ، ويشمل هذا أيضاً قيام الساعة الكبرى، وموت الإنسان قيامة صغرى^٢ ، وخراب العالم وبعثه إلى الله هو قيامة كبرى .

(وخسف القمر) أي: ذهب نوره.

(وجمع الشمس والقمر) أي: يجمع الله الشمس والقمر ويجعل فيهما الحرارة في عالم الموقف ثم يُدْخِلَان النار حتى يراهما من كان يعبدتهما في الدنيا ، وإن كان الشمس والقمر لا يتعذبان ، لكن وجودهما في النار إغاية للكفار الذين كانوا يعبدونهما من دون الله^٣ .

قوله تعالى : (يقول الإنسان يومئذ أين المفر * كلا لا وزر)
أي: لا ملجأ يفرّ إليه الإنسان.

^١ جاء في صحيح مسلم كتاب الجنائز قوله صلى الله عليه وسلم : [إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ الْبَصَرُ] .. الحديث

^٢ قال الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة : حديث: من مات فقد قامت قيامته، رواه الديلمي عن أنس مرفوعاً، ولفظه: إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته، وللطبراني من حديث زيادة بن علاقة عن المغيرة بن شعبة قال: يقولون القيامة القيامة، وإنما قيامة المرء موته، ومن رواية سفيان بن أبي قيس قال: شهدت جنازة فيها علقمة، فلما دفن، قال: أما هذا فقد قامت قيامته. اهـ ٧١/٢

^٣ قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري : أَخْرَجَ بَن وَهْبٍ فِي كِتَابِ الْأَهْوَالِ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ) قَالَ: يُجْمَعَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يُقَدَّمَانِ فِي النَّارِ ، وَلَا بَن أَبِي حَاتِمٍ عَنْ بَن عَبَّاسٍ نَحْوَهُ مَوْقُوفًا أَيْضًا، قَالَ الْخَطَّابِيُّ: لَيْسَ الْمُرَادُ بِكُونِهِمَا فِي النَّارِ تَغْذِيْبُهُمَا بِذَلِكَ وَلَكِنَّهُ تَبْكِيْتُ لِمَنْ كَانَ يَعْبُدُهُمَا فِي الدُّنْيَا لِيَعْلَمُوا أَنَّ عِبَادَتَهُمْ لَهُمَا كَانَتْ بَاطِلًا، وَقَالَ الْإِسْمَاعِيلِيُّ: لَا يَلْزَمُ مِنْ جَعْلِهِمَا فِي النَّارِ تَغْذِيْبُهُمَا فَإِنَّ لِلَّهِ فِي النَّارِ مَلَائِكَةً وَحِجَارَةً وَغَيْرَهَا لِيَتَكُونُوا لِأَهْلِ النَّارِ عَذَابًا وَآلَةً مِنْ آلَاتِ الْعَذَابِ وَمَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ فَلَا تَكُونُ هِيَ مُعَذِّبَةً. اهـ ٣٠٠/٦

(إلى ربك يومئذ المستقر) فلا ملجأ يومئذ من الله إلا إليه .

(ينبأ الإنسان يومئذ بما قدّم وأخّر) أي: يخبر الله تعالى الإنسان بأعماله التي قدّمها في الدنيا وبما أخّر من أعماله ، وهي آثار أعماله التي عملها في الدنيا كما قال تعالى : (إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدّموا وآثارهم) .

فقوله تعالى : (بما قدّم) أي في حياته الدنيا

(وأخّر) أي: بعد مماته .

وفي الحديث : [مَنْ سَنَّ سُنَّةً خَيْرٍ فَاتَّبَعَ عَلَيْهَا فَلَهُ أَجْرُهُ وَمِثْلُ أَجُورِ مَنْ اتَّبَعَهُ غَيْرَ مَنْقُوصٍ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً شَرًّا فَاتَّبَعَ عَلَيْهَا كَانَ عَلَيْهِ وَزْرُهُ وَمِثْلُ أَوْزَارِ مَنْ اتَّبَعَهُ غَيْرَ مَنْقُوصٍ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا]¹ .

ولما ينبئ الله تعالى الإنسان بأعماله كلّها يضطرب ويحاول أن ينكرها فلا يستطيع كما قال تعالى : (بل الإنسان على نفسه بصيرة * ولو ألقى معاذيره)

أي: بل الإنسان هو عين بصيرة على نفسه ، إذ لا يمكن للإنسان أن يتعاضد عن نفسه وما يفعله وما يقوله وما يضمّره، فكل إنسان يعرف نفسه وما انطوت عليه ، وكلّ ذرّة فيه هي عين بصيرة عليه، فهو يشهد على نفسه وهو المشهود عليه، وفي هذا يقول سبحانه : (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) .

وقال تعالى : (وقالوا لجلودهم لمّ شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون * وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم) أي: لم يكن بمقدوركم وإمكانكم أن تستتروا عن سمعكم وبصركم وجلودكم أثناء فعلكم للمعصية والمنكر، وهذا ما يعرفه كل إنسان من نفسه فهل يمكنه أن لا يُسمع نفسه ما يقول أو أن يعمل عملاً دون أن يُشهد يديه مثلاً ؟!

¹ سنن الترمذي كتاب العلم

فسمع الإنسان وبصره وجلده ويده ورجله هي عيون باصرة عليه وستشهد عليه في الآخرة لأن الشاهد لا يشهد إلا عن علم ومعاينة، فافهم أنك الشاهد على نفسك وأنت المشهود عليه، ومن أراد أن يعصي الله فليبتعد عن سمعه وبصره ويده ورجله وجلده حتى لا يشهدوا عليه، وأنت له ذلك!! إذاً عليه أن يتقي الله ولا يعصيه .

وقوله تعالى : (ولو ألقى معاذيره) أي ولو أراد أن يتملص أو يعتذر بأقوال كاذبة فإن أعضائه وجوارحه تنطق بالحق .

روى الإمام مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: [كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَحِكَ فَقَالَ: هَلْ تَذُرُونَ مِمَّ أَضَحَكُ؟ قَالَ: قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَغْلَمَ، قَالَ: مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ:] أي : الكافر أو الفاجر يوم القيامة [يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلَمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي] أي : لا أقبل بشهادة غيري علي [قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُحَلَّى بَيْنَهُ وَيَتَنَ الْكَلَامَ قَالَ: فَيَقُولُ: بُغْدًا لَكُنَّ وَسُخْطًا فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أَنَا ضِلٌّ]¹.

ومن وازب على معالجة نفسه وتزكيتها بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم انتقل بها إلى مرتبة النفس المطمئنة التي أشار إليها سبحانه بقوله : (يا أيُّهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ * ارجعي إلى ربك راضية مرضية * فادخلي في عبادي * وادخلي جنتي) .

والنفس المطمئنة هي النفس التي اطمأنت على الإيمان وعلى أوامر الله تعالى، والاطمئنان هو السكون والإقامة على الشيء مع الرضا . ولقد وصفَ الله تعالى الكفار فقال جل وعلا : (إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون * أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) .

¹ صحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق

ومعنى (اطمأنوا بها) أي : أَحْبَبُوهَا وَأَقَامُوا فِيهَا وَأَرَادُوا الْخُلُودَ فِيهَا .

وقال تعالى : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) أي : أقاموا على ما قالوا ، فلما قالوا : (ربنا الله) أي : فنحن عباده وله علينا حق أن نعبده ، ففعلوا مقتضى ما قالوا ، وقالوا : (محمد رسول الله) صلى الله عليه وسلم فاستقاموا على ما قالوا بأن أحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم واتبعوه ورضوا بشريعته .

وقد قال صلى الله عليه وسلم^١ : [ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا] .

وإن من إكرام الله تعالى لصاحب النفس المطمئنة أنه حين احتضاره تناديه الملائكة ويناديه المولى جل وعلا : (يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضية مرضية * فادخلي في عبادي * وادخلي جنتي)^٢ .

ومن تفكر في هذه الآية وفي قوله تعالى : (ارجعي) لرأى أن الرجوع هو عود إلى بدء ، والمعنى : ارجعي إلى حيث كنت إلى جوار ربك في الجنة ، وهذا كما تقدم بيانه أن الجنة كانت وطن الإنسان الأصلي ثم أرسله الله تعالى في العوالم ليزداد إيماناً وعلماً به ..

فمن علم هذا وحافظ عليه رجع إلى الجنة على وجه أحسن مما كان عليه ومن انحرف وضلّ عن طريق الشريعة ضلّ وانتهى إلى جهنم .

^١ صحيح مسلم كتاب الإيمان

^٢ قال الحافظ السيوطي في الدر المنثور : وأخرج ابن المنذر عن محمد بن كعب القرظي في الآية قال : إن المؤمن إذا مات رأى منزله من الجنة فيقول تبارك وتعالى : { يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي } إلى جسدك الذي خرجت منه { راضية } ما رأيت من ثوابي { مرضية } مرضياً عنك حتى يسألك منكر ونكير .
وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية عن سعيد بن جبير قال : [قرئت عند النبي صلى الله عليه وسلم : { يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضية مرضية } فقال أبو بكر : إن هذا لحسن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إن الملك سيقولها : لك عند الموت] .

قوله تعالى : (ارجعي إلى ربك راضية مرضية)

أي : راضية بدينه وشرعه ونبيّه صلى الله عليه وسلم ، وراضية عن الله تعالى فيما أمر ونهى وفيما حكم وقضى ، مرضية من جانب الله وقد حلّ عليك رضوان الله جل وعلا ، ومتى رضي الله عن عبده فإنه لا يسخط عليه أبداً .

وما أحوج الإنسان حالة احتضاره إلى هذا الخطاب من الله جل وعلا وملائكته الكرام عليهم السلام فيجد من النعيم والأنس ما يشغله عن ألم مفارقة الأهل والأصحاب ويصير في نعيم مع الله تعالى .

قوله تعالى : (فادخلي في عبادي) أي في زمرة عبادي المقربين المكرمين الراضين المرضيين ، وذلك لأن المؤمن ترك عبادة في الدنيا كانوا له أهلاً وأصحاباً فأدخله الله في زمرة عباد هم أصلح وأنفع له ، وهو في نعيم وسرور أعظم وأكبر ليبقى فرحاً مسروراً منعماً مكرماً .

وهؤلاء هم العباد الذي ذكرهم الله تعالى في قوله : (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً) .

فما أعظم وما أشرف وما أفضل هذه الزمرة من العباد لا سيّما أن سيدهم ورأس حضرتهم هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى (فادخلي في عبادي * وادخلي جنتي) أي: لقد كان هذا المؤمن الكامل ينعم في الدنيا في جنة أنوار العبادة والعلم بالله ، ثم انتقل إلى جنة البرزخ ، وهكذا حتى ينتهي إلى جنة المأوى ..

وقوله تعالى : (وادخلي جنتي) في حين قال سبحانه في الآية قبلها (فادخلي في عبادي) فاعلم أن دخول المكان يقال عنه : دخلته أو دخلت فيه ، أما الدخول فيما ليس بمكان فلا بد من الإتيان بحرف (في) فتقول :

دخلت في المجموعة أو دخلت في الأمر أو دخلت في المسألة .. وهكذا فانظر في أحكام القرآن وبلاغته فلا تقبل زيادة حرف ولا إنقاصه وهو كلام الله المعجز بوجوه الإعجاز كلها ..

وقال التابعي الجليل سعيد بن جبير وهو من جملة تلاميذ عبد الله بن عباس رضي الله عنهم^١ :

[مات ابن عباس بالطائف فشهدت جنازته ، فجاء طائر لم يُر على خلقته حتى دخل في نعشه ، ثم لم يُر خارجاً منه فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر ، لا يُرى من تلاها (يا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ * ارجعي إلى ربك راضية مرضية * فادخلي في عبادي * وادخلي جنتي)]^٢.

فعرفوا أن هذا الطائر إنما هو مَلَك من السماء نزل على هيئة طائر وسمعوا صوته ولم يروا شخصه .

اللهم إنا نسألك كما علّمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لما علّم الرجل دعاءً فقال له : قل : [اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ نَفْسًا بِكَ مُطْمَئِنَّةً ، تُؤْمِنُ بِلِقَائِكَ ، وَتَرْضَى بِقَضَائِكَ ، وَتَقْنَعُ بِعَطَائِكَ]^٣ آمين .

^١ انظر سير أعلام النبلاء ٣٢٢/٤

^٢ انظر كتاب (فضائل الصحابة) للإمام أحمد بن حنبل

^٣ انظر المعجم الكبير للطبراني

الشرعة الإلهية هي ميزان تعبير و تنظيم القوى الإنسانية

لقد خلق الله تعالى جسم الإنسان من تراب الأرض ونفخ فيه الروح العلوية الأمرية ، وطالما أن جسم الإنسان أرضي ترايّ فله دواعٍ منها القوى الغضبية والقوى الشهوانية من شهوة الطعام والشراب والفرج وفيه شهوة السمع لأن يسمع الملاذ ، وشهوة البصر أن ينظر إلى المحاسن ، وفيه القوى الحيوانية السَّبعية، ولو تُركت هذه القوى في الإنسان دونما تعديل وتنظيم وميزان يقدّرها ويَزنّها لتحولت إلى قوى مفرطة مهلكة مدمّرة، ولا بدّ هنا أن يعلم العاقل أن كل القوى والطاقات إذا لم يجرِ عليها التعديل والتغيير فإنها تضر ولا تنفع .

ألا ترى مثلاً إلى القوة الكهربائية فهي بَطاقَتها قويّة ، ولو سلطت من مصدرها مباشرة إلى المصباح مثلاً لأحرقتّه ، فلا بد من الاستفادة منها من محطات تعديل وتنظيم ليأخذ كل قابل لها حسب استعدادده وقابليّته للغرض المعدّ له، وانظر أيضاً إلى قوة الماء القوية الناتجة عن بناء سدّ على نهر مثلاً فلو فتّحت نوافذ السد بشكل عشوائي لاندفع الماء بقوة وأفسد وأهلك ودمّر ، لكن من الحكمة تنظيم هذه القوة وتعديلها .

ومن هذا يَعتبر الإنسان في القوى المودّعة فيه ، فلا بد لها من تعديل وتنظيم وصرف في المصارف الشرعية بحيث يستفيد الإنسان منها ولا تُفسدُه وتهلكه ، وهذه حكمة الشريعة الإلهية المحمدية التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليزكي النفوس والعقول والأخلاق والأعمال والأقوال والقوى التي أودعها الله في الإنسان .

ولينظر الإنسان إلى قوة الغضب التي فيه ، لو تركها وأنفذ غضبه كما يهوى لصار وحشاً مفسداً مؤذياً، وكذلك لو أعطى الإنسان لنفسه شهوة الفرج دونما ضبط وتنظيم لصار أخسّ من الكلب والخنزير، ولو أعطى لنفسه ما تهواه من شهوة الطعام والشراب لأسرف في ذلك حتى يؤذي نفسه ويهلكها ..

وهكذا سائر القوى الإنسانية لا بُد لها من تعبير و وزن وتنظيم وتعديل من لدن عليم حكيم ، وهو الله تعالى الذي خَلَقَ الإنسان ويعلم ما خلق فيه من قوى، ويعلم ما يُصْلِح وينفع هذا الإنسان ، وما يضره ويؤذيه ، قال تعالى : (ألا يعلم من خلق) وقال سبحانه (ألا له الخلق والأمر).

أي فجاءت أوامره سبحانه لخلقه مصلحةً لهم مُسعدة لهم ، تنظّم فيهم القوى وتعَدّلها على موجب الميزان الذي فيه صلاحهم وسعادتهم .

فمن ذلك أمرُ الشارع الإنسان أن يكظم غيظه ولا ينفذ غضبه لئلا يضر نفسه بقوة غضبه ولا يؤذي غيره، وكذلك في شهوة الفرج فقد أمر الشارع الإنسان أن يصرفها في نكاح مباح لا في سفاح محرّم ، ويبيّن له مخاطر وضرر الزنا، وكذلك شهوة الطعام والشراب فأمره سبحانه أن لا يُسْرِف على نفسه لئلا يقع في المهالك ، قال تعالى : (كلوا واشربوا ولا تسرفوا)..

فلقد جاء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالمعايير والموازين التي فيها تعديل وتعبير وتنظيم القوى الإنسانية كلها ، ولذلك لما خلق الله تعالى الكون بما فيه - مع أن القوة الإلهية كبيرة لا نهاية لها - وَضَعَ الميزان المشار إليه بقوله تعالى : (والسماء رفعها وَوَضَعَ الميزان * ألا تطغوا في الميزان * وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان).

فقوله تعالى : (والسماء رَفَعَهَا) أي خلقها مرفوعة عالية، ثم قرن وضعه للميزان بها ، فأَيّ ميزان هذا الذي وضعه الله عنده يوم خَلَقَ السماء ؟.

نعم لقد بيّن صاحب البيان عن القرآن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال الله تعالى له : (لتبين للناس ما نزل إليهم) بيّن في الحديث معنى الميزان المذكور في قوله تعالى : (ووضع الميزان) فقال صلى الله عليه وسلم: [يَدُ اللَّهِ مَلَأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ]

أي : لا تنقصها نفقة وهو جل وعلا يسحّ بالخير على عباده من أهل السماء والأرض ويمد الكل من عطائه .

[أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ،
وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَبِيَدِهِ الْمِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ]^١ .

أي : أن عطاءه وإمداده وفضله وكرمه جل وعلا كله بالموازين ، لأن ما عنده من القوى لا يتناهى ، وليس من الحكمة أن يسلط ما لا يتناهى على ما هو يتناهى وإلا لأهلكه كما تقدم بيانه .

وقال تعالى : (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم)
فكل شيء إنما يتنزل بالمعايير والمقادير الموزونة ، والله عليم حكيم .

ثم أنزل سبحانه ميزان الشريعة على رسله عليهم الصلاة والسلام
وأمر الناس أن يرجعوا إلى ميزان الشريعة في أعمالهم وأقوالهم وأحوالهم
وأخلاقهم وتصرفاتهم ، وإن أعظم الموازين وأجمعها للخير كله هو ميزان
سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهو الشريعة المحمدية .

فقوله تعالى : (والسماء رفعها ووضع الميزان) أي : عنده جلّ وعلا .

(ألا تطغوا في الميزان) أي : أخبرتكم بذلك حتى لا تطغوا في الميزان
عندكم وهو الذي شرعناه لكم وجاءكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإن هذا الميزان الشرعي يحوي جميع الموازين الأرضية المعروفة التي
يجري بموجبها البيع والشراء وتُعرف بها مئاقيـل الأشياء وهذا قوله تعالى :
(وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) بل أوصلوا الحق الشرعي
بتمامه لأصحابه وهكذا ..

^١ صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن

تطهير الإنسان من صفة الغضب المذموم

إن القوة الغضبية التي أودعها الله في الإنسان يجب تعديلها وصرفها فيما شرع الله ، ولا يمكن للإنسان أن يستأصل صفة الغضب من نفسه بل لا بد من الغضب في مواضعه ، فكان صلى الله عليه وسلم لا يغضب إلا إذا انتهكت حرمة الله ، أما الغضب لأمر دنيوية أو حظوظ نفسانية فهو مذموم .

روى الإمام البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [أَوْصِنِي قَالَ: لَا تَغْضَبْ، فَرَدَّدَ مِرَارًا قَالَ: لَا تَغْضَبْ] ^١. وكان الرجل سريع الغضب ، ومن حكمة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأمر السائل بما هو أحوج إليه .

وروى الترمذي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: [صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا صَلَاةَ الْعَصْرِ بِنَهَارٍ ثُمَّ قَامَ خَطِيبًا فَلَمْ يَدْعُ شَيْئًا يَكُونُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا أَخْبَرَنَا بِهِ، حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ، وَكَانَ فِيمَا قَالَ: إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوءٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَاطِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، أَلَا فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النَّسَاءَ ، أَلَا إِنَّ بَنِي آدَمَ خُلِقُوا عَلَى طَبَقَاتٍ شَتَّى، فَمِنْهُمْ مَنْ يُوَلَدُ مُؤْمِنًا وَيَحْيَا مُؤْمِنًا وَيَمُوتُ مُؤْمِنًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُوَلَدُ كَافِرًا وَيَحْيَا كَافِرًا وَيَمُوتُ كَافِرًا] ولا يتنافى هذا مع قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الآخر: [كل مولود يولد على الفطرة] ^٢ فقوله صلى الله عليه وسلم: [يولد كافراً] أي: ولد في بيئة كافرة، وظاهر الأمر أن يتبع أباه ، حتى إذا كبر ظهر أمر كفره [وَمِنْهُمْ مَنْ يُوَلَدُ مُؤْمِنًا وَيَحْيَا مُؤْمِنًا وَيَمُوتُ كَافِرًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُوَلَدُ كَافِرًا وَيَحْيَا كَافِرًا وَيَمُوتُ مُؤْمِنًا] .

أي : وهذا الذي هداه الله إلى الإيمان بعد أن عاش كافراً في بيئة كافرة .

يقول صلى الله عليه وسلم : [أَلَا وَإِنَّ مِنْهُمْ الْبَطِيءَ الْغَضْبِ سَرِيعَ الْفِيءِ] وهو في أفضل الصفات .

^١ صحيح البخاري كتاب الأدب

^٢ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الجنائز

[وَمِنْهُمْ سَرِيعُ الْغَضَبِ سَرِيعُ الْفَيْءِ فِتْلَكَ بِتْلَكَ].
 [أَلَا وَإِنَّ مِنْهُمْ سَرِيعَ الْغَضَبِ بَطِيءَ الْفَيْءِ] أي : لا يسكن غضبه بسهولة.
 [أَلَا وَخَيْرُهُمْ بَطِيءُ الْغَضَبِ سَرِيعُ الْفَيْءِ ، أَلَا وَشَرُّهُمْ سَرِيعُ الْغَضَبِ بَطِيءُ الْفَيْءِ ، أَلَا وَإِنَّ مِنْهُمْ حَسَنَ الْقَضَاءِ حَسَنَ الظِّلْبِ ، وَمِنْهُمْ سَيِّئُ الْقَضَاءِ حَسَنُ الظِّلْبِ ، وَمِنْهُمْ حَسَنُ الْقَضَاءِ سَيِّئُ الظِّلْبِ فِتْلَكَ بِتْلَكَ ، أَلَا وَإِنَّ مِنْهُمْ السَّيِّئُ الْقَضَاءِ السَّيِّئُ الظِّلْبِ ، أَلَا وَخَيْرُهُمْ الْحَسَنُ الْقَضَاءِ الْحَسَنُ الظِّلْبِ ، أَلَا وَشَرُّهُمْ سَيِّئُ الْقَضَاءِ سَيِّئُ الظِّلْبِ ، أَلَا وَإِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةً فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ ، أَمَا رَأَيْتُمْ إِلَى حُمْرَةِ عَيْنَيْهِ وَانْتِفَاحِ أَوْدَاجِهِ ، فَمَنْ أَحْسَنَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَلْصِقْ بِالْأَرْضِ]^١ أي : فليجلس على الأرض حتى تهدأ ثورته ويسكن هيجانه .

وجاء في حديث آخر : [إِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ ، وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ ، فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ]^٢ .

وفي حديث آخر : [فليغتسل]^٣ أي : حتى يطفىء نار الغضب التي فيه ، وهو في الحقيقة علاج ظاهر باطن أرشد إليه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب الحكمة والتزكية ..

وهكذا جاءت الشريعة المحمدية تعدل القوة الإنسانية على وجه ينفع الإنسان ولا يضره ، فيطهر ويكمل ويرتقي ، ومن هنا يفهم الإنسان شدة حاجته إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه لا يمكن للإنسان فهم الشريعة الإلهية إلا بواسطة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك بأقواله وأفعاله وتقريراته صلى الله عليه وسلم ، ولذلك بين سبحانه للعباد أن حياتهم منوطة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا غنى لهم عنه فقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) .

^١ سنن الترمذي كتاب الفتن

^٢ مسند الإمام أحمد ١٧٣٠٢

^٣ عزاه في كنز العمال للحافظ ابن عساكر

أي : فلا يدعوكم رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمر يمكنكم الاستغناء عنه ، بل هو أمر ضروري أصلي وهو حياتكم ، فهو يدعوكم لما فيه حياتكم السعيدة الطيبة في الدنيا والآخرة ، وهذه الحياة الحقيقية هي التي فقدتها الكافر وراح يوم القيامة يتأسف عليها ويندم على إهماله لها ، قال تعالى : (يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى * يقول يا ليتني قدّمت لحياتي) أي : التي صرت إليها في الآخرة .

وإذا كان الإنسان يحرص كل الحرص على أسباب حياة جسمه الدنيوية فمن الأولى والأجدر به أن يحرص على حياة روحه وقلبه حياة الأبد .

وإذا كان الملك قد أمره الله أن ينفخ الروح التي يحيا بها جسم الإنسان وهو جنين في بطن أمه ، وصار الجسم حياً واستغنى الإنسان عن الملك فإن حياة الروح الإنساني الأبدية لا تُنال إلا بواسطة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال تعالى له : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) ،

ومن أجاب دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جاء به نال من تلك الروح القرآني المحمدي ما يحيا به قلبه وروحه الإنساني حياة الأبد ،

ومن هنا يعرف العاقل مدى حاجته إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه لا غنى له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبداً أبداً ، لأنه لا يستغني عن حياته الطيبة الأبدية .

حكمة التكليف الشرعية

لقد جاءت التكليف الشرعية للإنسان بما فيها من أوامر ومناه حتى تُكَيِّفه بكيفية يتغير فيها مزاجه الشهواني إلى مزاج الإنسان العلوي الكامل ..

وكذلك تبدل أفكاره وتغير موازين الأمور عنده إلى موازين شرعية تتوقف عليها سعادته على وجه الأرض، ويتأهل في الآخرة لدخول جنة الله تعالى .

ولكي يسهل عليك فهم ذلك إليك مثلاً يقرب إلى الأفهام هذا المراد :

لو عُرض على الناس وظيفة إدارية منوط بها مصلحة كبيرة للعباد والبلاد ، وأراد إنسان أمي لا دراسة ولا دراية عنده أن يتقدم لها فيقال له : إنه لا استعداد عندك ولا أهلية لهذا المنصب ، والأجدر بك أن تمضي وتستعد وتجتهد في الدراسة لنيل الشهادات العالية والخبرة الكافية حتى يصير عندك قابلية واستعداد للتقدم لتلك المهمة، وكذلك من أراد التجارة ولا علم له بها ولا مال عنده فكيف يصير تاجراً ؟

ومن دخل في عمل غير مستعد له فقد أتعب نفسه، فمن لم يتكيف بأوامر الشريعة فلا استعداد عنده لدخول جنة رب العالمين ولا يتذوق نعيمها ..

ولو فرض جدلاً - مع أن هذا الفرض مستحيل لا يقع - لو فرض أن الكافر دخل الجنة فإنه لا يجد من نعيمها شيئاً أبداً لأنه لا استعداد عنده لذلك ، أما المؤمنون فقد أعدوا أنفسهم وأهلّوها في الدنيا بما عملوا بشريعة الله تعالى فدخلوا الجنة وعرفوا نعيمها ..

وعلى العكس أيضاً فلو فرض أن مؤمناً كاملاً أدخل النار لما وجد من عذابها شيئاً لأنه لا استعداد عنده للشقاء والعذاب بل إن نفسه أهل للنعيم فقط ، وهذا ما تقوله النار لما يمر المؤمنون فوقها على الصراط :
[جُزْ يَا مُؤْمِنُ فَقَدْ أَطْفَأَ نُورَكَ لَهْيِي]^١.

وهذا معنى قوله تعالى : (ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً).

^١ انظر المعجم الكبير للطبراني

أي: لأن الذين اتقوا لبسوا ما يقيهم من النار فكيف تصيبهم ؟
وهذه الوقاية هي ما حصّلوها في الدنيا لما عملوا بأوامر الشريعة فتكيّفت
نفوسهم بكيفية لا تعرف إلا النعيم ..

تطهير الإنسان من آفة البخل وتحليته بصفة الكرم

إن البخل على أنواع، فهناك البخل بالمال على العيال أو على الأرحام أو على الأصحاب أو على غيرهم من المساكين والفقراء، وهناك البخل بالسلام، وهناك البخل بالصلاة والسلام على خير الأنام صلى الله عليه وسلم ، وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : [خَصْلَتَانِ لَا تَجْتَمِعَانِ فِي مُؤْمِنٍ الْبُخْلُ وَسُوءُ الْخُلُقِ] ^١.

يعني أن الإيمان يطالب صاحبه بالكرم وحسن الخلق ، وإلا فإيمانه ناقص، وهذا النقص يمنع من دخول الجنة حتى يَكْمُلَ ، ومن لم يَكْمُلْ في الدنيا فيلأقي في برازخ الآخرة من أهوالها وشدائدها ما يكمله، وإذا كان النقص مستحكماً فيه فلا بد له من غمسة في جهنم تطهره ، وقد تطول مدة عذابه في جهنم على حسب نقصه وذنوبه ، فإذا طهر وطاب أذن له بدخول الجنة .

ألا ترى إلى الحديد إذا تمكّن الصداً فيه لا يزيله إلا إدخاله النار ؟!

وروى الطبراني في الأوسط عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: [السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ، بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ، قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ، قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ، وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ، بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ، بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ، قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ، وَالْجَاهِلُ السَّخِيُّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْعَابِدِ الْبَخِيلِ]. والجاهل هنا يعني الجهالة العملية فربما كان مقصراً في العبادات والطاعات بدليل أنه صلى الله عليه وسلم قابله بالعابد البخيل، فيكون كرم هذا الرجل سبباً في مغفرة ذنوبه وجبر نقصه وستر عيوبه، وجاء في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم :

[خلق الله جنة عدن بيده ، وخلق فيها ثمارها ، وشقّ فيها أنهارها ، ثم نظر إليها فقال : تكلمي ، فقالت : قد أفلح المؤمنون ، فقال : وعزّتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل] ^٢.

^١ سنن الترمذي كتاب البر والصلة

^٢ انظر المعجم الأوسط للطبراني

ولا تنكر هذا فإن الله تعالى خالق الأشياء يأمرها بما شاء ويستنطقها فتتكلم وتقول ، ومن هذا لما خلق سبحانه السماء والأرض قال تبارك وتعالى لهما : (ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين).

وقال عز من قائل للجبال : (يا جبال أوبي معه) أي: رددي ذكر الله تعالى مع داود عليه السلام، وكان ذلك معجزة له يشهد بها بنو إسرائيل ويسمعون تسبيح الجبال مع داود عليه السلام^١.

قوله صلى الله عليه وسلم: [فقالت] أي: الجنة بعد أن ألهمها الله تعالى الجواب (قد أفلح المؤمنون) أي: نالوا كل الخير بدخول الجنة ..

[فقال: وعزتي وجلالي : لا يجاورني فيك بخيل] أي: ولو كان عابداً قائماً قانتاً ..

ومن البخل أيضاً أن يبخل الإنسان بالسلام على الناس ففي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : [وإن أبخل الناس من بخل بالسلام]^٢ وهذا أبخل الناس على الناس لأنه بخل بالسلام عليهم .

وقد شرع الله السلام للمسلمين فيما بينهم ، ولا يتوقف هذا على الأصحاب ومن تعرفه ففي الحديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ ؟ قَالَ: تُطْعِمُ الطَّعَامَ وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ]^٣، فالسلام في أصل الشرع بسبب الإسلام لا بسبب المعرفة .

والسلام الشرعي هو بلفظ "السلام عليكم" ، أو: "سلام عليكم" ، ومن جاء بألفاظ غير ذلك كقوله : "مرحباً" أو "صباح الخير" ، وغير ذلك ، فليس هذا من قبيل السلام الشرعي بل هي كلمات للترحيب يؤتى بها بعد السلام فافهم .

^١ قال الآلوسي في تفسيره : يروى أنه عليه السلام كان إذا سبح سبحت الجبال مثل

تسبيحه بصوت يُسمع منها. اهـ ٢٦٣/١٦

^٢ انظر شعب الإيمان للبيهقي

^٣ صحيح البخاري كتاب الإيمان

وروى أبو داود عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِاللَّهِ مَنْ بَدَأَهُمْ بِالسَّلَامِ] ^١ أي : أحق الناس بمغفرة الله ورحمة الله من يبدأ الناس بالسلام .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [إن السلام اسم من أسماء الله تعالى ، وضعه الله في الأرض ، فأفشوا السلام بينكم] ^٢ .

ومن بذل السلام وجبت له الجنة ، وذلك لما في السلام من آثار اجتماعية ونفسية تنشر المحبة والمودة بين المسلمين ، فالسلام يورث الوئام ، وتركه يورث التباعد .

وفي الحديث أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم : [يَا رَسُولَ اللَّهِ، دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، قَالَ: إِنَّ مِنْ مُوَجِّبَاتِ الْمَغْفِرَةِ بَذْلُ السَّلَامِ، وَحُسْنُ الْكَلَامِ] ^٣ .

ومن البخل الذميمة بل إن أبشع أنواع البخل أن يبخل الإنسان بالصلاة على سيد الناس سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ففي الحديث عن أبي ذر رضي الله عنه قال: [خرجت ذات يوم فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ألا أخبركم بأبخل الناس؟ قالوا: بلى يا رسول الله

قال: من ذُكرتُ عنده فلم يصلِّ علي فذلك أبخل الناس] ^٤ . وقد يُذكر صلى الله عليه وسلم في المجلس كثيراً ، ولا يبرّر هذا لك ترك الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بل على المسلم أن يصلّي عليه صلى الله عليه وسلم كلما سمع ذكره صلى الله عليه وسلم ، وإن نسي أو قصّر فقد صار ذلك حقاً عليه يمكنه قضاؤه آخر المجلس .

^١ سنن أبي داود كتاب الأدب

^٢ انظر الأدب المفرد للإمام البخاري

^٣ المعجم الكبير للطبراني

^٤ قال الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب : رواه ابن أبي عاصم في كتاب الصلاة من طريق علي بن يزيد عن القاسم

فمن الواجب علينا أن نصلي عليه صلى الله عليه وسلم وفاء لحقه علينا ،
ولأنه صلى الله عليه وسلم أرحم بنا من أنفسنا ، ولما في الصلاة عليه
صلى الله عليه وسلم من التكريم والتعظيم لجنابه الشريف .

وإن فضائل الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرة وعظيمة
فمنها : أنه صلى الله عليه وسلم يصلي على من صلى عليه صلى الله
عليه وسلم كما في الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم: [من صلى علي بلغني صلاته وصليت
عليه، وكُتِبَ له سوى ذلك عشر حسنات]^١.

^١ رواه الطبراني في الأوسط

شرف العندية الربانية وجوار رب العالمين

إن التقوى تؤهل الإنسان وتعدّه لأن يحل في جوار رب العالمين في الجنة، لأن الجنة جوار الله تعالى كما في الحديث المتقدم :

[خلق الله جنة عدن بيده ، وخلق فيها ثمارها ، وشقّ فيها أنهارها ، ثم نظر إليها فقال : تكلمي ، فقالت : قد أفلح المؤمنون ، فقال : وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل]¹.

وفوق الجنة عرش الرحمن كما في الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

[سقف الجنّة عرش الرَّحْمَن عز وجل]².

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى :

(والسقف المرفوع) قال : [هو العرش ، وهو سقف الجنة]³.

وإن شرف الدار يتوقف على شرف الجوار ، ولا أعظم ولا أفضل ولا أشرف من جوار رب العالمين ، ولذلك بشّر سبحانه المتقين - وهم المؤمنون الذي عملوا الصالحات وهيئوا أنفسهم لجوار الله تعالى - بشّرههم بجواره وعنديته في الجنة ، وذكر لهم العندية قبل أن يذكر دار ضيافته جل وعلا، ومن ذلك قوله تعالى : (إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم) فذكر الجوار قبل الدار، وكذا في قوله جل وعز : (قل أُنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات عدن)، وكذا في قوله سبحانه وتعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية * جزاؤهم عند ربهم جنات عدن) .

¹ انظر المعجم الأوسط للطبراني

² كما جاء في الفردوس بمأثور الخطاب للديلمي وهو في صحيح البخاري برواية : [فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُّوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ].

³ كما في تفسير القرطبي ٦١/١٧

وهذه امرأة فرعون لما سألت الله جل وعلا - وكانت رضي الله عنها مؤمنة بالله تعالى على شريعة قبل موسى عليه السلام - سألت الله تعالى جواره وعنديته قبل أن تذكر الجنة، فسألت الجوار قبل الدار ، ممّا يدل على أنها كانت على درجة من الفهم والمعرفة فقالت كما أخبر سبحانه :
(وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة) .

وقال عز من قائل : (إن المتقين في جنات ونهر* في مقعد صدق عند مليك مقتدر) .

وهذا القرب من حضرة الربّ جل وعلا يحتاج إلى أهلية ولياقة واستعداد بالتكمّل والتجمل ، ألا ترى إلى أن من سيدخل على الملوك ويتقرب منهم كيف يجب عليه أن يكون مستعداً لذلك مؤهلاً له في كلامه وحركاته وفي لباسه وسمته !!؟

ومن دخل عليهم دون لياقة منه استصغر نفسه ورأى أنه قاصر عن ذلك المقام ، وربما وجد في نفسه الحرج والضيق لأنه وُضع في مقام لا أهلية له به .

ولذلك وَصَفَ سبحانه من يدخلون الجنة بأنهم أهل الجنة وأصحاب الجنة لأن فيهم الأهلية لدخولها والحلول فيها، وصاروا أصحابها لمّا أعدوا أنفسهم لها، وكذلك أهل النار وأصحاب النار .. نسأل الله العافية .. آمين.

تطهير الإنسان من صفة احتقار الغير ، وتحليته بصفة التواضع

الاحتقار هو أن يترفع الإنسان بنفسه معجباً بها ويستصغر غيره ولو لم يتكلم بشيء يدل على ذلك، بل بمجرد أنه رأى نفسه أفضل وأشرف وخيراً من فلان وفلان مستصغراً لهم لأنهم فسقة أو من أهل الغفلة وهكذا .. وهذا الاحتقار يجزّ صاحبه إلى داءات أخرى كالسخرية والاستهزاء بمن احتقرهم ثم الوقوع في أعراضهم بالغيبة ..

وقد قال صلى الله عليه وسلم : [بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ] أي : يكفي الإنسان شراً بل هو كل الشر أن يحتقر ويستصغر غيره، [كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ]^١.

والعرض هو موضع المدح والقدح من الإنسان ، ولا يقتصر على الزنا كما يفهم الجهلة فقد ورد في الزنا أشد الوعيد والتهديد ، بل إن من اغتاب غيره فقد وقع في عرضه وكذا من تكبر على غيره أو من عليه أو حسده أو همزه أو لمزه وهكذا ..

وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم) أي : وإن كان من تسخرون منه فيه صفة نقص وعيب فلا تسخروا منه لأن السخرية أصلاً تكون في العادة ممن فيه مدعاة لها (عسى أن يكونوا خيراً منهم) أي : عسى أن يكونوا عند الله خيراً منهم في الحال ، أو أن يصيروا فيما بعد خيراً منهم ، ولا ينافي هذا أن يذكر الإنسان أخاه ويعظه وينصحه على وجه إرادة الخير له .

قوله تعالى : (ولا تلمزوا أنفسكم) أي : لا تعيبوا على غيركم عيباً فيه ، بل سلوا الله أن يكمله ويجمّله وأن يحفظكم مما وقع فيه .

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : [مَنْ عَيَّرَ أَخَاهُ بِذَنْبٍ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَعْمَلَهُ]^٢.

^١ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب

^٢ سنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع

ولمّا جاء إخوة يوسف ودخلوا عليه بعد ما فعلوا به ما فعلوا ، قالوا كما أخبر سبحانه عنهم : (أئنك لأنت يوسف) أي : أنت يوسف الآن ملكاً وقد كنت صغيراً فينا وألقيناك في الجب ؟!!

(قال أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا) ويّين لهم السبب في فضل الله وإكرامه له كما أخبر سبحانه عنه : (إنه من يتقّ ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين * قالوا : تالله لقد آثرك الله علينا وإن) أي : وإنه، (كنا لخاطئين) أي : معك، (قال لا تثريب عليكم اليوم) أي : لا تعيب ولا تعير مني عليكم (يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) .
فقل لسالك طريق القرب من الله تعالى : احمد الله على فضله وعطائه لك ولا تزدري خلق الله ، وإن بدا على وجهك النور ، وإن ظهرت على يدك خوارق العادات ، وإلا وقعت في المهالك .

قال تعالى : (ولا تنازوا بالألقاب) أي : لا يناد بعضكم بعضاً بالألقاب السيئة بل نادوا بعضكم بالألقاب الحميدة الكريمة .

(بئس الاسم الفسوق) أي : بئس الاسم اللقب السيئ الذي سمّيت به فلاناً .

(بعد الإيمان) أي : فهو فسق منكم بعد إيمانكم ، فلا تظنوا أن ذلك من الصغائر بل هو فسوق من الكبائر .

(ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) .

الأمل في الدنيا والحرص على المال هو من آفات النفس المهلكة

إن خُلِقَ الأمل خُلِقَ جبلي في الإنسان لا يستطيع انتزاعه ، بل يجب عليه صرفه في مصرفه الشرعي لأن أمله الطويل الكبير لا يتسع له عمره في الدنيا ، فليصرف أمله إلى عالم الآخرة الذي يتسع له أمله .

وفي الحديث أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَمَى بِحَصَاتَيْنِ، فَقَرَّبَ وَاحِدَةً وَبَاعَدَ أُخْرَى، وَقَالَ: [هَذَا الْأَجَلُ، وَهَذَا الْأَمَلُ] أَي : أن أمل الإنسان أبعد من أجله فكيف يتسع الكبير في الصغير ؟!.

أما عالم الجنة فهو عالم كبير لا انتهاء ولا فناء له، ويتسع لآمال المؤمنين كلها، فليصرف العاقل أمله إلى الجنة طمعاً بما فيها ، والله يعطي المؤمن في الجنة كل ما يتمناه ويؤمله ، بل إنه سبحانه يذكر المؤمن بما يتمناه^٢ وفي الحديث : [أَلَا لَا يَطُولَنَّ عَلَيْكُمْ الْأَمَدُ فَتَقْسُو قُلُوبُكُمْ]^٣.

وهذا بيان قوله تعالى : (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ) .

وفي الحديث يقول صلى الله عليه وسلم : [اِحْرَصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ]^٤..
أي : احرص على ما ينفعك في آخرتك من الصالحات، ولا تحرص على ما أنت تاركه كله لورثتك، بل خذ منه ما يكفيك في معاشك وستر عيالك ، واجعل الدنيا عوناً لك على أمور دينك.

^١ شعب الإيمان للبيهقي وهو في سنن الترمذي كتاب الأمثال بلفظ قريب
^٢ جاء في مسند الإمام أحمد قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في حق أدنى أهل الجنة منزلة : [فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ: تَمَنَّ، فَيَتَمَنَّى وَيَذْكُرُهُ اللَّهُ: سَلْ مِنْ كَذَا وَكَذَا، حَتَّى إِذَا انْقَطَعَتْ بِهِ الْأَمَانِيُّ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: هُوَ لَكَ وَعَشْرَةٌ أَمْثَالِهِ].

^٣ طرف حديث في سنن ابن ماجه في المقدمة
^٤ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب القدر

تشريف النبي صلى الله عليه وسلم لأئمة بعقد أخوته معهم

إن من أدلة الإيمان الصادق أن يودّ المؤمن رؤية سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدنيا قبل الآخرة .

ولقد ودّ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لو رأى من سيأتي بعده من المؤمنين به من أئمة، وسمّاهم إخوانه تكريماً لهم ، وتواضعاً منه صلى الله عليه وسلم ليشرّف من آمن به بأخوته صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم كما جاء في الحديث :

[وَدِدْتُ أَنِّي قَدْ رَأَيْتُ إِخْوَانَنَا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَسْنَا إِخْوَانَكَ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ أَصْحَابِي] أي: أنتم إخواني وأصحابي [وَإِخْوَانِي الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ] ... الحديث ^١

وفي رواية الإمام أحمد : [وَلَكِنْ إِخْوَانِي الَّذِينَ آمَنُوا بِي وَلَمْ يَرُونِي] ^٢

وطالما أنه صلى الله عليه وسلم ودّ لقاء من آمن به من أئمة وشرّفه بأخوته الإيمانية أفلا يودّ المؤمن أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدنيا؟!

نعم .. هذا من مقتضيات المحبة الصادقة لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففي الحديث : [مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِي لِي حُبًّا نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَأَى بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ] ^٣ أي يريد لو يفديني بأهله وماله ليراني .

فقل لمن يزعم محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يود رؤيته :

أين أنت من المحبة ؟ فإن ميزان المحبة الصادقة قد بيّنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يتخلّى المؤمن المحب عن كل شيء من الدنيا في سبيل رؤية سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

^١ طرف حديث في سنن النسائي كتاب الطهارة

^٢ المسند ١٢١١٩

^٣ صحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها

وقد أوعد الله تعالى وحدّر من رغب وقدم شيئاً من أمور الدنيا على محبة الله ورسوله فقال جل جلاله : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين) .

وقد شرف الله أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ورفعها على بقية الأمم الخيرة قبلها إكراماً لرسولها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال تعالى : (كنتم خير أمة أخرجت للناس) ، وفي بيان ذلك يقول صلى الله عليه وسلم :

[إِنَّكُمْ تَتِمُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً] أي : خيرة فاضلة مرت قبلكم .

[أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ]^١ .

ولما كان نبي ورسول هذه الأمة خير الرسل عليهم الصلاة والسلام وأفضلهم صارت أمته خير الأمم وأفضلها ، وهذا من فضائل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمته أنه جاء يرفع المؤمنين به إلى مستوى الخيرية على جميع الأمم .

^١ سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن

التزكية المحمدية تُعدّ الإنسان لمقام الشهادة

على جميع الأمم يوم القيامة

إنّ من تزكّي بتزكية سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن تخلّى عن الرذائل والقبايح بأنواعها القولية والاعتقادية والعملية والخلقية والأدبية ، وتحلّى بالمكارم والفضائل التي جاء بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أعدّ نفسه وأهلها لأن يزكّيه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الآخرة حتى يصير ثقة عدلاً تُقبل شهادته عند الله تعالى، وهذا قوله تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) أي : فيشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن اتّبعه بالصدق والعدالة حتى يقبل الله تعالى شهادته على الأمم السابقة بأن رسلهم قد بلّغتهم الرسالة.

وقوله تعالى : (وسطاً) : أي : خياراً عُدولاً ، لأن الوسط يجمع كمال الطرفين^١.

وقد بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى الآية المتقدمة بقوله :

[يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيُّ رَبِّ فَيَقُولُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: لَا مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ] وهم الكفرة من قومه [فَيَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟] وذلك لأن البينة على المدعي واليمين على من أنكر [فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُمَّتُهُ، فَتَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ، وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ } وَالْوَسْطُ الْعَدْلُ]^٢.

وتكون أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في مكان عال عن الأمم بما يتطلبه موقف الشاهد ، وعلى الشاهد يتوقف حكم الحاكم . وفي سنن ابن ماجه: [فَيَقُولُ] -أي: الله تعالى- [وَمَا عَلَّمُكُمْ بِذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: أَخْبَرَنَا نَبِيُّنَا بِذَلِكَ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا فَصَدَّقْنَاهُ]^٣.

^١ انظر البحث عن ذلك في كتاب (التقرب إلى الله تعالى) صفحة ٢٨٥ لمولانا

الشيخ الإمام رضي الله عنه

^٢ صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء

^٣ في كتاب الزهد

وهذا يدلّ على أن خبر القرآن أقوى من رؤية العيان^١.

ولا تُقبل شهادة الشاهد إلا إذا كان هناك من يُعدّله ويزكّيه، وهذا هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي يعدّل ويزكّي الأمة الشاهدة ، وهو قوله تعالى : (ويكون الرسول عليكم شهيداً) .

وفي حديث حجة الوداع قال صلى الله عليه وسلم :

[وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ ؟ قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ بِأَصْبَعِهِ السَّبَابَةَ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ]
أي: يقلبها ويميلها إلى الناس مشيراً إليهم [اللَّهُمَّ اشْهَدْ ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ]^٢.

وفي الحديث عن سؤال القبر جاء أن الملائكة تسأل الميت : [أرأيتك هذا الرجل الذي كان فيكم ماذا تقول فيه ؟ وماذا تشهد به عليه ؟]^٣ .

فانظر أيها المؤمن المحمدي في موقفك مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحکم صلتك بجنابه الشريف حباً واتباعاً له صلى الله عليه وسلم ، لأنك مسؤول عنه وعن موقفك معه، والقصد من وراء ذلك كله هو سعادتك أيها الإنسان في الدنيا والآخرة .

وفي الحديث يقول صلى الله عليه وسلم : [فَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانِي جَهَنَّمَ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِنَ الرُّسُلِ بِأَمَّتِهِ]^٤ .

وقال صلى الله عليه وسلم : [الجنة حُرِّمَتْ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ حَتَّى أَدْخِلَهَا ، وَحُرِّمَتْ عَلَى الْأُمَمِ حَتَّى تَدْخُلَهَا أُمَّتِي]^٥ .

^١ وانظر تفصيل ذلك في كتاب (محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله صلى

الله عليه وسلم مع العالم) الجزء الأول صفحة ٢٦٨

^٢ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الحج

^٣ طرف حديث في صحيح ابن حبان كتاب الجنائز

^٤ صحيح البخاري كتاب الأذان

^٥ المعجم الأوسط للطبراني

فقله تعالى : (كنتم خير أمة أخرجت للناس) أي : صرتم خير أمة بعد
بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكم ، وقد كانوا قبل بعثة النبي
صلى الله عليه وسلم في ضلال مبين .

الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات

قال تعالى : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) .

أما الظالم لنفسه فهو المؤمن المُخَلِّط ، والمقتصد هو المؤمن القائم بالفرائض ولا نوافل كثيرة لديه ، والسابق بالخيرات هو المقرَّب السابق غيره بفعل النوافل والطاعات .

أما قوله تعالى : (ثم أورثنا الكتاب) أي : القرآن الكريم النازل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، أي : أورثنا الكتاب منك يا محمد إلى مَنْ بعدك من الأمة ، وسَمَّاهم جل وعلا (الذين اصطفينا من عبادنا) ويشمل هذا من آمن به صلى الله عليه وسلم من عهد الصحابة رضي الله عنهم إلى آخر الأمة، وفي هذا التوريث تشريف لهم ، إذ إنهم ورثوا خير ميراث وهو القرآن الكريم عن خير موروث وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فصاروا بذلك خير أمة واثرة .

وقد ذكر سبحانه ذلك في القرآن الكريم حتى يَعْلَمَ المؤمن المحمدي كرامته على الله تعالى وشرفه عند الله تعالى ليحافظ عليهما ولا يضيع عمره في الدنيا وما فيها إذ إن الله تعالى سيسأل المؤمنين عن الميراث الذي أورثهم إياه من رسول الله صلى الله عليه وسلم هل حافظوا عليه أم نبذوه وراء ظهورهم ؟!

روى الطبراني عن عبد الله الرُّومِيَّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ مَرَّ -
بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم - بِسُوقِ الْمَدِينَةِ فَوَقَفَ عَلَيْهَا
فَقَالَ: "يَا أَهْلَ السُّوقِ، مَا أَعْجَزَكُمُ!" قَالُوا: وَمَا ذَاكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: "ذَاكَ
مِيرَاثُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَسَّمُ، وَأَنْتُمْ هَاهُنَا لَا تَذْهَبُونَ
فَتَأْخُذُونَ نَصِيبَكُمْ مِنْهُ!" قَالُوا: وَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: "فِي الْمَسْجِدِ" فَخَرَجُوا
سِرَاعًا إِلَى الْمَسْجِدِ - وكانوا من التابعين - [وَوَقَفَ أَبُو هُرَيْرَةَ لَهُمْ حَتَّى
رَجَعُوا، فَقَالَ لَهُمْ: "مَا لَكُمْ؟" قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ فَقَدْ أَتَيْنَا الْمَسْجِدَ، فَدَخَلْنَا،
فَلَمْ نَرِ فِيهِ شَيْئًا يُقَسَّمُ، فَقَالَ لَهُمْ أَبُو هُرَيْرَةَ: "أَمَّا رَأَيْتُمْ فِي الْمَسْجِدِ
أَحَدًا؟" قَالُوا: بَلَى، رَأَيْنَا قَوْمًا يُصَلُّونَ، وَقَوْمًا يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ، وَقَوْمًا
يَتَذَاكَرُونَ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ، فَقَالَ لَهُمْ أَبُو هُرَيْرَةَ: "وَيَحْكُمُ، فَذَاكَ مِيرَاثُ
مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" ^١.

^١ انظر المعجم الكبير

الكتاب والسنة متلازمان لا ينفكان

إن ميراث الله تعالى الذي ورّثه لعباده المصطفّين هو القرآن الكريم ، ولا بُدّ له من بيان وهو أحاديثه الشريفة صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى :

(إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه)

أي : بيانه لك يا رسول الله .

وقال تعالى : (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) .

فلا بيان لمعاني القرآن إلا ما جاء عن صاحب البيان عن القرآن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

المحافظة على الميراث القرآني

إن المحافظة على الميراث تتطلب من المؤمن أن يحافظ على القرآن الكريم تلاوة وعملاً وتحققاً بما فيه من عقائد إيمانية وأعمال جارية وأقوال طيبة وأخلاق حسنة كما بيّن ذلك كله سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتلاوة القرآن الكريم هي من أفضل العبادات كما قال صلى الله عليه وسلم : [أفضل عبادة أمتي قراءة القرآن] ^١ أي : أنه أفضل العبادات القولية .

وقد وصف الله تعالى القرآن بـ (المجيد) فقال عز من قائل : (والقرآن المجيد) والمجد هو الشرف والعلو والرفعة ، فهو سبحانه مجيد أي له سيادة وعزة الألوهية والربوبية ، والقرآن مجيد أي له الشرف وعلو الرتبة على كل كلام لأنه كلام الله جل وعلا .

وفي الحديث : [فَظُلُّ كَلَامِ اللَّهِ عَلَى كَلَامِ خَلْقِهِ كَفَظُلِّ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ] ^٢ .

وحظّ المؤمن من هذا المجد أنه إذا قرأ حرفاً نال عشر حسنات ، والله يضاعف لمن يشاء على حسب خشوعه وتدبّره .

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم قال: [مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ (الم) حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلاَمٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ] ^٣ .

وهذا يدلّ على أن من قرأ القرآن الكريم -ولو بغير فهم- نال فضل مضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها ، لأن معنى (الم) لا يعرفه إلا أهل العلم والمعرفة .

^١ انظر شعب الإيمان للبيهقي

^٢ سنن الدارمي كتاب فضائل القرآن

^٣ سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن

تلاوة القرآن الكريم طريق الوصول والقرب من رب العالمين

روى الإمام الترمذي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: [قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: الْحَالُ الْمُزْتَجِلُ قَالَ: وَمَا الْحَالُ الْمُزْتَجِلُ؟ قَالَ: الَّذِي يَضْرِبُ] أي يبدأ [مِنْ أَوَّلِ الْقُرْآنِ إِلَى آخِرِهِ كُلِّمَا حَلَّ ارْتَحَلَ] أي: كلما فرغ من ختمة شرع في غيرها، فهو كالمسافر الذي كلما أجهدته السير حلَّ في مكان ليستريح ثم تابع سفره، وهكذا حتى يصل إلى مقصوده^٢.

ومن ترك تلاوة القرآن الكريم فقد هَجَرَهُ تلاوةً، ودخل تحت الوعيد الذي ذكره سبحانه بقوله: (وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً) وهذا يكون يوم القيامة لما يشكو رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الله تعالى أَمَرَ من هَجَرَ القرآن من أُمته، والهجر على أنواع، فمنهم من يهجر تلاوته، ومنهم من يهجر العمل به، ومنهم من يهجره بأن لا يسعى في التفكير والتدبر في آياته.. وهكذا، فلا تتخذ القرآن مهجوراً بل اتخذه منشوراً^٣ للتلاوة والعمل.

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: [الظُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُنِ أَوْ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ] أي: يملأ نورها ما بين السماء والأرض، ولا تنكر خبر من رأى ذلك وحَدَّث به وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم.

[وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ] ... الحديث^٤.

^١ سنن الترمذي كتاب القراءات

^٢ انظر فضائل تلاوة القرآن الكريم في كتاب [تلاوة القرآن المجيد] للشيخ الإمام رضي الله عنه

^٣ أي مفتوحاً كما قال تعالى: (وإذا الصحف نشرت) .

^٤ صحيح مسلم كتاب الطهارة

انتفاع والدي القارئ بقراءة ابنهما

قال صلى الله عليه وسلم : [مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ أُلْبِسَ وَالِدَاهُ تَابَا
يَوْمَ الْقِيَامَةِ ضَوْءُهُ أَحْسَنُ مِنْ ضَوْءِ الشَّمْسِ فِي بُيُوتِ الدُّنْيَا لَوْ كَانَتْ فِيكُمْ
فَمَا ظَنُّكُمْ بِالَّذِي عَمِلَ بِهِذَا؟] ^١ .

وهذا من جملة ما يكرم الله به والدي القارئ العامل إكراماً له .

^١ سنن أبي داود كتاب الصلاة

برّ الوالدين قربة عظيمة إلى الله تعالى

قال صلى الله عليه وسلم : [الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ فَإِنْ شِئْتَ فَأَضِعْ ذَلِكَ الْبَابَ أَوْ احْفَظْهُ]^١ يعني أن أكمل أبواب الجنة وأفضلها إنما هو طاعة الوالد فيما يرضي الله تعالى والقيام بواجبه .

وليعلم كل إنسان أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، فلو غضبت الأم من ابنها لسبب غير شرعي فلا اعتبار لغضبها عند الله تعالى ، كأن تأمره بإيذاء زوجته والقسوة عليها ونحو ذلك مما يدل على خبث الطبع .

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَصَبْتُ ذَنْبًا عَظِيمًا فَهَلْ لِي تَوْبَةٌ؟ قَالَ: هَلْ لَكَ مِنْ أَمٍّ؟ قَالَ: لَا ، قَالَ: هَلْ لَكَ مِنْ خَالَةٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَبَرِّهَا^٢ .
وَعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ جَاهِمَةَ السَّلَمِيِّ أَنَّ جَاهِمَةَ جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَدْتُ أَنْ أَعْرُوزَ وَقَدْ جِئْتُ أَسْتَشِيرُكَ فَقَالَ: هَلْ لَكَ مِنْ أَمٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَالْزِمِهَا فَإِنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ رِجْلَيْهَا^٣ .

^١ سنن الترمذي كتاب البر والصلة

^٢ سنن الترمذي كتاب البر والصلة

^٣ سنن النسائي كتاب الجهاد

مراتب المؤمنين من أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

قال تعالى : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) .

والمعنى : ثم أورثنا القرآن الكريم من خير موروث وهو رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم إلى أمته وهم من اصطفاهم الله على غيرهم من الأمم ، وهم على مراتب : (فمنهم ظالم لنفسه) أي : ولكنه لم يخرج من كونه من الأمة المصطفاة ولم يخسر حظّه من الميراث القرآني المحمدي ، وظلم النفس من المؤمن أن يرتكب معصية ولا يتوب منها ، أو يترك فعل واجب ولا يؤديه ، وذلك لأن الإنسان إذا حرّم غيره خيراً أو سعى إليه بشراً فيقال عنه : "إنه ظالم" كمن أكل مال فلان أو ألحق أذىً وضرراً بفلان ،

فمن ضيّع خيراً على نفسه فهو ظالم لنفسه ، ومن أوقع نفسه في شرّ فهو ظالم لنفسه ، فمن ترك أمراً من أوامر الله تعالى فقد فوت على نفسه خيراً كبيراً وظلم نفسه ، ومن ارتكب ما نهى الله عنه فقد أوقع نفسه في شرّ كبير بأن عرّضها لغضب الله وعذابه فظلم نفسه كما قال تعالى : (وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) .

أما من تاب من ذنبه ولم يصرّ عليه فقد تدارك أمره ، قال صلى الله عليه وسلم : [التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ] ^١ .

ويُقال عن الظالم لنفسه ولم يتب يقال عنه : إنه فاسق ومخلّط لأنه خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، قال تعالى : (وَآخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) ، وأما أمره في الآخرة فقد قال صلى الله عليه وسلم : [فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ {يَعْنِي الظَّالِمُ يُؤْخَذُ مِنْهُ فِي مَقَامِهِ ذَلِكَ، فَذَلِكَ أَلْهَمُ وَالْحَزَنُ،

{ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ } قَالَ: يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا،
{ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ } قَالَ: الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ] ^٢ .

^١ سنن ابن ماجه كتاب الزهد

^٢ مسند الإمام أحمد ٢٠٧٠٨

والمؤمن الظالم لنفسه هو من مات ولم يتب من ذنوبه، فقد تناله شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ويدخل الجنة كما قال صلى الله عليه وسلم: [شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي]¹، وقد يمرّ على برازخ الآخرة ويلقى من أهوالها وشدائدها ما يكفر عنه سيئاته، أما إن كانت ذنوبه كبيرة فلا بُدّ له من دخول جهنم لمدة تكون على حسب ذنوبه ثم يخرج منها بشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم ويدخل الجنة.

والمقتصد هو المتوسط في الأعمال، القائم بالأوامر الشرعية، والتارك للمحرمات، لكن لا نوافل كثيرة له، وحاله في الآخرة أن الله تعالى يحاسبه حساباً يسيراً كما دلّ عليه قوله صلى الله عليه وسلم:

[إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيُّ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَعْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ]².

وفي الحديث أن الصحابي الجليل ضمام³ بن ثعلبة من بني سعد رضي الله عنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: [أَسْأَلُكَ بِرَبِّكَ وَرَبِّ مَنْ قَبْلَكَ اللَّهُ أَرْسَلَكَ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ؟ فَقَالَ: اللَّهُمَّ نَعَمْ].

وفي رواية مسلم: [قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟ قَالَ: اللَّهُ، قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ؟ قَالَ: اللَّهُ، قَالَ: فَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ؟ قَالَ: اللَّهُ، قَالَ: فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ وَخَلَقَ الْأَرْضَ وَنَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ اللَّهُ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: نَعَمْ].

¹ مسند الإمام أحمد ١٢٧٤٥ وسنن أبي داود كتاب السنة وسنن الترمذي كتاب

صفة القيامة والرقائق والورع

² صحيح البخاري كتاب المظالم والغصب

³ قال ابن عبد البر في الاستيعاب: ضمام بن ثعلبة، قدم على النبي صلى الله عليه وسلم

بعثه بنو سعد بن بكر وافداً، فسأله عن الإسلام فأسلم ثم رجع إليهم

فأسلموا، قال ابن عباس رضي الله عنهما: فما سمعنا بوافد قطّ كان أفضل من

ضمام بن ثعلبة. اهـ ٢٢٧/١

[قَالَ: أَنْشُدْكَ بِاللَّهِ] أَي : أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ [اللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ نُصَلِّيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ؟ قَالَ: اللَّهُمَّ نَعَمْ، قَالَ: أَنْشُدْكَ بِاللَّهِ اللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ نُصُومَ هَذَا الشَّهْرَ مِنَ السَّنَةِ؟ قَالَ: اللَّهُمَّ نَعَمْ، قَالَ: أَنْشُدْكَ بِاللَّهِ اللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْخُذَ هَذِهِ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَانِنَا فَتَقْسِمَهَا عَلَى فَقَرَانِنَا؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللَّهُمَّ نَعَمْ].

وفي رواية مسلم: [قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا حَجَّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا قَالَ: صَدَقَ].

[فَقَالَ الرَّجُلُ: آمَنْتُ بِمَا جِئْتُ بِهِ وَأَنَا رَسُولُ مَنْ وَرَائِي مِنْ قَوْمِي وَأَنَا ضِمَامُ بَنٍ ثَعْلَبَةَ أَخُو بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ^١].

وفي رواية مسلم : [قَالَ ثُمَّ وَلَّى، قَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أَزِيدُ عَلَيْهِنَّ وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُنَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَيْسَ صَدَقَ لِيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ^٢].

لقد جاء ضِمَامُ رضي الله عنه إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مؤمن لكنه أراد أن يتلقن الإيمان من فم رسول الله صلى الله عليه وسلم الشريف مباشرة ثم قال : [آمَنْتُ بِمَا جِئْتُ بِهِ] أي : إيماناً فوق إيمان ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : [لَيْسَ صَدَقَ لِيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ] فكان من المقتصدين .

قوله تعالى : (ومنهم سابق بالخيرات باذن الله) أي : بتوفيق الله ورضوانه ، والسابقون هم من قاموا بالواجبات، وانتهوا عن المحرمات ، وأخذوا بالنوافل بأنواعها القولية والعملية ، ولم يتركوا باب خير إلا دخلوه ، ومن جملة ذلك الصدقات المالية زيادة على الزكاة المفروضة إن كان عند أحدهم مال .

^١ صحيح البخاري كتاب العلم

^٢ صحيح مسلم كتاب الإيمان

وقل للغني الذي أدّى زكاة ماله وهو يرى من حاجة المسلمين وفقيرهم ما يرى ويعلم من حالهم ما يعلم، قل له :

إن لله حقاً في مالك سوى الزكاة يجب أن تؤديه لأصحابه وهم الفقراء وهذا ما يُعرف بـ : "الواجب العارض" ، أما الزكاة فهي واجب عيني في المال، وقد أشار إلى هذا صلى الله عليه وسلم بقوله : [إِنَّ فِي الْمَالِ لَحَقًّا سِوَى الزَّكَاةِ]^١ وهو حق الحاجة والأمر العارض ، كأن قصدك فقير قد علمت بحاجته فواجب عليك سدُّ حاجته ، ولا تحتجّ بأنك قد أدّيت زكاة مالك وكذلك صلة الأرحام الموقوفة على المال .

ومن أعظم القربات القولية تلاوة القرآن الكريم، قال تعالى : (وإنه) أي : القرآن الكريم (لذكر لك ولقومك وسوف تُسألون) أي: سوف تُسألون عن هذا القرآن هل اتخذتموه ذكراً أم هجرتموه هجراً؟ هل اتخذتموه إماماً أم طرحتموه وراءكم ظهرياً ؟

وقد سمّيت الطاعات والقربات والنوافل بـ الخيرات لأن كل واحدة منها تفتح لصاحبها باب خير كبير ، وهذا ما دلّ عليه صلى الله عليه وسلم بقوله لمعاذ بن جبل لما سأله :

[يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي عَنِ النَّارِ، قَالَ: لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيْسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسِّرُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتَقِيُمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، قَالَ: ثُمَّ تَلَا (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ) ... حَتَّى بَلَغَ (يَعْمَلُونَ) ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ]^٢ ... الحديث.

^١ سنن الترمذي كتاب الزكاة

^٢ سنن الترمذي كتاب الإيمان

وقوله صلى الله عليه وسلم : [رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ] أي : الأمر الجامع لكل أمر، والأهم من كل أمر هو الإسلام، يعني الاستسلام إلى الله تعالى إيماناً به جل وعلا وانقياداً لأمر رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم .

أنواع الصدقات

إن الصدقة لا تقتصر على المال فقط، وقد بين ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سأله فقراء المهاجرين قائلين: [يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ] أي : سَبَقْنَا أَهْلَ الْأَمْوَالِ بِالثَّوَابِ [يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ] أي : ولا مال لنا نتصدق به [قَالَ: أَوْ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ؟] إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ...^١ الحديث.

ولقد كان السلف الصالح يُكثرون من التسبيح والتحميد حتى كان من جملة أوراد خالد بن معدان التابعي العابد المشهور أربعون ألف تسبيحة كل يوم^٢.

^١ صحيح مسلم كتاب الزكاة

^٢ قال العيني في عمدة القاري شرح صحيح البخاري ١١/١٨٧: خَالِدُ بْنُ مَعْدَانَ الْكَلَابِيِّ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، كَانَ يَسْبِّحُ فِي الْيَوْمِ أَرْبَعِينَ أَلْفَ تَسْبِيحَةٍ، وَقَالَ: لَقِيتُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبْعِينَ رَجُلًا، مَاتَ بِطَرَسُوسَ سَنَةَ ثَلَاثٍ أَوْ أَرْبَعٍ وَمِائَةٍ. اهـ رحمه الله ورضي عنه

فضل التقرب إلى الله تعالى بالعبادات

قال تعالى : (والسابقون السابقون * أولئك المقربون)

أي : السابقون بالخيرات في الدنيا هم السابقون إلى رحمة الله وجنته يوم القيامة ، وأولئك لهم فضل القرب من حضرة الرب جل وعلا ، وهو قرب الرتبة والشرف لا قرب مكان أو زمان ، فإن الله تعالى ليس كمثله شيء ،

فلما تقرب هؤلاء إلى الله تعالى بالخيرات قربهم إليه فصاروا مقربين ، لأن الشرف والكرامة الكبرى أن يقربهم هو جل وعلا ، لا بتقربهم هم ، وهذا ما يفهم من قوله تعالى : (المقربون) ، ولم يقل : (المتقربون) ومن تقرب إلى العزيز صار عزيزاً به ، ومن تقرب إلى القوي صار قوياً به .. وهكذا، وفي الحديث القدسي يقول سبحانه :

[مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحِبَّهُ، فَإِذَا أَحَبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ] ^١.... الحديث، فإن أحب الأعمال إلى الله تعالى التي تقرب العبد إلى الله جل وعلا القيام بالفرائض التي فرضها سبحانه على عباده ، أمراً بالأوامر وانتهاءً عن المناهي، ومن تحقق بهذا كله فقد نال مقام قرب الفرائض وصار من أصحاب اليمين -وهم الأبرار أيضاً إذا اقترن ذكرهم بالمقربين ، وهم المقتصدون الذين اقتصدوا في أعمالهم على الفرائض ، ولا نوافل كثيرة عندهم-، وبقرب الفرائض يكون العبد محبباً ، حتى إذا دخل في مقام قرب النوافل صار محبباً ومحبوباً ، وصار طالباً ومطلوباً ، وتظهر عليه آثار وأحكام مقام قرب النوافل من الكرامات وخرق العادات .

وإن مقامات قرب النوافل تفتح للمتقرب بها أبواباً كثيرة في التقرب، وكلما دخل باباً وسكنه فتح الله له أبواباً غيرها .. وهكذا لا ينتهي العبد في تقربه لأن الله تعالى لا نهاية له جل وعلا .

^١ صحيح البخاري كتاب الرقاق

والتقرب من حضرة الرب هو مقام كبير وفضل عظيم ، حيث يصف الرب أصحاب المقامات العالية بقوله جل وعلا : (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون) .

وقال عز وجل في صفة عيسى بن مريم عليه السلام : (ومن المقربين) .
ولما امتنّ سبحانه وتعالى على موسى عليه السلام قال فيه : (وقربناه نجياً) .
وقال عز من قائل في عباده الصالحين الذين يتسارعون في القرب منه جل وعلا : (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب) .
وبعد دخول العبد في مقام قرب النوافل وتمكّنه منه ، هناك مقام القرب الملكوتي وقرب أهل الحكمة وغيره ، ولكل مقام أثره وحكمه كما تقدّم بيانه .

وإن من فضل الله تعالى على المتقرب إليه أن يقربه ضعف ما تقرب ،
فقد يتقرب العبد بعمل لو ضرب له مثل في القرب لمثل بالشبر
فان الله تعالى يضاعف أجر ذلك العمل ويقرب العبد شبرين .. وهكذا ..
وقد بين ذلك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه
جلّ وعلا في الحديث القدسي :

[أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي ، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا ، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً]^١ .

فهو سبحانه يسرع إلى عبده المتقرب إليه أكثر من إسراع العبد إليه ،
ولا بد له إذا من الوصال .

وهذا الحديث القدسي عنوان وشعار من أراد طريق القرب من الله تعالى ،
إذ أمره سبحانه أن يسلك طريق العبادة وهو على حسن ظنّ بالله تعالى .

^١ صحيح البخاري كتاب التوحيد

وهذا قوله جل وعلا : [أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي] .

وفي رواية عند الإمام أحمد : [أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، إِنَّ ظَنِّي بِي خَيْرٌ فَلَهُ ، وَإِنْ ظَنُّ شَرًّا فَلَهُ]^١ .

وفي الحديث الآخر : [حُسْنُ الظَّنِّ مِنْ حُسْنِ الْعِبَادَةِ]^٢ .

فليظنَّ العبد بربه خيراً ، وليظنَّ به القبول ، وأنه الغفور الرحيم القريب المجيب لمن استغفره ورجع إليه وسلك طريق القرب منه بالعبادات ، وذلك لأنه سبحانه كريم ، والكريم هو الذي يكرم كل من قصَّده ، ولا يكرم أهل الكرم فقط بل يعمل بوصفه .

فقوله تعالى في الحديث القدسي : [وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي] وفي رواية : [وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي]^٣ وفي رواية : [وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي]^٤ ، وذلك حتى يلاحظ الذاكر حين ذكره أن الله تعالى معه ، ولهذه المعية اعتبار كبير وأحكام وفضائل وآثار تظهر على الذاكر الحاضر بقلبه مع ربه جل وعلا .

[وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ] أي : في جمع أكثر من الجمع الذي ذكرني فيه ، والخيرية هنا خيرية كثرة .

ولقد كان المقربون السابقون كثيرين في أول هذه الأمة المحمدية قليلين في آخرها كما قال تعالى : (ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَبَقِيَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ) .

وأما من دونهم في المقام وهم أصحاب اليمين فقال تعالى فيهم : (ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَبَقِيَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ) يعني أن الخير لا ينقطع في أمة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى آخر الزمن ، وكذب من زعم غير ذلك .

وقد قرأ صلى الله عليه وسلم هذه الآيات وقال : [هما جميعاً من هذه الأمة] .

^١ المسند ٨٧١٥

^٢ سنن أبي داود كتاب الأدب

^٣ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار

^٤ مسند الإمام أحمد ٧١١٥

أي : ليس المراد في الآيات الأمم السابقة .

أخرج مسدد في مسنده وابن المنذر والطبراني وابن مردويه بسند حسن عن أبي بكر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : (ثلة من الأولين * وثلة من الآخرين) قال : [هما جميعاً من هذه الأمة] . وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن عدي وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله جل وعلا : (ثلة من الأولين * وثلة من الآخرين) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [هما جميعاً من أمتي] .

أي : ليس المراد في الآيات الأمم السابقة^١ .

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : [مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ الْمَطَرِ لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ]^٢ يعني أن أمة صلى الله عليه وسلم كلها خير ، ولا ينقطع الخير في أمة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال صلى الله عليه وسلم: [٣ لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ] .

وتشمل هذه الطائفة العلماء والعرفاء والأولياء والصالحين على اختلاف مراتبهم ، ومنهم المحبون الصادقون لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذين يودّ أحدهم لو رأى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو بأهله وماله كما جاء ذلك في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم الذي تقدم ذكره .

^١ كما في الدر المنثور للحافظ السيوطي ٣٩٢/٩

^٢ سنن الترمذي كتاب الأمثال

^٣ صحيح مسلم كتاب الإمارة

يوم الجمعة موسم للعبادة والقرب من الله تعالى

روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي لُبَابَةَ الْبَذْرِيِّ ابْنِ عَبْدِ الْمُنْذِرِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [سَيِّدُ الْأَيَّامِ يَوْمُ الْجُمُعَةِ وَأَعْظَمُهَا عِنْدَهُ وَأَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ يَوْمِ الْفِطْرِ وَيَوْمِ الْأَضْحَى، وَفِيهِ خَمْسُ خِلَالٍ: خَلَقَ اللَّهُ فِيهِ آدَمَ، وَأَهْبَطَ اللَّهُ فِيهِ آدَمَ إِلَى الْأَرْضِ، وَفِيهِ تَوَفَّى اللَّهُ آدَمَ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يَسْأَلُ الْعَبْدُ فِيهَا شَيْئًا إِلَّا آتَاهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِيَّاهُ مَا لَمْ يَسْأَلْ حَرَامًا، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، مَا مِنْ مَلِكٍ مُقَرَّبٍ وَلَا سَمَاءٍ وَلَا أَرْضٍ وَلَا رِيَّاحٍ وَلَا جِبَالٍ وَلَا بَحْرٍ إِلَّا هُنَّ يُشْفِقْنَ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ] ^١ وذلك لأن الساعة تقوم يوم الجمعة .

وروى البيهقي وأبو يعلى عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [إن لله عز وجل في كل جمعة ستمائة ألف عتيق يعتقهم من النار ، كلهم قد استوجبوا النار] ^٢.

فاغتنم يوم الجمعة وليلتها لعلك يشملك العتق من النار ، ومن أعتقه الله من النار فقد ضمن الموت على الإيمان ودخول الجنة بسلام .

وجمهور العلماء على أن أفضل الأيام مطلقاً هو يوم عرفة يليه يوم الجمعة على أن هناك من قال بأفضلية يوم الجمعة على يوم عرفة ^٣.

ومن إكرام الله تعالى لأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جعل لها مواسم زمنية يضاعف فيها ثواب الأعمال حتى يغتنمها الإنسان ، ويتلافى المقصر تقصيره، فمن ذلك وقت ما بين المغرب والعشاء .

روى الترمذي وابن ماجه عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [مَنْ صَلَّى بَعْدَ الْمَغْرِبِ سِتَّ رَكَعَاتٍ لَمْ يَتَكَلَّمْ فِيمَا بَيْنَهُنَّ بِسُوءٍ عُدِلْنَ لَهُ بِعِبَادَةِ ثِنْتَيْ عَشْرَةِ سَنَةً] ^٤.

١٤٩٩٧ ١

^٢ شعب الإيمان للبيهقي ومسند أبي يعلى الموصلي

^٣ انظر الإنصاف ٣ / ٣٥٧ ، وكشاف القناع ٢ / ٣٤٦ ، والفروع ٣ / ١٤٤ - ١٤٥ ، وتحفة المحتاج وحواشيه ٢ / ٤٠٥ ، ومغني المحتاج ١ / ٤٩٧ ، وحاشية الجمل ٢ / ٣ ، والزرقاني على الموطأ ١ / ٢٢٣

^٤ سنن الترمذي كتاب الصلاة وسنن ابن ماجه كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها

فقد دلّ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أمته على كل خير ، جزاه الله عنا كل خير ، وهو الذي قال لمعاذ رضي الله عنه : [ألا أدلك على أبواب الخير ؟] ، فأقبل عليها وادخلها وخذ منها ما استطعت ، لا سيما أيام رمضان وليالي وأيام العشر من ذي الحجة ويوم الجمعة وليلتها .

ولم يخلُ مؤمن محمدي من شرف ميراثه القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو كان أمّياً ، فلا بد أنه يقرأ الفاتحة وقصار السور فقد نال حظاً من الميراث .

وتختلف الورثة في السهام فهناك الوارث الكامل ودونه ودونه وهكذا . وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم :

[سَابِقُنَا سَابِقٌ ^١] أي: السابقون في الأعمال في الدنيا سابقون إلى الجنة في الآخرة.

[وَمُقْتَصِدُنَا نَاجٍ] .

[وَظَالِمُنَا] أي مرتكب الذنب.

[مَغْفُورٌ لَهُ ^٢] .

والظالم لنفسه هو مرتكب الذنوب الذي مات ولم يتب ، فإما أن تناله شفاعة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فينجو من النار ، أو أن كثرة ذنوبه لا تأتي الشفاعة عليها فيدخل النار مدة ثم يخرج من النار بشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل انتهاء مدّته في النار ، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم : [شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي] ^٣ يعني قد تكون فورية فتوصلهم إلى الجنة أو تكون بعد دخولهم جهنم لكثرة ذنوبهم .

^١ رواه البيهقي وابن مردويه

^٢ انظر " البعث والنشور " للبيهقي

^٣ كما في المسند ١٢٧٤٥

ولا يحملنك هذا الخبر على التماذي في الذنوب ، بل كن ذا همّة عالية ،
واجعل شفاعته رسول الله صلى الله عليه وسلم لك في الجنة بترقية
المقامات ورفع الدرجات ، وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم :
[أَسْعِدُ النَّاسَ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ
أَوْ نَفْسِهِ]¹.

¹ صحيح البخاري كتاب العلم

الخيرات المقربة إلى الله تعالى

لقد جاء بيان قوله تعالى : (ومنهم سابق بالخيرات) جاء بيانه على لسان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه : [أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟] .

وروى الترمذي عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:
[اخْتُبِسَ عَنَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ غَدَاةٍ عَنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ حَتَّى كِدْنَا نَتَرَاءَى عَيْنَ الشَّمْسِ، فَخَرَجَ سَرِيعًا فَثَوَّبَ بِالصَّلَاةِ فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَجَوَّزَ فِي صَلَاتِهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ دَعَا بِصَوْتِهِ فَقَالَ لَنَا: عَلَى مَصَافِكُمْ كَمَا أَنْتُمْ، ثُمَّ انْقَلَبَ إِلَيْنَا ثُمَّ قَالَ: أَمَّا إِلَيَّ سَأَحَدُّكُمْ مَا حَبَسَنِي عَنْكُمْ الْغَدَاةَ أَيُّ قُمْتُ مِنَ اللَّيْلِ فَتَوَضَّأْتُ وَصَلَّيْتُ مَا قُدِّرَ لِي فَتَنَعَسْتُ فِي صَلَاتِي] بسبب التجلي الرباني عليه صلى الله عليه وسلم
[فَاسْتَنْقَلْتُ، فَإِذَا أَنَا بِرَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّ، قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: لَا أَدْرِي رَبِّ، قَالَهَا ثَلَاثًا، قَالَ: فَرَأَيْتُهُ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ ثَدْيَيْ، فَتَجَلَّى لِي كُلُّ شَيْءٍ وَعَرَفْتُ] أي : كُشِفَ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
عن العوالم كلها وأفاض الله تعالى عليه من علم كل شيء.

[فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّ، قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟]

أي : يتدارسون فيما بينهم، كم يكفر هذا العمل من السيئات؟ وكم يرفع هذا العمل صاحبه من الدرجات؟ - لا أنهم يختصمون خصومة عداوة-، ثم يرفعون الأمر إلى الله ويحكم بينهم .

[قُلْتُ: فِي الْكَفَّارَاتِ^١، قَالَ: مَا هُنَّ؟ قُلْتُ: مَشْيُ الْأَقْدَامِ إِلَى الْجَمَاعَاتِ، وَالْجُلُوسُ فِي الْمَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ، وَإِسْبَاحُ الْوُضُوءِ فِي الْمَكْرُوهَاتِ]
وهذه الأمور من أعظم ما يكفر الذنوب.

^١ أي الكفارات المشهورة المتداولة بين جميع الناس ، وإلا فهناك كفارات غيرها، منها ما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم: [العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما] كما في الصحيحين ، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صيام يوم عرفة فقال : [يكفر السنة الماضية والباقية] كما في صحيح مسلم.

قَالَ: ثُمَّ فِيمَ؟ قُلْتُ: إِطْعَامُ الطَّعَامِ وَلَيْنَ الْكَلَامِ وَالصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ].

وفي رواية: [وَالذَّرَجَاتُ إِفْشَاءُ السَّلَامِ وَإِطْعَامُ الطَّعَامِ وَالصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ]^١.

[قَالَ: سَلْ، قُلْتُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي، وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةَ قَوْمٍ فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مَفْتُونٍ، أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى حُبِّكَ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّهَا حَقٌّ فَأَدْرُسُوهَا ثُمَّ تَعَلَّمُوهَا]^٢.

ولما قابل صلى الله عليه وسلم كلمة [الخيرات] بكلمة [المنكرات] في قوله : [اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ] عُلِمَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْخَيْرَاتِ الْعِبَادَاتِ وَالطَّاعَاتِ الْمُقَرَّبَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى .

وفي رواية الإمام أحمد : [اللهم إني أسألك الطيبات]^٣ أي طيبات الأعمال والأقوال، كما قال تعالى : (إِيَّاهُ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ) .

وفي الحديث : [وَمَا تَقَرَّبَ الْعِبَادُ إِلَى اللَّهِ بِمِثْلِ مَا خَرَجَ مِنْهُ] قَالَ أَبُو النَّضْرِ - أَحَدُ رَوَاةِ الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ - يَعْنِي الْقُرْآنَ^٤ أي : وما تقرب العباد إلى الله تعالى بكلام أو بصيغة ذكرٍ لله تعالى بمثل ما يتقربون إليه سبحانه بتلاوتهم للقرآن الكريم .

وروى ابن ماجه عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ هُمْ؟ قَالَ: هُمُ أَهْلُ الْقُرْآنِ، أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ]^٥.

^١ طرف حديث في سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن

^٢ سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن

^٣ المسند ١٦٠٢٦

^٤ طرف حديث في سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن

^٥ سنن ابن ماجه في المقدمة

ولمّا يأخذ الإنسان بذكر الله تعالى من تسبيح وتحميد وتهليل وتكبير
وصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فإنه يفعل ذلك امتثالاً لأمر الله
تعالى في القرآن الكريم .

ومن جملة الخيرات الصلاة والصيام والصدقة والتي هي زيادة على
الفرائض لما تقدّم في حديث معاذ رضي الله عنه : [الصَّوْمُ جُنَّةٌ] أي :
وقاية [وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ
جَوْفِ اللَّيْلِ] ^١.

وروى الترمذي عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه قَالَ:
[قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الدُّعَاءِ أَسْمَعُ؟ قَالَ: جَوْفُ
اللَّيْلِ الْآخِرِ وَدُبُرُ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ] ^٢.

وروى الإمام أحمد في كتاب الزهد أن سيدنا داود عليه السلام سأل سيدنا
جبريل عليه السلام فقال : يا جبريل أيّ الليل أفضل ؟ قال : يا داود ما
أدري ، إلا أن العرش يهتز في السّحر .

نعم .. يهتز العرش لأنه مخلوق من خلق الله ويهتز من أثر قوة التجلّي
الإلهي عليه وقت السحر .

ومن الفوائد أن يواظب الإنسان على قول : [يا صمد] مئة وخمساً
وعشرين مرة وقت السّحر لقضاء حاجاته كلها .

والصمد اسم من أسماء الله تعالى يعني المقصود في الحاجات والمهمات
وهذا قوله تعالى : (قل هو الله أحد * الله الصمد) أي : هو جل جلاله
المقصود لا غيره ، فاقصده وسله أيها الإنسان فيما تريد، وحاجات
الإنسان كثيرة منها الدنيوية والأخروية .

^١ طرف حديث في سنن الترمذي كتاب الإيمان
^٢ طرف حديث في سنن الترمذي كتاب الدعوات

وفي رواية للترمذي : [وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ] أي الكفارات والعبادات المتقدم ذكرها في الحديث [عَاشَ بِخَيْرٍ وَمَاتَ بِخَيْرٍ وَكَانَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَيَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ]^١ .

ولما قال الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم في ذلك المقام : [سَلْ]

قال صلى الله عليه وسلم : [اَللّٰهُمَّ اِنِّيْ اَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ ، وَحُبَّ الْمَسَاكِيْنِ ، وَاَنْ تَغْفِرَ لِيْ وَتَرْحَمَنِيْ ، وَاِذَا اَرَدْتَ فِتْنَةَ قَوْمٍ فَتَوَفَّنِيْ غَيْرَ مَفْتُوْنٍ] ، ثم ترقى في السؤال إلى الأعظم والأفضل فقال صلى الله عليه وسلم : [اَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى حُبِّكَ] .

وقوله صلى الله عليه وسلم : [وَحُبَّ الْمَسَاكِيْنِ] أي لأن الله تعالى يحبهم ، والمسكين هو وصف المؤمن المتواضع المنكسر لله تعالى .

وانظر في لفظة "مسكين" : إن حذفت آخر حرف منه أعطاك معنى الطيب العائد إليك ، وإن حذفت آخر حرفين أعطاك معنى الطيب ، وذلك لأن المسكين طيب في جميع أحواله .

وليس كل فقير المال مسكيناً بل قد يكون ساخطاً حاسداً ناقماً ، أما المسكين فهو التقيّ عفيف النفس أي ذليل النفس لله تعالى المتواضع مع خلق الله تعالى .

^١ طرف حديث في سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن

صفات السابقين بالخيرات

لقد ذكر سبحانه صفات المؤمنين الكَمَل في أول سورة (المؤمنين) وفي وسطها وفي آخرها، وذكر جل جلاله بين ذلك مناسبات تتعلق بالمؤمنين أيضاً، فقال سبحانه وتعالى في وصف كَمَل المؤمنين : (إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون * والذين هم بآيات ربهم يؤمنون * والذين هم بربهم لا يشركون * والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة أنهم إلى ربهم راجعون * أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون) .

وهذه صفات السابقين الذي ذكرهم سبحانه في سورة فاطر بقوله جل وعلا : (ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) .

وقوله عز من قائل في سورة الواقعة : (والسابقون السابقون * أولئك المقربون) .

يعني : السابقون في الدنيا بالأعمال والخيرات هم السابقون في الآخرة إلى جنة الله تعالى، وهم المقربون الذين تقربوا إلى الله تعالى فقرَّبهم إليه تبارك وتعالى.

فمن صفات هؤلاء ما جاء في قوله تعالى : (إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون) فأثبت لهم سبحانه خشية وخوفاً منه جل وعلا لأنه هو الله المهيمن العظيم الجليل ، فهم يخافون عذابه ويخافون عقابه ويخافون حجابه جل وعلا ، ويخافون أن يُزيغ قلوبهم، ويخافون سلب المقامات والمراتب ، ويخافون أن يميل بهم الهوى إلى الحرام.

وكان سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه يقول في آخر عمره : " اللهم إني أعوذ بك أن أزني ، أو أعمل بكبيرة في الإسلام، فقال بعض أصحابه : " يا أبا هريرة ومثلك يقول هذا ويخافه وقد بلغت من السن ما بلغت وانقطعت عنك الشهوات ، وقد شافهت النبي صلى الله عليه وسلم وبايعته ، وأخذت عنه ؟! قال : ويحك وما يؤمنني وإبليس حي؟^١ .

^١ انظر شعب الإيمان للبيهقي

أي : يا رب احفظني من الزنا ومن الخمر ومن المعاصي كلها مع أن أبا هريرة رضي الله عنه هو ذلك الصحابي الجليل ، لكنه يسأل الله تعالى الحفظ والثبات على الهدى والإيمان .

وقوله تعالى : (والذين هم بآيات ربهم يؤمنون) أي يؤمنون بآيات الله كلها ، وهي آيات الحلال والحرام وآيات الأحكام والبيان فيسمعونها ويقبلونها ويؤمنون بها ويسلمون لها ولا يتخذونها هزواً ولعباً كما قال تعالى : (ولا تتخذوا آيات الله هزواً) ، وقال سبحانه : (إنه لقول فصل * وما هو بالهزل) .

قوله جل وعز : (والذين هم بربهم لا يشركون) أي : أنهم بعبادة الله لا يشركون ، كما قال سبحانه في آية ثانية :

(فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) . فلا رياء ولا سمعة عندهم بل يعبدون الله تعالى بإخلاص له جل وعلا . وفي الحديث يقول سبحانه يوم القيامة :

[أَنَا أَعْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشُرْكَهُ] ^١ .

قوله تعالى : (والذين يؤتون ما آتوا) أي : من أعمال صالحة . (وقلوبهم وجله) أي : خائفة .

(أنهم) أي : لأنهم .

(إلى ربهم راجعون) وهناك السؤال والحساب والوقوف بين يدي الله تعالى .

^١ صحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق

وقد سألت السيدة عائشة رضي الله عنها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية { وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ } فقالت :

[أَهُمُّ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَا يَا بِنْتَ الصَّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمْ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ]¹.

وفي رواية أحمد : [لَا يَا بِنْتَ الصَّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُ]².

فهم يخافون أن يدخل أعمالهم شيء لا يقبله الله تعالى كشوائب الرياء والسمعة والعجب ، فيخافون الدَّيَّان وهو الله تعالى الناقد البصير ،

فهذا وصف السابقين أنهم يبذلون جهدهم في العبادات والطاعات ولكنهم يخافون ألا تُقْبَلَ أعمالهم ، ويرجون الله القبول ، فهم على صدق ورجاء .

وروى الطيالسي في مسنده عن التابعي عقبة بن صهبان الهنائي رحمه الله قال : [سألت السيدة عائشة رضي الله عنها عن قول الله تبارك وتعالى : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) الآية ، فقالت لي : " يا بني كل هؤلاء في الجنة، فأما السابق إلى الخيرات فمن مضى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحياة والرزق ، وأما المقتصد فمن تبع أثره من أصحابه حتى لحق به ، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم"، قال : فجعلت نفسها معنا]،

وهذا من تواضعها وانكسارها لله عز وجل ، وإلا فهي الصَّدِّيقَةُ بنت الصَّدِّيقِ الْمُبَرَّاةِ في كتاب الله تعالى ، حبيبة حبيب الله جلَّ وعلا.

وهكذا شأن المقرَّب إلى الله تعالى أنه كلما تقَرَّب إلى الله تعالى زادت خشيته من الله تعالى، وزاد تواضعه وانكساره لله تعالى ، ولا يرى لنفسه الفضل والعلو على أحد من المؤمنين .

¹ سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن

² المسند ٢٤٥٢٣

وروى البخاري في صحيحه أن سيدنا عمر قال لسيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما : [يَا أَبَا مُوسَى هَلْ يَسُرُّكَ إِسْلَامُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهَجَرْتُنَا مَعَهُ وَجِهَادُنَا مَعَهُ وَعَمَلْنَا كُلُّهُ مَعَهُ بَرَدَ لَنَا] أي : ثبت أجره لنا ببركة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم [وَأَنَّ كُلَّ عَمَلٍ عَمِلْنَاهُ بَعْدَهُ نَجُونَا مِنْهُ كَفَافًا رَأْسًا بِرَأْسٍ ؟] أي : لا لنا ولا علينا [فَقَالَ أَبُو مُوسَى : لَا وَاللَّهِ ، قَدْ جَاهَدْنَا بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَلَّيْنَا وَصُمْنَا وَعَمِلْنَا خَيْرًا كَثِيرًا وَأَسْلَمَ عَلَى أَيْدِينَا بَشَرٌ كَثِيرٌ وَأَنَا لَنَرْجُو ذَلِكَ . فَقَالَ عُمَرُ : لِكَيْيَ أَنَا وَالَّذِي نَفْسُ عُمَرَ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنَّ ذَلِكَ بَرَدَ لَنَا ، وَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ عَمِلْنَاهُ بَعْدُ نَجُونَا مِنْهُ كَفَافًا رَأْسًا بِرَأْسٍ] .

فانظر موقف سيدنا عمر رضي الله عنه في العبودية لله ، انظر موقفه مع عزة الربوبية ، فكان موقفه موقف العبد المعترف بالتقصير أمام حضرة الربوبية ، وهذه هي حقيقة العبودية لله تعالى .

وقال الحسن البصري رضي الله عنه للتابعين : [واللّه لقد أدركت سبعين بدريةً أكثر لباسهم الصوف ، ولو رأيتموهم لقلتم: "مجانين"] أي : لشدة خوفهم من الله وهيامهم بالله جلّ وعلا [ولو رأوا خياركم لقالوا: "ما لهؤلاء عند الله من خلاق" ، ولو رأوا شراركم لقالوا: "ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب"]^١ .

^١ رواه أبو نعيم في الحلية عن علقمة بن مرثد وأورده المزي في تهذيب الكمال والحسين بن محمد بن إبراهيم الحنائي في كتابه العاشر من الحنائيات والحسن بن علي الجوهري في حديث أبي الفضل الزهري

وقد وصف الله تعالى المؤمنين الصادقين في أول سورة (المؤمنين) فقال عز من قائل : (قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيماهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) .

قوله تعالى: (فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) أي : من راح يصرف شهوته في غير ما أحلّ الله له فقد تعدى حدود الله تعالى بل تعدّى حدّ الإنسانية والفطرة .

قوله تعالى: (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) فهناك الأمانات القولية والعرضية، فاحفظ أعراض الناس ولا تتجسس على أحد ، ومن فعل ذلك فهو خائن .

وهناك الأمانات المالية ، وهناك العهود والعقود في البيع والشراء، ويشمل ذلك أيضاً العرف والألفة والصحبة والأخوة والشركة .

روى الحاكم في المستدرک عَنْ السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: [جَاءَتْ عَجُوزٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عِنْدِي، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: مَنْ أَنْتِ؟، قَالَتْ: أَنَا جَنَّتَمَةُ الْمُزْنِيَّةُ، فَقَالَ: بَلْ أَنْتِ حَسَّانَةُ الْمُزْنِيَّةُ، كَيْفَ كُنْتُمْ؟ كَيْفَ حَالُكُمْ؟ كَيْفَ أَنْتُمْ بَعْدَنَا؟، قَالَتْ: بِخَيْرٍ، يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَلَمَّا خَرَجْتُ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تُقْبَلُ عَلَى هَذِهِ الْعَجُوزِ هَذَا الْإِقْبَالُ؟، فَقَالَ: إِنَّهَا كَانَتْ تَأْتِينَا زَمَنَ خَدِيجَةَ، وَإِنَّ حُسْنَ الْعَهْدِ مِنَ الْإِيمَانِ].

أي إنها كانت تتردد على السيدة خديجة لما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة قبل الهجرة .

حول بعض مواقف صلى الله عليه وسلم مع العالم

وفي هذا البحث يظهر للعاقل وجوه من الحكمة في إرسال الله تعالى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، قال تعالى : (إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً) .

وقال جل وعلا : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) .

وقال سبحانه : (ويكون الرسول عليكم شهيداً) .

وقال عز من قائل : (إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم) .

فما معنى هذه الشهادة في الآيات المتقدمة ؟

إنها ليست على معنى واحد ، ويجب على المؤمن أن يتفهم معانيها لأن له علاقة بها ، وسوف يظهر أمرها فيه .

فقوله تعالى : (إنا أرسلناك شاهداً) أطلق الشهادة في هذه الآية، يعني : إنا أرسلناك شاهداً أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأكبر شاهد على وحدانية الله تعالى هو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ظهر ذلك في أقواله وشريعته وفي معجزاته وفي خَلْقِهِ وَخُلُقِهِ وصورته البهيّة ووجهه المشرق المنير صلى الله عليه وسلم، كل ذلك شواهد شاهدة أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، فَشَاهِدُهُ منه وفيه صلى الله عليه وسلم.

وإذا كانت السماوات والأرض والجبال شواهد على خالقها وأنه لا إله إلا الله، فإن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم هو الشاهد الأكبر على أنه لا إله إلا الله، تجلّى ذلك في سيرته الشريفة صلى الله عليه وسلم إذ نشأ عليه الصلاة والسلام أمياً لم يقرأ ولم يكتب ، ثم جاء بالقرآن الكريم المعجز وما فيه من علوم ومعارف أعجزت الخلائق عن الإحاطة بها فمن أين له صلى الله عليه وسلم هذا ؟

إنه الله لا إله إلا هو الذي أعدّه وأمدّه ثم نبّأه وأرسله صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه القرآن والحكمة ..

وهناك المعجزات الكونية التي أجراها الله تعالى على يد رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم مما يشهد أنه لا إله إلا الله وأنّ محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أما عن خَلْقِه الشريف وصورته البهيّة وأنوار وجهه الشريف فقد قال سيدنا عبد الله بن رواحة :

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تنبيك بالخبر^١

يعني أنه صلى الله عليه وسلم لو لم يأت بالآيات والمعجزات فإن خَلْقِه الشريف وصورته المحمديّة تدل على أنه حقاً رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولهذا قال عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ رضي الله عنه - وكان من أحبار اليهود ثم أسلم-: [لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ وَقِيلَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا اسْتَبْنْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] أي : نظرت إلى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم [عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ]^٢.. الحديث، يعني بل وجهه الشريف صلى الله عليه وسلم هو وجه نبي صادق.

ومما جاء في التوراة بعد أن تُرجم إلى العربية ما رواه الإمام البخاري عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قُلْتُ: [أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي التَّوْرَةِ، قَالَ: أَجَلُ وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا } وَحِزْرًا لِلْأُمِّيِّينَ] أي : أنت يا رسول أمان للأمم المتبعة لك [أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمِيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ، لَيْسَ بِقَطٍّ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ] أي : لا يقابل من أساء إليه بالإساءة [وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ أَلْمَلَةَ الْعُوجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَفْتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُمِّيًّا وَآذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا]^٣.

^١ انظر كتاب الإصابة في معرفة الصحابة ١٢٥/٢

^٢ سنن ابن ماجه كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها

^٣ صحيح البخاري كتاب البيوع

فهو سبحانه يفتح القلوب بسبب وبواسطة سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قوله: [به] فهو صلى الله عليه وسلم الواسطة الكبرى والوسيلة العظمى، فبعد أن كانت قلوب الناس غلغلاً أي مغلفة بأغلفة حجبها عن نور الله تعالى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزال غلاف القلب لكي يدخل فيه نور الرب فيؤمن صاحبه ويهتدي إلى الله تعالى ، كما قال تعالى : (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه) ، وجاء صلى الله عليه وسلم يزيل القسوة عن الأبصار والآذان حتى صار الإنسان يرى الحق حقاً ويسمع الحق حقاً ويقبله ، وهذا قوله تعالى في القرآن الكريم : (الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد) .
وكما أنه صلى الله عليه وسلم هو الشاهد على أنه لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو أيضاً الشهيد على الأمة كما قال تعالى : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) .
وقوله تعالى : (على هؤلاء) أي : على أمتك من أولها إلى آخرها .

وافتح سبحانه الآية بقوله جل وعلا: (فكيف) ليشير إلى عظمة ذلك الأمر وشدة خطره ، فهو صلى الله عليه وسلم يشهد على أمته ، فيشهد على المؤمنين بالإيمان مزكياً لهم ، ويشهد على الكفار بالكفر .
ولما يشهد على الأمة ينقسم الناس إلى فَرِحٍ مستبشر ، وإلى فَزِعٍ مشفق .
وقد قال سبحانه في الكفار والعصاة المصيرين بعد أن شهد الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم : (يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتُمون الله حديثاً) يعني : يتمنى الكافر والعاصي يوم القيامة لما يرى الأهوال والشدائد والمخاوف يتمنى أن يكون هو والأرض سواء ، فإما أنه تمنى أنه لم يُخلق وبقي تراباً أو أنه تمنى لو بقي في التراب لمّا بلي في الأرض ، أو أنه تمنى أن يصير مآله إلى ما صارت إليه الحيوانات والبهائم بعد القصاص منها فإنها تعود تراباً ، يعني : يتمنى الزوال ولا زوال له ، ويتمنى العدم ولا يمكنه ذلك^١ .

^١ انظر تفسير الخازن للآية الكريمة ٢١٣/٦

وأما شهادته صلى الله عليه وسلم على أهل الإيمان بالإيمان ففيها يقول سبحانه : (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) أي : يشهد على المؤمنين به صلى الله عليه وسلم أنهم مؤمنون، وأنهم خيارُ عُدول حتى تُقبَل شهادتهم على الأمم السابقة أن رسلهم قد بلغتهم .

ولقد حرص السلف الصالح رضي الله عنهم على أن يكونوا من المؤمنين الذين يشهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإيمان والعدالة .

روى أبو نعيم في الحلية عن عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ^١ رحمه الله أَنَّهُ كَانَ إِذَا آخَى فِي اللَّهِ أَحَدًا أَخَذَ بِيَدِهِ وَاسْتَقْبَلَ بِهِ الْكُعْبَةَ، وَقَالَ: "اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا شُهَدَاءَ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَاجْعَلْ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْنَا شَهِيدًا بِالْإِيمَانِ" - أي : اجعلنا داخلين تحت قولك يا رب : (ويكون الرسول عليكم شهيداً) - " وَقَدْ سَبَقَتْ لَنَا مِنْكَ الْحُسْنَى غَيْرُ مُتَطَاوِلٍ عَلَيْنَا فِي الْأَمْوَالِ، وَلَا قَاسِيَةٍ قُلُوبُنَا، وَلَا قَائِلِينَ مَا لَيْسَ لَنَا بِحَقٍّ، وَلَا سَائِلِينَ مَا لَيْسَ لَنَا بِهِ عِلْمٌ".

ولما كانت الشهادة لا تكون إلا عن علم ، فإن الله تعالى يُعلم ويُطلع رسوله صلى الله عليه وسلم على أحوال أُمته فيشهد عليهم عن علم ..

وقد جاء في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم لما عُرج به إلى السماء ووصل إلى السماء الدنيا : [فَإِذَا رَجُلٌ قَاعِدٌ عَلَى يَمِينِهِ أَسْوَدَةٌ، وَعَلَى يَسَارِهِ أَسْوَدَةٌ، إِذَا نَظَرَ قَبْلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قَبْلَ يَسَارِهِ بَكَى، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْإِبْنِ الصَّالِحِ، قُلْتُ لِجَبْرِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا آدَمُ، وَهَذِهِ الْأَسْوَدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ، فَأَهْلُ الْيَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَالْأَسْوَدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَإِذَا نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قَبْلَ شِمَالِهِ بَكَى]...^٢ الحديث

١ قال الذهبي في سير أعلام النبلاء : عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ بن قَتَادَةَ اللَّيْثِيُّ الْجُنْدَعِيُّ الْمَكِّيُّ الْوَاعِظُ، الْمُفَسِّرُ، وَلِدَ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَحَدَّثَ عَنْ أَبِيهِ وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَعَلِيِّ وَأَبِي ذَرٍّ وَعَائِشَةَ وَأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَطَائِفَةٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جَمِيعًا ، وَكَانَ مِنْ ثِقَاتِ التَّابِعِينَ وَأَيَّمَتِهِمْ بِمَكَّةَ. اهـ ١٥٧/٤
٢ صحيح البخاري كتاب الصلاة

ويوم القيامة يأمر الله تعالى سيدنا آدم عليه السلام أن يفصل الكفار عن المؤمنين من ذريته.

روى الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعَثَ النَّارَ]¹ ... الحديث

وإن الأعمال تُعرض على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ففي الحديث : [حياتي خير لكم، تُحدثون ويُحدث لكم]²، ووفاتي خير لكم [- أي أن خيره لا ينقطع عن أمته صلى الله عليه وسلم -
[تُعرض علي أعمالكم، فما رأيت من خير حمدت الله عليه، وما رأيت من شر استغفرت الله لكم]³.

وقال صلى الله عليه وسلم: [يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: هَلْ بَلَغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيُّ رَبِّ، فَيَقُولُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: لَا مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ] وهؤلاء هم الكفرة من قومه [فَيَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟] وذلك لأن البينة على المدعي واليمين على من أنكر [فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُمَّتُهُ، فَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ، وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ} وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ {وَالْوَسْطُ الْعَدْلُ}⁴.

¹ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء وصحيح مسلم كتاب الإيمان

² قال الصنعاني في التنوير شرح الجامع الصغير : (حياتي خير لكم تحدثون) بالضم للمثناة الفوقية وبعده مهملتان أي توقعون أحداثاً في الأمور توجب لكم عقوبات شرعية وآثاماً، أو تحدثون أموراً من أسباب توجب أحكاماً شرعية فيها نجاتكم عن الآثام وإبانة لكم عن كيفية الأحكام، وهو المراد بقوله: (ويُحدث لكم) أي يحدث الله تعالى لكم بواسطته توبة تكفر الذنوب وأحكاماً تبين لكم ما تأتونه وما تذرونه. اهـ ٣٩٣/٥

³ عزاه في مجمع الزوائد إلى البزار وقال: رجاله رجال الصحيح، ورواه ابن سعد في الطبقات

⁴ صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء

وقول سيدنا نوح عليه السلام فيمن يشهد له : [محمد وأمته] يعني :
الصحابة ومن بعدهم من المؤمنين إلى يوم الدين ، وهؤلاء يشهد لهم
سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإيمان والعدالة والتزكية حتى
تُقبل شهادتهم ، أي : فلا تقتصر شهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم
على أهل زمنه فقط ممّن علمهم في الدنيا ، ممّا يدلّك على أن أعمال
العباد تُعرض عليه صلى الله عليه وسلم ويطلع الله على المؤمنين وعلى
الكافرين من أمته حتى يشهد صلى الله عليه وسلم عن علم بهم.

وقد أخبر الله تعالى الإنسان بشهادة سيدنا رسول الله صلى الله عليه
وسلم حتى يُصلح أمره ، وينهض بهمّته بالعمل والتقوى فيشهد له رسول
الله صلى الله عليه وسلم يوم الأشهاد كما قال تعالى : (إنا لننصر رسلنا
والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) .

وإن من جملة مواقف يوم القيامة موقف الشهادات ، وأولها شهادات
الرسل عليهم السلام، ثم شهادة الملائكة الكرام الكاتبين على الإنسان
أعماله، وهناك شهادة كل ما شاهدك من الأحجار والأشجار التي شاهدت
أعمالك فتشهد لك أو عليك، وهناك شهادة جوارح الإنسان وأعضائه كما
قال تعالى:(يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون).

وجاء في بيان قوله تعالى : (يومئذ تُحدّث أخبارها) ما رواه الإمام أحمد
عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: [قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ
الْآيَةَ { يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا } قَالَ: أَتَذَرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟ قَالُوا: اللَّهُ
وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ وَأَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى
ظَهْرِهَا، أَنْ تَقُولَ: عَمِلْتَ عَلَى كَذَا وَكَذَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: فَهَوَ أَخْبَارُهَا]¹.
وكفى بالله شهيداً على كل شيء ، ولهذا يخبر الله سبحانه العبد يوم
القيامة بأعماله، قال تعالى : (فلنقصنّ عليهم بعلم وما كنا غائبين)،

أي : كنا معكم في الدنيا شاهدين عليكم .

وإذا تاب العبد من ذنبه توبة نصوحاً محاً الله آثار ذنبه وأنسى الشهود
ذنبه ومحاه من صحيفته حتى يصير كمن لا ذنب له .

ونسأل الله تعالى أن يكتبنا مع الشاهدين الذي قال سبحانه فيهم :
(وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا
من الحق يقولون ربنا آمنا] أي : برسول الله صلى الله عليه وسلم الذي
أنزلت عليه الكتاب (فكتبنا مع الشاهدين) أي : من أمة محمد صلى الله
عليه وسلم الذين يشهدون على مَنْ قبلهم ويشهد لهم رسول الله صلى
الله عليه وسلم بالعدالة والإيمان . آمين

موقفه صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى :

(إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً)

في هذه الآية يبين سبحانه وجوهاً من الحكمة في إرساله سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم إلى العالم، ويبين جملة من مواقف صلى الله عليه وسلم مع العالم، فمن جملة ذلك أنه صلى الله عليه وسلم مبشر ونذير،

فجاء صلى الله عليه وسلم يبشّر من آمن به، كما قال تعالى :
(وبشّر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً)، فهناك مراتب للبشائر ،
ولها آثار وفوائد ومنافع للمؤمنين المبشّرين.

وأما فضل الله على المؤمنين فهو فضل كبير لا يُحصى ، ومن جملته
المغفرة والرحمة وجنات تجري من تحتها الأنهار ، ومن جملة ذلك أيضاً
خصوصيات هذه الأمة المحمدية على باقي الأمم، وهذا ما بيّنه سبحانه
بقوله : (الر تلك آيات الكتاب الحكيم * أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى
رجل منهم أن أنذر الناس وبشّر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند
ربهم).

فقوله تعالى : (أن أنذر الناس) أي جميع الناس، أما البشارة فهي
للمؤمنين به صلى الله عليه وسلم (وبشّر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق
عند ربهم) أي : أن لهم قديم صدق ، وذلك أنه سبقت لهم من الله
الحسنى والسعادة في الكتاب الأول الذي كتب الله فيه كل شيء، ومن
جملة ما كتب أن هذا مؤمن سعيد.

والوجه الثاني في معنى آية(أن لهم قدم صدق عند ربهم) أي : مُقَدَّمُ
صدق وهو ما عملوا من صالحات وأقوال خيرة، فهي تمشي أمامهم إلى
الآخرة ويَرَوْنَ ثوابها ونعيمها ، ف (قدم صدق) أي مُقَدَّمُ صدق قدموه إلى
الله تعالى فسبقتهم أعمالهم وشفعت فيهم عند الله تعالى.

والوجه الثالث في معنى آية (أن لهم قدم صدق عند ربهم) : أي : لهم مَقْدَم صدق عند الله وهو قدوم صدق عنده سبحانه، ووجه ذلك أنه سبحانه قدّم هذه الأمة على غيرها في دخول الجنة وفي عبور الصراط وفي موقف الحساب، فهي أمة متأخرة في الزمان عن جميع الأمم، قال صلى الله عليه وسلم : [نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] ^١.

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم :

[الجنة حُرِّمَتْ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ حَتَّى أَدْخُلَهَا ، وَحُرِّمَتْ عَلَى الْأُمَمِ حَتَّى تَدْخُلَهَا أُمَّتِي] ^٢.

ومن جملة مراتب البشارة المحمدية للمؤمنين من أُمَّتِهِ صلى الله عليه وسلم ما جاء في قوله تعالى : (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رَزَقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالَوا هَٰذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ).. الآية

فقد أَمَرَ الله تعالى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم أن يبشّر المؤمنين بالجنة ويبين لهم أن الجنة نعيمها متجدّد لا تكرر فيه ولا ملل ولا سآمة ، ففيها يُقدّم لهم ألوان من النعيم ثم يُقدّم لهم غيرها وهكذا ألوان وألوان متجدّدة لا تتناهى ، وليس الأمر كنعيم الدنيا الجزئي المؤقت ، فإن أكل أهل الجنة نوعاً من الثمار ثم قدّم لهم غيره يروه متشابهاً في شكله واسمه فيقولون : (هذا الذي رزقنا من قبل) فيقال لهم : لا ، الاسم واحد ولكن الطعم مختلف ، ويجدون ذلك في مذاقه وطعمه ، وهكذا تتجدّد عليهم ألوان النعيم والسرور ، فلا يملّون ولا يسأمون من خلودهم في الجنة لأنها دار نعيم من جميع الوجوه والاعتبارات .

أما أنه صلى الله عليه وسلم (النذير) فقد جاء ينذر العباد من عقاب الله إن هم عصوه وخالفوا أمره ، وهناك الإنذار بعذاب الله وسخطه ومقتته وبسوء يوم الحساب.

^١ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الجمعة

^٢ المعجم الأوسط للطبراني

أما آثار البشائر والنذر فإن البشارة تمشي أمام الإنسان وتنشّطه للعمل وتنهض بهمته من الكسل .

وأما الإنذار فيمشي وراء الإنسان متوعداً مخوفاً حتى لا يبقى على ما هو عليه بل ينتقل من حاله إلى حالٍ آخر به السلامة .

وفي الحديث يقول صلى الله عليه وسلم :

[مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ^١] .

وفي هذا الحديث تظهر حكمة الإنذار والتخويف ، وإن المؤمن ما بين رجاء وخوف، فمن سار في طريق سفر وأقبل عليه الليل وهو في الصحراء وخاف من المهالك والأهواء تراه لا ينام بل يتابع سيره ، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم : (مَنْ خَافَ أَدْلَجَ) أي : سار من أول الليل (وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ) أي : ومن تابع سيره ولو في الليل أصبح وقد وصل إلى المكان الذي يريده وهو آمن، والمراد من ذلك أن يحمل الإنسان على بذل جهده في العبادات ليفوز بمنزله الأصلي وهو جنة الله تعالى، والجنة هي سلعة الله التي قدّمها سبحانه لعباده المؤمنين فاشتروها وباعوا أنفسهم وأموالهم للحصول عليها، وهذا قوله تعالى : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) .

ومن جملة النُّذُر قوله تعالى : (وأنذرهم يوم الحسرة)، وقوله جل وعلا: (وأنذرهم يوم الآزفة)، وقوله عز من قائل : (هذا نذير من النذر الأولى) وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم (أزفت الآزفة * ليس لها من دون الله كاشفة) وهي الآخرة وما فيها، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ينذر بالآخرة أي : يخوِّف منها ويحذّر منها وأن لا يستبعد الإنسان أمر الآخرة فإن الله تعالى يقول : (أزفت الآزفة) أي : اقتربت كل القرب .

^١ سنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع

(ليس لها من دون الله كاشفة) أي : لا يكشف العلم عنها وعن وقتها إلا الله تعالى ، ولا يكشف أمرها وأحوالها عن أهل الموقف إلا الله تعالى ، وهذا قوله تعالى : (وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين) وهذا لما يلاقي الناس في موقف الآخرة ما يلاقون من الكربات والأحوال فصار قلب كل واحد منهم عند حنجرته كاظماً أي: مملوءاً همماً وغمماً وخوفاً وحزناً، حتى صار كل امرئ لا يهتمه إلا نفسه كما قال جل جلاله: (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه).

فلما قال سبحانه : (أزيّت الآزفة) أي : اقتربت بالنسبة لما مضى من عالم الدنيا.

روى الترمذي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: [صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا صَلَاةَ الْعَصْرِ بِنَهَارٍ ثُمَّ قَامَ خَطِيبًا فَلَمْ يَدْعُ شَيْئًا يَكُونُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا أَخْبَرَنَا بِهِ، حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ، وَكَانَ فِيمَا قَالَ: إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوهٌ خَصِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ]...

ثم قال أبو سعيد رضي الله عنه : [وَجَعَلْنَا نَلْتَفِتُ إِلَى الشَّمْسِ هَلْ بَقِيَ مِنْهَا شَيْءٌ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَلَا إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا فِيمَا مَضَى مِنْهَا إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا فِيمَا مَضَى مِنْهُ]¹.

أي : فلم يبق إلا القليل بالنسبة لما مضى على الدنيا ، وليس المراد لما مضى على آدم وذريته ، إذ إن الدنيا مخلوقة قبله عليه السلام، وفيها عوالم كبيرة كالجن والحيوان وغير ذلك .

وفي الحديث : (وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة آخر الخلق من آخر الساعة من ساعات الجمعة)² أي : إنه آخر المخلوقات في الأرض من عالم الدنيا.

وعلى هذا المعنى المتقدم تكون الساعة قد اقتربت وقوعها بالنسبة لما مضى من عمر الدنيا.

¹ سنن الترمذي كتاب الفتن

² طرف حديث في صحيح ابن حبان كتاب التاريخ

ومن جهة أخرى فإن قوله تعالى (أذفت الآزفة) أي : اقتربت من الإنسان باعتبار أن باب الدخول في الآخرة هو الموت ، وهو قريب من كل إنسان طالما أنه آت ، والبعيد هو ما ليس بآت... فافهم ، فإن هذا كله يبين لك معنى اقتراب الساعة .

ومن جملة النذر قوله تعالى : (وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون) .

وجاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ يُجَاءُ بِالْمَوْتِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحٌ فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قَالَ: فَيَشْرِبُونَ فَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ، قَالَ: فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قَالَ: فَيَشْرِبُونَ فَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ، قَالَ: فَيُؤَمَّرُ بِهِ فَيُدْبَحُ، قَالَ: وَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ لَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ لَا مَوْتَ، قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ }^١ . فأيقن أهل الجنة بالخلود وفرحوا لذلك بسبب ما هم عليه من النعيم، وحزن أهل النار وتأسفوا لما أيقنوا أنه لا موت يخلصهم من عذاب النار . وفي موقفه صلى الله عليه وسلم بشيراً ونذيراً يقول تعالى : (بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون) .

وهذا خبر عن المشركين الذين أعرضوا عن سماع وقبول دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنذاره لهم ، فينبغي على المؤمن أن يلقي سمعه وفكره لإنذار القرآن الكريم وبشائره .

^١ ١٠٦٤٤ ، وقال العيني في عمدة القاري شرح صحيح البخاري :

فإن قلت: من الذابح للموت؟ قلت: يذبحه يحيى بن زكريا عليه الصلاة والسلام، بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم. اهـ ٥٢/١٩

وروى الحافظ ابن كثير عن الإمام محمد بن إسحاق بإسناده عن محمد بن كعب القرظي قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة - وكان سيداً في قومه - قال يوماً - وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحده - : يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه

وأعرض عليه أموراً لعله أن يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء وكيف عنا؟ - وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه ورأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يزدون ويكثرون -، فقالوا: بلى يا أبا الوليد فقم إليه فكلّمه، فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا ابن أخي إنك حيث علمت من البسطة في العيش والمكان في النسب - أي: أنت المعروف في النسب والحسب والمكانة العلية والرتبة السامية - وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [قل: يا أبا الوليد أسمع] قال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلبت الطابع على الرجل حتى يداوى منه - يريد بذلك الجن - .

حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه. فقال له صلى الله عليه وسلم: [أفرغت يا أبا الوليد؟] قال: نعم. قال: [فاستمع مني] قال: أفعل.

فقال صلى الله عليه وسلم: (بسم الله الرحمن الرحيم * حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون * بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون).

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها وهو يقرؤها عليه، فلما سمعها عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى صلى الله عليه وسلم إلى السجدة فسجد، ثم قال: [قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك].

فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به.

فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟

قال: ورأيي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالسحر، ولا بالشعر ولا بالكهانة.

يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها لي، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزمكم، وكنتم أسعد الناس به.

وقد روى هذه القصة الحافظ أبو يعلى، وعبد بن حميد في مسنديهما بنحو ذلك.

ومن أثر البشائر أنها تمنح الإنسان قوة في الرجاء ، ومن أثر النذر أنها تزيد الإنسان خوفاً فيصير ما بين خوف ورجاء ..

وروى ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم يروي عن ربه جل وعلا قال : [وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين ، إذا خافني في الدنيا أمنت يوم القيامة ، وإذا أمني في الدنيا أخفته يوم القيامة]^١.

وروى الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: [يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أَبَالِي]... الحديث^٢

^١ في كتاب الرقائق

^٢ طرف حديث في سنن الترمذي كتاب الدعوات

وروى أحمد في مسنده عن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه قال :
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [إِنَّ شِئْتُمْ أَنْبَأْتُكُمْ مَا أَوَّلُ مَا يَقُولُ
اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَا أَوَّلُ مَا يَقُولُونَ لَهُ، قُلْنَا: نَعَمْ يَا
رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ: هَلْ أَحْبَبْتُمْ لِقَائِي؟
فَيَقُولُونَ: نَعَمْ يَا رَبَّنَا، فَيَقُولُ: لِمَ؟ فَيَقُولُونَ: رَجَوْنَا عَفْوَكَ وَمَغْفِرَتَكَ،
فَيَقُولُ: قَدْ وَجَبَتْ لَكُمْ مَغْفِرَتِي].

وفي الحديث : [أمر الله بعبد إلى النار ، فلما وقف على شفيرها التفت
فقال: أما والله يا رب إن كان ظني بك لحسن ، فقال الله : رُدُّوه ،
فأنا عند حسن ظن عبدي بي].^١

^١ انظر شعب الإيمان للبيهقي

مراتب الإنذار

إن أول ما أمر الله به رسوله صلى الله عليه وسلم في الإنذار أن يبدأ بعشيرته، قال تعالى: (وأنذر عشيرتك الأقربين).

وفي مسند أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لَمَّا أُنْزِلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ { وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ } قَالَ: أَتَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّفا فَصَعِدَ عَلَيْهِ ثُمَّ نَادَى: يَا صَبَاحَاهُ، فَاجْتَمَعَ النَّاسُ إِلَيْهِ بَيْنَ رَجُلٍ يَجِيءُ إِلَيْهِ، وَبَيْنَ رَجُلٍ يَبْعَثُ رَسُولَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي لُؤَيٍّ، أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ تُرِيدُ أَنْ تُغَيِّرَ عَلَيْكُمْ صَدَفْتُمُونِي؟ قَالُوا: نَعَمْ قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيَّ عَذَابٍ شَدِيدٍ^١..

ثم نزل الأمر بإنذار غيرهم وذلك في قوله تعالى: (لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون) ويشمل هذا قبائل العرب كلها في الجزيرة العربية وما حولها وهم الذين لم تبلغهم الرسائل السابقة .

ثم نزل الأمر بالإنذار العام لكل الأمم وذلك في قوله جل جلاله : (قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين).

فأمَرَ الله تعالى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم أن ينذر كافة الناس بمن فيهم من عرب وعجم ويهود ونصارى وغيرهم .

ولقد أنذر صلى الله عليه وسلم من الموت وما بعده من أهوال البرزخ وعذاب القبر ، والموت أول أبواب الآخرة، ولا بد أن تدخل ذلك الباب، ويرحم الله تعالى القائل:

الموت باب وكلُّ الناس داخله فليت شعري بعد الباب ما الدار
فأجيب:

الدار دار نعيم إن عملت بما يُرضي الإله وإن خالفت فالنار

ولقد بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه نذير مبين كما أمره بذلك سبحانه بقوله جل وعلا : (قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين)
أي : مبين في قائله ، ومبين في حاله صلى الله عليه وسلم لأن بعثته صلى
الله عليه وسلم هي من علامات الساعة.

روى الإمام أحمد عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ، وَأَشَارَ بِالسَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى]^١
وقال تعالى : (يسألونك عن الساعة أيان مرساها) وقد سألوا ذلك مراراً
لأنه صلى الله عليه وسلم كان يخوّفهم وينذرهم من أهوال البرزخ
والقيامة ، فراحوا يسألونه : متى الساعة التي تخوّفنا منها ؟

قال تعالى : (فيم) أي : فيم يسألونك !!؟

(أنت من ذكرها) أي : أنت يا رسول الله من المذكرات بها ومن أشراتها
وعلاماتها .

(إلى ربك منتهاها) أي : لا يعلم وقت حصولها بالتحديد إلا الله تعالى .

وقال تعالى : (هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراتها)

أي : حصل ذلك ببعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك سمّاه الله
تعالى (النذير المبين) ، قال عز من قائل : (وقل إني أنا النذير المبين)
أي إن حال الرسول صلى الله عليه وسلم وقاله مبين عن أمر الساعة .

وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنِي، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ^١ فَالْتَّجَاءُ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَذْلَجُوا فَأَنْطَلَقُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَنَجَوْا، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاَحَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي فَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنْ الْحَقِّ].^٢

^١ قال النووي في شرحه على صحيح مسلم ٧ / ٤٨٤ : قال العلماء : أصله أن الرجل إذا أراد إنذار قومه وإعلامهم بما يوجب المخافة نزع ثوبه ، وأشار به إليهم إذا كان بعيداً عنهم ليخبرهم بما دهمهم ، وأكثر ما يفعل هذا ربيئة القوم ، وهو طليعتهم ورقبيهم .

قالوا : وإنما يفعل ذلك لأنه أبين للناظر ، وأغرب وأشنع منظراً ، فهو أبلغ في استحاثهم في التأهب للعدو ، وقيل : معناه أنا النذير الذي أدركني جيش العدو ، فأخذ ثيابي ، فأنا أنذركم عرياناً . اهـ

^٢ صحيح البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة

الخوف والرجاء

الخوف والرجاء هما من ثمرات ونتائج البشائر والنذر ، ولا بد للمؤمن أن يكون على رجاء رحمة الله تعالى وعلى خوف من الذنوب التي اكتسبها ، كما قال تعالى : (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه) .

ومن تحقق بالخوف والرجاء فقد صحّ سيره وسلوكه طريق القرب من الله تعالى ، ومن أهمل واحدة منهما فقد يتأخر وصوله ويتلأأ في سيره ، فكما لا يستقيم طيران الطائر إلا إذا اعتدلت جناحاه ، فكذلك المؤمن فإنه يسير إلى الله تعالى بجناحي الخوف والرجاء ، قال تعالى : (ففرّوا إلى الله إني لكم منه نذير مبين) أي : أسرعوا إلى نيل مغفرة الله ورحمته ورضوانه ولا تتقاعسوا ولا تتكاسلوا ، وقد ترى كثيراً من أهل الدنيا يسرعون في تجاراتها وأعمالها ويتسابقون لكسب أموالها وحطامها ، وهم عن قضايا الآخرة وعن أن الله تعالى قد دعاهم إلى أسباب مغفرته وأمرهم بالمسارعة إليها والمسابقة إليها بل والتنافس فيها هم عن ذلك غافلون ومتقاعسون . وكما أمّر الله تعالى عباده أن يؤمنوا بأنه جل وعلا غفورٌ رحيم لمن رجاه ، كذلك أمّره أن يؤمنوا على حدٍ سواء بأنه جل جلاله شديد العقاب لمن خالف أمره وعصاه ، قال تعالى : (اعلّموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم) .

فلا يحملنك الخوف على اليأس ، ولا يحملنك الرجاء على التماذي والشطط ، بل تحقق بهما كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وانظر أيها المؤمن العاقل في حال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكيف كان خوفهم من الله تعالى وخشيتهم منه جلّ وعلا ، وهم رضي الله عنهم صدر هذه الأمة ، وقد نشؤوا وترّبوا على تعاليم وإرشادات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولعلك إذا تفكّرت في ذلك حمّلك ذلك على الخوف من الله تعالى إذ أين أنت من أصحاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟!

أسباب الخوف من الله تعالى ومراتبه

لقد كان الصحابة رضي الله عنهم يخاف أحدهم على إيمانه أن يكون فيه نفاق ، أو أن يعمل عملاً أو يلفظ قولاً يحبط بسببه عمله الصالح كله .

أما النفاق : فمنه الأكبر وهو نفاق الكفر ، ومنه الأصغر وهو النفاق العملي وهو ما كان الصحابة يخافون منه ، وهذا ما أشار إليه صلى الله عليه وسلم بقوله : (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ)^١ وهذا هو النفاق العملي الذي قد يقع فيه المؤمن .. ومن جملة النفاق العملي أن يُظهر المرء صلاحه ومحاسنه أمام الناس ، ولكنه إذا خلا بنفسه وغاب عن أعين الناس راح ينتهك حرمت الله ، وربما غشّ وكاد ومكر بهم .

وقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك، ففي الحديث عَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:

[لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا ، قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا، جَلَّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: أَمَّا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا]^٢.

وهذا ما كان الصحابة يخافون منه وهو أن يتغيروا في جلواتهم مع الناس عن حالهم في خلواتهم عن الناس ، حتى بلغ بهم الخوف أنهم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك، روى البيهقي في الشعب عن أنس رضي الله عنه قال : [قالوا : يا رسول الله نكون عندك على الحال ، فإذا فارقناك كنا على غيرها ، فنخاف أن يكون ذلك نفاقاً، قال : كيف أنتم وركبكم ؟ قالوا : الله ربنا في السر والعلانية] أي : لا نغفل عنه في جميع أحوالنا .

[قال : كيف أنتم ونبികم ؟ قالوا: أنت نبينا في السر والعلانية قال : ليس ذلكم النفاق] .

^١ صحيح البخاري كتاب الإيمان

^٢ سنن ابن ماجه كتاب الزهد

وذلك لأن كل مقام له مقال ، وكل مقال له حال ، وإن مجالسهم مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هي مجالس قرب وصفاء ونقاء وارتقاء إذ تفيض عليهم أنوار رسول الله صلى الله عليه وسلم وتنكشف لهم الحجب حتى يصيروا في حالٍ قالوا عنها : (نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ كَأَنَّا رَأَيْ عَيْنٍ).

ولما يخرجون من مجلسه صلى الله عليه وسلم يشعرون بتغير الحال معهم ، وهذا أمرٌ لا ضَرَرَ منه طالما أنهم على مراقبة لله تعالى وخشية منه على جميع أحوالهم .

روى الإمام الترمذي عَنْ حَنْظَلَةَ الْأَسَيْدِيِّ وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ مَرَّ بِأَبِي بَكْرٍ وَهُوَ يَبْكِي فَقَالَ: مَا لَكَ يَا حَنْظَلَةُ؟ قَالَ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا أَبَا بَكْرٍ، نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ كَأَنَّا رَأَيْ عَيْنٍ، فَإِذَا رَجَعْنَا إِلَى الْأَزْوَاجِ وَالضَّيْعَةِ نَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ: فَوَاللَّهِ إِنَّا لَكَذَلِكَ، أَنْطَلِقُ بِنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَنْطَلَقْنَا فَلَمَّا رَأَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَا لَكَ يَا حَنْظَلَةُ؟ قَالَ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ كَأَنَّا رَأَيْ عَيْنٍ، فَإِذَا رَجَعْنَا عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالضَّيْعَةَ^١ وَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَوْ تَدُومُونَ عَلَى الْحَالِ الَّذِي تَقُومُونَ بِهَا مِنْ عِنْدِي لَصَافَحْتُكُمْ الْمَلَائِكَةَ فِي مَجَالِسِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ وَعَلَى فُرُشِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةٌ^٢ وَسَاعَةٌ^٣ وَسَاعَةٌ^٣.

^١ قال في تحفة الأحوزي : (عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ) بِالْفَاءِ وَالسَّيْنِ الْمُهِمَلَةِ قَالَ الْهَرَوِيُّ وَغَيْرُهُ: مَعْنَاهُ حَاوَلْنَا ذَلِكَ وَمَارَسْنَاهُ وَاشْتَغَلْنَا بِهِ ، أَيْ عَالَجْنَا مَعَاشِنَا وَحُظُوظَنَا (وَالضَّيْعَةُ) بِالضَّادِ الْمُعْجَمَةِ وَهِيَ مَعَاشُ الرَّجُلِ مِنْ مَالٍ أَوْ حِرْفَةٍ أَوْ صِنَاعَةٍ. اهـ ٣٠٦/٦

^٢ قال في تحفة الأحوزي : أَيْ سَاعَةٌ كَذَا وَسَاعَةٌ كَذَا يَعْنِي لَا يَكُونُ الرَّجُلُ مُنَافِقًا بِأَنْ يَكُونَ فِي وَقْتٍ عَلَى الْحُضُورِ وَفِي وَقْتٍ عَلَى الْفُتُورِ ، فَبِئْسَ سَاعَةُ الْحُضُورِ تُؤَدُّونَ حُقُوقَ رَبِّكُمْ ، وَفِي سَاعَةِ الْفُتُورِ تَقْضُونَ حُظُوظَ أَنْفُسِكُمْ . اهـ ٣٠٦/٦

^٣ سنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع

ومن أسباب الخوف أيضاً خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر ، وقد عَقَدَ الإمام البخاري لذلك في صحيحه^١ باباً فقال : باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر.

ثم ذكر عن ابن أبي مليكة^٢ وهو من كبار التابعين أنه قال : "أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ إِنَّهُ عَلَى إِيْمَانٍ جَبْرِيْلَ وَمِيكَائِيْلَ".

واعلم أن من خاف من أمر آمنه الله تعالى منه ، فمن خاف النفاق على نفسه جعله الله صادقاً ، ومن أَمِنَ النفاق على نفسه فليخف من أن يكون منافقاً، وفي هذا قال إِبْرَاهِيْمُ التَّيْمِيُّ^٣: " مَا عَرَضْتُ قَوْلِي عَلَى عَمَلِي إِلَّا خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ مُكَذِّبًا"^٤ - بفتح الذال - .

ومن أسباب حبوط العمل الرياء فيه، كما قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم باليمن والأذى كالذي ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر) .

^١ في كتاب الإيمان

^٢ قال الذهبي في سير أعلام النبلاء : عبدالله بن عبيد الله بن أبي مليكة ، الامام الحجة الحافظ ، ولد في خلافة علي أو قبلها ، وكان عالماً مفتياً صاحب حديث وإتقان ، قال البخاري وجماعة: مات سنة سبع عشرة ومئة. اهـ ٩٠/٥

^٣ قال الذهبي في سير أعلام النبلاء : إِبْرَاهِيْمُ بْنُ يَزِيْدَ بْنِ شَرِيْكَ التَّيْمِيِّ، الإِمَامُ، الْقُدُوَّةُ، الْفَقِيْهُ، عَابِدُ الْكُوفَةِ، أَبُو أَسْمَاءَ، مَاتَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ. اهـ

^٤ جاء في شرح البخاري لابن بطال ٩٨/١ : معنى قول إبراهيم: ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذباً، فإنما قال ذلك، والله أعلم، لأن الله تعالى ذَمَّ من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وقصّر في عمله، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} فخشي أن يكون مكذباً، وأشفق من تقصيره.

وفي الحديث الذي رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :
 [حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا كَانَ يَوْمُ
 الْقِيَامَةِ يَنْزِلُ إِلَى الْعِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ، وَكُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةٌ، فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ
 رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَرَجُلٌ يَفْتَتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ، فَيَقُولُ
 اللَّهُ لِلْقَارِي: أَلَمْ أَعْلَمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا
 عَمِلْتَ فِيمَا عُلِّمْتَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آثَاءَ اللَّيْلِ وَآثَاءَ النَّهَارِ، فَيَقُولُ اللَّهُ
 لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ
 فُلَانًا قَارِيٌّ، فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ، وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ الْمَالِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَمْ أُوسِّعْ
 عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدْعَكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ
 فِيمَا آتَيْتُكَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَتَصَدَّقُ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ،
 وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ
 جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ، وَيُؤْتَى بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: فِي
 مَاذَا قُتِلْتَ؟ فَيَقُولُ: أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ، فَيَقُولُ
 اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ
 يُقَالَ: فُلَانٌ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ].

- قال أبو هريرة رضي الله عنه:- [ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 عَلَى رُكْبَتِي فَقَالَ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ
 النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]¹.

ومن جملة ما يحبط العمل تلقظ الإنسان بكلمات لا يلقي لها بالاً ..

روى البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 قَالَ: [إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا
 دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا
 فِي جَهَنَّمَ]².

¹ سنن الترمذي كتاب الزهد

² صحيح البخاري كتاب الرقاق

وفي رواية الإمام مالك : [إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا فِي الْجَنَّةِ]¹.

وفي رواية الإمام أحمد : [إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ وَمَا يَرَى أَنَّهَا تَبْلُغُ حَيْثُ بَلَغَتْ يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا]².

وفي رواية للإمام مسلم : [إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ يَنْزِلُ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ]³.

ومن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدَّثَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟ فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ، وَأَحْبَبْتُ عَمَلَكَ، أَوْ كَمَا قَالَ⁴.

يعني : من رأى غيره على معصية ونهاه عنها فلم ينته فأخذته الشدة والحماسة حتى بلغ به الأمر أن أقسم بالله أمام فلان أن الله لن يغفر له ، فقد يحبط الله عمله ويغفر لفلان ، لأنه هو الله تعالى ربّ العباد والحاكم عليهم وليس لأحد أن يتحكم في أفعال الله جل وعلا ، وفي هذا تنبيه وتحذير للعاقل بأن لا تأخذه الغضب النفسية وحظوظ الأنانية على أن يتسرع في كلامه ويخرج عن حد الاعتدال الذي بيّنه الشرع، وأن لا يحقر غيره ويرى الفضل لنفسه على غيره، بل عليه أن يحمد الله على فضله عليه ويسأله العافية والمغفرة والهداية لفلان.

¹ موطأ الإمام مالك كتاب الجامع

² المسند ١٠٤٧٥

³ صحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق

⁴ كتاب البر والصلة والآداب

ومن جملة ما يحيط بالعمل أدنى إساءة أدب مع جناب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا ما بينه سبحانه في خطابه للمؤمنين :

(يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم * يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون).

وقال سبحانه في وجوب التزام الأدب مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً * لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً) ^١.

ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم يخافون من سوء العاقبة ويسألون الله تعالى حسن العواقب .

روى ابن حبان في صحيحه عن السيدة عائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [إنما الأعمال بالخواتيم] .

وجاء في صحيح البخاري قوله صلى الله عليه وسلم:
[فَوَاللَّهِ إِنْ أَحَدَكُمْ أَوْ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُ بَاعٍ أَوْ ذِرَاعٍ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُ ذِرَاعٍ أَوْ ذِرَاعَيْنِ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا] ^٢.

ومن خاف سوء العاقبة وسأل الله حسنها أمَّنه الله تعالى ، أما من اعتمد على نفسه ولم يعتصم برَّبه فتعرض له الفتن فيزيغ قلبه وتسوء عاقبته ، ونسأل الله حسن العواقب . آمين .

^١ وانظر موقف الصحابة الكرام مع هذه الآية في كتاب (حول تفسير سورة الحجرات) لمولانا الشيخ الإمام رضي الله عنه

^٢ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب القدر

وروى الإمام الترمذي عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: [كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ]¹.

وقد ذكر سبحانه في القرآن الكريم دعاء المقربين أولي الأبواب الراسخين في العلم فقال جل وعلا: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ * رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) .

وروى الطبراني في الأوسط عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: [يا ولي الإسلام وأهله ، ثبتني به حتى ألقاك] .

وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: [اللهم اجعل خير عمري آخره ، اللهم اجعل خواتيم عملي رضوانك ، اللهم اجعل خير أيامي يوم ألقاك]² .

¹ سنن الترمذي كتاب القدر

² رواه الطبراني في الأوسط

الخوف من سوء الحساب

قال عز من قائل في صفة أهل الإيمان الكامل : (والذين يَصِلُونَ ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب) .

أي : يخافون من الحساب الشديد فهم يسألون الله تعالى ألا يحاسبهم أو يسألونه جل وعلا أن يكون حسابهم يسيراً .

واعلم أن أهل الجنة على مراتب في الحساب، فمنهم من يدخلها بغير حساب كما جاء بيان صفاتهم في أحاديثه صلى الله عليه وسلم^١، ومنهم من يحاسب حساباً يسيراً، وأما من شدد عليه في الحساب فلا بد أن يصيبه العذاب كما قال صلى الله عليه وسلم : [مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَّبَ]^٢.

أما الحساب اليسير فيكون من قبيل عرض أعمال العبد عليه كما قال صلى الله عليه وسلم :

[يَدْنُو أَحَدُكُمْ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ عَلَيْهِ] أي : يدخله في حفظه وستره [فَيَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، وَيَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقْرُرُهُ ثُمَّ يَقُولُ: إِنِّي سَتَرْتُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا فَأَنَا أَعْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ]^٣.

^١ روى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [يَدْخُلُ الْجَنَّةُ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ هُمْ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْفُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ].

^٢ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها

^٣ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الأدب

رجاء رحمة الله تبارك وتعالى

وهو أن يطمع الإنسان المؤمن في سعة مغفرة الله تعالى ورحمته ، ولا يحمله الخوف على اليأس من رحمة الله تعالى ، فهو إن نظر إلى أعماله وتقصيره خاف من الله أن يحاسبه على أعماله ويعذبه بها ، وإن نظر إلى سعة مغفرة الله ورحمته رجا الله تعالى أن يتجاوز عنه ويغفر له ويجبر تقصيره.

ولقد نهى الله تعالى عباده المسرفين على أنفسهم نهاهم عن القنوط من رحمته فقال سبحانه : (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) أي : مهما كثرت ذنوب أحدكم وجَلَّتْ مساوئُه فإن رحمة الله ومغفرته أوسع (إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم).

ثم فتح تبارك وتعالى باب التوبة لعباده وأمرهم بالرجوع إليه سبحانه فقال جل وعلا: (وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون) وقال عز من قائل : (ورحمتي وسعت كل شيء) .

ولقد كان عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يقول في دعائه :
[اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِرَحْمَتِكَ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ أَنْ تَغْفِرَ لِي]^١.

وإن الملائكة من حملة العرش ومن حولهم يدعون للمؤمنين متوسلين إلى الله تعالى بواسع رحمته كما أخبر سبحانه عنهم قولهم : (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك).

وقال تعالى : (إن ربك واسع المغفرة) أي : مهما كثرت ذنوب العبد ثم تاب إلى الله تعالى فإن الله تعالى يغفرها له.

^١ سنن ابن ماجه كتاب الصيام

وفي الحديث القدسي يقول الله عز وجل:

[يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي فَأِنِّي سَأَغْفِرُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ، وَلَوْ لَقِيتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا لَلْقِيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً، وَلَوْ عَمِلْتَ مِنَ الْخَطَايَا حَتَّى تَبْلُغَ عَنَانَ السَّمَاءِ مَا لَمْ تُشْرِكَ بِي شَيْئًا ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي لَغَفَرْتُ لَكَ ثُمَّ لَا أُبَالِي] ^١.

وروى الحاكم في المستدرک عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال :
[جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : واذنوباه واذنوباه ، قال هذا القول مرتين أو ثلاثاً ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل : " اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي، ورحمتك أرجى عندي من عملي " فقالها، ثم قال : "عُد" فعاد، ثم قال: "عد" فعاد ، فقال : قم فقد غفر الله لك] ^٢.

فمن علم وآمن بسعة مغفرة الله تعالى ورحمته فعليه أن يطرق أبواب المغفرة والرحمة والرضوان حتى ينال الحظ الوافر منها ، ومن تاب إلى الله تعالى تاب الله عليه ، فأسرع أيها العاقل إلى التوبة قبل فوات الأوان، ولا يغررَنَّك شبابك أو قوتك وظنك أن لك العمر المديد ، فأني لك ضمان هذا !!؟

فبادر إلى التوبة إلى الله تعالى واغتنم أوقات فراغك وقوة بدنك وخذ من الأعمال الصالحة ما يقربك إلى الله تعالى لنيل مغفرته ورضوانه .

ولقد فتح الله تعالى لعباده أبواب الرجاء، فمنها أنه جل وعلا أخبرهم أن رسل الله وأنبياءه عليهم السلام يستغفرون للمؤمنين، وكذلك حملة العرش ومن حوله من الملائكة الأعلی وفيهم أرواح الأنبياء والمقربين وسيد وإمام الملائكة الأعلی سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي كان آخر كلامه عند وفاته صلى الله عليه وسلم : [اللهم الرفيق الأعلى] ^٣.

^١ مسند الإمام أحمد ٢٠٥٢٩

^٢ في أول كتاب المناسك

^٣ انظر صحيح البخاري كتاب الدعوات

واليك بيان ذلك :

قال تعالى مخبراً عن سيدنا نوح عليه السلام قوله : (رب اغفر لي ولوالديّ ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات) ودخل في هذا كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة .

وقال جل وعز مخبراً عن الخليل سيدنا إبراهيم عليه السلام قوله : (ربنا اغفر لي ولوالديّ وللمؤمنين) أي : إلى يوم الدين (يوم يقوم الحساب) .

وقال جل وعلا مخاطباً سيّد العالمين وإمام الأنبياء والمرسلين سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم : (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) ودخل في استغفاره صلى الله عليه وسلم كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم الدين كما أخبر صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه البزار في مسنده بالسند الجيد : [حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم ، ووفاتي خير لكم تُعرض علي أعمالكم ، فما رأيت من خير حمدت الله عليه ، وما رأيت من شر استغفرت الله لكم]^١ .

فكان صلى الله عليه وسلم يستغفر لأمته في حياته الدنيوية ، وبقي واستمرّ على ذلك بعد وفاته كما أخبر بذلك صلى الله عليه وسلم ، فلم ينقطع خيره وبركته عن أمته صلى الله عليه وسلم .

وقال سبحانه في إخباره عن حملة العرش ومن حوله :

(الذين يحملون العرش ومن حوله يسبّحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتّبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم) .

^١ قال المُنَاوي في فيض القدير ٥٣٢/٣ : قال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح .

وإن أهل الإيمان كلهم يستغفرون للمؤمنين ، كما قال تعالى مخبراً عن
التابعين ومن بعدهم : (والذين جاؤوا من بعدهم) أي : بعد الصحابة
رضي الله عنهم (يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا
تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم) .

وهذا شأن وَصِفة كل مؤمن أن يستغفر لإخوانه المؤمنين السابقين
واللاحقين .

نعم لقد أخبر الله عن ذلك كله حتى يفتح لعبده المؤمن باب رجائه جلّ
وعلا.

تلازم الخوف والرجاء عند المؤمن

إن الخوف والرجاء بمنزلة الجناحين اللذين يتوقف عليهما طيران الطائر ، وإن جناحي المؤمن في سيره إلى الله تعالى هما الخوف والرجاء، كما قال تعالى : (ففروا إلى الله) والمعنى : أسرعوا إلى الإيمان والعمل الصالح كما يسرع الطائر في فراره إلى مأمنه إن هو شعر بالخوف أو الأذى .

وإن الخوف والرجاء هما ثمرتا النذر والبشائر والوعد والوعيد ، وقد قرن بينهما سبحانه في كثير من الآيات، منها قوله تعالى : (اعلّموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم) .

ومنها قوله جل وعلا : (نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم * وأن عذابي هو العذاب الأليم) .

الخوف من الذنوب والمعاصي

إن كل إنسان معرض للذنوب في جميع أحواله وأوقاته سواء كانت الذنوب قولية أم فعلية أم خلقية ..

وقل لمن يدعي النزاهة عن الذنوب : هل تسلم من الغيبة والنميمة والكبر والعجب واحتقار الغير وسوء المعاملة في البيع والشراء وغير ذلك؟!

كل ذلك يحمل الإنسان على اعترافه بالذنوب ويحمله على أن يخاف من الله تعالى أن يؤاخذ به ويحاسبه عليها ، وفي هذا يقول سبحانه : (قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم) ..

وهذا الخطاب لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أنه السيد المعصوم بعصمة الله تعالى عن الخطأ والخطيئة، لكنه تنبيه لكل مؤمن أن يخاف الله ولا يعصيه.

وفي الحديث الذي رواه الترمذي عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

[إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَلْتُ السَّمَاءَ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَبْطُ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ، وَاللَّهُ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمَ لَصَحَّحْتُكُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرْشِ وَلَخَرَجْتُكُمْ إِلَى الصُّعَدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ]^١.

وقوله صلى الله عليه وسلم : [وَاللَّهُ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ] أي : مما سيأتي على الناس من الأهوال والشدائد يوم القيامة ، وما هنالك من العذاب وما وراءه [لَصَحَّحْتُكُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا ، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرْشِ ، وَلَخَرَجْتُكُمْ إِلَى الصُّعَدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ] أي لصرتم تستغيثون بالله وتتضرعون إليه أن يجيركم من هول ذلك اليوم الذي ستصيرون إليه ولا محالة .

^١ سنن الترمذي كتاب الزهد

قال أبو ذرّ بعد أن سمع هذا الحديث : "لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُغْضَدُ"
أي شجرة تُقَطَّعُ وَتُسْتَأْصَلُ، وذلك لخوفه رضي الله عنه مما خوفهم منه
سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكان سيدنا أبو بكر رضي الله عنه يأخذ بلسانه ويقول : [هذا أوردني
الموارد] ^١ أي : المهالك ، مع أنه رضي الله عنه لم تكن له زلة لسان ،
ولم يكن يتكلم إلا بما يرضي الله عز وجل.

ولما حضرت سيدنا عمر الوفاة قال لابنه عبد الله رضي الله عنهما :
[ضَعْ خَدِّي عَلَى الْأَرْضِ] ثم قال [وَيْلٌ لِّأُمِّي إِنْ لَمْ يَرْحَمْنِي رَبِّي] ^٢.
ومرة سأل سيدنا عمر رضي الله عنه سيدنا حذيفة بن اليمان رضي الله
عنه - الذي أطلعه رسول الله صلى الله عليه وسلم على أسماء بعض
المنافقين وأمره بالكتمان - سأله: أنشدك الله أنا منهم ؟ فقال حذيفة :
اللهم لا، ولا أزكي أحداً بعدك ^٣.

وسمع رضي الله عنه يوماً قارئاً يتلو قول الله تعالى: (والطور* وكتاب
مسطور* في رق منشور* والبيت المعمور* والسقف المرفوع* والبحر
المسجور* إن عذاب ربك لواقع* ماله من دافع)

فمكث شهراً يعودُه الناس لا يدرون ما مرضه رضي الله عنه ^٤.

وكان سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه إِذَا وَقَفَ عَلَى قَبْرِ بَكِي حَتَّى يَبْلُ
لِحَيْتَهُ فَقِيلَ لَهُ: تَذَكَّرِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَلَا تَبْكِي، وَتَبْكِي مِنْ هَذَا؟ فَقَالَ: إِنَّ
رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَزِلٍ مِنْ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ
فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ].

^١ انظر كتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه

^٢ انظر كتاب المحتضرين لابن أبي الدنيا

^٣ قال الحافظ السخاوي في التحفة اللطيفة ١/ ١٧٨ في حق سيدنا حذيفة بن
اليمان رضي الله عنه: ومناقبه كثيرة، منها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - في
عودتهم من تبوك - كان أسرَّ إليه أسماء المنافقين، وحفظ عنه الفتن الكائنة بين
يدي الساعة، وناشده عمر رضي الله عنه بالله: أنا منهم ؟ فقال: اللهم لا، ولا أزكي
أحدًا بعدك.

^٤ انظر تفسير ابن كثير ٧/ ٤٠٠

قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إِلَّا الْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ]¹.

وكثيراً ما كان سيدنا عليّ كرم الله وجهه يبكي في محرابه² ويخاف من طول الأمل واتباع الهوى ويحذر من شر الدنيا أن تدخل عليه ، مع أنه من أكابر الصحابة وأزهدهم، وكان رضي الله عنه يقول :

[ارْتَحَلْتُ الدُّنْيَا مُدْبِرَةً، وَارْتَحَلْتُ الْآخِرَةَ مُقْبِلَةً، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ]³.

وقرأ تميم الداري رضي الله عنه ذات ليلة سورة الجاثية ، فلما أتى على هذه الآية { أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون } لم يزل يكررها ويبكي حتى أصبح⁴.

فإذا كان أولئك رضي الله عنهم آمنوا وعملوا الصالحات وأصلحوا وأخلصوا وقد خافوا ، فما بالك أيها المؤمن لا تخاف على نفسك مع أنك لم تبلغ ما بلغوا ولم تعمل ما عملوا ؟!!!

أما تخاف الله تعالى أن يطبع على قلبك إن أنت بقيت مصراً على الذنوب؟!

أما تخاف من إصرارك على الذنوب أن يجرك إلى الكفر؟!

¹ انظر سنن الترمذي كتاب الزهد

² ذكر محب الدين الطبري في الرياض النضرة أن ضرار الصدائي رحمه الله قال :
وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه -وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه- قابضاً على لحيته يتململ يتململ السليم ويبكي بكاء الحزين ويقول: يا دنيا غُريّ غيري، إليّ تعرضت أم إليّ تشوقت ؟ هيهات! هيهات! قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها، فعمرك قصير وخطرك قليل، آه آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق. اهـ ١٨٧/٣

³ صحيح البخاري كتاب الرقاق

⁴ قال الحافظ السيوطي في الدر المنثور: أخرج ابن المبارك ، وسعيد بن منصور ، وابن سعد ، وابن أبي شيبة ، وعبدالله بن أحمد في زوائد الزهد ، والطبراني عن أبي الضحى رضي الله عنه.... وذكره.

قال تعالى : (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) أي : يعلمون خطر الإصرار على الذنب وسوء عاقبته ، فليس من صفة المؤمن الإصرار على الذنب ، وليس العجيب أن يقع المؤمن في الذنب ، ولكن العجيب أن يقع في الذنب ولا يبادر إلى التوبة ! قال صلى الله عليه وسلم : [وَيْلٌ لِّلْمُصِرِّينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ]^١ .

واعلم أيها العاقل أن الذنب في القلب كالمرض في الجسد ، فكما يجب على الإنسان أن يتعاطى الدواء ليزيل عنه الألم فعليه أيضاً أن يستغفر الله ويتوب إليه كلما وقع في ذنب فلا يكون عندئذ من المصيرين ، ولا يدخل أيضاً في قوله صلى الله عليه وسلم : [المستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه]^٢ طالما أنه يستغفر ويتوب كل مرة لكن نفسه تغلبه مرة أخرى فيقع في الذنب ثم يعود ويستغفر ويتوب ، وقال صلى الله عليه وسلم : [مَا أَصْرَ مَنْ اسْتَغْفَرَ وَإِنْ عَادَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً]^٣ ، ومن أصر على ذنوبه طبع الله على قلبه ففي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : [مَنْ تَرَكَ الْجُمُعَةَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَهَاوَنًا بِهَا طُبِعَ عَلَى قَلْبِهِ]^٤ أي : طبع على قلبه النفاق ، وفي رواية : [مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ]^٥ أي : من ترك صلاة الجمعة من غير عذر شرعي .

^١ طرف حديث في مسند الإمام أحمد ٦٢٥٥

^٢ كما في شعب الإيمان للبيهقي والتوبة لابن أبي الدنيا

^٣ سنن أبي داود كتاب الصلاة

^٤ سنن ابن ماجه كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها

^٥ مسند الإمام أحمد ١٤٠٣٢

وروى الترمذي في سننه^١ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نَكَتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةً سَوْدَاءٌ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَغْلُو قَلْبُهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ { كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ }].

ومن خاف من شيء فرّ منه ، فمن خاف من ذنوبه وجب عليه أن ينتهي عنها بالرجوع إلى الله تعالى والتوبة إليه سبحانه طلباً للأمان ..

وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم : [مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ] أي : من خاف في سفره من ظلمة الليل مشى في الليل حتى يصل مراده ويبلغ مأمته، وكذلك المؤمن عليه أن يسرع في الأعمال حتى يرجع إلى منزله الأصلي ، وهو الجنة ، وهذا قوله صلى الله عليه وسلم: [أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةً، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ]^٢.

وقد فتح سبحانه باب التوبة لعباده فقال جل وعلا : (غافر الذنب وقابل التوب)، وقال صلى الله عليه وسلم : [كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ]^٣.

وروى مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا].^٤

وفي سنن الترمذي عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرِغْ]^٥.

^١ في كتاب تفسير القرآن

^٢ سنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع

^٣ سنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع

^٤ في كتاب التوبة

^٥ في كتاب الدعوات ، وقال في تحفة الأحوزي : أَيُّ مَا لَمْ تَبْلُغِ الرُّوحُ إِلَى الْحُلُقُومِ، يَغْنِي مَا لَمْ يَتَيَقَّنْ بِالْمَوْتِ، فَإِنَّ التَّوْبَةَ بَعْدَ التَّيَقُّنِ بِالْمَوْتِ لَمْ يُعْتَدَ بِهَا لِقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَصَرَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ). اهـ ٤٣٤/٨

موقف الإنسان من البشائر والنذر

لقد أرسل الله تعالى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم إلى العالم ،
ومن مواقفه معهم أنه مبشّر ونذير ، وسوف يسأل الله تعالى كل إنسان
عن موقفه من البشائر القرآنية والمحمدية وكذلك النذر ، هل تأثر
بالبشائر فرحاً وآمن بالجنة وأخذ بأسباب دخولها ؟
وهل خاف من النار واتقى أسباب دخولها وما هنالك من أهوال الآخرة ؟
ولمّا بَشَّرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن بالجنة وما فيها وجب
عليه عندئذ أن يحب الجنة ويسعى لدخولها بأن يعمل بأعمال أهل الجنة
ويتصف بصفاتهم .

وفي هذا يقول سبحانه : (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها
السموات والأرض أعدت للمتقين) .

فلقد أمر سبحانه العباد بالمسارعة إلى الأخذ بأسباب مغفرة الله تعالى
والأعمال الصالحة التي تؤهل صاحبها لدخول الجنة .

فقوله تعالى : (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم) أي : إلى التزام أوامر الله
تعالى فإن ذلك يغفر الذنوب ، ففي الصلاة مغفرة للذنوب وفي الوضوء
مغفرة للذنوب وفي الصدقة تكفير للسيئات وكذلك في الصيام والحج
وسائر العبادات .

روى الإمام مسلم في صحيحه عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ
خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ جَسَدِهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِهِ]^١.

^١ في كتاب الطهارة

وروى الإمام البخاري في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه
أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: [أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ
أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا مَا تَقُولُ ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ؟
قَالُوا: لَا يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا، قَالَ: فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ
يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا]¹.

وروى الإمام أحمد في مسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ:
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى
الْجُمُعَةِ كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتَنِبْتَ الْكَبَائِرُ]².

قوله تعالى : (وجنة عرضها السموات والأرض) والعرض يعني السعة ،
وليس المراد ضدّ الطول ، لأن العرب كثيراً ما تطلق العرض على السعة
دون النظر إلى طول وعرض ، فالجنة واسعة كبيرة سعتها سماوات وأرض
الآخرة وليست سماوات الدنيا وأرضها ، كما قال تعالى : (يوم تبدّل الأرض
غير الأرض والسموات) .

وتبدأ جنة الله تعالى من سدرة المنتهى فوق السماء السابعة كما قال
تعالى: (عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى) وأعلاها عند عرش
الرحمن ، ونعيم الجنة كبير واسع لا تنتهي ألوانه .
روى الإمام أحمد في مسنده عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما رَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

[إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً الَّذِي يَنْظُرُ إِلَى جَنَانِهِ وَنَعِيمِهِ وَخَدَمِهِ وَسُرْرِهِ مِنْ
مَسِيرَةِ أَلْفِ سَنَةٍ] أي : بحكم نشأته الأبدية الجنانية [وَأَنَّ أَكْرَمَهُمْ عَلَى اللَّهِ
مَنْ يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهِ غُدُوَّةً وَعَشِيَّةً ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ { وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ *
إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ }]³.

فلقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى الجنة ويتلو
عليهم آيات الله تعالى التي فيها ذكر الجنة وألوان نعيمها ، ويشوقهم إليها
ويرغبهم بها ويحببها إليهم .

¹ في كتاب مواقيت الصلاة

² ٨٣٥٨

³ ٥٠٦٥

ولقد وصف الله تعالى الجنة في كثير من الآيات ، ويّين ألوان نعيمها ، كما بيّن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحاديثه .

وإن من جهل الإنسان وحماقته أن يحسب أن الجنة ليس فيها إلا الأكل والشرب والخور ، وإن جهل الإنسان في أمور دينه ليس عذراً مقبولاً عند الله تعالى ، أفلا يجب على الإنسان العاقل أن يفهم شيئاً عن العالم الذي سينتقل إليه ؟ وعن قضايا الآخرة ؟ وعن عالم صار إليه الآباء والأجداد ؟! ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن إثبات الأمور يكون بالدليل والبرهان أو بالعيان أو بكليهما معاً ، وإن قضايا الآخرة والجنة والنار أمور ثابتة بالبرهان والعيان أيضاً.

أما البرهان العقلي فقد أخبر القرآن الكريم عن الجنة والنار ، وأثبت ذلك بالأدلة العقلية الساطعة ، فإذا كنت تصدق مخلوقاً من البشر صادقاً ، فمن باب أولى أن تصدق وتؤمن بكلام رب البشر جلّ وعلا ، والله المثل الأعلى.

وأما العيان فقد ثبت أن أصدق خلق الله وأفضلهم سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم رأى الجنة والنار وعوالم الآخرة كلها ليلة الإسراء والمعراج ، وأطلعه الله على ذلك حتى يخبر الأمة بما رأى ، وبذلك يقوى إيمانهم بقضايا الآخرة لأنها ثبتت بالبرهان والعيان ، وليس بعد البرهان والعيان مجال لاضطراب الإنسان .

واعلم أن الجنة والنار مخلوقتان الآن ، وقد رآهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ودلّ على ذلك قوله تعالى : (أعدت للمتقين)

أي : خلقها الله يوم خلقها وأعدّها للمتقين .

وقال سبحانه في النار : (أعدت للكافرين) .

روى الإمام أبو داود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ قَالَ لِجِبْرِيلَ: اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَانْظَرَ إِلَيْهَا ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا، ثُمَّ حَفَّهَا بِالْمَكَارِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَانْظَرَ إِلَيْهَا ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ، قَالَ: فَلَمَّا خَلَقَ اللَّهُ النَّارَ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَانْظَرَ إِلَيْهَا ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلُهَا، فَحَفَّهَا بِالشَّهَوَاتِ ثُمَّ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَانْظَرَ إِلَيْهَا ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا].^١

ومن جملة الآيات التي ذكر الله تعالى فيها الجنة قوله تعالى :

(وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم).

وقوله تعالى : (جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) أي : أشجاراً وظلالاً تجري من تحتها الأنهار مقيمين فيها أبداً.

(ومساكن طيبة في جنات عدن) أي : قصوراً عالية مشرفة على الأشجار والأنهار .

وقوله تعالى : (طيبة) أي : في رائحتها ومآكلها وثمارها ، وطيبة في عيشها ورغدها وجوارها الكريم ، وطيبة في كلام أهلها .

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم :

[واياكم وعقوق الوالدين ، فإن ريح الجنة] أي : العطر الطيب

[يوجد] أي : يُشَمُّ [من مسيرة ألف عام] أي : وهذا ما يجده المؤمنون وهم في عالم الموقف [والله لا يجدها عاق ، ولا قاطع رحم]^٢.

^١ سنن أبي داود كتاب السنة
^٢ الطبراني في الأوسط

وروى البخاري في صحيحه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [يُنَادِي مُنَادٌ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشَبُّوا فَلَا تَهَرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ { وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ }^١.
فما أطيب هذا العيش!

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ جُرَدًا مُرَدًّا مُكْحَلِينَ، أَبْنَاءَ ثَلَاثِينَ أَوْ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً]^٢.

قوله تعالى: (ورضوان من الله أكبر) أي: ورضوان يُحِلُّهُ اللَّهُ ويتجلى به على أهل الجنة هو أكبر عندهم من كل نعيم الجنة.

وفي صحيح البخاري عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبُّ وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيَكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبُّ وَآيُ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا]^٣
اللهم اجعلنا منهم .

وروى ابن ماجه عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [مَنْ سَأَلَ الْجَنَّةَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ قَالَتْ الْجَنَّةُ: اللَّهُمَّ ادْخُلْهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ اسْتَجَارَ مِنَ النَّارِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ قَالَتْ النَّارُ: اللَّهُمَّ أَجِرْهُ مِنَ النَّارِ]^٤.

^١ صحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها

^٢ سنن الترمذي كتاب صفة الجنة

^٣ في كتاب التوحيد

^٤ سنن ابن ماجه كتاب الزهد

وقال صلى الله عليه وسلم : [يا معشر المسلمين ، ارغبوا فيما رغبكم الله فيه ، واحذروا مما حذركم الله منه ، وخافوا مما خوفكم الله به من عذابه وعقابه ومن جهنم] .^١

وروى الإمام البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطَّرِيقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ، قَالَ: فَيَحْفُقُونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، قَالَ: فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ: مَا يَقُولُ عِبَادِي؟ قَالَ: يَقُولُونَ: يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ، قَالَ: فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ: لَا وَاللَّهِ مَا رَأَوْكَ، قَالَ: فَيَقُولُ: وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَمَجِيدًا وَتَحْمِيدًا، وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا، قَالَ: يَقُولُ: فَمَا يَسْأَلُونِي؟ قَالَ: يَسْأَلُونَكَ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا، قَالَ: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً، قَالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟ قَالَ: يَقُولُونَ: مِنَ النَّارِ، قَالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا، قَالَ: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً، قَالَ: فَيَقُولُ: فَأَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ، قَالَ: يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ: فِيهِمْ فُلَانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ، قَالَ: هُمْ الْجُلَسَاءُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ]^٢ أي : هم جلساء الحق فلا يشقى بهم جليسهم من الخلق، اللهم اجعلنا منهم . آمين

^١ رواه البيهقي في البعث والنشور

^٢ صحيح البخاري كتاب الدعوات

دعوة الله تعالى عباده إلى الجنة

قال الله تعالى : (والله يدعو إلى دار السلام) وهي الجنة ، ولما سماها الله تعالى (دار السلام) فهم من مقابلتها بالدنيا أن الدنيا دار الامتحان والسقام.

وقد دعا الله تعالى عباده إلى دار السلام بواسطة رسوله الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

روى الدارمي عن ربيعة الجُرشي رضي الله عنه قال: [أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقِيلَ لَهُ : لَتَنَمَّ عَيْنُكَ ، وَلَتَسْمَعَ أُذُنُكَ ، وَلَيَعْقِلَ قَلْبُكَ ، قَالَ : فَتَنَامَتْ عَيْنِي ، وَسَمِعْتُ أُذُنَايَ ، وَعَقَلَ قَلْبِي.

قَالَ : فَقِيلَ لِي : سَيِّدُ بَنِي دَارًا فَصَنَعَ مَأْدُبَةً ، وَأَرْسَلَ دَاعِيًا ، فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ ، وَأَكَلَ مِنَ الْمَأْدُبَةِ ، وَرَضِيَ عَنْهُ السَّيِّدُ ، وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُلِ الدَّارَ ، وَلَمْ يَطْعَمْ مِنَ الْمَأْدُبَةِ ، وَسَخِطَ عَلَيْهِ السَّيِّدُ ، قَالَ : فَاللَّهُ السَّيِّدُ] أي : بالسيادة المطلقة وهي سيادة الألوهية والربوبية ، [وَمُحَمَّدٌ الدَّاعِي ، وَالدَّارُ الْإِسْلَامُ ، وَالْمَأْدُبَةُ الْجَنَّةُ]¹.

¹ كما في مقدمة سنن الدارمي

تحية الملائكة بالسلام على أهل الجنة

إن من جملة كرامة أهل الجنة على الله تعالى أن ملائكة الله تعالى يحيونهم بالسلام، أولاً حين يدخلون الجنة، ثم يتواردون عليهم ويزورونهم في قصورهم للسلام عليهم .

قال تعالى (وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمراً) أي : أصنافاً أصنافاً (حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها) أي : والحال قد فتحت أبوابها ، والفتاح لأبوابها هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كما سيأتي بيانه .
(وقال لهم خزنتها) أي : وقد اصطفوا على أبوابها .
(سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) .

وفي الحديث الذي رواه الدارمي^١ يقول صلى الله عليه وسلم :
(وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يُحَرَّكُ حِلَقُ الْجَنَّةِ وَلَا فَخْرَ ، فَيَفْتَحُ اللَّهُ فَيَدْخُلُنيهَا وَمَعِيَ فُقَرَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا فَخْرَ ، وَأَنَا أَكْرَمُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ عَلَى اللَّهِ وَلَا فَخْرَ) .

وفي الحديث الذي رواه الإمام مسلم يقول صلى الله عليه وسلم :
[إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ] أي : في قوة النور، أما في الجمال فهم أحسن من القمر بما لا يُقاس .

[وَأَلَّتِي تَلِيهَا عَلَى أَضْوَاءِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ اثْنَتَانِ يُرَى مَخُ سَوْقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ، وَمَا فِي الْجَنَّةِ أَغْرَبُ]^٢ .

ولا بد للقمر والكواكب من مدد نوراني ، والمدد هو الشمس المحمّدية التي تشرق أنوارها على أهل الجنة كلهم، ويستمدّون منها على حسب إيمان كل واحد منهم ومقامه .

^١ في مقدمة سننه

^٢ جمع حَلَقَة

^٣ صحيح مسلم كتاب صفة الجنة وصفة نعيمها وأهلها

تحية الله تعالى لأهل الجنة

قال سبحانه : (تحيتهم يوم يلقونه سلام) أي : سلام مستمرّ دائم من حضرة رب العزة يتوارد على أهل الجنة منذ دخولهم إلى أبد الآبدين ، كما قال تعالى : (سلام قولاً من ربّ رحيم) أي : سلام دائم مستمرّ صادرّ قولاً مباشراً من ربّ رحيم على أهل الجنة .

وفي هذه الآيات ينهض بهمة المؤمن لسماع تحية رب العالمين بالسلام عليه .

وفي الحديث الذي رواه ابن ماجه عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

[بَيْنَا أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي نَعِيمِهِمْ إِذْ سَطَعَ لَهُمْ نُورٌ فَرَفَعُوا رُءُوسَهُمْ فَإِذَا الرَّبُّ قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، قَالَ: وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ { سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ } قَالَ: فَيَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى شَيْءٍ مِنَ النَّعِيمِ مَا دَامُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ حَتَّى يَحْتَجِبَ عَنْهُمْ، وَيَبْقَى نُورُهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْهِمْ فِي دِيَارِهِمْ]^١.

^١ سنن ابن ماجه في المقدمة

ألوان النعيم في الجنة

هناك النعيم الجسماني بالمآكل والمشارب، وهناك النعيم النفسي، وهناك النعيم الروحاني بالعلم والمعرفة ، وهناك النعيم الأعظم من ذلك كله بتجليات رب العالمين على أهل الجنة ومشاهدته ومناجاته وتسليماته جل وعلا.

أما النعيم الجسماني فممنه ما جاء في قوله تعالى : (يطاف عليهم بصحاف) جمع صحفة وهي القصعة الواسعة (من ذهب وأكواب) وذلك لتنوع المآكل والمشارب (وفيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين) بالنظر إلى الثمار والخضار والنضار (وأنتم فيها خالدون) فلا موت ولا فناء ولا هم ولا حزن .

(وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون) أي : أنتم بذلتهم جهودكم لنيل هذا النعيم وحق لكم أن تنالوه ، وفي هذا يشكر الله عباده المؤمنين ويثني عليهم ، وذلك لما أحسنوا وعملوا وأطاعوا الله تعالى .
وقال تعالى : (إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً) .

وقال عز من قائل : (وكان الله شاكراً عليماً) فهو سبحانه يشكر عباده على فعل الصالحات .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:
[بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخْرَهُ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ] ^١ .

وهناك نعيم لذة العبادة لله تعالى ، وليست هي من باب التكليف بل هي على سبيل التنعم والكلف بغير تكلف .

^١ صحيح البخاري كتاب الأذان

روى مسلم عَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: [إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ، وَلَا يَتَغَلَّبُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ، قَالُوا: فَمَا بَالُ الطَّعَامِ؟ قَالَ: جُشَاءٌ وَرَشْحٌ كَرَشْحِ الْمِسْكِ، يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفْسَ]¹. وهذا الحديث يدل على عدة أمور منها أن عبادة أهل الجنة لا تنقطع كما لا ينقطع نفس الإنسان في الدنيا ، وأن حياتهم وسرّ بقائهم متوقف على العبادات كما تتوقف حياة الإنسان في الدنيا على تنفّسه .

وكما لا يجد الإنسان مشقة أو تكلفاً في تنفّسه فكذلك أهل الجنة ، بل هم يجدون النعيم في ذلك كما يجد الإنسان النعيم في تنفّسه للهواء البارد والنسيم العليل .

أما نعيم رؤية رب العالمين فقد ذكره سبحانه بالإفراد ليعين عظمته وفضله على كل نعيم ، قال تعالى : (وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة) أي : وجوه يومئذ يعلوها البهاء والنّضار -وهو النعيم والحسن -، هذه الوجوه تنظر إلى ربها جلّ وعلا .

وروى الإمام البخاري عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: [كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَنَظَرُ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةً يَعْنِي الْبَدْرَ فَقَالَ: إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا، ثُمَّ قَرَأَ { وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ }².

أي سوف ترون ربكم جلّ وعلا ظاهراً جليّاً بلا خفاء ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ، أي : حافظوا على الصلوات كلها لا سيما الفجر والعصر لكي تعدّوا أنفسكم وتتهيّؤوا لذلك المقام .

¹ صحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها

² صحيح البخاري كتاب مواقيت الصلاة

ومن جملة نعيم أهل الجنة تكليم الله تعالى لهم ومحاضراته لهم ، وأنه جل وعلا يقرأ عليهم القرآن ، وحين يسمعون القرآن الكريم من الله تعالى فكأنهم ما سمعوه في الدنيا بواسطة المخلوقين ^١.

ومن جملة نعيم أهل الجنة نعيم المعية لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم والأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، قال تعالى : (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً).

وقد حرص الصحابة رضي الله عنهم على طلبهم معية سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الآخرة لما ذاقوا ووجدوا من نعيمها ولذتها في الدنيا.

فهذا ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه قال له سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم [سَلْ ، فقال: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ] ^٢.

وهذا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يدعو بعد صلاته فيقول :

[اَللّٰهُمَّ اِنِّيْ اَسْأَلُكَ اِيْمَانًا لَا يَزْتَدُّ ، وَنَعِيْمًا لَا يَنْقُدُ ، وَمُرَافَقَةً نَّبِيِّكَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيْ اَعْلَى جَنَّةِ الْخُلْدِ] ^٣.

^١ قال الشيخ الإمام في كتابه (تلاوة القرآن المجيد) ص ٥٧ : روى الترمذي الحكيم عن بريدة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: [إنَّ أهل الجنة يدخلون على الجبار كل يوم مرتين، فيقرأ عليهم القرآن، وقد جلس كل امرئ منهم مجلسه الذي هو مجلسه، على منابر الدر والياقوت والزمرد، والذهب والفضة بالأعمال، فلا تقرأ أعينهم قط كما تقرّ بذلك، ولم يسمعوا شيئاً أعظم منه ولا أحسن منه، ثم ينصرفون إلى رحالهم وقرّة أعينهم ناعمين إلى مثله من الغد]. وهذا من أعظم النعيم وأجلّ أنواع التكريم، وتعريضهم لذة في سماعهم ما ذاقوا لها من قبل مثيلاً ولا معشاراً منها ولا فتيلاً، كما روى السجزي في الإبانة عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً:

[كأنّ الناس لم يسمعوا القرآن حين يتلوه الله تعالى عليهم في الجنة]
وقد روي أنّ الله تعالى يقرأ على جميع أهل الجنة سورة الرحمن، ليقرّوا له بالفضل والامتنان. اهـ

^٢ انظر صحيح مسلم كتاب الصلاة

^٣ انظر مسند الإمام أحمد ٤٠٣٥

مراتب أهل الجنة

روى الإمام مسلم في صحيحه^١ عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه مرفوعاً قال : [سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ: مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ] أي : هو آخر العصاة المؤمنين خروجاً من جهنم ودخولاً الجنة.

[فَيَقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ وَأَخَذُوا أَخْدَاتِهِمْ؟ فَيَقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكٍ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ، فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشْرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَدَّتْ عَيْنُكَ، فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ. قَالَ: رَبِّ فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ، غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ.

قَالَ: وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ { فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ } الْآيَةَ.

وفي رواية البخاري أن الله تعالى يقول لأدنى أهل الجنة منزلة :
[اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشْرَةَ أَمْثَالِهَا أَوْ إِنَّ لَكَ مِثْلَ عَشْرَةِ أَمْثَالِ الدُّنْيَا]^٢.

^١ في كتاب الإيمان

^٢ صحيح البخاري كتاب الرقاق

من صفات أهل الجنة

قال تعالى : (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد * هذا ما توعدون لكل أبواب حفيظ * من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب * ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود * لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد) .

قوله تعالى : (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد) أي : قرّبت الجنة من المتقين وهم في عالم الموقف حتى جعلوا ينظرون إليها ويشمّون ريحها ونسيمها .

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم :

[وإياكم وعقوق الوالدين ، فإن ريح الجنة] أي : العطر الطيب

[يوجد] أي : يُشمُّ [من مسيرة ألف عام] أي : وهذا ما يجده المؤمنون وهم في عالم الموقف [والله لا يجدها عاق ، ولا قاطع رحم ولا شيخ زان ، ولا جارٌّ إزاره خيلاء]^١ أي : تكبراً .

وقيل للمتقين لما رأوا الجنة وهبّت عليهم ريحها :

(هذا ما توعدون) أي : ما كنتم توعدون في الدنيا .

(لكل أبواب) والأواب هو الذي يرجع إلى الله تعالى في صلاته وتمسّكه بشريعة الله تعالى .

ومن جملة صلاة الأوابين الصلاة لله تعالى حين غفلة الناس ، ومن ذلك صلاة الضحى ففي الحديث الذي رواه الطبراني في الكبير والحاكم في المستدرک وابن خزيمة في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [لا يحافظ على صلاة الضحى إلا أواب] .

^١ الطبراني في الأوسط

ومن ذلك الصلاة لله تعالى ما بين المغرب والعشاء.

روى الترمذي وابن ماجه عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [مَنْ صَلَّى بَعْدَ الْمَغْرِبِ سِتَّ رَكَعَاتٍ لَمْ يَتَكَلَّمْ فِيهَا بَيِّنُهُنَّ بِسُوءٍ عُدِلْنَ لَهُ بِعِبَادَةٍ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً]^١.

وروى الطبراني في المعجم الصغير عن مُحَمَّدِ بْنِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ قَالَ: [رَأَيْتُ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ صَلَّى بَعْدَ الْمَغْرِبِ سِتَّ رَكَعَاتٍ، فَقُلْتُ: يَا أَبَتِ، مَا هَذِهِ الصَّلَاةُ؟، فَقَالَ: رَأَيْتُ حَبِيبِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ صَلَّى بَعْدَ الْمَغْرِبِ سِتَّ رَكَعَاتٍ، وَقَالَ: مَنْ صَلَّى بَعْدَ الْمَغْرِبِ سِتَّ رَكَعَاتٍ غُفِرَتْ لَهُ ذُنُوبُهُ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ].

ومن صفة الأوابين أيضاً القيام إلى الصلاة في الليل ، وذكر الله تعالى في وقت غفلة الناس عن الله تعالى .

قوله تعالى : (هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ) أي : حفظ الله تعالى في أوامره وحدوده ، وحفظ جوارحه عن محارم الله تعالى ، وأعظم الأوامر الشرعية هي الصلاة، كما قال تعالى : (والذين هم على صلواتهم يحافظون)، وقال جل وعلا : (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى)،

وهناك حفظ الإنسان فرجه عن الزنا وما هنالك من الفواحش وهذا يقتضي منه أن يحفظ جوارحه عن مقدّمات الزنا وهي سماع نغمة صوت المرأة الأجنبية أو شم ريحها أو مصافحتها أو النظر إليها، ولما حرّم الله تعالى شيئاً حرّم ما يجزّ إليه .. فافهم .

روى الترمذي عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [مَنْ وَقَاهُ اللَّهُ شَرَّ مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَشَرَّ مَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ]^٢ أي : من حفظ لسانه عن كلام الحرام كالغيبة والنميمة والسب والذم واللعن، وحفظ فرجه عن الحرام دخل الجنة.

^١ سنن الترمذي كتاب الصلاة وسنن ابن ماجه كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها

^٢ سنن الترمذي كتاب الزهد

ومن تحقّق بذلك كله دخل في قوله صلى الله عليه وسلم : [احفظ الله يحفظك]^١ أي : احفظ الله فيما أمر عملاً ، وفيما نهى تركاً ، أي أن تعمل ما أمرك الله به وتترك ما نهاك الله عنه ، ومن أذنب فليرجع إلى الله وليستغفر من ذنبه وليتب إلى الله تعالى .

قوله تعالى : (من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب)

أي : هو يخشى الله تعالى ويخافه وإن كان لا يراه بعينه ، فهم يخافون عذابه وعقابه وسلطانه جلّ وعلا ، وإن كان هو سبحانه غائباً عن أبصارهم لكنهم شاهدوه بقلوبهم ، ورأوا آياته وآثار أسمائه سبحانه في السموات وفي الأرض وفي أنفسهم وما حولهم ، وكيف ينكرونه سبحانه ولا يخشونه وهو الرحمن الذي ظهرت آثار رحمانيته فيهم؟!

فلولا رحمته سبحانه بالإنسان مثلاً لَمَّا نبض قلبه وَلَمَّا تحرّكت أحشائه وَلَمَّا تحرّك لسانه وَلَمَّا وعى قلبه ورأت عيناه وسمعت أذناه ، وهكذا فإن آثار رحمته جلّ وعلا ظاهرة في نفس الإنسان وفي الأكوان حوله ، وفي الآية السابقة أثبت سبحانه لأهل الجنة صفة الخشية منه جلّ وعلا ..

وذكر الإمام القرطبي في تفسيره أن أبا هريرة رضي الله عنه قال : [لما نزلت (أفمن هذا الحديث تعجبون) قال أهل الصفة: (إنا لله وإنا إليه راجعون) ثم بكوا حتى جرت دموعهم على خدودهم، فلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم بكاءهم بكى معهم فبكينا لبكائه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا يلج النار من بكى من خشية الله، ولا يدخل الجنة مصر على معصية الله، ولو لم تذببوا لذهب الله بكم و لَجَاءَ بقوم يذنبون فيغفر لهم ويرحمهم إنه هو الغفور الرحيم].

وروى النسائي في سننه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [لَا يَلْجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ].

^١ طرف حديث في مسند الإمام أحمد ٢٥٣٧

وفي الحديث الذي رواه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكثر أن يدعو بهذا الدعاء : [اللهم اجعلني أخشاك كأني أراك أبداً حتى ألقاك ، وأسعدني بتقواك ولا تشقني بمعصيتك] .

قوله تعالى: (من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب)

والقلب المنيب هو القلب السليم من آفات القلب كالكبر والحقد والحسد والبغض، وإذا كانت ذرة كبر في قلب المؤمن العابد الصادق الصالح تمنعه من دخول الجنة حتى يتطهر منها ، فما بالك بأمراض القلب المستحكمة فيه كالحسد والبغضاء وغيرها؟! وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :

[كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ تَنْطِفُ لِحْيَتُهُ^١ مِنْ وَضُوئِهِ، قَدْ تَعَلَّقَ نَعْلَيْهِ فِي يَدِهِ الشَّمَالِ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ ذَلِكَ فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مِثْلَ الْمَرَّةِ الْأُولَى، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ أَيْضًا فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ الْأُولَى، فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَبِعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ فَقَالَ: إِنِّي لَأَحْيْتُ^٢ أَبِي فَأَقْسَمْتُ أَنْ لَا أَدْخُلَ عَلَيْهِ ثَلَاثًا، فَإِنْ رَأَيْتُ أَنْ تُؤْوِيَنِي إِلَيْكَ حَتَّى تَمْضِيَ فَعَلْتُ، قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ أَنَسٌ: وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يُحَدِّثُ أَنَّهُ بَاتَ مَعَهُ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثَ فَلَمْ يَرَهُ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا تَعَارَّ وَتَقَلَّبَ عَلَى فِرَاشِهِ ذَكَرَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَكَبَّرَ حَتَّى يَقُومَ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ .

١ أي: تقطر ماء

٢ أي: خاصمت

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: غَيْرَ أَبِي لَمْ أَسْمَعْهُ يَقُولُ إِلَّا خَيْرًا، فَلَمَّا مَضَتْ الثَّلَاثُ لَيَالٍ وَكَدْتُ أَنْ أَحْتَقِرَ عَمَلَهُ قُلْتُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ إِنِّي لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي غَضَبٌ وَلَا هَجْرٌ ثُمَّ، وَلَكِنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَكَ ثَلَاثَ مَرَارٍ: يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَطَلَعَتْ أَنْتَ الثَّلَاثَ مَرَارٍ، فَأَرَدْتُ أَنْ آوِيَ إِلَيْكَ لِأَنْظُرَ مَا عَمَلَكَ فَأَقْتَدِي بِهِ فَلَمْ أَرَكَ تَعْمَلُ كَثِيرَ عَمَلٍ فَمَا الَّذِي بَلَغَ بِكَ مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

فَقَالَ: مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ، قَالَ: فَلَمَّا وَلَّيْتُ دَعَانِي فَقَالَ: مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ غَيْرَ أَبِي لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ غِشًّا، وَلَا أَحْسُدُ أَحَدًا عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ.

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: هَذِهِ الَّتِي بَلَغْتَ بِكَ وَهِيَ الَّتِي لَا نُطِيقُ^١.

قوله تعالى : (ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود) أي : أن كل الأيام قبله كانت إلى فناء وانقضاء ، أما ذلك اليوم فهو يوم الخلود ، فلا موت ولا زوال ولا فناء بعده ، كما تقدم في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده عن أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

[إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ يُجَاءُ بِالْمَوْتِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قَالَ: فَيَشْرِبُونَ فَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ، قَالَ: فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قَالَ: فَيَشْرِبُونَ فَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ قَالَ: فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُذْبَحُ، قَالَ: وَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ لَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ لَا مَوْتَ، قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ }^٢.

^١ المسند ١٢٢٣٦

^٢ ١٠٦٤٤

ومن صفات أهل الجنة ما جاء في قوله تعالى : (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين * الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين * والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون * أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين) ، اللهم اجعلنا منهم . آمين
قوله تعالى : (الذين ينفقون في السراء والضراء) أي : في حالي الرخاء والشدة ، وفي حالي الصحة والمرض .

وليس لأحد منّة على ربه في الإنفاق ، بل المنّة كلها لله على عباده قال تعالى : (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين)
وروى الإمام الترمذي عن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : [ثَلَاثَةٌ أَقْسِمُ عَلَيْهِنَّ وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ] مع أن كلامه صلى الله عليه وسلم وحديثه كله صدق ، لكنه صلى الله عليه وسلم يقسم على ذلك لبيان خطر وأهمية هذا الأمر ، وحتى تقوى ثقة العبد وإيمانه بخبره صلى الله عليه وسلم .
[قَالَ: مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ] أي : إن صدرت من متصدق مخلص لله في صدقته .

[وَلَا ظُلْمَ عَبْدٍ مَظْلَمَةٍ فَصَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عِزًّا، وَلَا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا، وَأَحَدْتُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ، قَالَ: إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةٍ نَفَرٍ عَبْدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يَزُرْهُ مَالًا فَهُوَ صَادِقُ النَّيَّةِ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ، فَهُوَ بِنَيْتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، وَعَبْدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَلَمْ يَزُرْهُ عِلْمًا فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٌ لَمْ يَزُرْهُ اللَّهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ، فَهُوَ بِنَيْتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ^١.]

قوله تعالى : (والكاظمين الغيظ) أي : إن ثارت ثائرة أحدهم بالغضب فهو لا يُنفذ غضبه ، بل يكبح جماح نفسه الثائرة ، ولا يخرج الغضب عن حدّ الشريعة في أقواله وأفعاله ، فلا يسب ولا يشتم ولا يضرب . وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : [من كفّ غضبه كفّ الله عنه عذابه]^٢.

وروى أبو داود عن معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ دَعَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ اللَّهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ مَا شَاءَ]^٣، وفي رواية له : [مَلَأَهُ اللَّهُ أَمْنًا وَإِيمَانًا].

قوله تعالى : (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس) فهو يكظم غيظه ، ولا ينفذ غضبه، ويعفو عمن أغضبه .

^١ سنن الترمذي كتاب الزهد

^٢ عزاه في كنز العمال لابن أبي الدنيا في ذم الغضب وابن شاهين والخرائطي في مساوئ الاخلاق

^٣ سنن أبي داود كتاب الأدب

روى البيهقي في الشعب عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [ينادي مناد : من كان أجره على الله فليدخل الجنة ، مرتين ، فيقوم من عفا عن أخيه ، قال الله تعالى : (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) .

قوله تعالى : (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) أي : لا يُنفذ أحدهم غضبه على من أساء إليه وأغضبه بل يعفو عنه ويحسن إليه أيضاً .

ويُذكر في هذا المقام ما رواه البيهقي في الشعب عن سيدنا علي بن سيدنا الحسن رضي الله عنهما أنَّ جاريةً لَهُ جعلت تسكب - أي : تصب - عليه الماء - أي : ماء الوضوء - يَتَهَيَّأ للصلاة ، فسقط الإبريق مِنْ يدها على وجهه فشجّه فرفع رأسه إليها فقالت : إن الله تعالى يقول : { والكاظمين الغيظ } ، فقال : قد كظمت غيظي . فقالت : { والعافين عن الناس } ، فقال : قد عفا الله عنك . فقالت : { والله يحب المحسنين } ، فقال : اذهبي فأنت حُرّة لوجه الله تعالى .

وقوله تعالى : (والله يحب المحسنين) كلمة جامعة تنطوي فيها معانٍ كبيرة ، والمحسن هو الذي يحسن عمله مع الله تعالى ومع عباد الله تعالى ، أما إحسان العمل مع الله تعالى فهو الإحسان في عبادة الله تعالى وذلك بالتحقق بقوله صلى الله عليه وسلم عن الإحسان : [أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ]^١ .

أي : أن تعبد الله وأنت تشهده سبحانه بقلبك ، وهذا هو مقام المشاهدة ، فإن لم تكن من أهل هذا المقام فراقب أنه جلّ وعلا يراك ، ولا يخفى عليه منك شيء ، وهو مقام المراقبة ، فكن في عبادتك لله تعالى ما بين مشاهد ومراقب تكن محسناً في عبادتك لله تعالى ، وإلا فأنت غافل عن الله تعالى .

^١ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الإيمان

وأما الإحسان مع خلق الله تعالى فقد قال سبحانه : (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم) أي : أحسنوا إلى هؤلاء كلهم ، والناس ما بين هذا وهذا، يعني أن الله تعالى أمر بالإحسان مع خلق الله كلهم، فافهم.

روى الإمام مسلم في صحيحه عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رضي الله عنه قَالَ: [ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ] أي : أمر بالإحسان في جميع الأمور والحركات والأقوال والأعمال والأخلاق والمعاملات مع سائر خلق الله تعالى، حتى مع الحيوانات والبهائم والحشرات ..

[فَإِذَا قَتَلْتُمْ] أي : قتلتم حيواناً شرع الله قتله [فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ]،

[وَإِذَا ذَبَحْتُمْ] أي : إذا ذبحتم ما أحلَّ الله لكم ذبحه من الحيوانات

[فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِخْ ذَبِيحَتَهُ]^١.

وروى الإمام الترمذي عَنْ جَابِرِ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرَاوُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيِّهُونَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَلِمْنَا الثَّرَاوُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ، فَمَا الْمُتَفَيِّهُونَ؟ قَالَ: الْمُتَكَبِّرُونَ]^٢.

أما الثرثار فهو كثير اللغو، واللغو الكلام الذي لا فائدة منه، والمتشدد هو الذي يتكلف النطق بالكلام على سبيل التكبر والترفع على الناس . قال تعالى : (والذين إذا فعلوا فاحشة) أي ارتكب أحدهم كبيرة. (أو ظلموا أنفسهم) بفعل صغيرة .

(ذكروا الله) أي : تذكروا عظمة الله وتذكروا موقفهم بين يدي الله وتذكروا عذاب الله فحملهم هذا على الاستغفار والتوبة، قال جل وعلا : (فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله) .

^١ في كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان

^٢ سنن الترمذي كتاب البر والصلة

أي: لا أحد يمحو أثر الذنب في القلب إلا الله تعالى ، ولا أحد يمحو أثر الذنب من صحيفة المؤمن إلا الله تعالى ، ولا أحد يُنسي الأَشهاد ذنب المذنب إذا تاب إلا الله تعالى، فافهم .

قال تعالى : (ولم يصروا على ما فعلوا) بل رجعوا واستغفروا وتابوا.

روى الإمام أحمد عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ:

[اَرْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاغْفِرُوا يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ، وَئِلَّ لِأَقْمَاعِ الْقَوْلِ، وَئِلَّ لِلْمُصْرِينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ] ^١ أي : فلا يكن أحدكم كالقمع يمر عليه السمن والعسل والزيت ولا يستفيد منه شيئاً، بل ليكن إناء صافياً يعي كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم فيستقر ذلك في قلبه وينتفع به .

^١ مسند الإمام أحمد ٦٢٥٥

إنذاره صلى الله عليه وسلم من النار

قال تعالى (وأنذر الناس يوم يأتِيهم العذاب) .

فمن ذلك الحديث الذي رواه الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [أُوقِدَ عَلَى النَّارِ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى احْمَرَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ فَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ]^١، وتلك نار الله الموقدة التي أوقدها الله عز وجل .

وروى البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [نَارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ].. الحديث^٢

^١ سنن الترمذي كتاب صفة جهنم

^٢ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب بدء الخلق

الخوف من يوم الحساب

قال جل وعلا مخبراً عن الخليل سيدنا إبراهيم عليه السلام قوله:

(ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) .

وقال عز من قائل في بيان صفة العقلاء أولي الألباب - وهم أهل الإيمان الكامل - :

(والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب) .

وقال عز وجل : (إن إلينا إيابهم * ثم إن علينا حسابهم) أي : إن إلى الله تعالى رجوع الخلائق كلهم ، وأوجب على نفسه سبحانه أن يحاسبهم ، فكيف لا يخاف الإنسان المؤمن من الحساب أو كيف يستهين به في حين ذكر سبحانه عن سيدنا إبراهيم عليه السلام خوفه من يوم الحساب ، وذكر سبحانه وتعالى عن أهل الإيمان الكامل خوفهم من سوء الحساب؟!

وإن الله تعالى يحاسب عبده المؤمن على الأعمال التكليفية التعبدية ، ويحاسبه على الأعمال القلبية ، ويحاسبه على واجباته تجاه خلق الله تعالى ، أما الحساب على الأعمال التكليفية التعبدية فإن أهم الفرائض العملية الصلاة .

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: [إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ] أي : من أعماله التكليفية [صَلَاتُهُ ، فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ ، فَإِنْ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ ؟] أي : نوافل [فَيُكَمَّلُ بِهَا مَا انْتَقَصَ مِنَ الْفَرِيضَةِ ، ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَى ذَلِكَ]^١ أي : عندما يحاسب على الزكاة والصيام والحج وهكذا ..

^١ سنن الترمذي كتاب الصلاة

وروى الطبراني في الأوسط عن سيدنا علي كرم الله وجهه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : [إن الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم بقدر الذي يسع فقراءهم ، ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا وعروا إلا بما يصنع أغنيائهم ، ألا وإن الله عز وجل يحاسبهم يوم القيامة حساباً شديداً] أي يحاسب أغنياء المسلمين الذين تركوا واجبهم نحو فقراء المسلمين [ثم يعذبهم عذاباً أليماً].

وليس مال الزكاة حقاً للغني كي يبخل به ويمسكه لنفسه، بل هو حق للفقير وسيطال به يوم الحساب.

وأما الحساب على الأمور القلبية فقد قال تعالى :

(وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير) أي : هو سبحانه قدير وقادر على أن يخرج الأمور القلبية المعنوية ويبرزها للوجود الخارجي حتى يحاسب صاحبها عليها .

فقوله تعالى : (وإن تبدوا ما في أنفسكم) أي : ما في قلوبكم وضمائركم، وهناك فرق كبير بين الأعمال القلبية والخواطر النفسانية ، أما الأعمال القلبية كالحب والبغض والحقد والحسد والتحقير ونحو ذلك فإن الله تعالى يحاسب عبده على ذلك كله، لم أَحَبَّ فلاناً ؟ هل أحبه لسبب شرعي أم لماله ؟

فمن أحب غيره لإيمانه وصلاحه وتقواه وعلمه فهو مأجور على ذلك، ومن أحب غيره لفسوقه وضلاله فهو محاسب على ذلك ..

وقل لمن يحب الغني لماله : أنت في الحقيقة تحب للمال لذاته إذ لو أن فلاناً فقد ماله لزهدت فيه ومِلْتَ لغيره من أصحاب المال !

وكذلك يحاسب الله العبد على صفة البغض في قلبه إن أبغض فلاناً، هل أبغضه لسبب شرعي كأنْ خالف أمر الله تعالى مثلاً ؟ أم أبغضه لأمر نفسياني ؟ ويجري حكم ذلك على باقي أعمال القلوب وإن لم يظهرها الإنسان على لسانه .

وأما الخواطر النفسية والوساوس التي يلقي بها الشيطان ويتألم الإنسان منها ويتأثر بها ويطردها عن قلبه فلا مسؤولية عليه عندئذ طالما أنه يدفع هذه الوسواس وينزعج منها، بل له أجر على ذلك .

والخاطر هو الذي يمر على القلب سريعاً فيرده الإنسان ولا يفتح له باب قلبه، أما إذا دخل خاطر القلب واستقرّ فيه فقد صار من أعمال القلوب التي يحاسب الإنسان عليها .

روى أبو داود في سننه عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: [جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَحَدَنَا يَجِدُ فِي نَفْسِهِ] أي : في قلبه [يُعَرِّضُ بِالشَّيْءِ لِأَن يَكُونَ حُمَمَةً أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ] أي : كيد الشيطان [إِلَى الْوَسْوَسةِ] ^١.

وفي رواية : [ذَاكَ مَحْضُ الْإِيمَانِ] ^٢ أي : دليل عمارة القلب بالإيمان باعتبار أنه ردها وانزعج منها .

وروى البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي مَا وَسَّوَسَتْ بِهِ صُدُورُهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَكَلَّمْ] ^٣.

وفي رواية : [إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ أَنْفُسُهَا مَا لَمْ يَعْمَلُوا أَوْ يَتَكَلَّمُوا] ^٤.

وأما محاسبة الله تعالى عباده على الحقوق فيما بينهم فإن الحقوق كثيرة منها المالية ومنها الأدبية كحق الجار والرحم والوالدين والزوجة والمآر في الطريق.

^١ سنن أبي داود كتاب الأدب

^٢ مسند الإمام أحمد ٩٤٩٨

^٣ صحيح البخاري كتاب العتق

^٤ كما في كتاب الإيمان لابن منده

ففي الحديث الذي رواه الترمذي عن أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق السيدة عائشة رضي الله عنهما أَنَّ رَجُلًا قَعَدَ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي مَمْلُوكَيْنِ أَي : من أسرى الحروب وقتئذ [يُكَذِّبُونِي وَيَخُونُونِي وَيَعْصُونَنِي، وَأَشْتُمُهُمْ وَأَضْرِبُهُمْ، فَكَيْفَ أَنَا مِنْهُمْ؟] أَي : في الآخرة [قَالَ: يُحْسَبُ مَا خَانُوكَ وَعَصَوْكَ وَكَذَّبُوكَ وَعِقَابُكَ إِيَّاهُمْ، فَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ كَانَ كَفَافًا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ كَانَ فَضْلًا لَكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ أَقْتَصَّ لَهُمْ مِنْكَ الْفَضْلُ، قَالَتْ: فَتَنْحَى الرَّجُلُ فَجَعَلَ يَبْكِي وَيَهْتِفُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمَا تَقْرَأُ كِتَابَ اللَّهِ { وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ } فَقَالَ الرَّجُلُ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَجِدُ لِي وَلِهَؤُلَاءِ شَيْئًا خَيْرًا مِنْ مُفَارَقَتِهِمْ، أَشْهَدُكُمْ أَنَّهُمْ أَخْرَارٌ كُلُّهُمْ] ١.

واعلم أيها العاقل أن الحقوق الأدبية تؤثر على الإنسان أشد من تأثير الحقوق المالية ، فربما يأكل فلان شيئاً من مال فلان فيسامحه، ولكن لو تكلم فيه أو اغتابه على الملاء كان وقع ذلك في نفسه أشد وأعظم .

وقال سبحانه في بيان حق الزوجة على زوجها وبيان حقه عليها :

(ولهن مثل الذي عليهن) وفي هذه الكلمات الجامعة إيجاز وإعجاز ، فقد بين سبحانه أن لهن من الحقوق والواجبات على أزواجهن مثل الذي عليهن لأزواجهن، فهناك حق المعاشرة الحسنة والسمت الحسن، وللمرأة على زوجها حق النفقة الذي يتضمن المسكن والملبس والمطعم .

ولما صار في الأمر زوجية وتعدد أي : صار اثنين فلا بد من ولاية حتى لا يجري خلاف ، فجعل الله تعالى الولاية للرجل فقال جل وعلا:

(وللرجال عليهن درجة) وذلك لأنه هو المسؤول عن الإنفاق.

١ وحبة الخردل أصغر من حبة الحنطة والعدس

٢ سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن

وإن ولاية الرجل على زوجته ينبغي أن تكون ضمن حدود الشريعة ، وليس من حقه أن يأخذ حليّتها التي تتزيّن بها لبيعه بحجة التجارة والعمل إلا إذا رضيت ، والأولى أن يسلك طريقاً آخر في التجارة والعمل ، إذ ليست المرأة متاعاً بين يدي الرجل يتصرف به كيف يشاء !!

أقسام الناس في الحساب يوم القيامة

لقد بيّن صلى الله عليه وسلم هذا الأمر في أحاديثه الشريفة ، فذكر أن هناك قسماً حاسبوا أنفسهم في الدنيا وهم أهل التوكل الخاص على الله تعالى فيدخلون الجنة بغير حساب ، وهناك قسم يحاسبون حساباً يسيراً ، وهناك قسم يحاسبون حساباً شديداً وهم الكفار والعصاة المتمردون ، الظالمون عباد الله تعالى.

أما الذين يدخلون الجنة بغير حساب فهم على أنواع، أولها أهل التوكل الخاص.

روى الإمام مسلم عن عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي] أي : إكراماً لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم [سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ].

وفي رواية له : [مُتَمَاسِكُونَ آخِذٌ بَعْضُهُمْ بَعْضًا لَا يَدْخُلُ أُولُهُمْ حَتَّى يَدْخُلَ آخِرُهُمْ ، وَجُوهُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ] أي : يدخلون الجنة جملة واحدة يمسك بعضهم بيد الآخر ، مما يدل على سعة أبواب الجنة. [قَالُوا: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ: هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَنْتَظِرُونَ وَلَا يَكْتُمُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ]^١.

وفي رواية لابن ماجه : [وَعَدَنِي رَبِّي سُبْحَانَهُ أَنْ يَدْخَلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ ، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا وَثَلَاثُ حَتَيَاتٍ مِنْ حَتَيَاتِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ]^٢.

أما أهل الحساب اليسير فقد قال تعالى فيهم : (فأما من أوتي كتابه بيمينه*فسوف يحاسب حساباً يسيراً) وذلك بأن يعرض الله تعالى على العبد أعماله ويقرره بها، وهي ذنوب بينه وبين الله تعالى لأن حقوق العباد لا بد من أدائها إما في الدنيا أو في الآخرة إن لم يعفوا عنه .

وليس الأمر كما يتوهم بعض الناس بأن الحج يغفر الله به جميع ذنوبهم !

^١ صحيح مسلم كتاب الإيمان

^٢ سنن ابن ماجه كتاب الزهد

نعم بالحج يغفر الله ذنوب الحاج إذا كان حجّه خالصاً لله تعالى فيُغفر
بالحج الذنوب التي بين العبد وربّه ، أما حقوق العباد فلا بد من أدائها .

وبعد أن يقرّر الله العبد بذنوبه يقول له : [سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا
أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ]¹ .. الحديث كما تقدّم .

وروى الطبراني في الكبير عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ حَاسَبُهُ اللَّهُ حِسَابًا يَسِيرًا، وَأَدْخَلَهُ
الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِهِ، قَالُوا: مَا هُنَّ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي؟ قَالَ: تُعْطَى مَنْ
حَرَمَكَ، وَتَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ، وَتَغْفُو عَنْ مَنْ ظَلَمَكَ].

وذلك لأنه سبحانه يقول : (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان)

أي : هل جزاء الإحسان إلى خلق الله تعالى إلا الإحسان من رب العباد،
فمن أحسن إلى عباد الله أحسن الله إليه لأنه جلّ وعلا أَعْيَزُّ على عباده
جل وعلا من المحسن وأكرم منه.

وأما الحساب الشديد فقد جاء في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم :
[مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ هَلَكَ]².

ونسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن يشفع بهم سيدنا رسول الله صلى الله
عليه وسلم ويدخلون الجنة بغير حساب . آمين

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين.

¹ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب المظالم والغصب

² طرف حديث في مسند الإمام أحمد ٢٤٣٤٠

وجاء في تحفة الأحوذى: قَالَ صَاحِبُ الْفَائِقِ : يُقَالُ: نَاقَشَهُ الْحِسَابَ، إِذَا عَاسَرَهُ
فِيهِ وَاسْتَفْصَى فَلَمْ يَثْرُكْ قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا. اهـ ٢١٧/٦

المُحتوى

١	بيان معنى كلمة (لا إله إلا الله)
٤	بيان بعض آثار الوضوء والصلاة وأنوارهما
١٠	الصلاة تكفر الذنوب
١٢	من أسرار التكبير في الصلاة
١٣	فاتحة الفاتحة
١٥	معنى الإسلام
١٧	من معاني الصلاة وأسرارها
٢٢	العبادة تهيب العابد وتشرفه وتقربه من حضرة رب العالمين
٢٥	سرّ العبادة
٢٩	الخشية من الله تعالى صفة العقلاء
	عالم العرش هو موضع صدور إعلانات
٣٢	وبلاغات وبيانات ربّ العالمين
٣٣	عالم العرش هو موضع إشراق أنوار العبادات
٣٤	عالم السدرة
٣٦	حول بعض معاني كلمة : (لا إله إلا الله)
٣٩	اسما الله تعالى : (الحيّ القيّوم)
	شفاعته صلى الله عليه وسلم بمن يصلي عليه
٤٩	ويزور قبره الشريف
٥١	حول تفسير آية الكرسي
٦٦	حول معاني سورة : (قل هو الله أحد)
٧٣	النهي عن البحث في حقيقة الذات الإلهية العلية

٧٧		حول معاني اسمي الله تعالى (الرحمن الرحيم)
٨٣		من فضائل سورة الرحمن
٨٧		دعاء حملة العرش ومن حوله للمؤمنين
٩٤		فضائل التسبيح والتحميد
٩٥		الخوف من النار والطمع في الجنة
٩٧		وحدانية الله تعالى في خلقه الأشياء
٩٩		خلق الله جل جلاله الإنسان
١١٣		دورة الامتحان التكيفي للإنسان
		مقتضيات شهادة الإنسان بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم:
١١٨		أولاً: وجوب اتباع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم
		ثانياً: وجوب التعرف إلى شيء من مقاماته صلى الله عليه وسلم
١٢٩		التي خصّه الله بها
١٣٩		البحث حول الكلمتين الشريفتين [محمد] و [محمود]
١٤٧		لواء الحمد
		ثالثاً: إن الشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله
١٤٩		هي أصل أصول الإيمان وعنها تتفرع جميع شعب الإيمان
١٥٨		رابعاً: معنى كلمة [رسول الله] صلى الله عليه وسلم
		خامساً: إن الشهادة بأن محمداً رسول الله تتطلب من الشاهد اتباع
١٦٨		رسول الله صلى الله عليه وسلم ومحبته فوق محبة كل مخلوق
		سادساً: وإن مما يجب على المؤمن أن يعتقد أن الله تعالى اصطفى
		من خلقه بشراً وأعدّه وأمدّه وفضّله على سائر خلقه ونبأه
١٧٤		وأرسله رسولاً إلى العالم كلهم ورسولاً إلى كل إنسان

- سابعاً: ومن مقتضيات الشهادة أن يعلم الشاهد فضل سيدنا رسول الله
وكرامته على الله تعالى ١٨٤
- ثامناً: لقد كان من مواقف صلى الله عليه وسلم مع العالم
أنه جاء مزكياً لهم..... ١٩٣
- تاسعاً: ومن مواقف صلى الله عليه وسلم مع العالم
أنه جاء يزي النّفوس والقلوب والعقول..... ٢٠٠
- أثر التزكية على النفس ٢٠٨
- اعتبار الأشياء بحقائقها لا بصورها ٢١٥
- البواعث التي تحمل الإنسان على العمل بشريعة الله
وتزكية رسول الله صلى الله عليه وسلم ٢٢٣
- الإنسان الكامل الرباني هو الإنسان الذي يتمسك بشريعة الله تعالى ٢٤٢
- شرف الإنسان وكرامته على الله تعالى ٢٤٦
- مشروعية التوسل والاستغاثة بسيدنا رسول الله
صلى الله عليه وسلم..... ٢٥٥
- وجوه من الحكم في تلاوته صلى الله عليه وسلم آيات الله تعالى ٢٥٧
- فائدة: معنى (منه) في قوله سبحانه في بيان حقيقة عيسى
عليه السلام: (إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله
وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) ٢٥٩
- فائدة: حول قوله تعالى: (فسجد الملائكة كلهم أجمعون) ٢٦٠
- بشارة سيدنا عيسى عليه السلام بسيدنا محمد
صلى الله عليه وسلم ٢٦١
- وجوب تعظيمه وتوقيره صلى الله عليه وسلم..... ٢٦٤

شرف الإنسان وعلو رتبته بحمل الأمانة الإلهية الكبرى

- و بيان ذلك من عدة وجوه..... ٢٦٦
- مراتب النفس الإنسانية..... ٢٧٣
- الشريعة الإلهية هي ميزان تعيير و تنظيم القوى الإنسانية..... ٢٨٥
- تطهير الإنسان من صفة الغضب المذموم..... ٢٨٨
- حكمة التكليف الشرعية..... ٢٩١
- تطهير الإنسان من آفة البخل وتحليته بصفة الكرم..... ٢٩٣
- تطهير الإنسان من صفة احتقار الغير ، وتحليته بصفة التواضع..... ٢٩٩
- الأمل في الدنيا والحرص على المال هو من آفات النفس المهلكة..... ٣٠١
- تشريف النبي صلى الله عليه وسلم لأئمة بعقد أخوته معهم..... ٣٠٢
- التزكية المحمدية تُعدّ الإنسان لمقام الشهادة على جميع الأمم
- يوم القيامة..... ٣٠٤
- الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات..... ٣٠٧
- الكتاب والسنة متلازمان لا ينفكان ٣٠٩
- المحافظة على الميراث القرآني..... ٣١٠
- تلاوة القرآن الكريم طريق الوصول والقرب من رب العالمين..... ٣١١
- انتفاع والدَي القارئ بقراءة ابنهما ٣١٢
- برّ الوالدين قرينة عظيمة إلى الله تعالى ٣١٣
- مراتب المؤمنين من أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم..... ٣١٤
- أنواع الصدقات..... ٣١٩
- فضل التقرب إلى الله تعالى بالعبادات..... ٣٢٠
- يوم الجمعة موسم للعبادة والقرب من الله تعالى..... ٣٢٤

الخيرات المقرّبة إلى الله تعالى	٣٢٧
صفات السابقين بالخيرات.....	٣٣١
حول بعض مواقفه صلى الله عليه وسلم مع العالم.....	٣٣٦
موقفه صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى :	
(إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً)	٣٤٣
مراتب الإنذار	٣٥١
الخوف والرجاء	٣٥٤
الخوف من سوء الحساب	٣٦٢
رجاء رحمة الله تعالى	٣٦٣
تلازم الخوف والرجاء عند المؤمن	٣٦٧
الخوف من الذنوب والمعاصي	٣٦٨
موقف الإنسان من البشائر والنذر	٣٧٣
دعوة الله تعالى عباده إلى الجنة.....	٣٧٩
تحية الملائكة بالسلام على أهل الجنة	٣٨٠
تحية الله تعالى لأهل الجنة.....	٣٨١
ألوان النعيم في الجنة.....	٣٨٢
مراتب أهل الجنة.....	٣٨٥
من صفات أهل الجنة.....	٣٨٧
إنذاره صلى الله عليه وسلم من النار	٣٩٦
الخوف من يوم الحساب.....	٣٩٧
أقسام الناس في الحساب يوم القيامة.....	٤٠٢

والحمد لله رب العالمين
وصلى الله على سيدنا محمد
كلما ذكره الذاكرون
وكلما غفل عن ذكره الغافلون
صلاة وسلاماً دائماً
إلى أن يقوم الناس لرب العالمين .